

لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين ، فمن نكون ؟

دراسة في الهويَّة المصريَّة وعلاقتها بالغزاة والفاتحين

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة
٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة
٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩ - ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤
البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

محمد يونس هاشم

لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين

فمن نكون ؟

دراسة في الهويَّة المصريَّة وعلاقتها بالغزاة والفاتحين



هاشم ، محمد يونس .
لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين ، فمن نكون؟
دراسة في الهوية المصرية وعلاقتها بالغزاة والفاتحين / محمد يونس هاشم
الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١٣
ص ٣١٧ ، ٢٤×١٧ سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢١٧٤
١- القومية العربية – مصر – مقالات ومحاضرات
أ- العنوان
٣٢٠و٤٠٤٥
رقم الإيداع / ٢٣٢٧٥ التاريخ ١٢/١٢ / ٢٠١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هُوِيَّة أي شعب هي مجموع السمات والخصائص المشتركة التي تشكِّل جوهر وجوده وشخصيته وتميِّزه عن غيره من الشعوب ، وتتمثل في وحدة : الجنس ، والوطن ، واللغة ، والثقافة ، والتاريخ ، والدين ، والعادات والتقاليد .

وينبغي أن تكون التيارات السياسيَّة والدينيَّة والنُّخب التي تشكِّل وعي أبناء الوطن مُدْرِكَةً السَّمات الحقيقيَّة لهُوِيَّة أوطانهم وتعمل على ترسيخ الأصيل الإيجابي منها وتقويم السلبي ومقاومة الدخيل الفاسد الطارئ عليها .

وتُحَدَّد قوة الشعب وتماسكه أو ضعفه وانقسامه بحسب اتِّفاقه أو اختلافه حول هُويَّته؛ فبقدر اتِّفاق الشعب على سمات هُوِيَّته وتمسُّكه بها بقدر ما تكون وحدته وقوته ، وبقدر اختلافه حولها وصراعه عليها بقدر ما يكون انقسامه وضعفه .

ورغم أن الشعب المصري صاحب أوَّل وأعظم حضارة عرفتها البشريَّة ، ويكاد يكون الجنس البشريَّ الوحيد ، من أصحاب الحضارات الكبرى ، الذي حافظ على أكبر نسبة من نقاء جنسه ، وبقاء واستمرار سماته ، كما سنبيِّن ، إلا أن التيارات السياسيَّة والدينيَّة والنُّخب الثقافيَّة اختلفت اختلافاً بيِّناً حول تحديد هُويَّته !!

ولقد طال اختلاف هذه التيارات واشتدَّ صراعها ، ولم يفلح قرن كامل من الزمان ، أو يزيد ، في أن يوحِّد بينها في تحديد الهويَّة المصريَّة ، التي يجب التمسُّك بها والحفاظ عليها ، ولا في أن يجعل هذه التيارات تجتمع على الأهداف

التي تطمح إليها ، ولا على النهج الذي تتوسّل به إليها ، ولا حتـى فـي أن يوحّـد نظرتها إلى التاريخ المصري المجيد !!

لقد تنازعت مصر في مطلع نهضتها الحديثة أربعة اتجاهات قوميَّة لم تـستطع لأسف أن تتعايش فيما بينها بل كان كل واحد منها يرفض الآخر ويناصبه العداء .

وهذه الاتجاهات هي :

١- الاتجاه الإسلامي الذي كان ينادي بالارتباط بجامعة الـشعوب الإسـلاميَّة ، ويجعل العقيدة الدينيَّة محور التوجيه السياسيِّ ، والثقافيِّ .

٢- الاتجاه القبطي/ الفرعوني الذي يـرى أن مـصر تختلـف بحكـم أصـلها وظروفها عمَّا يجاورها من الشعوب العربيَّة والإسلاميَّة وبالتالي يحصر نشاطها في مجالها الإقليميِّ الذي قد يمتدُّ ليعني وحدة وادي النيل .

٣- والاتجاه العربي الذي يركِّز على أن مصر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي بحكم الأصل واللغة والمصالح والمشاعر والتاريخ وينبغي بالتالي أن تكون القوميَّـة العربيَّة محوراً للفكر والسياسة . (١)

٤- الاتجاه الأورمتوسطي الذي يرى أن مصر جزء من شعوب البحر المتوسط، وأن عقليَّتها وشخصيَّتها أقرب إلى أوروبا منها إلى غيرها من الشعوب الـشرقيَّة ، وينبغي بالتالي اتباع سَنَن أوروبا شبراً بشبر حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكناه .

وكان لهذه الاتجاهات الأربعة تأثير واضح في النظرة إلـى التـاريخ المـصري فالذين ينادون بالاتجاه الإسلاميِّ يركِّزون على تاريخ مـصر الإسـلاميَّة وثقافتهـا ويغفلون التاريخ المصريَّ القديم باعتباره تاريخاً وثنيَّاً يـستنكر الـدين ، وتاريخـاً استبداديَّاً يستنكر الشورى والعدل ويعمِّمون شخصية فرعون ملـك مـصر زمـن

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ٨ .

موسى عليه السلام على كل حكام مصر قبل أن يـدخلها المـسلمون ، كمـا أنهـم يرفضون القوميَّة العربيَّة باعتبارها نزعة شعوبيَّة علمانيَّة تستنكِر عالميَّـة الإسـلام ووحدة الأمَّة الإسلاميَّة وإن تباعدت أقطارها وتفرَّق أتباعها فـي مـشارق الأرض ومغاربها .

والذين يتمسَّكون بالاتجاه القبطي/ الفرعوني يركِّزون على تاريخ مـصر القـديم وخصائص مصر الإقليميَّة التي تميزها عن سائر الأمم والشعوب تلك الخـصائص التي مكَّنتها من بناء أوَّل حضارة عرفها التاريخ ، والتي صـمدت أمـام غـارات المستعمرين بداية من الهكسوس حتى الرومان ، وهم يعتبرون أن الفـتح العربـي احتلال استيطاني جاهد من أجل استبدال الشخصيَّة العربيَّة الإسـلاميَّة بالشخـصيَّة المصريَّة المسيحيَّة ، وأن العرب قد نجحوا في تغيير هُويَّة مصر من فرعونيَّة إلـى إسلاميَّة ، وأنَّ أقباط مصر وحدهم الذين ظلُّوا محافظين على الشخصيَّة المـصريَّة الحقيقيَّة التي حاول العرب المسلمون محوها .

والذين يتحمَّسون لاتجاه القوميَّة العربيَّة يتجاوزون عن تـاريخ مـصر القـديم وخصائص مصر الذاتيَّة بدعوى أنهما يذكِّيان النزعة الإقليميَّة الانفصاليَّة ويقلِّلـون في نفس الوقت من أهمية العامل الديني باعتباره أنه لا يـصلح أساسـاً للقوميَّـة ، ويفتِّشون في التَّاريخ عمَّا يؤكِّد الفكر القوميَّ لذلك لم يكن غريباً أن يركِّـزوا علـى تجربة صلاح الدّين الأيوبي قديماً وتجربة محمد علي حديثاً، باعتبارهمـا الأصـل التَّاريخي لتجربة جمال عبد الناصر .

وبرغم مرور أكثر من قرن على هذه التيارات السياسيَّة والدينيَّة إلا أنها مازالت متصارعة وبعد أن كان صراعها خفيّاً خافتاً أو صراعاً ثقافيّاً نظريّاً بـسبب نُظُـم الحكم الاستبداديَّة التي كانت تفرض رؤيتها لهُويَّة مصر بالقوَّة : الخشنة والناعمـة

(الجيش والشرطة ، والثقافة والإعلام) بعد ثورة ٢٥ يناير صار صراع هذه التيارات ظاهراً حادّاً أو أيديولوجيّاً مسلّحاً .

فالواقع المصري بتعقيداته بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وما فجَّرته من أحداث لا تزال تتفاعل ، وثورة ٣٠ يونيه وما أدَّت إليه من أزمات حادَّة مازالت تتفاقم يفرض ضرورة التَّجاوب مع طرح الهُويَّة بعد أن كشف الصِّراع السِّياسي الدامي المحمَّل بدلالات أيديولوجيَّة عن البَوْن الواسع في الرُّؤية لمفهوم الهُويَّة وتحديد أبعاده بين التيارات السياسيَّة والدينيَّة الفاعلة في الشارع المصريِّ بمختلف توجهاتها، مما أدَّى إلى تشظِّي الهُويَّة المصريَّة بين مختلف التيارات السياسيَّة والدينيَّة المتصارعة ، التي قدَّمت رؤيتها الخاصة والمحدودة جداً كمحاولة لفرضها كتحديد للهويَّة المصريَّة .

سؤال الهُويَّة تحوَّل إلى ساحة قتال لا إلى منطلق للبناء، باختصار؛ تحوَّلت الهُويَّة إلى ورقة في يد التيارات السياسيَّة والدينيَّة يتم استحضارها وقت الحاجة بغرض التوظيف الأيديولوجي لا بغرض الاستجلاء التاريخي المؤسَّس على الحقيقة وحدها، في ظلِّ خصام سياسي وصراع بين أبناء الوطن والهُويَّة الواحدة .

ويدعِّم هذا العرض الموجز لوجهات نظر التيارات السياسيَّة والفكريَّة والدينيَّة في تحديد مفهوم الهُويّة المصريَّة المتعدِّدة بتعدُّد تلك التيّارات الدَّلالة الرمزيَّة لعدم وجود مُتْحف قوميٍّ لمصر، في مقابلة " المُتْحف المصريِّ للآثار الفرعونيَّة " ، و"مُتْحف الفن الإسلاميِّ "، و" المُتْحف القبطيِّ "، و" المُتْحف اليونانيِّ/ الرومانيِّ "، و" مُتْحف النوبة "، إنَّها مجموعة من الهويَّات السَّابحة في غير إطار يجمعها ويمزج بينها ومن هنا تكمن الخطورة .

ويرجع هذا بالأساس إلى استعارة نماذج تاريخيَّة في لحظات معيَّنة واستقطاعها من سياقها وتعميمها على " الكلّ التاريخيِّ "، ما أدّى إلى نتائج كارثيّة على مفهوم

الهويَّة، لأنَّها قراءة مُبْتَسَرة مبنيَّة على أحادية تيَّار يحاول ادّعاء احتكــار الحقيقــة، وهذا الاتهام مُوَجَّه لجميع التيارات الموجودة على السَّاحة السياسيَّة والفكريَّــة فــي مصر مطلع القرن الواحد والعشرين .(١)

مائة عام كاملة أو يزيد والتيارات السياسيَّة والدينيَّة في مصر تتــصارع حــول الهويَّة المصريَّة والأهداف الغائيَّة والوسائل المنهجيَّة ولم تصل إلى مفهوم يجمع كلَّ المصريين حول إستراتيجيَّة موحَّدة تنقذهم من حالة الــصراع التــي تهــدِّد وحــدة المجتمع وسلامته وتنذر بعواقب وخيمة وانقسامات حادَّة ظهرت بوادرها بعد ثــورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ، وازدادت حدتها بعد ٣ يوليو ٢٠١٣.

وبالرغم من الاختلافات الظاهرة بين هذه الاتجاهات الأربعة المتصارعة ، التي سبق ذكرها ، فإنها غير متناقضة فيما بينها فهي أربعة أوجه لحقيقة مصر الواحدة، وما الحساسية المفرطة التي كانت ترتبط بالخلاف بين هذه الاتجاهات الأربعــة إلا عَرَض من أعراض النظرة السطحيَّة المجتزئة لتاريخ مصر العريــق ولشخــصيَّة مصر الضاربة في أعماق هذا التاريخ المستمرَّ عبر العصور .

والحقيقة أن ليس ثمَّة تعارض بين الشخصيَّة المصريَّة ، والعقيــدة الإســلاميَّة ، واللغة العربيَّة ، والمنجزات الحضاريَّة الأوربيَّة ، إنما ينشأ التعارض عنــد الخطــأ في فهم الفرق بين الحقبة الفرعونيَّة وتاريخ الأمَّة المصريَّة ، والفرق بين الشخصيَّة العربيَّة والشريعة الإســلاميَّة ، والفــرق بــين الشخــصيَّة الأوربيَّــة ومُنْجزاتهــا الحضاريَّة.

والعجيب أن يقع في هذا التعارض كبار المفكرين المصريين من أمثــال : طــه حسين، سلامة موسى ، توفيق الحكيم ، جمال حمدان ، لــويس عــوض ، حــسين

(١) حسن حافظ "سؤال الهويّة وسط تشظي الواقع السّياسي مصر نموذجا " ١٥ فبراير ٢٠١٣ بتصرُّف ، موقع الأوان على شبكة المعلومات الدوليّة .

فوزي ، يوسف القرضاوي ، ومحمد عمارة وغيرهم ممن رأوا أن الشخصيَّة المصريَّة : فرعونيَّة مسيحيَّة فحسب ، أو عربيَّة إسلاميَّة فقط ، أو غربيَّة أورمتوسطيَّة بلا ريب .

والحقيقة أن الشخصيَّة المصريَّة القديمة التي أبدعت الحضارة المصريَّة على غير مثال سابق كنهر النيل العظيم يجري منذ فجر التاريخ لا يتغير مساره ولا تنحرف وجهته ، وإن غذَّته روافد كثيرة ، وأعاقته جنادل وحشائش ضارة ، لكنه لم يضلَّ طريقه أبداً ولم ينضب عطاؤه قط ولم يغيِّر طعمه السلسبيل شيء ، وكذلك الشعب المصري العظيم عرف ثقافات كثيرة غذَّته ، وتعرَّض لغزوات كثيرة أعاقته وكبَّلته، ولكنه بقي كما هو لم يغيِّر مساره ولم يتخلَّ عن سماته الأصيلة ؛ فقد غزا كلَّ من غزوه وغيَّر سماتهم ولم يغيِّروه ، ومصَّرهم جميعاً ولم يستطيعوا أن يغرِّبوه أو يشرِّقوه .

إن الشخصيَّة المصريَّة بفضل قوَّتها ورسوخ سماتها وأصالتها قادرة على استيعاب الثقافة الوافدة إليها وهضمها وصبغها بصبغتها المصريَّة .

وهذا الكتاب ليس دعوة شيفونية (١) لتمجيد الشخصيَّة المصريَّة والتغنِّي بأمجادها إنما هو دراسة علميَّة تحاول فهم حقيقة الشخصيَّة المصريَّة ورفع التعارض بين الروافد التي غذَّتها واستفادت منها ، وإزالة العوائق التي تعيق مسيرتها ، وذلك من خلال الغوص في أعماق التاريخ المصري ؛ لكي نجيب عن هذه التساؤلات :

هل كان حكام مصر جميعاً طغاة متألِّهين ؟

ما حقيقة فرعون ؟ وهل هو اسم أم لقب ؟ وإن كان اسماً فمن يكون من ملوك مصر ؟ وما الأدلَّة الدينيَّة والتاريخيَّة والأثريَّة على ذلك ؟

---

(١) الشيفونية : الاستعلاء العنصري على سائر البشر كالنازية الألمانية ، والصهيونية اليهودية .

ما علاقة المصريين باليونان والرومان قديماً ؟ وبالعرب المسلمين في العصور الوسطى ؟ وبأوربا حديثاً ؟

هل الشخصيَّة المصريَّة شخصيَّة أورمتوسطيَّة كما قال سلامة موسى وطه حسين وحسين فوزي ؟ أم أنها قوميَّة عربيَّة كما قال ساطع الحصري وجمال عبد الناصر ؟ أم أنها ولاية إسلاميَّة كما قال الأفغاني ومحمد عمارة ؟

ما أصل المصريين ؟ وهل هم ساميون أم حاميون ؟ أم جنس آخر ؟

ما حقيقة الصراع بين دعاة الديانة القبطيَّة ؟ والجنسيَّة الإسلاميَّة ؟

كيف يرى الحاقدون والسطحيون الشخصيَّة المصرية ؟

كيف يرى العاشقون المتدبرون الشخصيَّة المصرية ؟

ونحن في إجابتنا عن هذه التساؤلات وغيرها نذكر آراء أصحاب كل اتجاه بدقَّة وأمانة ، ونناقشها بكل حياديَّة ونزاهة ، لا نشكك في إخلاص انتماء كل صاحب رأي بل نشكر له اجتهاده في الوصول للحقيقة وإن ضلَّ طريقها فحسبه شرف المحاولة وإخلاص النية فلولا مجهود هؤلاء وغيرهم ما توصَّلنا إلي النتائج التي أرجو أن تحظي بالقبول .

***

الفصل الأول

صراعات مصريّة حول الهويّة

كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر في القارة الأوربية امتـداداً لعـصر الكشوف العلميَّة والنزعة الفكريَّة إلى التمرُّد على القديم ، وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى المجهول حيثما وجد الطريق ، تمخضَّت عن أخطـر مـذاهب الفكر والأخلاق وادعاها إلى الثورة والانقلاب ، وهي على تفاوتها في كل ظـاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشترك في خصلة واحدة لا تغيب عن واحدة منها فـي خبر من أخبارها وهي المطالبة بالحقوق والحريات.

في القارَّة الأوربيَّة حكم التاريخ حكمه بعد النزاع القائم بـين الـسلطة الدينيَّـة والسلطة السياسيَّة ، فوهم العلماء في مطلع الثقافة الحديثة أن هذه الثقافة حرب بـين العلم والدين .

بداية عصر النهضة المصريّة

إن الشرق لم يكن سريع الخطى في انتقاله من دور الجمود إلى دور الخـلاص ، لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضاً عن الطريق القويم بين من يحسبون أن الخلاص كله في اتباع الجديد على علاَّته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا إذا نحن لم ننبذ الجديد بقضِّه وقضيضه .

وفي مصر كانت حملة نابليون هي الصدمة التي خصتها بدروسـها العاجلـة ، وكانت دروساً محتومة لا تمهل المتعلِّم أن يتردَّد بين الجمود والحركة ، ونابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح ، وجيش آخـر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق .

وربما كان من بواعث إحياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الإقبال على هذه العلوم الغربيَّة بعد نفور منها والإعراض عنها ، أن أذكياء البلد فهموا أنها "بضاعتنا رُدَّت إلينا " وأن الفرنسيين إنما أخذوا من علومنا في الشرق ما أهملناه وضيَّعناه فبلغوا به من القوة حديثاً مثل ما بلغناه قديماً ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليبلغوا فوق ما بلغوا ، وقد فارقت الحملة الفرنسيَّة مصر ولم تفارقها فكرة التقدُّم العصري الذي سبق إليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منَّا ، وآن لنا أن نردُّها إلينا . (١)

ليس من شك بأن معرفة الذات، ووعي الهويَّة، وتوصيف الواقع شرط أساسي في قيام النهضة ونجاحها، وهو أمر بَدَهِيٌّ، وإلا فكيف ستكون هناك نهضة وهناك عمران دون معرفة تضاريس الواقع وسلبياته وإيجابياته؟ هذا ما تقوله تجارب الأمم، وتؤكِّده قيادات الشعوب .

والآن إذا عدنا إلى بداية نهضتنا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، نجد اضطراباً واسعاً في تحديد هُويَّتنا، وتوصيف واقعنا .

لقد توقَّف المثقفون والمفكِّرون ، إبان النهضة المصريَّة ، طويلاً حول سؤالين مهمَّين : من نحن ؟ وإلى أين نولِّي وجوهنا إذا أردنا النهضة ؟

واختلفت الإجابات بل تضاربت في تحديد الهُويَّة المصريَّة وبالتالي تحديد وجهة النهضة وسبيلها ، ويمكن رصد اتجاهات أربعة :

١-دعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة .

٢-دعاة القبطيَّة / الفرعونيَّة .

٣-دعاة القوميَّة العربيَّة .

٤-دعاة الأورمتوسطيَّة .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول النهضة المصرية راجع عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مكتبة مصر ، فصل " العصر " .

هذه هي الاتجاهات الأربعة التي كان لها موقف من هُويَّة مصر وسبيل نهضتها والتي يتفرَّع منها اتجاهات أخرى فرعيَّة ، وسوف نتناول هذه الاتجاهات بشيء من التفصيل مستشهدين على دعاة كلّ اتجاه بمواقفهم وأفكارهم .

١- مفهوم دعاة الإسلام للدين والهويّة المصريّة

اتجاه علماء الدين الإسلامي الذين قالوا : إن مصر دولة إسلاميَّة ، وأن السبيل الوحيد لنهضتها ، واستعادة أمجادها هو العودة إلى الدين الإسلامي ، وهذا الاتجاه وإن اتفق على أن الإسلام هو سبيل النهضة إلا أنه اختلف حول مفهوم الإسلام والهويَّة إلى فريقين : السلفيَّة اللا أصوليَّة ، والسلفيَّة النهضويَّة .

موقف السلفيّة اللا أصوليّة من الدين والهويّة

ونعني بالسلفية اللا أصوليَّة أتباع القديم الذين ينظرون إلى التراث نظرة تقديس، وهم لا يفرِّقون بين النص الديني المقدس (القرآن الكريم والحديث الشريف) وبين اجتهاد السلف في فهمه حسب علمهم والظرف التاريخي الذي عاشوا فيه ، فهم ينظرون إلى اجتهادات السلف كمقدس ديني لا يجوز العدول عنه فهو صالح لكل زمان ومكان كالنص الديني تماماً . ويجعلون ما سواه بدعة وضلال ولا سيما إذا كان صادراً من بلاد الفرنجة بلاد الكفر والانحلال .

وبالنسبة للهُويَّة المصريَّة فإن أغلب هذا الفريق يقول بالجنسيَّة الإسلاميَّة ، فالإسلام ليس ديانة فحسب وإنما جنسيَّة أيضاً فتاريخ مصر لم يبدأ إلا مع الفتح العربي الإسلامي ، ولا انتماء إلا لهذا التاريخ وليس ثمة اختلاف بين الشعوب الإسلاميَّة شرقيَّة أو غربيَّة فكلهم إخوان في الدين والهويَّة ، ولا تكاد تقيم وزناً لغير المسلمين في تلك البلاد فهم مجرد رعايا في بلاد الإسلام وليسوا مواطنين ! والمسلم الهندي والباكستاني والإندونيسي والتركي والشيشاني والبوسني المختلف جنسيَّةً ولغةً .. أقرب إليهم من أبناء وطنهم من غير المسلمين ، أما تاريخ مصر القديم فما هو إلا سلسلة متصلة من الكفر والجبروت ، وجميع حكام مصر قبل الإسلام كانوا فراعنة كفرعون ملك مصر زمن موسى ، والمصريون القدماء وإن كانوا أصحاب حضارة أصيلة إلا إنها حضارة قامت على الكفر وتسخير الشعوب

التي كانت تعبد حكامها من دون الله ، وقد يعجبون وربما يسخرون من عظيم اهتمام الدول الغربيَّة بالحضارة المصريَّة القديمة وغيرها من الحضارات الشرقيَّة ، والخلاصة إن تاريخ مصر القديم لا يمثّل عند أصحاب هذا الاتجاه إلا دلالة على قدرة الله تعالى على الانتقام من كل كافر طاغية !

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } (الفجر : ٦- ١٤)

وهؤلاء كانوا متمرِّدين عتاة جبَّارين، خارجين عن طاعة الله مكذِّبين لرسله، جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبَرا . [١]

موقف السلفيَّة النهضويَّة من الدين والهُويَّة

أما الفريق الثاني في التيار الإسلامي فهو أتباع السلفية النهضوية (جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، ورشيد رضا) الذين وإن آمنوا أن الإسلام هو سبيل النهضة إلا أن فهمهم للإسلام فهم مختلف عن السلفيَّة اللا أصوليَّة فلم يكن هؤلاء الرواد مُنبتِّي الصلة بتراثهم الإسلامي وعلمائهم الأفذاذ بل رسخت أقدامهم في العلوم الإسلاميَّة ، واشرأبَّت أعناقهم لتطالع الجديد من العلوم العقليَّة والحكميَّة والطبيعيَّة التي برع فيها الغرب . فجمعوا بين الحسنيين : ثوابت الدين ، ومتغيِّرات العصر ، أو بين صحيح الدين ، وحقائق العلوم .

وكان أهم ما قام به جمال الدين الأفغاني ، رائد المدرسة السلفيَّة النهضويَّة ، هو اهتمامه الشديد بتربية تلاميذه على إيقاظ العقول واستيعاب العلوم العقليَّة النافعة ، ودراسة تاريخ الأمم وسياستها ، والاستفادة مما وصلت إليه العلوم الحديثة في أوروبا في مجالي : العلوم الحكميَّة ، والعلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة ، فإذا ما تمَّ لهم ذلك عرفوا كيف يفهمون دينهم فهماً صحيحاً دون الوقوع في تقليد الموروث القديم

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٩٤

أو تقليد الوافد الدخيل إنما يأخذون من التراثِ الأصيلَ من المعرفة والثقافة ، ويأخذون من علوم العصر النافعَ المفيدَ ، دون الوقوع في التقليد أو التغريب .

يقول رشيد رضا : " كانت طريقة الأزهر في التعليم قبل مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر إلزام الطلبة قبول كل ما في كتب التدريس وما يقوله لهم المدرسون بالتسليم وعدم الاعتراض ، عقلوه أم لم يعقلوه ، وطريقة الأستاذ الإمام (محمد عبده) التي استفادها من الأفغاني وجرى عليها بالدعوة وبالعمل في دروسه الدينيَّة والفنيَّة والعقليَّة أن لا يقبل أحد كلام أحد بالتسليم الأعمى ، بل يجب الفهم والاستدلال المؤدي إلى الإقناع والتفرقة بين كلام المعصوم وغير المعصوم ." (١)

الأفغاني والجامعة الإسلامية

وإذا كان الأفغاني قد رفع شعار " الجامعة الإسلاميَّة " ودعا إلى وحدة أمة الإسلام ، وترابط أوطان المسلمين ، وأقام في سبيل ذلك التنظيمات السياسيَّة والفكريَّة التي جسَّدت " الأمميَّة الإسلاميَّة " مثل " جمعية العروة الوثقى " وأصدر لهذا الصحف والمجلات ، ومارس العمل في هذا الميدان حتى وافته المَنيَّة ، فلقد قدَّم لهذه " الجامعة الإسلاميَّة " تصوراً واقعيّاً عصريّاً راعى فيه التمايزات الوطنيَّة، والقطريَّة ، والقوميَّة .. فتحدث عن : " اتصال أوطان الدول الإسلاميَّة في الأراضي ، واتحاد شعوبها في العقيدة فكلهم يجمعهم القرآن " ، ثم تسأل : " أليس لهم أن يتفقوا على الذَّب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم ؟!

ولوا اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ؛ فالاتفاق في أصول دينهم " .

ثم مضى ليقول : " لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ؛ فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكنِّي أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكلُّ ذي ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ؛ فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه . إلا أن هذا يعد كونه أساساً لدينهم ، تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات " (٢)

---

(١) مجلة المنار ج ٣٢ ص ٦٧٣ .
(٢) د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " مرجع سابق ص ٤٩ .

ودعاة السلفيَّة النهضويَّة رغم أنهم يدعون إلى إقامة جامعة إسلاميَّة تربط بلاد المسلمين بعضها البعض إلا أن تصورهم لهذه الجامعة تصور واقعيٌّ عصريٌّ يراعي فيه التمايزات الوطنيَّة، والقطريَّة ، والقوميَّة فهو أشبه باتحاد كنفدرالي [١] لا وحدة اندماجيَّة أو فدراليَّة .

أما بخصوص تاريخ كل دولة قبل الفتح العربي الإسلامي فهو مَحَلُّ تقدير واحترام خاصة تاريخ مصر القديم العظيم ، فهم يحرصون بعض الحرص على قراءته ومشاهدة آثاره ومتابعة كلِّ جديد فيه سواءٌ أكانت اكتشافات أثريَّة أو دراسات عربيَّة أو أجنبيَّة .

٢- مفهوم دعاة القبطيَّة ديناً وجنسياً

الاتجاه الثاني الذي ظهر إبان النهضة المصريَّة في بداية القرن العشرين وربما ظهر كردٍّ فعل لدعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة هو دعاة القبطيَّة /الفرعونيَّة ، وهذا الاتجاه يرى إن مسيحيي مصر هم السكان الأصليين لهذه البلاد فهم من نسل الفراعنة ، وأن كلمة " قبط " لا تعني فقط جنسيَّة إنما هي ديانة أيضاً فكلمة قبطي تعني كل إنسان مصري الجنسيَّة مسيحي الديانة أما المسلمون فهم عرب ، غير مصريين ، غزاة مستوطنون ؛ لذا ينبغي إلا يُصبَغ أي شيء في إدارة البلاد بالصبغة الإسلاميَّة، كما يدعو دعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة ، فلا يكون دستور البلاد دستوراً إسلامياً وإنما دستور مصري يراعي في المقام الأول حقوق القبط ، كذلك الحكومة التي تدير البلاد لا بد أن تكون قبطيَّة وتراعي مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة ، وإذا كان المسلمون يستقوون عليهم بكثرة عددهم وأن الحاكم منهم فإنهم يستقوون على المسلمين بالاحتلال الغربي والتأييد الأمريكي ، والتعاطف الأوروبي المسيحي .

---

(١) الاتحاد الكنفدرالي (أو الكونفدرالي) هو رابطة أعضاؤها دول مستقلة ذات سيادة والتي تفوض بموجب اتفاق مسبق بعض الصلاحيات لهيئة أو هيئات مشتركة لتنسيق سياساتها في عدد من المجالات وذلك دون أن يشكل هذا التجمع دولة أو كيانا وإلا أصبح شكلا آخرا يسمى بالفدرالية. الكنفدرالية تحترم مبدأ السيادة الدولية لأعضائها وفي نظر القانون الدولي تتشكل عبر اتفاقية لا تعدل إلا بإجماع أعضائها. ومن أبرز الكنفدراليات الحديثة الاتحاد الأوروبي .

يقول الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني : " الأقباط هم بقايا تلك الأمَّة المصريَّة العريقة في الحضارة التي أجمع الكلُّ على إنها أقدم الأمم في المدينة وأسبقها إلى التمدن . وقد شهدت التواريخ على إنها هي السبب الوحيد والعامل الأكيد على إيجاد التمدُّن في العالم وانتشاره على وجه البسيطة " (١)

ويقول أ. ل . بتشر : " تاريخ هذه الأمَّة ممتزج من أوله لآخره بأقوام كثيرة مختلفة أغارت على البلاد وملكتها من رومان وأروام وعرب وأكراد وشراكسة وأتراك وغيرهم وهم الذين أذلُّوا المصريين وجعلوا بلادهم مستباحة لهم . ولقد أسفر بحث الباحثين لمدقِّقين على أن أعقاب المصريين الأصليين الباقيين إلى الآن هم الأقباط المسيحيين لا المسلمين ، وهم الذين عانيت أنا عناءً كثيراً وشغل متواصل بوضع هذا التاريخ الوافي عنهم ليسهِّل على القُرَّاء معرفة أصلهم ونسبهم وديانتهم بدون تعب . " (٢)

وهكذا ظهرت في بداية عصر النهضة المصريَّة هذه الأزمة حول الهُويَّة بين دعاة الجنسيَّة الإسلاميَّة ، الذين يعتقدون أن الإسلام ليس ديانة فحسب بل جنسيَّة أيضاً ، ويجب الاحتكام للشريعة الإسلاميَّة وتطبيقها في كل شئون الحياة ، وفق فهمهم ، كما أنه يجب وفق هذا الفهم إسقاط كل جنسيَّة أو هُويَّة غير الإسلام فلا يقال مصر أو مصرية ، ولا قبط أو قبطيَّة . فكما أن الخلافة الراشدة كان جنسها الإسلام ولغتها العربيَّة ولا ذكر لحدود جغرافيَّة وأعراق جنسيَّة أخرى فكذلك يجب أن تكون الجامعة الإسلاميَّة وجميع الدول التي هي أعضاء فيها ، وعلى ذلك فبما أن مصر دولة إسلاميَّة فيجب أن يكون رئيسها مسلماً ، ودستورها إسلاميّاً ، وحكومتها مسلمة ، ومصلحتها إسلاميَّة ، ودواوينها إسلاميَّة ، وسياستها إسلاميَّة ، وهويتها إسلاميَّة ، ومناهج تعليمها إسلاميَّة ، ثقافتها إسلاميَّة ، والمسلم الأفغاني أو الباكستاني كالمسلم المصري في الحقوق والواجبات وهو مقدم على المصري غير المسلم ، فالناس رجلان مسلم وغير مسلم !!

---

(1) الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني " وطنيَّة الكنيسة القبطيَّة وتاريخها " سبتمبر ٢٠٠٤م ص ١٠
(2) أ. ل . بتشر " تاريخ الأمَّة القبطية " طبع على نفقة صاحب جريدة مصر بمطبعة مصر بالفجالة سنة ١٩٠٠م ص (أ) .

ويثير استياء المنادين بالجنسيَّة الإسلاميَّة أن جرائد غير المسلمين أكبر تأثيرًا في الأمور العامَّة من جرائد المسلمين ، وكذلك النفوذ السياسي والمالي بالرغم أن غير المسلمين أغيار أقليَّة كالنقطة السوداء في الثور الأبيض ! ومَردُّ هذا بزعمهم يرجع إلى غفلة المسلمين ، ودعم الاحتلال الإنجليزي ، والتأييد الأمريكي لهؤلاء الأغيار.

وفي مقابل هؤلاء يصرُّ بعض المسيحيين على جعل القبطيَّة ليست جنسيَّة فحسب يشترك فيها معهم المصريون المسلمون إنما ديانة أيضاً وهي خاصة بهم دون سواهم ، فهم وحدهم الأقباط ديناً وجنسيَّة وأنهم وحدهم من نسل المصريين القدماء وما عداهم غزاة دخلاء ؛ فمصر فرعونيَّة أو قبطيَّة وأبناؤه الأصليون هم القبط (المسيحيون) وتاريخهم الذي يفاخرون به التاريخ الفرعوني والقبطي لا الإسلامي العربي ، ودستور مصر يجب أن يراعي الهوية القبطيَّة فيدغم المسلمين في القبط ، والحكومة يجب أن تكون قبطيَّة ، ومجلس التشريع يجب أن يكون قبطيّاً ، كذلك تكون الإجازة الأسبوعيَّة يوم الأحد ، والديانة التي تدرَّس لطلاب المدارس هي المسيحية ...

وقبل أن نردَّ على أولئك وهؤلاء نذَّكر بتلك الفتنة التي حدثت في بداية القرن العشرين وتحديداً في العقد الأول منه والتي كشفت عن الدعوة إلى الجنسيَّة الإسلاميَّة والديانة القبطيَّة .

فتنة مقتل بطرس غالي باشا

كان بطرس باشا نيروز غالي (١٨٤٦- ٢٠ فبراير ١٩١٠) رئيس وزراء مصر من ١٢ نوفمبر ١٩٠٨ إلى ١٩١٠ ، وبصفته رئيساً للوزراء وافق على تمديد امتياز شركة قناة السويس ٤٠ عاماً إضافيَّة من ١٩٦٨ إلى ٢٠٠٨م في نظير ٤ مليون جنيه تدفع على أربع أقساط .

وقد قام إبراهيم الورداني باغتيال بطرس غالي أمام وزارة الحقانيَّة في الساعة الواحدة ظهراً يوم٢٠ فبراير ١٩١٠م ، حيث أطلق عليه الورداني ست رصاصات أصابت اثنتان منها رقبته.

كان اغتيال بطرس غالي هو أول جريمة اغتيال في مصر الحديثة، وكان متزامناً مع نظر الجمعيَّة العموميَّة لمشروع مد امتياز قناة السويس، واعترف الورداني بقيامه بقتل بطرس غالي؛ لأنه في نظره "خائن" بسبب اتفاقية الحكم الثنائي الإنجليزي المصري للسودان عام ١٨٩٩، ومشروع قانون مد امتياز قناة السويس، ورئاسته لمحكمة دنشواي التي قضت بإعدام ٦ فلاحين مصريين قتلوا جنوداً بريطانيين كانوا قد قتلوا فلاحة مصرية أثناء صيدهم للحمام ، وإصداره قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في عهد الخديوي توفيق، وكان الهدف منه مراقبة الصحف ومصادرتها وإغلاقها إذا اقتضى الأمر، وكان هذا القانون قد صدر لوضع القيود على الأقلام .

فحدثت فتنة طائفيَّة بسبب اغتيال بطرس غالي نادى فيها بعض المسلمين بالجنسيَّة الإسلاميَّة ، ونادى فيها بعض المسيحيين بالديانة القبطيَّة .

يقول رشيد رضا عن هذه الفتنة في عدد مارس سنة ١٩١١م من مجلة المنار : " فعل الورداني فعلته ، فحُكِمَ عليه بالإعدام فأعْدِم شنقًا ، كَبُرَ الخطب على القِبْط (يقصد المسيحيين) وحقَّ لهم ذلك . ولكن المسلمين لم يُقصِّروا في مشاركتهم في كل شيء من تشنيع الجناية ، وتشييع الجنازة ، وتأبين الفقيد ورثائه ، بما لم يرثوا ولم يُؤبِّنوا بمثله وزيرًا مسلمًا من قبله ، اشترك في ذلك أمراؤهم وعلماؤهم ، وكتابهم وشعرائهم ، ورجال الحكومة من جميع الطبقات ؛ فقد كان الفقيد رئيسًا لهم.

كلُّ ذلك لم يرضِ القبط ، بل أرادوا أن يأخذوا مسلمي القطر كافة بذنب الورداني ، فطفقوا يكتبون ويستكتبون بعض المتعصبين من المشاركين لهم في الدين باتهام المسلمين بالتعصُّب الديني ، وجعل الجناية اعتداء من الدين الإسلامي على الدين المسيحي وأهله ؛ لاعتقادهم أن هذا هو محل الضعف من المسلمين ، وموضع التأثير في تهيج الإنجليز وسائر الأوربيين عليهم ؛ لاتفاق الجميع على أن لا يتركوا للمسلمين شيئًا من المقوِّمات ولا من المشخصات المليَّة .

قابل المسلمون كل هذا العدوان بالحِلم ، فاستضعفهم القبط وأسرفوا في الطعن والقدح في جرائدهم ، وأوفدوا إلى إنجلترا من ينوب عنهم في إقناع الجرائد

الإنجليزيَّة والنواب الإنجليز ورجال الدين والحكومة في لندن ؛ بأن القبط مظلومون مغبونون في مصر لأجل دينهم ووالوا ذلك ، وأدمنوه سنة كاملة ، احتفلوا في خاتمتها بذكرى فقيدهم العظيم (بطرس غالي) وكان يظن أن المسلمين لا يشاركونهم في هذا الاحتفال بعد تلك الغارة الشعواء في جريدتي الوطن ومصر على الكتب العربيَّة والآداب العربيَّة والديانة العربيَّة (الإسلاميَّة) ، ولكن المسلمين كذّبوا الظن ، فهرع علماؤهم وكبراؤهم إلى مدفن الفقيد وكنيسة طائفته ، وأبَّنُوه بالنثر والنظم وأطروه أشد الإطراء ، فكان من اللائق المعقول أن تقف القبط عند هذا الحد من الظفر ، وتواتي طلاب الصلح من المسلمين الذين اعتذروا عما كتبه القبط من سوء القول ؛ بأنه رأي أفراد منهم لا يؤخذونهم بشذوذهم فيه .

المؤتمر القبطي ١٩١١م وتأثيره

لو كان للقبط زعيم عاقل – والكلام مازال لرشيد رضا – كذلك الزعيم الذي فقدوه ، لما سمح لهم بذلك التَّقَحُّم الذي تقحَّمُوه ، ولو كان لهم زعيم له نصف عقله وحكمته ، لأوقفهم عند الحد الذي انتهى به الحول بعد مصرعه ، ولكنهم بعد انتهاء الحول ، وبعد تلك المجاملة من المسلمين في الاحتفال التي عدَّها المتزاحمون على الزعامه فيهم ضعفًا ومهانة ، انبروا إلى تصديق أقوال جرائدهم بالعمل ، فألَّفوا مؤتمرًا قبطيًّا عامًّا في أسيوط التي سماها بعضهم (عاصمة القبط) ؛ لإثبات الغبن الذي أصابهم وبيان المطالب القبطيَّة التي يريدون بها مساواة المسلمين ، وأولها : أن تسمح الحكومة للموظفين منهم بترك العمل يوم الأحد ، وتسمح للتلاميذ منهم في مدارسها بترك الدراسة فيه أيضًا ؛ لأن دينهم يحرِّم عليهم العمل فيه .

توالى الوخز والطعن على جسم الشعب الإسلامي مدة سنه كاملة ، فلم يكد يشعر به ولا استيقظ من منامه ، فلما سمع صيحة المؤتمر القبطي الشديدة المؤلفة من أصوات الألوف من الشاكين ، هب من نومه مذعورًا ، فرأى أن الجسم الصغير الذي كان يعدُّه عضوًا منه قد انفصل وصار حيًّا بنفسه ، ممتازًا بمقومات ومشخصات خاصَّه به ، سماها (قبطيَّة) ، وسمى ما بقي للجسم الكبير من المقاومات والمشخصات (إسلاميَّة) ، وهو يريد أن ينتزعها كلها منه ، ويجعله

تابعًا له عملاً بقاعدة { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً } (البقـرة : ٢٤٩) فعـزَّ عليه ذلك ، واستعد للدفاع عن نفسه .

نعم .. رأى المسلمون أن البلاد بلادهـم ، والحكومـة حكـومتهم ، والـشريعة شريعتهم ، وأن غيرهم لم يكن له في مصر وجود حتى يكون له حقوق يؤبه لهـا ؛ لأن هؤلاء الأغيار كالنقطة السوداء في الثور الأبيض أو النقطة البيضاء في الثـور الأسود . ولكنهم بتساهلهم وإهمالهم قد شاركوا هؤلاء الأغيار في حكـومتهم وفـي جميع مصالحهم العامَّة والخاصَّة ، حتى صارت إدارة أملاكهم وعقاراتهم وأوقـافهم الأهليَّة كلها بأيدي أولئك الأغيار .

ثم أرادهم أولئك الأغيار على أن لا يذكروا اسم الإسلام والإسلاميَّة فـي أمـور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة ؛ لأن ذلـك ينـافي المدنيَّـة العـصريَّة ، فرضوا ، وصاروا يترنمون باسم الوطنيَّة والمصريَّة ، ويقولون : نحن مـصريون قبل كل شيء ، ويعدون المسلم غير المصري دخيلاً بينهم.

بل رأوا أنهم قد انجذبوا إلى القبطيَّة ، وصاروا يفخرون في جرائدهم وخطـبهم وأشعارهم بفرعون الذي لعنه الله تعالى على لسان موسى وعيسى ومحمد صـلوات الله عليهم أجمعين ، وأخبر تعالى أنه استخفَّ قومه فأطاعوه ، واستعبدهم واستذلهم، وكان من أغرب ما وقع في هذا الباب أن شاعرًا مسلمًا نظم قصيدة في عيد الـسنة الهجريَّة ، وأنشدها في احتفال عظيم ، فافتخر فيها بأنه هو وقومه من آل فرعون ، ولم يفتخر بالنسبة إلى صاحب الهجرة الشريفة ، ولا بآله وأصحابه الذين يفتخر بهم الوجود ﷺ ورضي عنهم أجمعين ، فكيف تجمعون أيها المفتخرون بآل فرعون بين هذا الفخر وبين قول ربكم فيكم : { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ } (غافر : ٤٦) .

بل رأى هؤلاء الذين استيقظوا من المسلمين أن مقومات حياتهم المعنوّية التي هم بها أمَّة ؛ قد تزلزل بعضها وزال بعض ، فصارت السلطة التشريعيَّة فـي بلادهـم بأيدي الأغيار والنفوذ الأدبي في أيديهم ، حتى إن مجموع جرائدهم أكبر تأثيرًا فـي الأمور العامَّة من جرائد المسلمين ، وكذلك النفـوذ الـسياسي والمـالي ، فثـروة المسلمين كل يوم في نقصان كما يعلم كل يوم من إعلانات الحجز وبيـع الأمـلاك

المرهونة ، رأوا هذا وأمثاله مما لا يحل لإحصائه هنا ، فعلموا أن الذي أطمع هـذه الشرذمة من القبط فيهم ليس بالشيء اليسير ، وإنما هو انحلال جميـع روابطهـم ، وزلزال أو زوال جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، حتى إنه لم يعد أحد مـنهم يجسر على أن يقول حكومة إسلاميَّة أو مصلحة إسلاميَّة ، فعلموا أنهم صـاروا عرضـة للعدم والانقراض ، أو الإدغام في القبط ، كما أدغم القبط فيهم من قبل ، بـل رأوا أن القبط قد غلوا وأسرفوا في الطمع فيهم ، حتى لم يرضوا بما كانوا سائرين إليـه من الفناء فيهم باسم مصريين ، وأبوا إلا أن يكون لهم كل شيء بلقب قبط ، والأمم تهتم في طور الضعف بالألقاب والأسماء ما لا تهتم بالمعاني ، فقد يمرق المسلم أو النصراني من دينه بالفعل ، ويبقى محافظًا على الاسم ، لذلك حكمنا بأن القـبط قـد غلوا وأسرفوا في حركتهم الأخيرة ، وأنهم لو صبروا لنالوا فـي غفلـة المـسلمين وتخاذلهم كل ما يؤملون ، وإن سبب ذلك هو فقد الزعيم وإعواز خلف لـه ، فهـذه الحركة لا يعقل أن تكون مؤدية إلى المطلوب إلا إذا كانت مبنيَّة على وعـد قـاطع من السلطة الإنجليزيَّة الفعالة ، وهو ما يظنه بعض الناس ، وإن قال فـيهم العميـد وقالوا فيه ما يدل على خلاف ذلك ، وأما مساعدة قسوس الإنجليـز والأمريكـان ، فليست كافية إذا استيقظ المسلمون ، وعارضوا بالحكمة والعقل .

مطالب المسيحيين

ويكمل رشيد رضا قائلاً : " يقول بعض المموِّهين : إن هـذه الحركـة القبطيَّـة ليست دينيَّة ، بل هي طائفية جنـسيَّة ، يختلبـون (يخـدعون) المـسلمين بهـذا ، والمسلمون يردُّون عليهم من كلامهم (من فمك أدينك) فإنهم يقولون : إن الـسواد الأعظم من المصريين قبط ، فما الذي تمتاز به هذه الخمسة أو الستة من المئة على الباقي وأكثره من القبط ، كما يقولون ؟ هل هنالك غير الدين ؟ ألم يـصرِّحوا بأنـه هو علَّة حرمانهم مما يطلبون ؟ ألم يحرِّضوا قسوس إنجلترا وجرائدها ، ويطلبـوا نجدتها باسم الدين ؟ ألم يكن أوَّل مطالبهم ترك أعمال الحكومة في يوم الأحد عمـلاً بالدين ؟ إلا أنه من سوء الحظ أو حسنه أن كان القبط ليس لهم لغة ، وإذاً لحـاربوا المسلمين بلغتهم ، وكانوا بحزمهم ومساعدة الإفرنج وغيرهم هم الغالبين ، ولم يكن لأحد عذر في كلمة إسلام أو مسلمين.

إذا كانت القبطية جنسيَّة للقبط المسيحيين خاصة ، فأجدر بالإسلام أن يكون جنسيَّة للمسلمين عامَّة ، فإن المسيحيَّة قد فصلت الحكومة من الدين كما يقولون ، وأمرت أن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، والإسلام ذو شريعة وسياسة ، فما بال الذين يأمرهم دينهم بالخضوع لكلِّ حاكم وإن كان وثنيًّا كقيصر الروم في زمن المسيح عليه السلام ، قد أصيبوا بهذا الشره في السياسة ، فلا يتبعون حاكم مصر المسلم في بطالة يوم الجمعة دون يوم الأحد وما بال المسلمين قد أجابوا دعوة غيرهم ، فرضي حاكمهم ومحكومهم بأمور كثيرة مخالفة للشريعة في حكومتهم ؟

إذا كان القبط لا يشتغلون يوم الأحد في حكومة الحاج عباس حلمي المسلم (١) فيلتركوها ويستغنوا عنها تنسكًا وتعبدًا ، وإلا فالمسلمون أجدر منهم بطلب جعل كل شيء في هذه الحكومة موافقاً لدينهم ؛ لأن الحاكم العام منهم ؛ ولأن أكثر الأحكام تقع عليهم ؛ لأنهم أكثر من تسعين في المئة من الأمة ، فلهم أن يقولوا : إننا لا نخضع لحكم يحرم علينا وجداننا الخضوع له ، ولماذا ينكر الأغيار عليهم ذلك ويسمونه تعصبًا ، وإنما أولئك الأغيار هم المتعصبون الذين يفتئتون على أمة مسلمة حاكمها العام مسلم ، ولا يسمحون لها أن توفق بين دينها وحكومتها .

يقول بعضهم : إن هذه حكومتنا وحكومة آبائنا وأجدادنا ، ويقول بعض آخر : إن لنا حق مساواة المسلمين فيها ، والصواب أن الحكومة ليست حكومتهم وأنه لا حق لهم فيها ألبتَّة ولا لغيرهم ، ولماذا ؟ **إن هذه البلاد عثمانيَّة سيدها الحقيقي سلطان المسلمين وخليفتهم** ، وقد فوَّض أمر إدارتها إلى محمد علي باشا وذريَّته على قاعدة مخصوصة ، اعترفت بها دول أوربا الكبرى ، وهي كما قال اللورد كرومر لم تكن محل خلاف ولا نزاع قط ، وقد كان يكتب على أوراق الحكومة (الحكومة المصريَّة) ، وأخيرًا صار يطبع عليها بالعربيَّة (الحكومة الخديويَّة) نسبة إلى شخص الخديوي ، وبالإنجليزيَّة حروف معناها (في خدمة سموُّه) ، فهذه الحكومة إذًا شخصيَّة تابعة لشخص الخديوي ، ليس لأحد من رعيَّته عليه حق فيها، والمسلمون هم الذين قاموا يطلبون منه أن يمنح البلاد الدستور الذي يجعل للأمَّة

---

(١) عباس حلمي الثاني بن محمد توفيق بن إسماعيل(١٤ يوليو ١٨٧٤ – ١٩ ديسمبر ١٩٤٤م) خديوي مصر من ٨ يناير ١٨٩٢ إلى عزله في ١٩ سبتمبر ١٩١٤ .

حق الشركة معه في حكم البلاد ، والقبط لم تطلب ذلك ، فكل ما نالـه القبط من الوظائف الكثيرة هي فضل وإحسان من أمير مصر المسلم المتساهل ولم يكن مؤديًا لحقوق واجبة عليه فيه .

وأما المسلمون ، فإذا لم يكن لهم حقوق عليه بحسب شكل الحكومة الشخصي الذي أقرَّته الدولة الكبرى ، فيمكن أن يقال : إن لهم أن يطالبوه بحقوق يوجبها عليه دينه ، فيكون الرجاء في إجابتها منوطًا باعتقاده ووجدانه .

هذا هو الحق الذي يزهق به كل باطل .

الإسلام دين وجنسيَّة اجتماعيَّة وسياسيَّة للمسلمين ، هذا هو الواقع ، وإن كرهه أقوام يودُّون أن يكون دينًا فقط لا رابطة بين أهله في الأمور السياسيَّة ولا الاجتماعيَّة ؛ لما لأولئك من المصلحة في ذلك ؛ وجنسيته واسعة تشمل المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويسرون الكفر والإلحاد ، وتتسع لكل من يرضى بحكمه الذي هو رابطته السياسية ، فجيز استخدامهم في أكثر مصالح حكومته ، وقد ارتقى فيها غير المسلمين إلى منصب الوزارة في دوله العزيزة القوية التي لم يكن في الأرض من يقف في وجه قوتها كأبي إسحق الصابئ في الدولة العباسيَّة ، فمثل شريعته في ذلك كمثل قوانين دولة النمسا مثلاً ، كل منهما جنسيَّة سياسة يخضع لها شعوب مختلفون في اللغات والمذاهب والأديان ، ولكن بينهما فروقًا أهمها أن الفئة الغالبة في الجنسية الإسلامية السياسية ، وهي التي تدين بالإسلام تعتقد أن أصول شريعتها وبعض فروعها منزلة من عند الله ، وبعضها الآخر من اجتهاد الناس .

لا يضر من يشارك المسلمين في الخضوع لشريعتهم أن كانوا يدينون الله بهذا الخضوع وهو لا يدين لله به ، فإن حقوقه على المسلمين المكفولة بها تكون حينئذ مضمونة بقوة الحكومة في الظاهر وقوة الاعتقاد في النفس ، وحقوقهم عليه لا تكون مضمونة إلا في الظاهر فقط ، فالمسلم المتدين لا يأكل حق غيره وإن أمن عقاب الحكومة ، وغير المسلم قد يأكل حق المسلم المحكوم به إذا أمن العقاب ؛ لأن وجدانه لا يعارضه في ذلك ، إذا اعتقد أن الحكم لا يجب الخضوع له .

وتمتاز هذه الشريعة على جميع الشرائع والقوانين بأنها تخير من لا يدينون بها بين التحاكم إلى أهلها إن رضوا بذلك وبين التحاكم إلى أهل دينهم ، فهي باحترامها الحرية لا تكره أحدًا على عقيدتها وأعمالها الدينيَّة ، ولا على أحكامها الشخصيَّة ولا المدنيَّة .

غلب على المسلمين الجهل بحقيقة الإسلام من حيث هو دين ، ومن حيث هو جنسيَّة ، حتى رضوا بحكم الجاهلين والمارقين منهم ، فارتخت روابطهم كلها ، فسهل على ساسة أوروبا الأفتيات عليهم ، والنفث اللطيف في بقايا العقد التي تربط بعضهم ببعض ، وتنكيث قوى حبلهم من غير جلبة ولا ضوضاء كجلبة المؤتمر القبطي والجرائد القبطيَّة .

ذلك بأنها فتحت أقفال قلوبهم وأفكارهم ، وزينت لهم آدابًا غير آدابهم ، وشرائع غير شريعتهم ، وجنسيات غير جنسيتهم ، وسلطت بعضهم على بعض ؛ ليجذبه إلى ذلك من حيث لا يشعر المسلط ولا المسلط عليه . فهذه التعاليم التي تبثها فيهم تستل من نفوسهم كل شيء إسلامي برفق ولذة ، كما تستل الراح (الخمر) عقل شاربها ، ولو سلكت مسلك جرائد القبط وخطباء القبط في التوسل إلى ذلك لما زادت المسلمين إلا استمساكًا واعتصامًا بكل ما تريد أن يتركوه .

اللوم إغراء ، والمنازعة مدعاة المشاحة ، والتعصب مثار التعصب ، فكيف تصورت القبط أن تنال بهذه الجلبة على ضعفها ، ما تعلم أوربا أنها تعجز أن تناله بمثل ذلك على قوتها ؟

أما علموا أن من استعجل الشيء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه ، إلا أنني أعتقد أنهم كانوا على مقربة من كل ما يطلبون ، وإن هذه الجلبة ما زادتهم إلا بعدًا عنه ، ولهذا قلت : إنهم لو صبروا واتبعوا منهاج الحكمة وسنن الاجتماع (كما كان يفعل زعيمهم ونابغتهم) لنالوا من المسلمين بالمسلمين كل ما أرادوا ولكن أبوا إلا أن يذكروا المسلمين بغبنهم ، ويدعوهم إلى الاجتماع والتشاور في أمرهم ، بتأليف مؤتمر يتبينون فيه من هم ، وما هي نسبتهم إلى غيرهم ، وما كانوا لولا هذه الحركة القبطية ليقدموا على ذلك .

ولكن القبط أبوا إلا أن يقولوا (قبطي وقبطيَّة) ولم يحسبوا حسابًا لمقابلة المسلمين لهم على ذلك بقول : إسلامي وإسلامية .

أليس من المعقول أن يقول المسلم المصري : إننا قد تركنا جنسيتنا الإسلاميَّة ، ونحن أكثر من أحد عشر مليونًا ؛ لأجل الاتحاد بنصف مليون من القبط لم نستفد ولن نستفد بالاتحاد شيئًا لم يكن لنا ، بل خسرنا وسنخسر كثيرًا مما كان لنا وحدنا ، فكيف رضي المغبون الخاسر ، ولم يرض الرابح الظافر ؟ أليس من الذل والهوان أن نرضى بالانتقال من إسلاميَّة إلى (مصريَّة) ؛ ليكون ذلك مدرجة إلى الانتقال من (مصريَّة) إلى (قبطيَّة) ، وإذا كانت هذه الجنسيَّة المصريَّة التي انتحلناها تبعدنا عن سائر إخواننا المسلمين وهم يعدون بمئات الملايين ، ولا تقربنا من جيراننا القبط وهم نصف مليون ، فكيف تكون جنسيَّة جديدة لنا ولم يتجدَّد لنا بها شيء ؟ صرنا نعدُّ المسلم الشامي والحجازي دخيلاً فينا ، لا نسمح أن يدخل حكومتنا ، أو يشاركنا في مصالحنا لأجل أن يكون القبطي أخًا لنا ، له ما لنا وعليه ما علينا ، فأبعدنا ذاك ولم نستطع أن نقرِّب هذا ، فمن نحن إذًا وما هي جنسيتنا ؟

كان الأمير محمد إبراهيم قد عني باللغة العربية من دون سائر هذه الأسرة الخديوية ، فدخل عليه بعض أقاربه الأمراء ، فرآه ينظر في بعض الكتب العربية فلامه على ذلك وسأله عن سبب هذه العناية ، فأجابه : هل نحن إفرنج وهل يعدنا الإفرنج منهم ؟ قال اللائم : لا .. قال : هل يعدنا الترك منهم ؟ قال : لا .. قال : فهل الأفضل لنا أن لا يكون لنا جنس ؟ كلا .. إننا قد صرنا عربًا مصريين ، فالواجب علينا أن نعرف لغة أبناء جنسنا .

هذه هي الحكمة التي نطق بها الأمير محمد إبراهيم فحج بها لائمه . أفلا يسع القبط ما وسع الأسرة المالكية ، فيكونوا عربًا مصريين ؟ ويتركوا كلمة قبط في كل ما يتعلق بالحكومة والمصالح الدنيويَّة ، ويجعلوها خاصة بمجلسهم الملِّي وشئونهم الدينية فيكونوا هم المفلحين ، فإن القبطيَّة تصلح أن تكون جنسيَّة دينيَّة لهم إن أحبوا أن لا يمتزجوا بغيرهم من النصارى المتمصِّرين ، ولكنها لا تصلح جنسيَّة سياسيَّة دينيَّة معًا ولا سياسيَّة فقط ؛ إذ لا يمكن أن يرضى المسلمون أن يعودوا في مصر

قبطًا ، ولا في بلاد الأعاجم وثنيين ومجوسًا وبوذيين ، فإذا كانوا يطلبون المساواة حقيقة لا تمويهًا ، فليتركوا العصبية القبطية والجنسية القبطية والمطالب القبطية ،

فإن كل شيء ينالونه بهذه النسبة وهذا اللقب يدفع المسلمين إلى الرجوع إلى الجنسية الإسلامية ، ويخشى حينئذ أن يخسروا بحق بعض ما ربحوه بغير حق .

إن كلمة واحدة من لجنة مؤتمر القبط التنفيذية تحل الإشكال ، وهي (قررنا أن لا نطلب من الحكومة شيئًا للقبط ، بل ندعها تختار الأكفاء لأعمالها برأيها واجتهادها ، وأن لا يذكر لفظ قبط ولا مسيحيين في المصالح الدنيوية) .

إنني أعتقد أن هذا الحل خير للقبط ولجميع المسيحيين في هذا القطر ؛ لأنهم يكونون هم الرابحين فيه ، وأن الأربح للمسلمين أن يحافظوا على جنسيتهم الإسلامية ، ولكنهم يرضون بإيثار غيرهم عليهم بمساواته بهم في بعض المصالح ، ورجحانه عليهم في بعض المرافق ، إذا هو ترك لهم بعض الخصائص التي صارت أعضاء أثرية أو كادت ، ولا يضره تركها لهم ، وهو يعلم أنها ستزول بالتدريج .

والنتيجة الطبيعية محصورة في أحد أمرين كما علم من كلامنا آنفًا : إما استمرار القبط على مطالبهم القبطيَّة ، ورجوع المسلمين إلى جنسيتهم الإسلاميَّة ، ومقاومة القبط بالوسائل الاجتماعيَّة والأدبيَّة . وإما رجوع القبط عن هذه النزعة الدينيَّة وسكوتهم منذ اليوم عن مطالبهم ، وحينئذ يبقى المسلمون على ما كانوا عليه من التساهل والدعوة إلى الوطنيَّة والجنسيَّة المصريَّة التي يفضِّلون بها القبطي على المسلم غير المصري وإن تمصَّر .(١)

ولقد أعفانا الشيخ رشيد رضا في نهاية مقالته من الردِّ على المسلمين الذين يدعون إلى الجنسيَّة الإسلاميَّة والمسيحيين الذين يدعون إلى الديانة القبطيَّة وبقي أن نؤكد أن هذا الخلاف خلاف بين بعض الفئات القليلة من المسلمين والمسيحيين وليس تيَّاراً عاماً يدين به كل المسلمين أو المسيحيين ، وأن هذا الخلاف مؤقَّت

(١) رشيد رضا ، مجلة المنار " المسلمون والقبط " ج ١٤ ص ٢٠١

بفترات قصيرة الأمد ، ومحصور في أماكن محدود المساحة ، وقاصر على فئات معينة قليلة العدد ، ولا يظهر الداعين إليه إلا عند الفتن وتعود فتخبو جذوته فور انتهائها .

مؤتمر المسلمين ١٩١١م

عقد الأقباط مؤتمراً لهم في أسيوط نددوا فيه بالمسلمين، وشادوا بذكر القبط ومحاسنهم وكفايتهم، وأجابهم المسلمون بعقد مؤتمر آخر في مصر الجديدة برياسة مصطفى باشا رياض ، وكان انعقاد هذا المؤتمر في غرة مايو سنة ١٩١١، وسموه المؤتمر المصري، وخطب فيه وجهاء المسلمين، كالشيخ علي يوسف وكان موضوع خطبته " التعليم في مصر وحظ المسلمين والأقباط منه " ، والشيخ عبد العزيز جاويش في: "الربا في الإسلام " ، وطلعت حرب قد خطب خطبة دعا فيها إلى إنشاء بنك مصر، وكذلك فعلوا على العموم في الإشادة بالمسلمين وتفضيلهم على الأقباط في العلم والذكاء الكفاية.

ولما ثارت الحرب العالمية أراد بعضهم أن يثير الفتنة بين المسلمين والأقباط من جديد فحاول الإنجليز أن يثيروا الأقلية على الأكثريَّة، فكان الرد عليهم تعانق الصليب والهلال رمزاً لاتحاد المسلمين والأقباط وفعلوا في تحقيق ذلك أفعالاً كثيرة سدوا بها هذه الفجوة .

ولمَّا تألف الوفد المصري، للمطالبة بالاستقلال، كان من أعضائه مسلمون وأقباط؛ وارتفع صوت العقلاء يقضون على نزعة التعصب هذه، ويدعون إلى الألفة والاتحاد منعاً لدخول المحتلين من منفذ ولو ضيق، ليوسعوا شقة الخلاف . (١)

المواطنةُ هي الحلُّ

إن المواطنة هي الحل لمثل هذه الآراء المتطرِّفة فالمواطنة تجعل جميع المواطنين المصريين لدي القانون سواء وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة .

---

(١) أحمد أمين " قاموس العادات والتقليد والتعابير المصرية " دار الشروق ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

ونختم هذا الموضع برد رشيد رضا على بعض المسيحيين دعاة القبطيَّة كجنسيَّة وديانة ثم نتبعه بتعليق موجز عليه .

يقول رشيد رضا : " تقول القبط : إن لنا من الحقوق في هذه الحكومة ما لـيس لغيرنا ؛ لأننا سكان البلاد الأصليين ، ويجيبهم المسلمون على هذا بأربعة أجوبة :

(١) إننا لا نسلم أنكم سكان البلاد الأصليين ، وسلالة الفراعنة المستكبرين ، وقد صرَّح المسلمون بهذا ، وأيَّدوه بأقوال مؤرخي الإفرنج .

(٢) إذا سلمنا أنكم من سلالة قدماء المصريين ، فإن لنا أن نتبع فيكم سنة أرقـى الحكومات المسيحيَّة علمًا وعدلاً وحرية في سكان بلادها الأصليين ، وهي حكومـة الولايات المتحدة ، فهل ترضون أن تكون حقوقكم في هذه الـبلاد كحقـوق هنـود أمريكة في حكومتها الآن ، وهم أهلها الأصلاء بغير خلاف ؟

(٣) إنكم تقولون : إن أكثر مسلمي هذه البلاد منكم وأقلهم من العـرب والتـرك والشركس ، فلا مزية لكم في هذا النـسب الـشريف علـى جمهـور المـصريين المسلمين، ولهم المزية عليكم بكثرتهم ، وكون الحاكم العام من أهل دينهم ، وذلـك سبب للترجيح متبع في الحكومات المسيحية الراقية .

(٤) إن طول زمن الإقامة في بلد لا يقتضي التفضيل فـي الحقـوق ، وقـصره لا يقتضي الحرمان من شيء منها ، متى كان القوم الذين طالت مدتهم أو قـصرت من أهل البلاد المقيمين فيها خاضعين لشريعتها وقوانينها .

كان بنو إسرائيل دخلاء في مصر وفضلَّهم الله تعالى في كتبه على آل فرعون ، ثم فضَّل الله تعالى العرب واصطفاهم بإرسال رسوله منهم ، مثلما اصطفى إخـوتهم بني إسرائيل من قبلهم بإرسال رسوله منهم ، كما أشار إلى ذلك فـي سـفر تثنيـة الاشتراع ، فكيف تطالب حكومة مصر التي تـدين الله تعـالى بتفـضيل الـشعب الإسرائيلي والشعب العربي في النسب على الشعب الفرعوني ؛ أن تميـز الـشعب المفضول في كتب الله على الشعب الفاضل بل الشعبين الفاضلين ، على أن الأنساب في دين هذه الحكومة وشرعها ، لا تقتضي التفضيل في الحقوق على قدر الفـضل في النسب .

فعلم مما بيناه أن النسب الفرعوني الذي تدل به القبط غير مسلم لهم ، وإذا سلم جدلاً فهو لا يقتضي تفضيلهم على اليهود ، بل اليهود أشرف منهم نسبًا ؛ لأنهم ينتسبون إلى أنبياء الله تعالى ، والقبط تنتسب إلى الفراعنة الوثنيين أعداء الله تعالى، وإذا لم يكن لهم صفة تقتضي تميزهم على غيرهم من المصريين ، فقد هدم الأساس الذي بنوا عليه طلب تعليم دينهم في مدارس الحكومة .(١)

والحقيقة أن ادعاء بعض المسيحيين أنهم وحدهم المصريون الحقيقيون ادعاء فاسد كما أن ادعاء بعض المسلمين أن المسيحيين ينتسبون إلى الفراعنة الوثنيين ادعاء أفسد ؛ فمعظم المصريين : مسلمين ومسيحيين من نسل المصريين القدماء العظام وليسوا من نسل فرعون ؛ ففرعون المتأله الطاغيَّة – كما سنبين بالتفصيل – اسم عَلَم على حاكم مصر وهو رمسيس الثاني ، وليس لقباً لكل حكام مصر .

مناظرة بين دعاة المدنيَّة الفرعونيَّة والمدنيَّة العربيَّة

بعد المؤتمر القبطي الذي عقده دعاة القبطيَّة عام ١٩١١م ، ورد فعل المسلمين الحاسم فاعتبروا بذلك وصاروا يدارون عواطف المسلمين بقدر معلوم ، وتحولت دعايتهم عن اسم الجنسيَّة القبطيَّة إلى المدنيَّة الفرعونيَّة ، أيدهم في ذلك بعض السياسيين والمسلمين المتفرنجين ، وأفراد غيرهم من الكتَّاب والمثقفين ونشروا دعوتهم هذه في الجرائد والمجلات المختلفة ، وعقدوا لها مناظرة في كلية الحقوق من الجامعة المصرية في أواخر عام ١٩٣٠م باللغة الإنكليزيَّة موضوعها : أي المدنيتين ينبغي أن تختار مصر : المدنيَّة الفرعونيَّة ، أم المدنيَّة العربيَّة ؟

وكان الانتصار فيها للمدنيَّة الفرعونيَّة ، فرأت لجنة المناظرات والمحاضرات في تلك الكلية أن تعقد مناظرة أخرى في هذا الموضوع باللغة العربيَّة ، واختارت محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار لتأييد المدنيَّة العربيَّة ، ظناً منها أنه إذا فشل ودحضت حجته لا يُرجى لأنصار المدنيَّة العربيَّة أن تنهض لهم حجَّة على لسان غيره . وطفقوا يعرضون تأييد المدنيَّة الفرعونيَّة على من يحسنون الحديث عنها ، فيأبونها حتى أجاب دعوتهم إليها الأستاذ محمد لطفي جمعة . (٢)

---

(١) رشيد رضا ، مجلة المنار " المسلمون والقبط " عدد مارس ١٩١١ ج ١٤ ص ٢٠١

(٢) محمد لطفي جمعة (١٨ /١/١٨٨٦- ١٩٥٣/٦/١٥) كاتب ومترجم وروائي ومحامي وناشط سياسي مصري عمل بالمحاماة وأصبح من كبار محاميي عصره كما كان من كبار الكتاب والخطباء والمترجمين=

وعُقدت المناظرة يوم ١٢ من شهر ديسمبر ١٩٣٠م ، وكان الرئيس المنظم للاجتماع الأستاذ وحيد رفعت من أستاذي الجامعة .

وعن هذه المناظرة يقول رشيد رضا : " كانت الكلمة الأولى لمناظرنا الأستاذ لطفي جمعة فبدأ كلامه بتخطئة لجنة المناظرة في قولها : (المدنيَّة الفرعونيَّة) ، وقرر أن هذا التعبير لا يصح ؛ لأن كلمة (فرعون) لقب لبعض ملوك مصر الأولين ، وقد تولَّى حكم مصر بعدهم ملوك البطالمة وأمراء العرب ، وآخرون لُقِّبوا بالسلاطين ، وآخرون لقبوا بالخديويين ، ثم عادت حكومة البلاد الآن ملكيَّة ، فإذا صح أن تسمى مدنيَّة هذه البلاد فرعونيَّة في عصر جاز أن تسمى في عصور أخرى سلطانيَّة وخديويَّة وملكيَّة ، وهذا ما لا يقول به أحد .

ثم قال : إن لهذه البلاد مَدَنيَّة خاصة يجب أن تسمى (المَدَنيَّة المصريَّة) ، ولا يجوز أن تسمى فرعونيَّة ولا عربيَّة لا في الأزمنة الماضيَّة ولا في هذا الزمن، واحتج على ذلك بأن المصري الذي ذهب إلى بلاد العرب كالحجاز أو غيرها من الأقطار ، يقال : فلان المصري لا العربي . وذكر أن المَدَنيَّة المصريَّة تمتاز على جميع مدنيات الشعوب بمزايا خاصة بالمصريين لا يساويهم فيها أحد . وذكر منها سمرة اللون وخفة الروح وحسن الفكاهة والظرف في النكت المليحة . وأطال في وجوب محافظة المصريين على تسمية مدنيتهم مصريَّة وعدم نسبتها إلى العربيَّة ، وذكر أن تدينهم بالإسلام لا يقتضي أن يكونوا عربًا في مدنيتهم وجنسيتهم ، فإن الإسلام دين عام يشمل جميع شعوب البشر ، وذكر أنه هو يرى – كمسلم مصري أو مصري مسلم – الأخذ بالمدنيَّة المصريَّة . وقد أطال في هذا بفصاحته وبداهته ، بما لا يستطيع كل أحد أن يطيل به لضيق الموضوع وإعوازه الحقائق التي تمدُّه ، وفقده للدلائل التي تثبته .

ولما انتهى الوقت الموقوت له في الكلام وما زاده عليه ، قمت فشكرت له إنكاره لنسبة المدنيَّة إلى لقب فرعون ، وقلت : إنني كنت عازمًا على هذا الإنكار فكفاني

= كان عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق وكان يجيد الفرنسية والإنجليزية.(مذكرات محمد لطفي جمعة الهيئة العامة للكتاب ص ١٦، ٤٣) .

مؤنته . وأثنيت على فصاحته واستقلال فكره ؛ إذ لم يرضَ لنفسه أن يكابر الحق في المسألة ، وذكرت أن جعل سمرة اللون من آيات الجنسيَّة أو المدنيَّة المصريَّة تُخرجه هو ورئيس اللجنة منها ؛ فإنهما أشقران لا أسمران ، ثم أفضت في الموضوع .

وملَّخص ما قلته مع اختصار لبعض المسائل وإيضاح قليل لبعضٍ مع التزام الموضوع : أن مسألة النسبة إلى مصر نسبة إلى بلد هذا القطر . وكان المعروف عند علمائنا أن العرب الأقدمين كانوا ينسبون الأشخاص إلى أجناسهم النسبيَّة وقبائلهم ، فيقولون مثلاً : قرشي أو تميمي ... إلخ ، وينسبون الأعاجم إلى شعوبهم: كرومي وهندي وفارسي ، والأشياء إلى بلادها كالحبر اليمانيَّة والقباطي المصريَّة.

وكان الأعاجم ينسبون الأشخاص إلى بلادهم فيقولون : مصري وبصري ودمشقي وخراساني مثلاً ؛ لأن الأنساب قلما تحفظ في الأمصار .

وبعد الحضارة الإسلاميَّة تغلبت النسبة إلى البلاد على النسبة إلى القبائل ؛ لأن من شأن الحضارة أن تمزج القبائل الكثيرة والأجناس الكثيرة في مصر واحد ، وإنما تحفظ الأنساب في أطوار البداوة .

والنسبة إلى مصر الآن عندما نقول : فلان مصري . يراد بها الجنسية السياسيَّة التي تُنال بالإقامة وقبول الحكومة ، لا النسبة إلى جيل من سكان هذا القطر كالقبط والعرب ، فكل مَن له حق الجنسيَّة المصريَّة الآن يقال له : مصري (وإن كان غير المسلم والقبطي منهم قد يُنسب أيضًا إلى أهل ملَّته كاليهودي أو جيله كالرومي) .

إن المدنية قوامها اللغة والفنون والصناعات والثقافة المعنوية من العقائد والتشريع والآداب .

فنحن إذا نظرنا إلى أن المصريين القدماء يمتزجون بالعرب وأن بعض العلماء يقول إنهم كلهم أو أصلهم من العرب ، ولم نستطع ترجيح هذا القول على ما قبله فإننا نجزم قطعًا بأن المصريين بعد الفتح الإسلامي قد امتزجوا بالعرب المسلمين وغلبت عليهم الحضارة العربية بجميع مقوماتها ومشخصاتها ، فلغتهم كلهم عربية ، ودين السواد الأعظم منهم هو الإسلام الذي هو ينبوع ثقافة الآداب والتشريع .

وإذا أردنا المقارنة بين المدنيَّة العربيَّة الإسلاميَّة وما يسمى المدنيَّة الفرعونيَّة – والمراد بها القبطيَّة – وأردنا أن نرجح بين المدنيتين فإننا نقول : إن مدنيَّة الفنون والصناعات تختلف باختلافات الأزمنة وحاجات البشر فيها ، فالفنون والصناعات التي رقّاها الأوربيون من وسائل المعايش والتنقلات كالسكك الحديدية وغيرها لا يصلح للبشر في ارتقائهم المدني في هذا العصر غيرها (على أن المباني العربيَّة أجمل من الإفرنجيَّة والفرعونيَّة ، ولا يوجد أمَّة في هذا العصر تسفِّه نفسها ببناء أهرام كأهرام الجيزة !) .

فيبقى النظر في اللغة والثقافة المعنويَّة ، فأما اللغة فلا يمكن أن يقال : إنا نؤْثِر اللغة الهيروغليفيَّة على العربيَّة ؛ لأنها لغة ميتة ذهبت عينها وبقيت آثارها ، وليس فيها مزيَّة توجب إحياءها واستبدالها بالعربية لو كان ممكناً .

وأما الدين فدين الفراعنة كان وثنيًّا ، ودين السواد الأعظم من المصريين الإسلام وتليه النصرانية فاليهودية ، ولا يرضى أحد من المصريين أن يرجع إلى دين الفراعنة الوثنيين فيعبد العجل (أبيس) وغيره من آلهتهم .

فأساس العقائد الإسلاميَّة التوحيد ، ومن مقتضاه أن لا يخضع البشر ولا يذلوا إلا لله تعالى خالقهم ورازقهم ولا يخافوا سواه .

وأما الفرعونيَّة فأساسها عبادة البشر والبقر والثعابين وغيرها !

وكفاكم ما قصَّه الله تعالى من قول فرعون موسى عليه السلام لقومه : { مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي } (القصص : ٣٨) وقوله : { أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى } (النازعات : ٢٤) وقوله : { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ } (الزخرف : ٥٤) ؛ أي حملهم على الخفة والجهل ؛ أي السفه ، وأي قوم يسفهون أنفسهم في هذا العصر فيعبدوا ملكهم ويقبلوا استبداده فيهم باختيارهم ؟!

وأما التشريع – وهو الذي يهم إخواننا طلبة الحقوق بوجه خاص – فأساس التشريع الإسلامي السياسي والمدني والعسكري فيه مبني على أن السلطة للأمة بنص قوله تعالى : { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } (الشورى : ٣٨) ، وقوله لرسوله : { وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ } (آل عمران : ١٥٩) ، فأنتم ترون أن الله أمر نبيه

المعصوم أن يشاور الناس في المصالح العامة ، فكان يشاورهم ويعمل برأيهم ولــو خالف رأيه ؛ كما فعل في غزوة بدر وغزوة أحد (وقد ذكرت بعض الشواهد على ذلك) .

وحسبكم من التصريح بسلطة الأمة في الإسلام – الخطبة الأولى للخليفــة الأول أبي بكر الصديق ؛ فإنه بعد مبايعته بالخلافة صعد منبر الرسول ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أما بعد فقد وُليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمت فــأعينوني ، وإذا زغت – أي اعوججت – فقوموني) .

فهو قد صرَّح بأن الأمَّة لها الحق أن تقوِّم حاكمهــا العــام إذا اعــوج وخــالف مصالحها وشريعتها ، (وتبعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في هــذا التــصريح الرسمي ، فقد اشتهر قوله على المنبر : مَن رأى فيكم عوجًا فليقومه . وما أجابه به أعرابي من تقويمهم إياه بسيوفهم) ؛ فسلطة الأمة إنما جاء بها الإسلام وعنه أخذها الأوربيون ، ومنهم ومن المسلمين مَن يجهل هذا ، ومنهم من يعرفونــه وهــم لــه جاحدون !

إن مدنيَّة العرب الحديثة – أي الإسلاميَّة – قد اعترف بها كثيــر مــن علمــاء الإفرنج على اختلاف أجناسهم ، وألَّف بعضهم فيها كتبًا مــشهورة ، منهــا كتــاب (سيديو) (خلاصة تاريخ العرب) وهو مترجم بالعربية ومطبوع ، ومنهــا كتــاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي الشهير . وهو كتاب ضــخم ترجمه محمد بك مسعود المشهور ، وربما ينشر قريبًا .

وإن كان بعض الشعوبيَّة المبغضين للعرب يدَّعون أن مدنيَّــة العباســيين فــي الشرق قد اشترك فيها العجم مع العرب . والحق أن العرب هم الــذين أوجــدوها ، وبلُغتهم انتشرت علومها وفنونها ، فهذه آثار هذه المدنية في الأنــدلس – ولا ســيما قصر الحمراء وبقية جامع قرطبة – آثار ماثلة مشاهَدة تفقأ عيني كل مكابر منكــر لمدنية العرب من الغربيين وغيرهم ، فالذين أحدثوا تلك المدنية الباذخة كلهــم مــن العرب الأقحاح الخلص المعروفة أصولهم وقبائلهم في كتب التاريخ .

وقد قال الدكتور جوستاف لوبون في كتابه (تطور الأمم) ما معناه : إن ملكــة الفنون لم تستحكم لأمة من الأمم المتحضرة في أقل من ثلاثة أجيال : جيل التقليد ،

وجيل الخضرمة وجيل الاستقلال ، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت لهم ملكة الفنون في جيل واحد !

وأخبرني صديقي محمود بك سالم الشهير من عهد بعيد أن لديه كتابًا باللغة الفرنسية ألفه بعض علماء أوربة وسماه (فسيولوجيا الأمم) يبحث فيه عن البنية البشريَّة في الشعوب المختلفة ، وقد أثبت فيه أن بنية الشعب العربي أكمل البنى . وقد نسيت اسم هذا الكتاب ، ولعلنا نسأله عنه ، وهو في باريس الآن .

وأما مدنيَّة العرب من حيث الثقافة الدينيَّة فهي مبنيَّة على إصلاح النفس البشريَّة عقلاً وأخلاقًا ؛ لأن النفس البشريَّة متى صلحت فهي تُصلح كل شيء ، وإصلاح النفس البشريَّة له أساسان : (أحدهما) استقلال الفكر وحرية الوجدان (والثاني) عزَّة النفس وقوة الإرادة .

وكانت العرب قبل الإسلام أعظم أمم الأرض استعدادًا لهذا الإصلاح ؛ فإن من المعلوم عند جميع المطَّلعين على تواريخ الأمم أنها كانت قبل ظهور الإسلام مستعبَدة للملوك ولرؤساء الأديان ، فلا حرية لفرد منها في دينه ووجدانه ، ولا في إراداته ، وقد فصلت هذا في مجلة المنار وأجملته في (خلاصة السيرة المحمدية) .

وأما العرب – ولا سيما عرب الحجاز – فلم يكن لهم ملوك مستبدُّون يستعبدونهم، ولا رؤساء أديان يحملون على ما يقررونه في الدين وإن لم يعقلوه ، فضلاً عن كون عقولهم تتكره وتأباه ، وبهذا كانوا أشد استعدادًا للإصلاح الإسلامي على بداوتهم من شعوب المدنيَّة المعاصرة لهم ، فجاء الإسلام في عقائده وفي تشريعه مكرمًا للنفس البشريَّة ، ومعليًا لشأنها ، فهو لا يحكم على البشر بأن يذلوا ويخضعوا لأحد إلا لخالقهم ، حتى إن الرسول المعصوم قد خاطبه الله في نصوص القرآن بمثل قوله : { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ } (الغاشية : ٢١ – ٢٢) وقوله : { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ } (ق : ٤٥) وقوله : { إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ } (الشورى : ٤٨) ، { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً } (الفرقان : ٥٦) أي إنما أرسلناك معلمًا مربيًا لا مسيطرًا ولا قهَّارًا .

(وأما المدنيَّة الفرعونيَّة فقد كانت تستعبد البشر وتذلهم ، كما فعلت ببني إسرائيل وغيرهم ، وهذه الأهرام – التي هي أظهر آثارهم – حجة عليها وعليهم ؛ فقد كانوا يسخرون في بنائها مئات الألوف الخاضعين لهم) .

وقال تعالى – في حرية العقيدة والدين – : { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ } (البقرة : ٢٥٦) ، فبهذه العقائد والآداب والحكم خرج عرب الجاهلية من بداوتهم وجهلهم ، وفتحوا الممالك بالعدل والفضيلة والآداب ، لا بالقهر والظلم والإذلال ، فإن ملكهم قد امتد في قرن واحد من شواطئ المحيط الغربي (الأطلنطي) إلى حدود الصين ، وأوجدوا مدنية جديدة جمعت بين الدين والدنيا كما أرشدهم القرآن في آياته الكثيرة .

ومن المعلوم أنه لم يكن في بلاد العرب قواعد حربية تُخرج الجنود ، وتمدها بالذخائر ، والمؤن من الشرق إلى الغرب ، وإنما كانت قوتها العدل والفضائل الإسلامية .

فهذا مجمل وجيز من مدنية الثقافة الإسلامية التي ينكرها بعض الجاهلين والمكابرين ، ويماري فيها بعض الملاحدة المتفرنجين .

وبقاء انتساب مصر إلى العربيَّة يحفظ لها هذه الرياسة على الشعوب العربيَّة الكثيرة ، ولها من ذلك فوائد سياسيَّة وأدبية واقتصاديَّة كبيرة ، وتبرُّؤها من العربيَّة وانتسابها إلى الفرعونيَّة ليس فيه أدنى فائدة لمصر لا ماديَّة ولا معنويَّة .

وقد قام بعدي مؤيد الفرعونيَّة ، فألقى كلامًا شعريًا مبهَمًا في المدنية الفرعونيَّة يظهر أنه كان مكتوبًا محفوظًا فلم يستطع الخروج عنه ، وقد أراد هذا الخروج فلم يكن إلا خروجًا عن آداب المناظرة ، حتى صاح به السامعون : اسكت ، اسكت ، انزل انزل ، تكلمْ في الموضوع .

وفي الختام أُخذت الأصوات فكانت الأكثرية الساحقة مؤيدة لنا في تفضيل المدنيَّة العربيَّة واختيارها ، وظهر من الهتاف لنا والتصفيق أن السواد الأعظم معنا يرجح المدنيَّة العربيَّة من كل وجه .

ثم طلب الرئيس من المستمعين أن يخرج المرجِّحون للعربيَّة من باب النادي الذي عن يميننا ، ويخرج المرجِّحون للمدنيَّة الفرعونيَّة من الباب الذي عن شمالنا ، فتأكد بذلك أن الأكثريَّة الساحقة من أصحاب اليمين ، والظاهر أن أكثر أصحاب الشمال من القبط ، وأقلهم من المسلمين الغافلين ، وأما الذين أخذوا منهم بطائق التصويت وكتبوا عليها رأيهم فكانت نسبة الترجيح لنا منهم أقل من الواقع ، ذلك

بأن الهيئة الإداريَّة التي تولَّت الإحصاء لها أعلنت أن المؤيدين للعربية منهم ١٨٧ صوتًا تجاه ١٠٣ في جانب الفرعونيَّة .

ولما فرغنا من المناظرة أقبل الناس فُرادَى وثُبات يهنئونني بالفلج والظفر ، ويدعون الله لي بما يناسب المقام ، ولله الحمد على توفيقه . (١)

وليسمح الشيخ الجليل رشيد رضا أن أصحِّح له بعض المعلومات التي ربما لم تكن متوفرة لديه عندما قال ما قال في هذه المناظرة ، لقد خلط رشيد رضا بين المصريين الذين يمتدُّ نسبهم إلى القدماء المصريين والذين يمثلون نسبة ٧٩% من سكان مصر ممن يحملون جنسيتها كما دلَّت الأبحاث التي أجريت على جينات المصريين ، وبين من يحملون الجنسيَّة المصريَّة من غير المصريين ؛ لبيان أن ليس هناك شعب مصريٌّ له سمات تميزه عن سائر الأمم والشعوب ، إنما المصريون عرباً ككل العرب بل زعم أن المصريين القدماء جاءوا من أصل عربي، وإن كان هذا الرأي لا يستطيع ترجيحه إنما الذي يستطيع أن يجزم به أن المصريين بعد الفتح قد فنوا في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة كما فنى غيرهم من العرب وهذا ما سوف نتبين خطؤه عندما نعرض لسمات لشخصيَّة العرب المُستَعْرِبَة ، والشخصيَّة المصريَّة .

ثم يقارن ، الشيخ رشيد ، بين المَدَنيَّة العربيَّة الإسلاميَّة والمَدَنيَّة الفرعونيَّة من حيث العلوم والفنون فيرجِّح علوم وفنون المدنيَّة العربيَّة الإسلاميَّة لأنها أحدث والجديد في العلوم والفنون يَجُبُّ ما قبله ، والحقيقة إن الحضارة المصريَّة القديمة حضارة مُعْجِزَة في العلوم والفنون وهي أمُّ الحضارات الإنسانيَّة قاطبة ولقد فشلت الأمم أن تكشف أسرارها فضلاً عن أن تصنع مثلها ، أما الحضارة الإسلاميَّة فإن الذين صنعوها هم العرب المُستَعْجَمَة وفي مقدمتهم مصر ولم يشارك فيها العرب المُستَعْرِبَة إلى بالنزر اليسير كما سيأتي بيانه .

أما تفضيل المدنيَّة العربيَّة على المصريَّة بسبب أن لغة العرب بقيت واللغة الهيروغليفية ماتت ، فالحقيقة إن بقاء اللغة العربيَّة كان بسبب اختيار الله تعالى لها

---

(١) رشيد رضا " مجلة المنار " مناظرة في الجامعة المصرية في المدنيتين الفرعونية والعربية (وأيتهما تختار مصر هذا العصر ؟!) ج ٣١ ص ٤٦٥ عدد يناير ١٩٣١م

لينزل بها آخر كتبه القرآن الكريم ولقد حافظ المسلمون ، وجلُّهم من العرب المُستَعْجَمَة ، على لغة القرآن فألفوا علومها : النحو والصرف واللغة والمعاجم وكتبوا بها مؤلفاتهم العظيمة الباقية .

أما عن أن المدنيَّة العربيَّة دينها الإسلام بعكس المدينة المصريَّة فدينها الوثنيَّة فالحقيقة أن الإسلام ليس ديناً عربيّاً أرسله الله للعرب خاصَّة إنما ديناً إلهيّاً أرسل الله تعالى به محمداً ﷺ للعاملين يقول تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ }

[الأنبياء : ١٠٧]

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا } [سبأ : ٢٨]

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف : ١٥٨]

أما ديانة المصريين القدماء فلم تكن الوثنيَّة كما زعم رشيد رضا إنما كانت ديانة توحيد منذ سيدنا أدريس النبي المصري ثالث نبي أرسله الله تعالى بعد آدم وشيث أي منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، كما سيأتي بيانه .

وفي حديث رشيد رضا عن نظام الحكم في المَدَنيَّة العربيَّة لم يتحدث عن المَدَنيَّة العربيَّة إنما تحدَّث عن الإسلام الذي جاء بحرية العقيدة والأمر بالشورى ، في مقابل المَدَنيَّة المصريَّة التي بنيت على قهر واستعباد ، ونحن نعذر الشيخ رشيد ربما لم يسمع في حينه عن قانون ماعت الذي حكم به ملوك مصر والذي بسببه أطاعهم المصريون ، وهو الذي ينسف نظرية بناء المصريين لحضارتهم بالسخرة والقهر والعسف ، كما سنذكر لاحقاً .

والحقيقة أن رشيد رضا قد خلط بين سمات العرب وخصائص الإسلام ففي حديثة عن العرب تكلَّم عن الإسلام وفي حديثه عن الإسلام تكلَّم عن العرب ، ولم يفرِّق بين أنواع العرب : المُستَعْرِبَة ، والمُستَعْجَمَة ، ونحن – المصريين – وإن كنا نعتز بأرومتنا المصريَّة وبتاريخنا التليد وحضارته العظيمة التي بنيت على التوحيد فإننا نؤمن بالإسلام وبمحمد خير الأنام ، ولا نتنكَّر للعربيَّة لغةً وثقافةً ومقوِّماً أساسياً للوحدة العربيَّة المنشودة ، ولكن هذا لا يجعلنا عرباً مُستَعْرَبَة (عرب الجزيرة العربية واليمن) إنما نظلُّ عرباً مُستَعْجَمَة ، وإن كان العرب المُستَعْرِبَة كان لهم الفضل في الفتوح الإسلاميَّة ونشر الإسلام ، فإن العرب المُستَعْجَمَة قد

قامت ببناء الحضارة الإسلاميَّة التي يفاخر بها الشيخ رشيد رضا وهو ما سوف نفصل القول فيه في أحد فصول هذا الكتاب .

هل مصر فرعونيَّة لحماً ودماً أم هي عربيَّة قلباً وقالباً ؟

وكما أن رشيد رضا قد سجَّل لنا مناظرته السابقة في مجلة المنار فإن من المفارقات الطريفة أن الأستاذ لطفي جمعة قد سجَّل أيضاً في أحد كتبه مناظرة أو مساجلة بحثيَّة حول " هل مصر فرعونيَّة لحماً ودماً أم هي عربيَّة قلباً وقَالَباً ؟ " دارت بين أديب سيوطي هو ناشد سيفين ، وشيخ صوفي هو التفتازاني .

يقول لطفي جمعة : " الأديب السيوطي ينادي بأن مصر فرعونيَّة لحماً ودماً ولو كره التفتازاني ، والشيخ يصرُّ على أنها عربيَّة قلباً وقالَباً ولو كره سيفين . فالأوَّل بطل الفرعونيَّة الأولى ونصيرها ، والثاني زعيم العروبة ومعضِّدها ، وقد تقدَّم كلٌ بأدلته يدحض بها حجج خصمه ويردُّها وقد يتحامل أثناء الجدل شأن كل متشدِّد في فكره .

وفي ظنِّي أن الأديب السيوطي كيمائي صيدلي وهو يحسن مزج الكلام ما يحسن صنع الدواء وهو متحمِّس لفرعونيَّة مصر التحمُّس كلَّه ، فهو تارة يلجأ إلى أدلة علميَّة مبسطة من تحليل دماء المصريين ليثبت وحدة النسب بين القبط ومجموع السكان ، وطوراً يؤكِّد أن الثابت من التاريخ ومن الدليل العلمي أنه لم يحصل اختلاط بين المصريين والعرب إلا قليلاً ، وأنه ليس لهذا الاختلاط أثر باق إلا في القليوبيَّة والجيزة والقاهرة .

وقد يزداد أسلوب ناشد غلياناً فيرمي الشيخ بالجمود وينعي عليه تسميته الآثار أطلالاً وثنيَّة وأعلاماً كفريَّة .

ولم يقصِّر الشيخ في مجادلة الفاضل الكيميائي بما يقرب من هذا أو أشد فقال له: " لو كانت هذه الآثار مدعاة لنسبة الأمم لأصحابها لكانت الشام مصريَّة فرعونيَّة أيضاً لأن آثار جبيل وغيرها من المكتشفات في لبنان وسوريا تثبت أنه كان هنالك مجد عربي فرعوني " .

وفي رأينا – والكلام ما زال للطفي جمعة – أن كلا المتناظرين مخطئ لأنه متعصِّب لفكرته . فالأديب السيوطي يريد محو النسب العربي مع أنه هو والسادة

آباؤه وأجداده نشئوا في المَدَنيَّة العربيَّة وأكبر دليل على ذلك أنه الآن يكتب ويفكِّر باللغة العربيَّة بل يحسن التفكير والإنشاء بها كأحد الأدباء المتمكِّنين .

ولست في حاجة إلى التدليل على مكانة اللغة من عقل الرجل المتعلِّم . كذلك الشيخ متعصِّب لأنه لا قيمة لأمَّة شرقيَّة كانت أو غربيَّة بغير ماضيها ، وماضي مصر من مفاخر الدنيا لأنها مهد الحضارة ومعلِّمة الأمم وفيها بزغ فجر المَدَنيَّة (١)

أعداء الحضارة المصريَّة القديمة

ومن المفارقات غير اللطيفة أن لطفي جمعة الذي قال : " ماضي مصر من مفاخر الدنيا لأنها مهد الحضارة ومعلِّمة الأمم وفيها بزغ فجر المَدَنيَّة " انتكس بعد ذلك على فكرته في الدعوة إلى المَدَنيَّة المصريَّة وتبنَّى المدنيَّة العربيَّة وهاجم التاريخ المصري القديم هجوماً شديداً واتَّهم حكام مصر بالتألُّه والطغيان وتسخير الشعوب لبناء أمجاد شخصيَّة !

يقول لطفي جمعة : " أبادر فأصرح بأنني أدين بعروبة مصر ، لا من حيث خُلُقَها وعاداتها وأدبها ولغتها وعقيدتها فحسب ، بل من حيث تاريخها الحديث وتكوينها العصري ، وإنني لا أكره أن يتذَّكر المصريون من حين إلى آخر أنهم يعيشون في بلاد ذات تاريخ مجيد عاش فيها شعب أسير تحت سيطرة ملوك أقوياء، وأن آثار هذا الشعب في العلم والدين والآداب والحروب والحضارة الماديَّة وفنون العمارة تُذْكَر فَتُشْكَر .

ولكن لا يجوز للأحياء والمعاصرين أن يتفانوا أو يتلاشوا في الفكرة الفرعونيَّة ، لأنهم ليسوا محتاجين في استيحاء العظمة القوميَّة إلى ذكريات الفراعنة ؛ لسبب هيِّن سهل الإدراك وهو أن الشعب كان في العهود الفرعونيَّة ذليلاً مهضوم الحقوق.

لقد ثبت لنا أنه من واجبنا نحو العروبة أن ننصرف عن ذلك الماضي السحيق الذي يمتدُّ أربعين قرناً كما قدَّره علماء الآثار وأن نغلق كتاب الذكرى بأفراحها وأتراحها لنبحث بعين الحقيقة فيما توحيه عظمة العرب من نضارة وتألُّق ، فإن لنا

---

(١) محمد لطفي جمعة " مباحث في التاريخ " دار عالم الكتب ص ١٥١ ، ١٥٢

منها ماضياً جليلاً ومستقبلاً حافلاً بالآمال ، ونرى لزاماً علينا أن نرجع بالوطن إلى الأصل العربي . فإن اندفاع الأمَّة وراء الفرعونيَّة إنما هو جرى وراء سراب لا يمكن أن يكون فيه إلا الغثُّ . وإن الفرعونيَّة دُفِنَت واستقرَّت في جوف الأرض ولن تبعث إلا على أفواه المؤرخين وفي صفحات الكتب .

أيَّة عظمة في تاريخ مصر القديمة تفيد الشعوب المظلومة في ضوء عصور الحرية الحديثة ؟

لقد كان الفرعون أو الملك مصدر السلطات وصاحب الأمر وحده ، ونحن نقول الآن إن الأمَّة مصدر السلطات وهذه فكرة عربيَّة (وأمرهم شورى بينهم ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، أكرمكم عند الله أتقاكم) وكان الفراعنة يطالبون الشعب بأن يعبد كلاً منهم طول مدة حكمه بوصفه إلهاً.

ولولا هذا السلطان الواسع للفراعنة على الشعب لم يكن لهؤلاء الظالمين استخدام الأمَّة بأسرها في بناء الأهرام ، لا لشيء إلا لمواراة أجسامهم بعد موتهم ، ولا من إرسال جيوش جرَّارة إلى الأقطار المجاورة يقطعون الصحراء للفتح ، وفوق هذا كانت المراكز الكبيرة في يد نفر من الناس ذوي الثروات الواسعة ، وبقيت من بعدهم لخلفائهم ، وفي كثير من الأحيان كان بعض هؤلاء يرثونها ضمن ما يرثونه من آبائهم من ضياع وأموال . (١)

ونقول لكلِّ جاهل بتاريخ مصر العظيم ، وبحقيقة الحضارة المصريَّة القديمة : إن اندفاع المصريين لدراسة الحضارة المصريَّة القديمة ليس جرياً وراء سراب كما زعم لطفي جمعة وأمثاله إنما سعي وراء العلم والمعرفة ولقد سبقنا في السعي إليه جميع البلاد المتطوِّرة فجنوا منها النافع السمين في شتى العلوم والمعارف ، ولم ير فيها أمثال لطفي جمعة إلا الغث ؛ فأصبحنا عالة على الغرب الذي سبقنا إلى معرفة قيمة حضارتنا !

(١) محمد لطفي جمعة " مباحث في التاريخ " دار عالم الكتب ص ١٥١ ، ١٥٢

إن مَثَل لطفي جمعة وشيخه الصوفي وغيرهما مع آثار مصر القديمة ومَثَل الغرب المتقدِّم معها كمَثَل المصريين قبل عصر النهضة مع حجر رشيد فلم يروا فيه إلا حجراً مرقوماً في حين أن العلماء الفرنسيين رأوا فيه كَنْزنا مدفوناً .

إن بداية عصر النهضة الأوروبيَّة كانت بإحياء الحضارة اليونانيَّة التي أخذت علومها ومعارفها من الحضارة المصريَّة القديمة .

أما قول لطفي جمعة : " أيَّة عظمة في تاريخ مصر القديمة تفيد الشعوب المظلومة في ضوء عصور الحرية الحديثة ؟! " فليعلم لطفي جمعة وهو المحامي الشهير المفتون بالدساتير الأوروبيَّة والحريات الغربيَّة الحديثة أن الحريَّة التي تنعم بها أوروبا إنما هي ثمرة من ثمرات الحضارة المصريَّة القديمة ، وأن دساتيرها وقوانينها إنما هي من بعض ما تعلَّموه من قوانين مصر القديمة .

لقد جاء "سولون" إلى مصر عام ٥٩٥ ق.م وقال: أخذني أحد الكهنة إلى بيت أفلاطون الذي أقام فيه، وقال لي: هنا.. علَّمْنا أفلاطونَ الفلسفة في مصر طوال ١٣ عاماً ! ثم ربت على كتفي قائلاً: أنتم أيها اليونانيون أطفال بالنسبة لنا! وقد أقرَّ أفلاطون بفضل مصر عليه حين ترك لنا في كتابه القوانين قوله : " ما من علم لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر . "

جاء "سولون" من أثينا، ليدرس القانون في مصر القديمة .. هذا القانون الذي يقول عنه الدكتور محمود السقا، والدكتور محمد أبو سليمة: كان القانون المصري القديم ، مثاليّاً في قواعده عادلاً في أحكامه، عالميّاً في مراميه، بُني على العدل والأخلاق وشتَّى الفضائل، كان علامة من علامات التكوين الحضاري التي كانت فطرة المجتمع المصري التي فُطر عليها .

أخذ " سولون " القانون المصري المعروف بقانون "بوكخوريس" (١) وعاد إلى أثينا، ووضع قانوناً باسمه ألا وهو " قانون سولون" ! ومرت السنون وذهبت لجنة

(١) قانون بوخوريس : أصدره الملك " بوخوريس " أحد حكام الأسرة ٢٤ من ٧١٨-٧١٢ ق .م جمع فيه النظم والقوانين التي كانت سائدة قبله مع إضافة بعض التعديلات .

رومانيَّة تُدعى " لجنة الأشراف " من روما إلى اليونان؛ لدراسة قانون سولون المبنى على قانون "بوكخوريس" المصري، ووضعوا أسس القانون الروماني المعروفة بموسوعة جوستنيان، قانون الألواح الاثنى عشر ، ومرت القرون وجاء نابليون بونابرت لينهل من القانون الروماني ويضع قانوناً باسمه: قانون نابليون!! وتمر الأعوام وتأتى مصر لتضع قوانينها في العصر الحديث المستمدَّة من القانون الفرنسي !

ويصدق فينا قول إخوة يوسف عندما اكتشفوا أن بضاعتهم التي اشتروا بها القمح من مصر قد رُدَّت إليهم { هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا } .

كانت مصر هي أول من وضعت: العدل أساس الملك.. وأن الحاكم يحيا بأعماله العادلة، وكان الملك يقدِّم تمثالاً لربة العدالة " ماعت " كلَّ سنة، تذكيراً له بأن العدل هو أساس الحكم . كما كان كل قاضٍ يضع حول عنقه تمثالاً لربة العدالة " ماعت " وهذه رسالة من أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة لأحد وزرائه : " حافظ علي القانون واحرص على أن يتمَّ كلُّ شيء طبقاً للقانون، حتى يصل كلُّ شخص إلى حقه "

بينما كان قانون حمورابى (البابلي).. تختلف الأحكام به حسب الطبقة لاجتماعيَّة!

كُتِبَ القانون المصري القديم بصيغة بلاغية في منتهى الإتقان، عبارات واضحة سليمة ومختصرة، كان القانون يصاغ في محكمة العدل المسماة " دار حوريس الكبرى" .

بعد هذا كله يدَّعي محمد لطفي جمعة وغيره أن كلَّ حكام مصر القدماء كانوا ظالمين ، وأنهم استعبدوا الشعب المصري وسخَّروه في بناء الأهرام ليدفنوا فيها جثثهم (١) وفي الحروب ليوسعوا بها ملكهم (٢) !! ويردُّ أمير الشعراء أحمد شوقي على مثل هؤلاء فيقول :

---

(1) لم يُبْنَ الهرم الأكبر كمقبرة يدفن فيها الملك إنما الهرم الأكبر بُنِيَ كمرصد ، والمصريون القدماء أطلقوا عليه " برامس " وهو الاسم الذي حرَّفه الإغريق إلى بيراميدس عندما نقلوه بالسمع عن طريق المترجمين وبالكشف عن معنى كلمة " بيرامس " في اللغة المصرية القديمة وجدناها تعنى المرصد وقد ورد اسم برامس في وثائق وبرديات كتب العقيدة بوصفه نافذة مخاطبة السماء أو مرصد مخاطبة السماء وتلقي تعاليم الرسالة . راجع كتاب د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر " نهضة مصر للطباعة النشر ص ٧

(2) لم تكن الحروب التي خاضها حكام مصر في عهد الحضارة المصريَّة القديمة إلا حروباً دفاعيَّة ولم تكن أبداً حروباً توسعيَّة لزيادة نفوذ الحكام واتساع ملكهم كما زعم لطفي جمعة .

زَعَمــوا أنَّها دَعــائمُ شــيدَت بيَدِ البَغي ملؤُها ظَــلماءُ
فَاعذُرِ الحاسدينَ فيها إذا لاموا فَصَعبٌ عَلى الحَسود الثَناءُ
أَينَ كانَ القَضاءُ وَالعَدلُ وَالحكمَةُ وَالرَأيُ وَالنُهى وَالذَكاءُ
وَبَنو الشَمسِ مِن أَعزَّةِ مصــرٍ وَالعُلومُ الَّتي بها يُستَضاءُ
فَادَّعَوا ما ادَّعى أُصــاغِرُ آثيـــنا وَدَعواهُمُ خَنًا وَافتِراءُ
وَرَأَوا لِلَّذينَ ســادوا وَشــادوا سُــبَّةً أَن تُسَــخَّرَ الأَعداءُ
إِن يَكُــن غَيرَ ما أَتَوهُ فَخــارٌ فَأَنا مِنكَ يا فَخــارُ بَراءُ (١)

٣- دعاة القوميَّة العربيَّة : الفكرة والتطبيق

الاتجاه الثالث الذي ظهر إبان النهضة المصرية في بداية القرن العــشرين هــو اتجاه القوميَّة العربيَّة أو العروبة وهذا الاتجاه يؤمن بأن الشعب العربي شعب واحــد تجمعه اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا والمصالح كما يؤمن بــأن دولــة عربيَّــة واحدة ستقوم لتجمع العرب ضمن حدودها من المحيط إلى الخليج.

ولقد تبنت فكرة القوميَّة كثير من الدول الغربيَّة لتتوحَّد ضد أعدائها ، وتقوم فكرة القوميَّة على مجموعة من الأساطير، سواء في ذلك القوميَّة الــسلافيَّة، والألمانيَّــة، والفرنسيَّة، والإيطاليَّة، وسائر القوميَّات الأخرى، فكل همِّها هــو أن تجــد "منــابع" للأصل المشترك، من أجل تبرير "سياسة" تنتهجها، وهي منابع : الاشتراك في الدم، والملحمة التاريخيَّة، والرباط الجسدي بالأرض. (٢)

تشكلت القوميَّة العربيَّة مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين أو عصر القوميَّات كما يسميه البعض. كان من رواد حركة القوميَّة العربيَّة مفكــرون من أمثال قسطنطين زريق وساطع الحصري وزكي الأرســوزي وعبــد الــرحمن عزام، تجلَّت القوميَّة العربيَّة في أوجها بالثورة العربيَّة الكبرى التي قادها الــشريف حسين من مكة، لكن الآمال المعقودة على الحصول على دولــة الوحــدة تقوَّضــت

---

(1) انظر مقال د. وسيم السيسي " القانون الوضعي أصله مصري " المنشور في منتــدى روح القــانون بتاريخ ٢٧/١١/٢٠١٠ .
(2) راجع رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثاني " القومية الأوربية والقوميَّة الصهيونية " .

بأسرها بعد عقد فرنسا وبريطانيا اتفاقية سايكس بيكو والتي قسَّمت إرث الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وبخاصة المشرق العربي.

جسَّدت هذه الفكرة بأيديولوجيات مثل الحركة الناصريَّة والتيار البعثي اللذين كانا الأكثر شيوعاً في الوطن العربي خصوصاً في فترة أواسط القرن العشرين حتى نهاية السبعينات، والتي تميَّزت بقيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا وشهدت محاولات وحدوية أخرى كثيرة. اكتسبت القوميَّة العربيَّة مدّاً جديدًا شعبيّاً نتيجة الثورات العربيَّة وظهور تيار شعبي عربي يدعو لوحدة عربيَّة يقودها الشعب، لا الأنظمة المتسلِّطة التي ركبت موجة القوميَّة دون أن تنجز شيئاً يذكر في هذا الاتجاه .

وندع د. عاصم الدسوقي وهو من الكتَّاب الناصريين المؤمنين بالقوميَّة العربيَّة يحدثنا عن سنوات ازدهارها وأكبر دعاتها : " إن السياسات التي اتبعتها حكومة ثورة يوليو خلال الخمسينات والستينات أدَّت إلى تحديد مفاهيم الفكر السياسي والاجتماعي للسلطة الحاكمة ، فأصبحت العروبة وفي القلب منها مشكلة الفلسطينيين منهجاً أساسيّاً في سياسة الحكم وعلى أساسها تحدَّدت علاقات مصر الخارجيَّة. وفي هذا الإطار نص دستور ١٩٥٦ في مادته الأولى على أن "مصر دولة عربيَّة مستقلة ذات سيادة والشعب المصري جزء من الأمَّة العربيَّة" ، وهو أمر كان جديداً على الحياة المصرية إذ لم تكن العروبة جزء من سياسة الحكم رغم عضوية مصر في جامعة الدول العربيَّة ودورها في وضع النظام الأساسي للجامعة. على أن الصوت المسموع والأعلى على الساحة كان للعروبة بتأثير النهج الرسمي للدولة مع ثورة يوليو ١٩٥٢، أما الأفكار الأخرى المعارضة فلم تعرب عن نفسها خشية مضايقة السلطات واكتفى أصحابها بعرض أفكارهم في الجلسات الخاصة. وعلى هذا انتشرت مقالات العروبة وسادت ؛ ففي١٩٥٦ كتب محمد مصطفى عطا كتابه "نحو وعي جديد" يستعرض فيه التاريخ العربي المعاصر ، وكيف أن الغرب الأوربي تلاعب بمصير العرب ، وعمل على تفتيت قواهم. ثم يدعو الكاتب في نهاية كتابه إلى "قيام إتحاد عربي مكين يواجه الأحلاف المطروحة على الساحة العربيَّة" ، ويكتب علي رفاعي محمدي – مفتش الوعظ العام بالأزهر – كتابه "وحي النهضة الوطنيَّة في الخطب المنبريَّة" ويقول إن ثورة مصر أيقظت وعي العرب ،

لأن مصر دائماً كانت محط آمال العرب ، وإن المستعمر استطاع أن يفرِّق بين من جمعهم الدين والجوار واللغة والمصالح المشتركة ، ولكن ولأن الله يأبى إذلال أمَّة الإسلام فقد قيَّض فتية من شباب مصر آمنوا بها وقاموا بالثورة. وفي ١٩٥٧ يكتب مصطفى عبد اللطيف السحرتي كتابه "إيديولوجية عربيَّة جديدة" ليقول بأن مصر ولدت بعد الثورة بوعي جديد فنالت بجهادها الحاضر استقلالها وعمَّت أرجاءها روح القوميَّة العربيَّة ، وإن الإيديولوجيَّة العربيَّة تتواءم مع التطور التاريخي لمصر وخصائص مصر الوجدانيَّة والروحيَّة والثقافيَّة. وفي رأيه إن تلك الإيديولوجيَّة تمتاز على خمس إيديولوجيات أخرى تحوم حول مصر مختلفة فيما بينها ومتضاربة ومتصارعة وهي : إيديولوجيَّة طائفيَّة رجعيَّة متزمِّتة، وإيديولوجيَّة غربيَّة ماديَّة قناصة ، وإيديولوجيَّة اشتراكيَّة ديكتاتوريَّة متطرِّفة ، وإيديولوجيَّة أمريكيَّة محاربة.

وتتوالى الكتابات التي تؤكِّد عروبة مصر وأهميَّة التوحُّد العربي وخاصة بعد إعلان وحدة مصر وسوريا في ١٩٥٨ فيكتب إسماعيل القباني عن الوحدة الثقافيَّة العربيَّة (١٩٥٨) ، ويكتب حسين نصار "مصر العربيَّة" (١٩٦٠). وفي العام نفسه يكتب صلاح عبد الصبور "أفكار قوميَّة" ، ويكتب علي حسني الخربوطلي "المجتمع العربي". ويكتب لمعي المطيعي "المجتمع العربي "، ويكتب إميل شوقي "في مجتمع عربي جديد" ؛ ويكتب منير الشريف "حب العرب لقوميتهم" ؛ وتنشر دراسة للأدب في ظلال القوميَّة العربيَّة بإشراف محمد قدري لطفي. وهكذا أصبحت الكتابة عن العروبة هاجس المثقفين سواء كتبوا عن إيمان بها أو من باب الزلفى للوسط الحاكم.(١)

أسباب فشل القوميَّة العربيَّة

ويرجع سبب فشل القوميَّة العربيَّة إلى عدة أسباب أهمها :

١- عدم مراعاة الفروق العرقيَّة بين الدول العربيَّة ، فهناك – كما سنبين بالتفصيل في فصل لاحق – فرق كبير بين العرب المُستَعْرِبَة (عرب الجزيرة

(١) د. عاصم الدسوقي " جدل الهوية والمواطنة في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين " موقع المجلة المصرية نون للترجمة والنشر ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨

العربية – دول الخليج – واليمن) ، والعرب المُسْتَعْجَمَة (الهلال الخصيب – العراق والشام – شمال أفريقيا) وهم وإن كانوا عرباً لساناً فهم من أعراق مختلفة وسمات متباينة .

٢– عدم مراعاة البعد الديني في الوحدة ، والدين – كما سنرى – العنصر الوحيد الذي جمع هذه الشعوب المختلفة ولكن القوميَّة العربيَّة نبذت الدين كعامل رئيس للوحدة ، وحاولوا إجبار الأنظمة العربيَّة على الخضوع لحاكم واحد والتسليم له ، وفرض نظامه العلماني على سائر الأمم .. ذلك النظام الذي استبدل النظام الاشتراكي الثوري المستعار من الشيوعية العالميَّة التي لا تؤمن بأي دين ، بأصول الإسلام الراسخ في نفوس كل المسلمين المؤمنة بالله رب العالمين – ليت هؤلاء القومين فقهوا ما دعا إليه الأفغاني وعملوا على تحقيق الجامعة الإسلاميَّة التي تجمَّع المسلمون حول أهدافها السامية وغايتها النبيلة ، ولا تفرقهم باتباع سياسات مناهضة له .

٣– .عدم الدعوة إلى وحدة أكفاء يراعى فيها التمايزات الوطنيَّة، والقطريَّة ، والقوميَّة ، وإنما دعت أحزاب البعث والناصريَّة إلى وحدة أتباع .

ولأهمية هذا الموضوع نذكر خلاصة القوميَّة العربيَّة التي حاول فرضها الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، وأسباب فشلها بعد مقدمة يسيرة عن قوة مصر الناعمة .

مصر والقوة الناعمة

إن التأثير المصري في الأمة العربيَّة قديم قدم الفتح العربي لمصر، ولم يقتصر هذا التأثير على مجال واحد إنما كان في شتى ألوان العلوم والمعارف والفنون هو ما يسمى بالقوة الناعمة التي يقول عنها حسنين هيكل : " إن القاهرة أخذت تتحول، دون أن ندرى وكما تنشأ كل الأمور الطبيعيَّة دون أن يخطِّط لها أحد، إلى عاصمة ذات دور خاص. قدم إليها المفكرون الهاربون من الخلافة، والهاربون من السلطان العثماني الذي تشتدُّ قبضته أكثر على المواقع الإسلاميَّة بعد ضياع المسيحيَّة . في هذه الفترة بدأت القاهرة تقوم بدور: ليس البديل وإنما الموازي، في الناحية الثقافيَّة والفنيَّة والعلميَّة، وحتى نواحي الفكر والحريَّة السياسيَّة. بدأ هناك شيء في القاهرة

يعطيها وضعاً آخر. هي ليست القوة الغازية أو الحاكمة، ولكنها قوَّة بشكل ما قد كونت ما يمكن أن يكون ملاذاً لأفكار وتيارات، وهذا أعطاها قوة إلى جانب الإعلام.. فإن هذا أيضاً ما حدث في المسرح، والموسيقي، وحركة الترجمة والتأليف.. إلى آخره، وبالتالي هرعت المنطقة كلها تقريباً بآمالها وطموحاتها إلى عاصمة اسمها القاهرة لأن الظروف السياسية فيها كانت تتيح ذلك ، توفر نوعاً من الاستقلاليَّة عن الخلافة، لأن الظروف في حالة مصر كانت تعطي: صلة بالجامع المشترك ، واستقلالاً عنه في نفس الوقت، وهكذا نشأ مركز في القاهرة في اعتقادي: أننا يجب أن نفهمه لكي نستطيع أن نحافظ عليه ؛ لأني أخشى أن هذا الموقع الآن معرض لهجمات شنيعة .

الحقُّ أننا عندما تحدثنا في مصر حتى قبل ثورة يوليو عن أفكار الاستقلال الوطني والمجالس النيابيَّة، تكلمنا عن حرية.. تكلمنا عن دستور، فإن كلَّ هذه الأفكار قد وجدت صداها في العالم العربي، ليس لأننا كنا راغبين في تصديرها.. ولكن لأن القاهرة تحولَّت بفعل ظرف تاريخي تسانده حقائق جغرافيَّة إلى قوة، لكن أية قوة ؟

أظن أن أفضل من وصف هذا النوع من القوة هو جوزيف ماي، وهو أستاذ أمريكي بجامعة هاربر، في كتابه المهم جداً عن القوى الناعمة. كنا نتحدَّث عن مناطق تمارس نفوذاً أكثر من قوتها العسكريَّة والاقتصاديَّة، لكن بشكل أو آخر لها نفوذ يتعدى الحسابات الماديَّة، والقاهرة كانت واحدة منها. كان ماكميلان يحدثني عن تأثير القاهرة وغيره آخرون.. فالقاهرة لها وضع خاص لم يتميَّز به غيرها بهذا الشكل، حتى قاهرة الملك فاروق وقاهرة الملك فؤاد. الموسيقى والسينما والصحافة في مصر قامت بدور أكثر ألف مرة مما يمكن أن تفعله الدبابات والأساطيل والمدافع في خدمة إمبراطوريَّة. ولكن على شرط أن ندرك أن هذه القوة ليست مسيطرة... هذا نفوذ مقبول ولكن غير مفروض، وبالتالي فإننا نرتكب خطأً عندما نتصور أن ذلك مفروض.. أو أنه لنا بالحق الطبيعي خطأ شنيع جداً. نعود لكلام البروفيسور ماى عن القوى الناعمة، فهو يقول إن التاريخ قد عرف نوعين من القوة:

القوة الصلبة: وهى القوة التي تفرضها الإمبراطوريات بقوة السلاح، وربما الاقتصاد.

القوة الناعمة: وهي القوة التي تستطيع أن تحدث تأثيرها دون وسائل العنف، فتتحقق بالنفوذ أكثر مما تتحقق بالغزو. " (١)

هكذا كان دور مصر وتأثيرها في الوطن العربي كله كانت قوة ناعمة فترى ما هو مصير هذه القوة الناعمة عندما تبني عبد الناصر الدعوة إلى القوميَّة العربيَّة .

عبد الناصر والقوميَّة العربيَّة

في البداية لا بد أن نقرر أن عبد الناصر قبل عام ١٩٥٣ لم يكن قد زار بعدُ أيَّ بلد عربي ، ولم يبد أي اهتمام بالشأن العربي ، فقد كان منكبَّاً على قضايا مصر الوطنيَّة . وأوَّل مرَّة تتسع دائرة اهتمامه لتشمل الوطن العربي كان في كتابه "فلسفة الثورة " (١٩٥٣) حيث يقول : " لن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان . أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربيَّة تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، وامتزج تاريخنا بتاريخها، وارتبطت مصالحنا بمصالحها، حقيقة وفعلاً وليس مجرد كلام؟ " .

وفي موضع آخر من الكتاب يقول : " ما من شك أن الدائرة العربيَّة هي أهم هذه الدوائر [الدائرتان الأخريان يقصد بهما ، قارة أفريقيا ، والعالم الإسلامي] وأوثقها بنا فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك . وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين ، فنقلت مراكز الإشعاع الديني ، في حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة ثم القاهرة . "

وفي موضع ثالث يقول: "ولقد بدأت بعد أن استقرَّت كل هذه الحقائق في نفسي أومن بكفاح واحد مشترك وأقول لنفسي: ما دامت المنطقة واحدة، وأحوالها واحدة؛ ومشاكلها واحدة، ومستقبلها واحد .. والعدو واحد مهما حاول أن يضع على وجهه

---

(١) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " الجزيرة نت .

من أقنعة مختلفة – فلماذا تتشتت جهودنا ؟ فقد بدأت خبايا الصورة تتكشف، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع، وأعترف أني كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التي تسد الطريق إلى الكفاح الواحد، ولكني بدأت أومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول لأنها من صنع ذلك العدو الواحد." (١)

وواضح من كلام عبد الناصر أن موضوع الوحدة العربيَّة لم يكن في دائرة اهتمامه قبل ذلك ولكنه بعد قيام الثورة واستقرار الأمور في مصر بدأ يفكر في هذا الموضوع.

يقول كوبلاند : " عندما قام عبد الناصر بانقلابه لم يكن يعرف إلا القليل عن العرب ، بل ولم يكن يشعر أنه عربي . وكذلك لم يكن قد زار أي قطر عربي أو واجه أي شعب عربي . ولكنه أصبح زعيماً عربيّاً بعد أن دخلت كلمة " عرب " القاموس السياسي لشعوب المنطقة . ولم تفلح معرفته المحدودة وقتئذ بالعرب في تحريك محبَّته لهم ، ولم تساعده زياراته لبعض الدول العربيَّة منذ سنة ١٩٥٢ على اكتساب أيَّة خبرة جديدة في هذا المجال ، وإنما أكَّدت له شكوكه السابقة بالعرب. فقد بقي العراقيون في نظره متوحشين ، واللبنانيون مرتشين فاسدين (ولم تكن بيروت في نظره أكثر من ناد ليلي مترامي الأطراف) ، والسعوديون قذرين ، واليمنيون أغبياء متخلفين . والسوريون مخادعين لا يقدِّرون المسئولية ولا يثقون بغيرهم . ولكن عبد الناصر بالتأكيد ، ينكر الآن (٢) جميع مواقفه وآرائه تلك . بل على العكس فهو يعتقد أن في العالم حقيقة ملموسة هي " العالم العربي " وبدأ هذا بعد عودته من مؤتمر باندونج . كما أنه يتمتَّع بشعبيَّة لا بأس بها في أوساط السوريين واللبنانيين والليبيين والأردنيين الذين سيطرت على مشاعرهم فكرة الوحدة والعروبة وتجاوزت نزعاتهم الإقليميَّة بعد تخلصهم من أنظمتهم الفاسدة ومن الجدير بالذكر أن رفاق عبد الناصر الذين ساعدوه في الوصول إلى السلطة ، ويعود لهم الفضل في بقائه فيها حتى الآن . لا يشاطرونه رأيه ولا يسايرونه في مواقفه العربيَّة إلا ضمن حدود المصالح المصريَّة المحضة . وقد كانت النزعات المصريَّة

(1) جمال عبد الناصر " فلسفة الثورة " مطابع مجلس الخدمات ، الصفحات على التوالي هي : ٩١ ، ٩٤، ١١٠ ، ١١١.
(2) كَتَبَ كوبلاند كتابه عام ١٩٦٨ .

العربيَّة تعكس نوعاً خاصاً من التصورات داخل قصور الساسة المصريين ، ساعدت على تأمين توازن مستمر بين الأزمات الداخليَّة والانتصارات الخارجيَّة على أن عبد الناصر نفسه سرعان ما يصبح أكثر تعصباً لمصريته وأقل حماساً لعروبته كلما نشبت الأزمات داخل مصر . وأما في تخطيطه لإستراتيجيته السياسيَّة فلا يتردَّد في وضع المصالح المصريَّة فوق غيرها معتبراً مصالح العرب كلهم تبعاً لمصالح مصر . " [١]

لم تكن نظرة عبد الناصر للدول العربيَّة على اعتبار أنها دول ذات سيادة وأعضاء متساوون في جامعة الدول العربيَّة إنما كان يطمح في قيادة الأمة العربيَّة وتوجيه مسارها فقد كان يرى نفسه جديراً بهذه المنزلة .

ولكن كيف يتمكَّن عبد الناصر من الوصول إلى التحكم في سياسة الدول العربيَّة، وإخضاع الحكام العرب لنفوذه ، نعم لمصر رصيد كبير من التأثير الثقافي والعلمي والحضاري في سائر الدول العربيَّة بفضل القوة الناعمة التي تمثلت في الموسيقى والغناء والسينما والمسرح والصحافة والكتاب وقرَّاء القرآن الكريم . تلك الفنون والمعارف والعلوم التي غزت مصر بها الوطن العربي وأثرت في شعوبه على كافة المستويات والاتجاهات . لكن كل هذا لا يجعل حكام الدول العربيَّة يخضعون لقرار حاكم مصر ولا يجعل شعوبهم تضغط عليهم لينضووا تحت جناحه.

لابد إذن من باعث آخر يحرك الشعوب العربيَّة لتضغط على حكامها لتسير في ركاب حاكم مصر . أخذ عبد الناصر يبحث عن ذلك الباعث الذي يوحِّد به العرب فلم يجد إلا فكرة القوميَّة فقد تبنَّت هذه الفكرة كثير من الدول الغربيَّة لتتوحَّد ضد أعدائها .

---

[1] مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير . انترناشنال سنتر – بيروت ص ٩٠ ، ٩١ . وبالمناسبة لقد أثار الناصريون كثيرا من الشكوك حول هذا الكتاب وصحة ما جاء فيه من معلومات ، ولكن حسن التهامي في حديث له مع عبد الناصر حول هذا الكتاب قد أكد أن عبد الناصر قد اعترف بأن كوبلاند قد أرسل له نسخة من هذا الكتاب لإبداء الرأي فيه قبل نشره وأن عبد الناصر لم يعترض على ما جاء في كتاب " لعبة الأمم " ووافق على نشره . راجع في هذا الموضوع كتابنا " أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .

لقد كان عبد ناصر بحاجة إلى ما عبر عنه "جورجس سوريل " وحدَّده باسم الأسطورة وهي عبارة عن مجموعة تصورات وانطباعات تملك القدرة على إثارة كل العواطف والمشاعر بطريقة غريزية .

لقد وجد عبد الناصر إذن ضالته في فكرة " القومية العربيَّة " تلك الفكرة التي تصادف هوى في نفوس كلِّ العرب لأنها تعيد لأذهانهم فكرة الخلافة الإسلاميَّة والمد العربي الذي قهر الأكاسرة والقياصرة وورث ممالكهم في الشرق والغرب .

يقولا كوبلاند : " إن أسطورة عبد الناصر (قوميته العربيَّة) هي مجموعة تصوُّرات وانطباعات تحيط بمعركة الرجل الملون (العرب والمسلمين والإفريقيين، وهي دوائر عبد الناصر الثلاث) ضد الأوربيين (السوفييت والغربيين) ؛ معركة يثق فيها الرجل الملون كل الثقة من إنه سيفوز في النهاية . كما استخدم عبد الناصر لرصيده في أجهزة البناء والإصلاح (مثل الدعاية ، الحزب السياسي الواحد ، الآلاف المؤلفة من الموظفين) يهدف إلى تخليد تلك " الأسطورة " إن نظرتنا حول ناصر وأسطورته ستكون ذات خدمة جليلة خلال استعراضنا لمحاولات ناصر للربح ولاكتساب التأييد الشعبي وكيف أنها قد أثَّرت كثيراً على مرونة حركته ومناوراته في " لعبة الأمم " (١)

لقد أدرك عبد الناصر أنه لكي يكون لاعباً أسياسيّاً في المنطقة فلا بد أن يخضع أكبر عدد من الدول لنفوذه حتى يتمكَّن من حصد أكبر قدر ممكن من المساعدات الأجنبية .

يقول كوبلاند : " اعتقد ناصر أنه في ذلك الوقت الذي تصاعد ضغط "اتحاد المحايدين" على مصادر المساعدات الأجنبية الرئيسية – وهوي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي – بصورة حسابيَّة بسيطة ، فقد تضاعف ضغطه عليها بصورة هندسية مركبة وعلى سبيل المثال فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين وحدهم له كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منًا لا تتجاوز جدلاً " س " وعندما يضمن تأييد العالم العربي له فالنتيجة أحسن والقيمة تتضاعف وتغدو "$س^2$ " وفي حال

---

(١) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

وقوف العالم الإسلامي معه فإنه يحصل على مساعدات تبلغ "س3 " وعند مؤازرة الدول غير الغربية له (الإفريقية والآسيوية) فإنه يحصل على مساعدات قيمتها " س٤ " . ولم نكن نشترط عليه أن يكون الناطق باسم جميع الدول الإفريقية والآسيوية أو جميع دول العالم الإسلامي ، بل كان يكفيه أن يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته . ولم نكن لنتفرد في سلوك مثل هذا الطريق وحدنا بغية تنفيذ مآربنا ، بل كان السوفييت يشاركوننا في هذا أيضاً . فكنا وإياهم نفضل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستنا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء : اتحاد المحايدين " مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا . " (١)

لم يكن عبد الناصر يطمح في أن يصير حاكماً لكل العرب فهذا فوق طاقته وأكبر من إمكانياته إنما كان أقصى طموحه هو أن يكون في استطاعته توجيه سياسة الدول العربيَّة ، وأن يكون المتحدِّث الرسمي باسمها مع القوى الخارجية دون أن يتحمل مغبَّة أن يكون مسئولاً عن إدارة شئونها الداخلية. (٢)

بدأ عبد الناصر في الاتصال بالحكام العرب من أجل تنفيذ ما عزم عليه من الدعوة إلى القوميَّة العربيَّة ، لكن الأمر لا يتوقف عند عثور عبد الناصر على الوصفة السحريَّة التي تمكن العرب من الوقوف بكل قوة وحزم في وجه الغرب ، وإفشال مخططاته بل والانتصار عليه بعد قرون طويلة من الانكسار . فهناك عقبات كثيرة يجب إزالتها قبل الوحدة . أولى هذه العقبات كما يقول عبد الناصر هي : "الشك" شك حكام العرب في نوايا بعضهم البعض فلم يكن هناك ثقة متبادلة بينهم إنما كان كل واحد يحاول أن يستغل الآخر لمصلحته الشخصية .

يقول عبد الناصر : " لقد بدأت أخيراً في الاتصالات السياسيَّة من أجل توحيد الكفاح مهما كانت الوسيلة ، وخرجت بعد شهر من الاتصالات بنتيجة هامَّة ، هي

(1) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
(2) ولقد فشلت المحاولتان اللتان اضطر عبد الناصر فيهما أن يكون مسئولاً إدارياً عن بلد آخر غير مصر كما حدث في الوحدة مع سوريا ، وحرب اليمن .

أن العقبة الأولى في طريقنا هي " الشك " وكان واضحاً أن بذور هـذا الـشك قـد بذرها في نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه ، لكي يحول بيننا وبين الكفاح الواحد . "(١)

والحقيقة أن العدو الخارجي ليس مسئولاً وحده عن بذر بذور الشك بـل حكـام العرب أنفسهم هم المسئولون عن ذلك فما كان يشغل كل حاكم عربي هـو تقويـة نفوذه داخل بلده ومحاولة توسيع دائرة نفوذه على حساب الدول العربيَّـة الأخـرى ولنضرب مثالاً واحداً لنؤكد هذا الأمر .

في حرب فلسطين كان "الملك فاروق يضمر الحسد من الملك عبد الله" (٢) فلكل منهما أهداف من الحرب مخالفة للآخر ولقد سعى كل واحد منهمـا إلـى تكـوين تحالفات لإفشال خطة الآخر " فالأردن تؤيده العراق أراد التدخل عسكرياً كي يؤمن أجزاء من فلسطين التي خُصِّصَتْ للدولة العربية حسب خطة التقسيم في حـين أن مصر تؤيدها السعودية أرادت أن تعوق خطة الأردن / العراق بإلغاء التقسيم ". (٣)

وقد كتب جلوب قائد القوات الأردنية في حرب فلسطين حول هـذا الموضـوع يقول: " لست أعرف على مدى التاريخ عملاً في مثل هذا القدر من الحمق والتهور أتى به رجال تقع عليهم مسئولية الحكم .. لقد ضاع مستقبل شعب فلسطين ضـحية لتعدد السياسات العربية وعدم وضوح هدف نهائي للعمل بالإضافة إلى أنه لم يكـن هناك حد أدنى للتنسيق بين هذه السياسات ". (٤)

كان هذا هو موقف حكام العرب إزاء خطر محدق يهدِّد الأمَّة العربيَّـة ، شـك واختلاف وتنافس بل تصارع فما بالنا بموقفهم من خطر محتمل خاصـة أن الـذي يدعوهم للوحدة يشترط عليهم أن تكون هذه الوحدة تحت قيادته ويـزعم أنـه هـو الأجدر بها منهم جميعاً .

يقول عبد الناصر : "ولست أدري لماذا يخيَّل إليَّ أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به، ثم لست أدري لماذا يخيَّل إليَّ

---

(1) جمال عبد الناصر " فلسفة الثورة " مرجع سابق ص ١٢١ .
(2) د. محمد نصر مهنا " صور من المشكلات السياسية في العالم المعاصر " ص ١٧ دار المعارف.
(3) نفسه ص ٢٨ .
(4) نفسه ص ١٧ .

أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدَّة في كل مكان حولنا قد استقرَّ به المطاف متعباً يشير إلينا أن نتحرَّك وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسه . فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به." (١)

أليس قَصْر عبد الناصر زعامة الأمَّة العربيَّة عليه فقط دون سائر الحكام مدعاة للشك في تلك الوحدة خاصة أن الذي ينادي بها قد غدر بزملائه المعارضين له من رجال الثورة وأقصاهم عن مجلس قيادة الثورة (٢) كما غدر برجال الأحزاب السابقين وحاكمهم محاكمات عسكريَّة وأدخلهم السجون ، كما عصف بكل القوى التي عارضت وصوله للحكم : الإخوان المسلمين ، والشيوعيين ، والإقطاعيين (٣) فكيف يأمن له الحكام العرب وكل واحد عنده طموح أن يزيد من سلطانه لا أن يقلِّصه .

لذا لم تلق دعوته لوحدة الصف العربي استجابة من الحكام العرب وإن كانت وجدت استجابة من بعض القطاعات في الشعوب العربيَّة .

فلم تنجح الاتصالات المصريَّة التي جرت مع الزعماء العرب ، سواء التي جرت عن طريق السفراء العرب في القاهرة أو عن طريق السفراء المصريين في العواصم العربيَّة ، أو تلك التي تمَّت عن طريق زيارات عديدة قامت بها وفود من شتى المستويات . في إقناعهم فكرة القوميَّة العربيَّة و"الحياد الإيجابي" .

ويعترف عبد الناصر بفشل دعوته إلى وحدة الصف فيقول: " نحاول بكل وسيلة من الوسائل من أجل وحدة الصف العربي أن نعيد الوفاق .. ونحاول أن نجمع الصف من أجل وحدة الصف العربي، ولم يكن هناك سميع ولا مجيب .. وقد بعثت إلى قاسم العراق أربع مرات حتى نجتمع من أجل وحدة الصف العربي ومن أجل مصلحة العالم العربي . " (٤)

١

---

(1) جمال عبد الناصر " فلسفة الثورة " مرجع سابق ص ٩٤ .
(2) مثل يوسف صديق ، عبد المنعم أمين ، وخالد محيي الدين ، محمد نجيب الذي كان إقصاؤه عن الحكم واعتقاله سبباً أساسيا في انفصال السودان عن مصر .
(3) راجع كتابنا " العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو " دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .
(4) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر من دمشق بعد جنازة شهداء ثورة العراق ١٩٥٩/٣/١٣.

ولم ييأس عبد الناصر من الدعوة إلى وحدة الصف العربي فراح في معظم خطبه يردد " تعالوا نعمل على وحدة الصف العربي . " (١)

" أن سبيلنا لحماية الحريَّة وتثبيت الاستقلال هو التضامن ووحدة الصف العربي "(٢)

ويعترف عبد الناصر أن سبب إحجام الحكام العرب عن تلبية دعوته بل معاداتها هو رغبته في بسط نفوذه عليهم لا رغبته في وحدة أكفاء لا يعلو بعضهم على بعض ولا يتخذ بعضهم بعضاً سخريّاً .

يقول عبد الناصر : " بدأ الكلام كتير جداً على محاولة إخماد الفكرة في الدعايات المعادية لها، وتركيز الهجوم على الأشخاص، يقال مثلاً إن القوميَّة العربية معناها إمبراطورية يريد أن يحكم فيها جمال عبد الناصر ويتسلط بها على الدول العربية . " (٣)

ولكي يدعم عبد الناصر مكانته كزعيم عربي جدير بأن يقود العرب ، وتسلِّم له الدول العربيَّة رايتها لجأ إلى الإعلامِ الدعائي وفي مقدمته إذاعة صوت العرب التي رفع من قوة بثها إلى الحد الذي يتمكن معه من إسماع صوتها إلى العرب في كل مكان وبوضوح لا يقلُ عن وضوح إذاعة أمريكا أو لندن أو أي إذاعة عربيَّة أخرى. لقد كان لإذاعة صوت العرب تأثير كبير في المستمعين لما تبثه من مواد شيقة تجذب السامعين من قصص وتمثيليات وبرامج ترفيهيَّة ، إلى جانب المداومة على إذاعة خطب عبد الناصر ومقالات حسنين هيكل مما جعلها تستحوذ على إعجاب المستمعين حتى أولئك القابعين في أقاصي الصحارى العربيَّة . وكم ترك المستمع أزرار مذياعه مثبتة على أمواج صوت العرب دونما تغيير أو تبديل !

لقد عملت الدعاية الناصريَّة على أن تجعل منه أنه أوّل عربي منذ قرون عديدة ينجح في شق عصا طاعة الأوربيين ويرفض الخضوع لهم ، بل إنه أوّل عربي بعد صلاح الدين يوقع بهم الهزائم الحاسمة ، وهكذا راحت البرامج الدعائيَّة تذاع على

---

(1) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الشعبي الذي أقامه الاتحاد القومي للاحتفال بمرور سبع سنوات على الثورة ١٩٥٩/٧/٢٢.

(2) كلمة الرئيس جمال عبد الناصر من ساحة الجلاء بحضور بطريرك الأرمن الأرثوذكس ووفد من رجال الدين الأرمن من لبنان ١٩٥٩/٣/٨.

(3) خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في اجتماع قيادة ضباط حامية اللاذقية ١٩٦٠/٢/١٤ .

الشعب مبرزة هذا الوجه لشخصيَّة عبد ناصر ومؤكدة حقيقته ، وكان المذيعون يرتلون بعض المقتطفات الشاعرية من خطب عبد ناصر التي تفيض بأخبار الشعوب الآسيويَّة والإفريقيَّة والعربيَّة التي تعاني من اضطهاد الأوربيين واستغلالهم، إلا أنها كانت تختتم بترنيمة شاعرية تقول : " ولكن عبد الناصر سوف ينقذنا من كل هذا " ومع أن هذه البرامج كانت غاية في الابتذال والركاكة إلا أنها كانت ذات تأثير غير قليل في نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والإدراك السطحي . ولم تبق هناك طريقة يمكن استخدامها في إطار إظهار شخصيَّة ناصر إلا واستخدمت . فقد وزِّعت صوره في كل مكان وحتى في الكويت التي لم تكن في يوم من الأيام ضمن دائرة نفوذه وكان نادراً ما تجد حانوتاً يخلو من صورته معلقة في أبرز مكان فيه . [١]

ولم تستطع آلة الدعاية الناصريَّة الجبَّارة أن تجعل " القوميَّة العربيَّة " التي يدعو عبد الناصر إليها حقيقة واقعة وماذا ينتظر من حكام يدعوهم رجل للدخول في جمهوريته العربيَّة وأن يتنازلوا له طواعية عن ملكهم .

لو كان قد دعاهم إلى سوق عربيَّة مشتركة، أو اتحاد كونفدرالي أو وحدة أكفاء أو تفعيل ميثاق جامعة الدول العربية [٢] لوجد استجابة أكيدة من الدول العربيَّة ومن حكامها ما دام يبغي الوحدة العربيَّة لا الزعامة والدعاية الشخصيَّة.

لقد أفلح عبد ناصر في فتح طريق قليل المصاعب والمقاومة أمام الزعماء العرب وهو طريق "أسطورة القوميَّة العربيَّة" – أو طريق الترغيب – كما تفهمه

---

(1) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(2) نصت المادة الثانية في ميثاق الجامعة العربية على الآتي : " الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها،وتنسيق خططها السياسية، تحقيقا للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها،والنظر بصفة عامة في شئون البلاد العربية ومصالحها ، كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاونا وثيقا بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشئون الآتية :

أ. الشئون الاقتصادية والمالية،ويدخل في ذلك التبادل التجاري،والجمارك،والعملة،وأمور الزراعة والصناعة .

ب. شئون المواصلات،ويدخل في ذلك السكك الحديدية،والطرق والطيران،والملاحة، والبرق، والبريد .

ج. شئون الثقافة .

د. شئون الجنسية، والجوازات، والتأشيرات، وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

هـ. الشئون الاجتماعية .

و. الشئون الصحية ، وعلاوة على ذلك، الدول التي وقعت على اتفاق الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي في ١٣ أبريل ١٩٥٠ ملزمة على تنسيق تدابير الدفاع العسكري .

القاهرة إلا أنه ما زال هناك بعض قادة العرب الأقوياء يكنُّون كراهية للقاهرة ويصرُّون على أن يسيروا في ذلك الطريق وحدهم دون وصاية عبد الناصر عليهم، ودون الانتساب إلى جمعيته وهكذا وجد ناصر نفسه مضطراً لأن يسلك " طريق الترهيب " لاستكمال عناصر " جمعيته " ولإخضاع من شق عليه عصا الطاعة . (١)

ولم يكن طريق الترهيب سوى سلق عبد الناصر الحكامَ العرب المعارضين لزعامته بألسنة حداد ، وتسليط صحفه وإذاعته (صوت العرب) ترميهم بكل تهمة وتصفهم بكل مذمة ؟! بل وتأليب شعوبهم عليهم ودعوته الصريحة لهم للثورة على هؤلاء العملاء الخونة ، بل وصل الأمر به إلى مد الموالين له في البلاد العربيَّة بالأموال والسلاح للقيام بانقلابات ضد حكامهم المعارضين لسياسته !!

لم تنجح دعوة عبد الناصر في تجميع الدول العربيَّة في جمهورية واحدة متحدة إلا مع دولة واحدة وهي سوريا ولم يستمر هذه الاتحاد طويلاً ثلاث سنوات فقط (١٩٥٨ – ١٩٦١) كلها مليئة بالصراعات والخلافات والمؤامرات وعلى رغم المبالغ الضخمة التي أنفقها عبد الناصر لإنجاح هذا الاتحاد إلا أنه فشل وتم انفصال سوريا عن مصر بطريقة مهينة لمصر ولزعيمها ، ولعبد الحكيم عامر حاكم إقليمها الشمالي وإزاء هذا الفشل في الوحدة الأولى والأخيرة استبدل عبد الناصر بوحدة الصف العربي وحدة الهدف فبدلاً من الدعوة إلى توحُّد العرب رغم اختلاف طبيعة نظمهم وأساليب حكمهم دعا عبد الناصر إلى وجوب أن يسلك العرب طريقاً واحداً لا ثاني له لكي يتوحَّدوا وهو الطريق الاشتراكي التقدمي الذي اتخذته مصر منهجاً ودستوراً ابتداء من ١٩٦١ ، وفي سبيل ذلك لم يشن عبد الناصر الحرب على فكرة وحدة الصف التي ظل لأكثر من ثماني سنوات ينادي بها فحسب بل شن حروباً حقيقية – وليست فقط كلاميَّة – ضد الدول التي أسماها رجعيَّة لأنها رفضت الطريق الاشتراكي التقدمي .

يقول مالكولم كير : "هذا التحوُّل وجد في نفسيَّة عبد الناصر تجاوباً وتغييراً في الشعارات حيث كان من المألوف سابقاً التحدث عن وحدة الصف العربي بين أنظمة

(١) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

الحكم العربيَّة ذات السياسات الداخليَّة المختلفة ليحسن مواجهة الأخطار والضغوط الخارجيَّة، فإن وحدة الصف العربي الآن أفسحت المجال لفكرة وحدة الهدف، وقد وُجِّه للشعار الجديد اتهامات من دمشق وعمان والرياض بأن ناصر كان يحطم التضامن العربي".[(١)]

يقول عبد الناصر : " السنة اللى فاتت لما اتكلمت معاكم فى عيد الوحدة بعد الانفصال بستة أشهر اتكلمت عن وحدة الهدف وكان شعار جديد لنا، يعنى قلت حاجتين: إن وحدة الهدف هي الأساس مش وحدة الصف، لأن وحدة الصف بدون وحدة هدف لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمكن وحدة أو أن تقيم وحدة، وقلت إن احنا لن نهادن الرجعية، وان احنا نصمم على وحدة الهدف وندعم وحدة الهدف. ولكن وحدة الصف دا كان شعار كانوا بيطلقوه السياسيين العرب دائماً من أجل خداع الشعوب العربية، كانوا يختلفوا ويطلعوا قدام الناس يتصوروا ويقولوا وحدة الصف. " [(٢)]

العجيب أن عبد الناصر يتنصل من دعوته إلى وحدة الصف العربي ويلصقها بأعدائه من الرجعيين العرب !! رغم أنه يعترف في نفس الخطبة بأنه هو الذي تبنى رأياً جديداً بديلاً عما كان ينادي به من وحدة الصف وهذا الشعار الجديد هو وحدة الهدف. والأدهى من ذلك أن عبد الناصر بدأ يكيل الاتهامات لمن ينادي بوحدة الصف العربي !!

يقول عبد الناصر : " هناك من يتكلَّمون اليوم عن وحدة الصف العربي، سنين طويلة بنسمع ناس بتتكلم عن وحدة الصف العربي، من أيام نورى السعيد يقولوا وحدة الصف العربي، وحدة الصف العربي لأى هدف؟ هل وحدة الصف العربي لخدمة الاستعمار وأهداف الاستعمار؟ أو وحدة الصف العربي لخدمة أهداف الأمة العربية وتحقيقها ؟ وحدة الهدف هي أهم من وحدة الصف، نحن نطالب بوحدة الهدف، ولكنا ننظر إلى الشعارات والنداءات التي تنادى بوحدة الصف بنوع من

(1) نقلاً عن مالكولم كير " عبد الناصر والحرب العربية الباردة " ترجمة د. عبد الرءوف أحمد الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٦٨ .
(2) من خطاب جمال عبد الناصر في الاحتفال الشعبي بمناسبة العيد الخامس للوحدة ١٩٦٣/٠٢/٢١ .

الشك ونوع من الريبة؛ لأن وحدة الصف مع الاختلاف في الهدف إنما تسوق الأمة العربية كلها إلى الخطر... ولكن الحكام وبعض الحكام العرب يختلفون في الهدف ثم يزيفون الشعارات ويطالبوا بوحدة الصف العربي. طبعاً في هذه المعركة العنيفة لابد لنا أن نتوقع كل شيء ؛ تزييف الشعارات، الرجعية تقول وحدة الصف العربي، والرجعية بتنادى بالاشتراكية وأعوان الاستعمار بينادوا بالحرية. " (١)

ولا أدري من الذي يغيِّر الشعارات ويزيفها !! ومن الغريب دهشة عبد الناصر من اتهام الحكام العرب له بأنه يحاول تمزيق وحدة الأمة بشعاره الجديد !!

يقول عبد الناصر : " ويقولوا دا جمال عبد الناصر هو المسئول عن تفتيت الصف العربي، احنا عايزين وحدة الصف العربى. أنا باقول أبداً، أنا عايز وحدة الهدف العربي قبل ما اتكلم على وحدة الصف العربى، وحدة الصف العربي من أجل إيه؟ من أجل تسليم اللد والرملة ؟ (٢) المعركة مع الصهيونية هي معركة مع الاستعمار وأعوان الاستعمار، وهى أيضاً معركة مع الرجعية.

وبعدين يتكلموا عن التضامن العربي والأخوة العربية والوحدة العربية، والواحد من دول بيتكلم عن التضامن العربي وتبص تلاقيه فى إيده قنبلة أو في إيده خنجر، أو بيكلمك عن التضامن العربي وبيدفع لواحد ٢ مليون جنيه علشان يخلص عليك أو علشان يخلص على الوحدة، أو القصص اللى انتم عارفنها كلها. إذن أساليب التضامن العربي ووحدة الصف العربي لا مهادنة مع الرجعية، هذه الأساليب لن تنطلي علينا. النهارده ان احنا بنقول هدفنا وحدة الهدف، ويتكلموا عن الحملات، ويقولوا دا انتم بتشتمونا، احنا هي العملية ما بنشتركش في حملات، واحنا ما بنشتمش، احنا بنتكلم على مبادئ، طول عمرنا بنتكلم على مبادئ."(٣)

ونحن لا نبرِّأ الحكام العرب من محاولة حياكة المؤامرات ضد عبد الناصر وقوميته العربيَّة لكننا نؤكد أنها – غالباً – ردود أفعال لتلك المؤامرات التي كان

---

(1) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى عيد الوحدة من ميدان الجمهورية ١٩٦٢/٠٢/٢٢ .
(2) هذه إشارة إلى ما فعله الملك عبد الله أبو الملك حسين ملك الأردن من تسليم اللد والرملة لليهود في حرب فلسطين .
(3) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى عيد الوحدة من ميدان الجمهورية ١٩٦٢/٠٢/٢٢ .

يحيكها عبد الناصر ضدهم ، أما أسلوب الشتائم المتبادل بين عبد الناصر وبعض الحكام العرب فإن عبد الناصر بالقطع يحوز قصب السبق فيه .

في خطابه يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٢ يقول عبد الناصر عن خسائر مصر في اليمن حتى ذلك التاريخ : " الخساير اللى عندنا ١٣٦ ضابط وعسكرى، الضباط ٢١ والجنود ١١٥، كل واحد فيهم جزمته أشرف من تاج الملك سعود والملك حسين (تصفيق) ."

ولم يكتف عبد الناصر بسب حكام العرب بل راح يؤلب عليهم شعوبهم ، ويتحالف مع المعارضين لسياستهم . بل يجعل تحالفه مع الموالين له من أبناء الشعوب العربية للإطاحة بحكامهم دستوراً ثابتاً لا رأياً عارضاً فقد جاء في الميثاق الوطني ما نصه : " إن الجمهورية العربية المتحدة مطالبة بأن تفتح مجال التعاون بين جميع الحركات الوطنية التقدمية في العالم العربي، إنها مطالبة بأن تتفاعل معها فكرياً من أجل التجربة المشتركة، لكنها في نفس الوقت لا تستطيع أن تفرض عليها صيغة محددة لصنع التقدم. [١]

وهذا تحريض مباشر على تأليب الحركات التقدميَّة (الناصريَّة والشيوعيَّة واليساريَّة والقوميَّة) على حكامها ، وتدخلاً سافراً في الشئون الداخليَّة لبلاد مستقلة أعضاء في الجامعة العربيَّة .

ولقد حاولت بعض الدول العربيَّة إقامة اتحاد فيدرالي مع مصر مع الحفاظ على بعض النظم السياسة الخاصة بها والتي لا تتعارض مع وحدة الصف العربي ، ولكن عبد الناصر أصرَّ على خضوع هذه الدول التام للسياسة الناصرية ، والتسليم للزعامة المصرية بإدارة شئون دولتها بغير قيد أو شرط !!

ويروي محمد حسنين هيكل أن كامل الجادرجي قد قدم إلى القاهرة ،وعرض خلال مباحثاته مع الرئيس عبد الناصر إقامة اتحاد فيدرالي بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية العراق على أساس أن يكون هناك رئيس واحد ، وأن تكون

([1]) من خطاب عبد الناصر في تقديم الميثاق الوطني من جامعة القاهرة ١٩٦٢/٥/٢١ .

وحدة كاملة في قيادة القوات المسلحة وتوجيه واحد لسياسة الاتحاد ، ومقابـــل ذلـــك يسمح للأحزاب بأن تباشر نشاطها في داخل الاتحاد [١] ورفض عبد الناصـــر ؛ لأن قضيَّة التنظيم الواحد كانت مبدأ لا يمكن التنازل عنه من وجهة نظره مهما أدت إلى كوارث ! [٢]

لقد ظلَّت الساحة العربيَّة تموج لفترة طويلة بجيوش مـــن الناصـــريين ، ولكـــن تصميم الناصريَّة على فرض نموذجها غير المقبول ، نموذج التنظيم الوحيـــد غيـــر الفعَّال وغير القادر على الحركة قد دفع الكثيرين إلى تنظيم أنفسهم تحـــت رايـــات أخرى أو حتى تحت رايات ناصرية مستقلَّة هي في جوهرها تمـــرُّد علـــى الفكـــرة الناصريَّة . [٣]

وفي مقابل دعاة القوميَّة العربيَّة يوجد دعاة الوطنيَّة المصريَّة

دعاة الوطنيَّة المصريَّة

وبعد فشل القوميَّة العربيَّة الناصريَّة التي مزَّقت العـــرب وأضـــاعت أراضـــيه تمكنت مصر / السادات من تحقيق النصر الأول على إســـرائيل فـــي أكتـــوبر ٧٣ بمشاركة سوريا في الحرب ومساعدة العرب بالمال والسلاح وبعض الجند ، وجـــد السادات إنه رغم كل ما فعل لم يستطع أن يحرِّر أكثر من ١٠- ١٢ كم مـــن أرض سيناء وبقي معظم الـــ٦١ ألف كم من أرض سيناء محتلاً فـــضلاً عـــن فلـــسطين والجولان ، كما أدرك الدعم اللامحدود اللامشروط من الغرب لإســـرائيل ولاســـيما أمريكا فعمد إلى نهج سياسة جديدة لاسترداد الأرض العربيَّة المحتلَّة ، وهي سياسة مباحثات السلام التي تقضي بمبدأ " الأرض مقابل السلام " والمقصود بالأرض هنـــا الأرض العربيَّة المحتلَّة قبل ٥ يونيو ٦٧ ، ولكن العرب بحكم أنهم لم يعـــانوا مـــا عانى المصريون من آلة الحرب التي استنزفت المال وحـــصدت وشـــوهت أغلـــى البنين وهما زينة الحياة الدنيا ، مما اضطرَّ مصر إلى أن تمدَّ يدها للغريب الذي لـــه

---

(١) جريدة الأهرام ٣١- ١- ١٩٥٩ .

(٢) د. رفعت السعيد " تأملات في الناصرية " ص ١٣٥ .

(٣) لمزيد من التفصيل حول عبد الناصر والقومية العربية الرجوع إلى كتابنا " إنجازات عبـــد الناصـــر الكبرى من منظور سياسي " دار غريب .

أجندة خاصة يريد أن يطبقَّها حتى ولو تعارضت مع مصالح مصر العليا كالاتحاد السوفيتي ، والقريب الذي لم يسلم عطاؤه من المنِّ والأذى ، واضطرَّ المصريون الذين تمسكَّوا بأرضهم ووطنهم طوال تاريخهم أن يهاجروا ، وفوق آلام الغربة كانت جراح سوء المعاملة وللأسف كانت غالباً ممن حاربنا من أجل حريتهم ، وافتقرنا من أجل غناهم فقد ارتفع ثمن برميل البترول من ٥ دولارات قبل حرب أكتوبر إلى ثلاثين دولاراً بعدها ، ولكن العرب رفضوا مجرَّد فكرة المباحثات مع إسرائيل فضلاً عن السير فيها ، ولم يجد السادات بدّاً من السير في طريق مباحثات السلام وأعلن أن حرب أكتوبر هي آخر الحروب ، وأن بيد أمريكا ٩٩ % من أوراق اللعبة ، وأن العرب عليهم أن يديروا ظهرهم للاتحاد السوفييتي الذي يستخدمهم في حربه الباردة مع أمريكا والذي تناهض سياسته هو وحلفاؤه (الكتلة الشرقيَّة) سياسة أمريكا وحلفائها (الكتلة الغربيَّة) إلا في شيء واحد يتفق عليه الجميع وهو أمن إسرائيل ، وقد أكَّدت حرب أكتوبر ٧٣ للسادات ذلك فتوجَّه إلى أمريكا لاسترداد الأرض المحتلَّة وتحقيق السلام العادل الشامل الدائم مع إسرائيل ، وقد عدَّت البلاد العربيَّة هذا التوجه خيانة للقضيَّة العربيَّة التي لا تحل إلا باللاءات الثلاثة : لا صلح ولا اعتراف ولا تفاوض مع العدو الصهيوني قبل أن يعود الحق لأصحابه .

وحدثت جفوة شديدة وفجوة كبيرة بين مصر والعرب بسبب هذا الموضوع وشنَّ القوميون والناصريون والبعثيون حروباً شعواء على سياسة السادات الجديدة تجاه الأمَّة العربيَّة دافعوا فيها عن سياسة عبد الناصر الداعمة للقوميَّة العربيَّة ، وندَّدوا فيها بنهج السادات نحو الوطنيَّة المصريَّة ، وفي مقابل هؤلاء دافع بعض الكتاب مثل : توفيق الحكيم ، وحسين فوزي ، ولويس عوض ، وغيرهم عن السياسة المصرية الجديدة وندَّدوا بالقوميَّة العربيَّة الناصريَّة .

ونترك لويس عوض أحد الأقطاب الثلاثة الداعية إلى الوطنيَّة المصريَّة ، والرافضة لفكرة القوميَّة العربيَّة بالمفهوم الناصري يناقش زميله الآخرين : توفيق الحكيم ، وحسين فوزي في هذا الموضوع .

يقول لويس عوض في كتابه " دراسات في الحضارة " : " كلام توفيق الحكيم وحسين فوزي فهو بإيجاز ووضوح انسحاب مصر من المجموعة العربيَّة وتخلِّيها

عن ارتباطاتها مع جاراتها لكي تلتفت لشئونها الخاصة بعد طول ضياع وإعادة بناء نفسها بعد طول خراب [١] وهذا في رأيي منطق مشروع رغم عدم موافقتي عليه ، وليس بحاجة إلى كلّ هذا اللف والدوران للتدليل عليه كقول الحكيم أن مصر الحقيقة هي " متحف العالم " الذي لا يصان إلا بالحياد . أو " فندق العالم " محط سياح المشرقين والمغربين ، وهو ما يستوجب أن نعيش في حياد دائم ... وهو منطق مشروع للأسباب التي ساقها توفيق الحكيم في مقاله الثاني لا في مقاله الأولى ، وهي أنه ليس على مصر واجبات عربية ما لم تكن لها حقوق عربية . وبما أن مصر بسبب أدائها لواجباتها قد " أضاعت حياتها ومالها وأفلست واشتغلت خادمة بالأجر في بيوت الدول العربيَّة الغنيَّة " نتيجة لاضطلاعها بالعبء الأكبر في الدفاع عن المنطقة ، وبما أن الدول العربيَّة ترفض أو تعجز عن الدخول في الوحدة الاندماجيَّة مع مصر في الاقتصاد والدفاع الوطني والسياسة الخارجيَّة ، وهو الشرط المستحيل التحقيق الذي اشترطه توفيق الحكيم لعروبة مصر واضطلاعها بالمسئوليَّة عن المنطقة العربيَّة ، فمن حق مصر إذن أن تلتفت لشئون نفسها ولو أدى الأمر أن تدير ظهرها للعالم العربي في سبيل إنقاذ نفسها ، وما ينطبق على المنطقة العربيَّة ينطبق أيضاً على المنطقة الأفريقيَّة .

فليكن . ولكن توفيق الحكيم ، ومن ذهب مذهبه ، يتجاوزن عن حقيقة من أهم حقائق الحياة والتاريخ إلا وهي الحقيقة الجيوبوليتيَّة (الجغرافيَّة السياسيَّة) التي تربط مصر راضية أو كارهة بالمنطقة العربيَّة وبالمنطقة الإفريقية وهي حقيقة الأمن القومي المصري البحت بلا فلسفة ولا ميتافيزيقا ولا مجردات طنانة كتلك التي يطلقها البعثيون ومن ذهب مذهبهم فيطمسون حقائق الحياة والتاريخ بالشعارات المسكرة . وأنا لست بحاجة إلى أن أسمي نفسي عربيّاً أو أفريقيّاً لكي أدرك أن أمن مصر نفسها متوقف على أمن المنطقة العربيَّة ولاسيما في شرق البحر المتوسط

---

(١) يقصد الحكيم بقوله " طول خراب " فترة القومية العربية وإضاعة عبد الناصر ثروات مصر وأرضها وأبناءها وأمنها من أجل الوحدة العربية ، وكان توفيق الحكيم أول من انتقد الحقبة الناصرية في كتابه " عودة الوعي " وكتاب " وثائق في سبيل عودة الوعي " .

والبحر الأحمر ، وعلى أمن المنطقة الأفريقيَّة ولاسيما في منابع وادي النيل وفـي مدخل البحر الأحمر .

ولهذا ، لكي نكون أمناء مع أنفسنا ومع الغير يجب أن نَفْصِل بين قضية مـصر عن قضية الكفاح المشترك في العالم العربي وفي أفريقيا وفـي أفريقيـا الـسوداء للحفاظ على أمن المنطقتين الذي يتوقَّف عليه أمن مصر في داخلهما.

وقد كنا قبل ١٩٥٢م نسمي تضامن شعوب المنطقة للتخلص مـن الاسـتعمار ، حتى قبل طرح دعوة القوميَّة العربيَّة ، " الكفاح المشترك " كنا نتعاضد مع السودان ليتخلَّص من الاستعمار البريطاني سواء قَبِلَ السودان مبـدأ وحـدة وادي النيـل أو رفضه . وكان دمعنا لا يكفكف يا دمشق كلما للحرية الحمراء باباً بكل يد مـضرجة يدقُّ . كلُّ ذلك دون أن نفكِّر في زيجـة فيدراليَّـة أو كونفدراليَّـة أو فـي قوميَّـة ميتافيزيقيَّة اسمها القوميَّة العربيَّة .

وأنا أوافق توفيق الحكيم على قوله : " إذن عندما نقول أن العرب أمَّة واحـدة ، لها قضيَّة واحدة ، فهو قول لا أساس له في الواقع لأن الواقع هـو أن لكـلِّ دولـة عربيَّة قضيتها التي تهمها في المكان الأول . فليس بينها اتحاد مشترك فـي جـيش واحد أو اقتصاد واحد ، بل فيها دول تتَّمتع بالغنى المُفْرِط ، وأخرى تقاسـي مـن الفقر المُدْقَع ، وبعضها أرضه محتلَّة وتهمُّه مؤتمرات السلام ، والـبعض أرضـه حرَّة ، وتهمُّه مؤتمرات الأوبك [(١)].. الخ

ومع ذلك فأنا أعجز عن الربط بين هذه الحقائق وبين دعوة الحيـاد المـصري فالحياد كما هو مفهوم للخاص والعام هو انتهاج سياسة تنأى بأيِّ بلد من البلاد عـن الارتباط بأحلاف عسكريَّة مع أيَّة كتلة من الكتل المتصارعة في العـالم ولا سـيما الكتلتان العظميان ، وهذا ما درجنا على تسميته " عـدم الانحيـاز " ولكـن اسـمه التقليدي المتعارف عليه من قديم الزمن كان " الحياد " .

فهل توفيق الحكيم وحسين فوزي يتحدَّثان حقاً عن حياد مصر والشرق والغرب ؟

---

(١) وبعض الدول العربية اليوم مع الربيع العربي ، وبعضها الأخر ليس فقط ضده بـل تـدعم الثـورة المضادة لإجهاضه بكل قوة .

أنا لم أفهم ذلك بوضوح من منطوق كلامهما ، وإنما الذي فهمته والذي فهمه معي أكثر القراء هو حياد مصر بين العرب واستقلال سياستها عن سياستهم فلو جنحوا شرقاً كان لنا أن نجنح غرباً . وهذا هو المنطق المغلف في دعوة الحياد المصري . فهل يمكن بأي معنى من المعاني أن نسمي هذا حياداً مصريّاً ؟ أم أنه نوع آخر من الانحياز في مواجهة الانحياز العربي الآخر ؟

ومع التسليم بأن ما بين الدول العربيَّة من اختلافات أصيلة يجعل من اتحادها مع مصر في جيش واحد واقتصاد واحد مجرد " حلم جميل " بعيد التحقيق إن لم يكن مستحيل التحقيق ، فمتى كان هذا يمنع أن الأمن العربي جزء هام من الأمن المصري ، وأن الأمن المصري جزء هام من الأمن العربي؟ وإذا كنا دعاة حياد بين الشرق والغرب ، أو بين الكتلتين النوويتين ، فلماذا يكون الحياد المطلوب حياداً مصريّاً خاصاً ولا يكون حياداً عربيّاً عامّاً ؟

ولكن الحياد الدولي ليس الحياد الذي يتحدَّث عنه توفيق الحكيم حين يقول : " لا بدَّ إذن من حياد مصر وعدم تدخلها في قضية شقيق من أشقائها العرب إلا بالتوكيل الرسمي " . فهو إنَّما يتحدَّث عن حياد مصر بين العرب ولا يتحدَّث عن حياد مصر بين الدول العظمى .

وهذا أيضاً منطق مشروع ولكن له اسماً آخر غير " الحياد " فاسمه الحقيقي هو اتباع " سياسة مصريَّة خاصة " تحمي الأمن المصري نتيجة :

١- لعجز العالم العربي عن اتباع سياسة عربيَّة عامَّة تحمي الأمن العربي .

٢- لفشل مصر في أن تأخذ من العرب بمقدار ما أعطت وما تعطي أثناء قيامها بالتزاماتها نحو الأمن العربي والتنمية العربيَّة .

٣- لضرورة تصحيح الأخطاء المصريَّة والعربيَّة في الماضي والحاضر .

٤- وهو أهم ما في الموضوع . لأن محصِّلة الأسباب الثلاثة السالفة قد تركت مصر مجهدة مستنزفة وعطَّلت تقدمها بل ساعدت على تأخرها بما يتهدد مستقبلها فهي في حاجة إلى مراجعة حساباتها وأسس العقد الاجتماعي فيها التي أدَّت إلى ما هي فيه من غموض في الأهداف وبلبلة في الوسائل وانقسام في الشخصيَّة وفي الإدارة ...

وبموجب هذه الواقعيَّة السياسيَّة تدرك مصر أن أمن العالم العربي جزء من أمنها الذاتي ، فهي لا تتخلَّى عنه من أجل أمنها هي . ولكن بعد أن ثبت لمصر أن الطريق الذي كانت تسير فيه مصر والدول العربيَّة ، دائماً إلى منتصفه ، وليس إلى نهاية الشوط ، لم يزد مصر أو جاراتها أمناً عبر ثلاثين سنة ، بل زادها تعرُّضاً للعدوان وأضعف مناعتها لصدِّ العدوان رغم ما تبذل مصر من دماء وما تنفق من أموال وما تقدِّم من تضحيات ، أليس من حق مصر أن تعيد النظر في استراتيجيتها باحثة عن طريق آخر غير هذا الطريق الدائري الذي ينتهي بنا دائماً حيث بدأنا ولا يحلُّ لمصر أو لجاراتها مشكلات ؟

فهل نحن بحاجة بعد كلِّ هذا إلى دليل على أن المنطقة العربيَّة ، من الفارسي إلى الأطلسي كما يقولون ، منطقة جيوبوليتية واحدة ، أمنها واحد ومصيرها واحد إزاء الغزو الخارجي وإزاء النفوذ الخارجي سواء جاء من وسط آسيا أو من شطآن أوروبا أو من قادة الأطلنطيد أو من مروج الأقوام السلافية ؟ وهل نحن بحاجة بعد كل هذا إلى دليل على أن عزلة مصر عن غلافها العربي وعزلة العرب عن وقائهم المصري أسطورة سياسيَّة ولدَّها الإحساس بالقهر والإحباط وطلب النجاة بأي ثمن ولو كان الاعتصام في برج الأوهام السويسريَّة الذي عاش فيه لبنان مزمناً ثم أفاق وهو يقطر دماً على أن أمنه بل وكيانه جزء لا يتجزأ من أمن المنطقة وكيانها ؟ (١)

كانت هذا مخلص رأي توفيق الحكيم ، وحسين فوزي ، ولويس عوض في قضية الوطنيَّة المصريَّة في مقابل القوميَّة العربيَّة .

وبعد الحديث عن الصراع الفكري بين دعاة القوميَّة العربيَّة والوطنيَّة المصريَّة نتحدَّث عن الاتجاه الرابع من اتجاهات النهضة المصريَّة .

٤- دعاة العلمانية والأورمتوسطيَّة

الاتجاه الرابع : الاتجاه العلماني الأورمتوسِّطي ودعاته ينظرون إلى كل ما يفعله الغرب المتقدِّم نظرة تقديس فإذا كان الغرب قد نبذ دينه فتقدَّم فعلينا أن نفعل مثلهم

---

(١) د. لويس عوض " دراسات في الحضارة " دار المستقبل العربي ص ٨ – ١١ بتصرف يسير .

لكي نتقدَّم ، فالدين ، نص مقدس واجتهادات العلماء ، كان السبب في تخلُّف المسلمين وهو العائق دون التقدُّم ، كما أن العقليَّة المصريَّة عقليَّة أورمتوسِّطيَّة وخير لنا التفاني في الغرب الأوربي والاندماج فيه عن الارتباط بالبلاد العربيَّة ؛ فاتصالنا بأوربا هو أساس نهضتنا الحديثة بينما الارتباط بالعرب هو أساس تخلفنا ورجعيَّتنا ، كما أن العقلِيَّة المصريَّة عقليَّة أورمتوسِّطيَّة وليست عقليَّة عربيَّة ، والاتصال بأوربا لم ينقطع تأثيراً وتأثُّراً منذ الفراعنة إلى اليوم وهو دائماً نافع ومفيد لنا .

وجُلُّ دعاة العلمانيَّة والأورومتوسِّطيَّة من أبناء البعثات العلميَّة التي أرسلها محمد على إلى أوربا لتحصيل العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة ، ومن أبناء المدارس الحكوميَّة التي أشرف على تعليهم إما أجانب لقَّنوهم حب الغرب كما لقَّنوهم علومه أو مصريون فتنوا بالغرب وعلومه.

إن هُويَّة مصر المتوسِّطيَّة خاصة في جوانبها الثقافيَّة ظلَّت مثاراً للجدل والأخذ والعطاء بين فريقين يرى أحدهما أن انتماء مصر إلى المتوسِّط، وبالتالي إلى أوروبا هو الخير، حيث يمكن لمصر أن تحتذي خطوات أوروبا في النهضة والتقدُّم في كافة المجالات وأن انتماء مصر للمتوسِّط هو انتماء طبيعي غير مفتعل ، وبين فريق آخر يرى أن انتماء مصر للمتوسِّط وللثقافة المتوسِّطيَّة التي يغلب عليها الطابع الأوروبي ـــ على الأقل في الوقت الحديث ـــ إنما هو طمس لهُويَّة مصر وشخصيَّتها ودورها العربي ـــ الإسلامي فمصر ظلَّت دائماً حصن العروبة، وحامية الإسلام والمسلمين، وهى مفتاح نهضة الوطن العربي فكيف تتخلَّى عن كلِّ ذلك وتبحث عن ذاتها في المتوسِّط باتجاه أوروبا ؟ لا يشكُّ أحد في إخلاص الفريقين، وأن كلَّ فريق يريد الخير لوطنه ولكلٍّ منهما حججه ودارت حوارات ومناظرات فكريَّة ثقافيَّة عديدة لعل أهمها ما عرف بحوار الثلاثينيات بين طه حسين وساطع الحصري .

أما عن الدكتور طه حسين، فهو من أبرز من دافعوا عن هُويَّة مصر المتوسِّطيَّة فدعا إلى أن تتَّجه مصر إلى الشمال عبر مياه المتوسِّط، إلى أوروبا لتأخذ بأسباب

التقدُّم والحضارة التي شهدتها أوروبا والتي كانت في ذروة قوتها في القرن التاسع عشر والنصف الأوّل من القرن العشرين وفى كتابه مستقبل الثقافة في مصر (١٩٣٨) دافع طه حسين عن هذا الاتجاه باعتباره الطريق الصحيح نحو التقدُّم والنمو والرقى .

كانت قناعة د. طه حسين هي أنَّ العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنَّما يتأثَّر بالبحر الأبيض المتوسِّط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسِّط .

كان الطرف الآخر في حوار الثلاثينات هو ساطع الحصري (١٨٨٠ ــ ١٩٦٨) الذي كرَّس حياته داعياً ومبشراً بالوحدة العربيَّة ساعيّاً إلى إيقاظ الشعور القومي العربي، كما قام بتفنيذ ودحض آراء ومزاعم المعارضين لتلك الفكرة ومن المؤكَّد أن فكرة هُويَّة مصر المتوسِّطيَّة قد أزعجت الحصري فلم يُخْفِ الحصري معارضته القويَّة لدعوة طه حسين لانتماء مصر المتوسِّطي حضاريّاً وثقافيّاً فنجد الحصري يقول: " ما هي قيمة هذه النظريَّة من الوجهة العلميَّة ؟ هل يوجد حقيقة شيء يستحق التسمية باسم ثقافة البحر الأبيض المتوسِّط ؟ أو حضارة البحر المتوسِّط ؟ وإذا كان ذلك موجوداً حقيقة، هل يستحق العناية والاهتمام ؟ وهل يترتب على أبناء هذا الجيل أن يلتفتوا إلى تلك الثقافة أو الحضارة، وأن يتمسَّكوا بها ويعملوا لأجلها ؟

حقيقة الأمر، أن طه حسين لم يكن هو الوحيد الذي دافع عن شخصية مصر المتوسطية وهُويَّتها التي تأتى جذورها ــ في تشكيل عقلها ــ من البعد المتوسطي، إنما كان طه حسين هو أوّل من أثار الموضوع في شكل ثقافي فكرى أدبي فارتفعت معه الفكرة والنقاش قدر منزلة طه حسين في الحياة الثقافيَّة الفكريَّة في الفكر والتراث المصري العربي ثم أن طه حسين قد ضمَّن أفكاره تلك في كتاب " مستقبل الثقافة في مصر " فأصبح بمثابة الكتاب العمدة الذي يُرْجَع إليه لمعرفة رؤية طه حسين في هذا الموضوع المهم مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الكتاب هو أساساً كتاب يوضِّح رؤية طه حسين للتعليم والثقافة في مصر وكيف يمكن لمصر أن تعلِّم أولادها وتثقِّفهم، ولعلَّ هذا هو أحد عوامل أهمية هذا الكتاب وسوف نناقش هذا الكتاب تفصيلاً فيما بعد .

أما د. حسين مؤنس فقد رأى أن مصر لها دور ورسالة في البحر المتوسط، وأن مصر متوسِّطيَّة، وقدَّم هيكلاً لنظريَّة أن مصر ذات انتماء وتوجه متوسِّطي تقوم على ثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى: أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسِّط، فإذا استقرَّت أمور مصر وازدهرت انعكس ذلك على البحر المتوسِّط فتزدهر وتنتعش موانيه، وأن الإسكندرية قد ساهمت بشكل خاص في ربط شرق المتوسِّط بغربه وشماله بجنوبه .

الحقيقة الثانية: أن تاريخ مصر متأثِّر بالبحر المتوسِّط بشكل دائم قد لا نشعر بهذا التأثير أحياناً أو يخيَّل لنا أنه يضعف أو يتلاشى ولكنه قائم وفعَّال بشكل دائم حتى في العصور التي ساد فيها السكون موانئ مصر كالعصر التركي مثلاً، لم تنقطع حركة التجار والسفن بين مصر والشام واليونان .

الحقيقة الثالثة : أن حياة مصر لا تستقيم إلا إذا كانت على صلة بالبحر المتوسط فالعنصر البحري داخل في كيانها مشترك بنصيب كبير في تكوينها، وأن فترات انقطاع الصلة بين مصر والبحر المتوسِّط، كانت فترات سكون وخمول، ويخلص إلى القول بأن لمصر فراغاً في هذا البحر عليها أن تملأه، ولها رسالة في حوضه عليها أن تقوم بها، وعليها مسئولية عن حضارته لابد أن تنهض بها .

أما الدكتور جمال حمدان فيؤكد في كتابه ــ نحن وأبعادنا الأربعة ــ أن البحر المتوسِّط بُعْدٌ من أبعاد التوجه المصري ــ فالنيل إذ ينحدر شمالاً ليصبَّ فيه، والحياة المصريَّة إذ تجرى مع النيل نحوه، فإن مصر برمتها تتوجَّه إليه وتتطلَّع نحو الشمال ــ ويرى جمال حمدان أن مصر متوسِّطيَّة أكثر مما هي مداريَّة أو أفريقيَّة أما عن العلاقة بين المتوسِّط وأوروبا فيخلص جمال حمدان إلى أن البحر المتوسِّط يستمدُّ أهميته الفائقة في توجهنا من أنها هي أوروبا بالذات التي تقع وراءه، ومن ثَمَّ، فإن مفهوم المتوسِّط لا يمكن أن ينفصل عن مفهوم أوروبا وليس مجرَّد صدفة أن كلَّ من اتَّجه منَّا إلى البحر المتوسِّط، أو دعا إلى الاتجاه إليه، انتهى إلى أوروبا .

والواقع أن معظم الكتابات التي تحدَّثت عن شخصيَّة مصر ــ أن لم تكن كلها ــ قد تحدَّثت عن البعد المتوسِّطي أو أثر البحر المتوسِّط على مصر فالدكتور ميلاد

حنًا في كتابه ــ الأعمدة السبعة للشخصيَّة المصريَّة ــ اعتبر أن العامود السادس في تلك الشخصيَّة هو انتماء مصر للبحر المتوسِّط ويعتقد أن انتماء مصر إلى البحر المتوسِّط قد وصل إلى نقطة تحوُّل جديدة في العصور الحديثة مع الحملة الفرنسيَّة على مصر عام ١٧٩٨م والتي كان لها معان ثقافيَّة بعيدة المدى، وما أعقب ذلك من إرسال محمد عليّ للعديد من البعثات إلى أوروبا كمقدِّمة لنقل مصر إلى بداية عصر النهضة كما يرى أن طه حسين كان فاتحة لمدرسة ليبراليَّة كاملة من المتأثرين بانتماء مصر للبحر المتوسِّط وجزء من حضارته وحيث أكمل المشوار من بعده توفيق الحكم وحسين فوزى ولويس عوض وحسين مؤنس وآخرون غيرهم .(١)

ونحن كمصريين جنساً مسلمين أو مسحيين ديناً عرب لغة لسنا منغلقين على كلٍّ ما هو جديد مفيد " الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا "

وإن كان دعاة السلفيَّة اللا أصوليَّة ييمِّمون وجوههم قِبَل القديم ويعتبرون أن كلَّ فهم جديد للدين بدعة ضالة وأن الوقوف عند حدود ما أبدعه السالفين نجاة ؛ وأن السابق لم يترك للاحق شيئاً .

فإن العلمانيين الأورمتوسِّطين ييمِّمون وجوههم قِبَل الغرب ويعتبرون كلَّ فهم قديم للدين تخلُّف ورجعيَّة وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم ، المادي ، والحكمة تقضى ، في نظرهم ، بأن نأخذ من الغرب فلسفته وفنونه وآدابه كما نأخذ علمه ومخترعاته أن نأخذ أفكار دارون ، ونيتشة ، وماركس ، سارتر ، وفرويد ... كما نأخذ علوم جاليليو ونيوتن وأينشتين ومندل ...

وإذا كانت حُجَّة دعاة السلفيَّة اللا أصوليَّة أن المسلمين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه في أزهى عصورهم إلا بفضل تمسُّكهم بالدين ، واعتقادهم أن التمسُّك بأقوال وآراء بعض السلف سيحقِّق لهم ما تحقَّق لأسلافهم من ظهور على سائر الأمم .

---

(١) أسامة فاروق مخيمر " البحر المتوسط في السياسة المصرية - نقد واستشراف لقرن جديد " موقع الأهرام الرقمي ١ يناير ٢٠٠٠

فإن العلمانيين الأورمتوسِّطين يقولون إن أوربا ما تقدَّمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي .

والحق أن كلا الفريقين مصيب ومخطئ ، فنعم تقدَّم المسلمون عندما تمسَّكوا بالإسلام لكن فهمهم للإسلام يختلف عن فهم دعاة السلفيَّة اللا أصوليَّة .

فقد فهموا الإسلام على أنه نظام شامل دين ودنيا ، مأثور ومعقول ، إيمان وعمل لا كما فهم دعاة السلفية اللأ أصوليَّة على أنه نقلٌ لا عقلَ فيه ومأثورٌ لا فقهَ فيه وثباتٌ لا تطورَ فيه !!

كما أنَّ أوربا ما تقدَّمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي وهذا حقٌ ، ولكن الحقَّ أيضاً أن الدين الذي طرحته أوربا والذي كان عائقاً للتقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلميَّة ! ليس هو دين الإسلام الذي يجعل العلم ، بمفهومه الشامل ، فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلميَّة .

كان هذا الفصل عرضاً لأهم الآراء والصراعات التي دارت منذ بداية القرن العشرين حول الهُويَّة المصريَّة ، وسبيل التقدم والرقي ، وفي الفصول القادمة سوف نتناول الاتجاهات الأربعة التي تعرضنا لها في هذا الفصل بالبحث في أعماق أعماق جذورها لكي نكتشف من نحن ، وما سبيل نهضتنا ؟

فنبدأ ببحث مصر الفرعونيَّة لنرى هل نحن المصريين سلالة الفراعنة المتألِّهين الطغاة أم سلالة المصريين الموحدين الصالحين المُصلِّحين ؟

وفي الفصل الثالث نناقش كل الاتهامات التي وجهها أقباط المهجر للمسلمين الفاتحين ، ونبين علاقة العرب المسنمين بمصر والمصريين من خلال الكتابات المسيحية ، ونعرف سبب ترحيب المصريين بالفتح العربي الإسلامي ، ولماذا ثاروا

بعد ذلك على بعض الحكام المسلمين ، ونعـرف حقيقـة الجزيـة التـي فرضـها المسلمون على المسيحيين ، ونناقش قضية هل المسيحيون مـصريون والمـسلمون عرب ؟ وإشكالية نسبة المسيحيين في مصر .

وفي الفصل الرابع نعرف بالأورمتوسطية ونناقش كتاب طه حـسين " مـستقبل الثقافة في مصر " مناقشة ضافية ، كما نناقش آراء كل من توفيق الحكيم وحـسين فوزي ، وجمال حمدان حول هُويَّة مصر المتوسِّطيَّة .

ونختم البحث بالتعريف بالشخصيَّة المصريَّة وعوامل استمرارها ، ومدى تأثرها بالغزاة والفاتحين ، والإجابة عن سؤال من نحن ؟

* * *

الفصل الثاني

لسنا فراعنة ، فمن هو فرعون ؟

وثنية المصريين القدماء وطغيانهم بين الحقيقة والافتراء

رأينا في الفصل السابق أن فرعونيَّة مصر القديمة أمر ثابت عند كافة الاتجاهات فدعاة القبطيَّة يعتزُّون بتاريخ مصر الفرعوني وإن اتَّسم ملوكه بالتألُّه والطغيان فهم أصحاب أوَّل حضارة في التاريخ ، وأساس كلِّ الحضارات اللاحقة ، إن كان حكامه كفاراً فهذا أمر طبيعي فإن العالم لم يعرف التوحيد إلا عند ظهور المسيحية!

يقول الأنبا يوأنس أسقف الغربية : " يقف الإنسان مندهشاً حينما يُرمى المسيحيون بالكفر والشرك . وهم الذين علَّموا العالم التوحيد ، ويبدءون عبادتهم ويستفتحون صلواتهم قائلين : " باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد " .. المسيحية أيها الإخوة لم تؤمن بالوحدانيَّة فحسب بل هي التي علَّمت العالم التوحيد ، وأن الله لا يمكن إلا أن يكون واحداً ... ففي مصر مثلاً أيام قدماء المصريين كان هناك آلهة عامَّة مثل رع والإله آمون ، وكانت هناك آلهة إقليمية لكلِّ إقليم ، بل كان هناك إله لكلِّ مدينة ، وكان هناك آلهة شخصيَّة ، وأحياناً للأسرة . وقد جمع الوثنيون في عبادتهم بين الآلهة الخيِّرة والآلهة الشرِّيرة . وقد عبدوا الآلهة الخيِّرة استجاباً لرضاها ، والآلهة الشرِّيرة دفعاً لأذاها . " (١)

وإن كان الفراعنة طغاة فإنَّ طغيانهم ، في نظر دعاة القبطيَّة ، طغيان داخلي وهو أخفُّ كثيراً من طغيان الغزاة الغرباء والمحتلِّين الدخلاء .

أما دعاة الإسلام عامَّة والجنسيّة الإسلاميَّة خاصَّة فإن جميع حكام مصر في رأيهم كفرعون موسى طغاة وثنيُّون .

---

(١) الأنبا يوأنس أسقف الغربية " إيماننا الأقدس " ص ١١٨ ، ١١٩ .

يقول الشيخ رشيد رضا : " القبط تنتسب إلى الفراعنة الوثنيين أعداء الله تعالى " [(١)]

ويقول عن نظام الحكم في مصر القديمة : " أما المَدَنيَّة الفرعونيَّة فقد كانت تستعبد البشر وتذلُّهم ، كما فعلت ببني إسرائيل وغيرِهم ، وهذه الأهرام – التي هي أظهر آثارهم – حجَّة عليها وعليهم ؛ فقد كانوا يسخِّرون في بنائها مئات الألوف الخاضعين لهم ." [(٢)]

ولا يختلف دعاة القوميَّة العربيَّة ، والأورومتوسِّطيَّة عن هذه الآراء فالكلُّ مجمعٌ على كفر وطغيان المصريين القدماء .

ويكاد يجمع مؤرخو الحضارة المصريَّة القديمة والكتَّاب والمثقفون علي أن كلمة "فرعون" لقب لكلِّ ملوك مصر القدماء مثل الألقاب التي أطلقتها الأمم على حكامها: ملك ، إمبراطور ، نجاشي ، خليفة ، والي ، سلطان ، أمير ، خديو ، رئيس ...

الفرق بين الاسم واللقب

من المعروف أنه إذا ذكر لقب لا بد من تحديد اسم صاحبه من بين من حملوا هذا اللقب حتى لا يتلبس على الإنسان أي ملك مقصود إلا إذا كان الإنسان معاصراً لهذا الملك فلا يذكر اسم الملك لمعرفة الناس باسمه ، أو إذا لم يشتهر من الملوك الذين حملوا هذا اللقب غير واحد منهم بحيث إذا أطلق اللقب قصد به شخص بعينه.

وعلى ذلك لا يصحُّ أن تقول فتح الوالي مصرَ في عهد الخليفة بعد انتهاء خلافة عمر بن الخطاب وتولي غيره إنما يجب عليك أن تقول فتح الوالي عمرو بن العاص مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

أما الاسم العَلَم : فهو كلُّ عَلَم وضع للدلالة على ذات معيَّنة ، سواء أكان مفرداً، أم مركباً . مثل : محمد ، فاطمة ، مكة ، سيبويه ،حضرموت ، صلاح الدين ...

فرعون اسم أم لقب ؟

نأتي بعد ذلك إلى كلمة فرعون لبيان ما إذا كانت اسماً عَلَماً أم لقباً .

---

(١) رشيد رضا ، مجلة المنار " المسلمون والقبط " عدد مارس ١٩١١ ج ١٤ ص ٢٠١

(٢) رشيد رضا " مجلة المنار " مناظرة في الجامعة المصرية في المدنيتين الفرعونية والعربية (وأيتهما تختار مصر هذا العصر ؟!) ج ٣١ ص ٤٦٥ عدد يناير ١٩٣١م

جاء في المعجم الوسيط " فِرْعَوْنُ : لقبُ مَلِك مصْرَ في التاريخ القديم ، وأصله بالمصرية [پَرْعو] بغير نون ، ومعناه : البيتُ العظيم .

و : لَقَبُ كلِّ عاتٍ . والجمع : فراعِنَة .

وقيل : دُروعٌ فِرعونيَّة : نسبة إلى فرعون. (١)

ولقد جارَى المعجم الوسيط في معنى " فرعون " الشائع بين المؤرِّخين ، وتجاهل تماماً المعنى المستخدم في الكتب المقدَّسة ، كما أغفل ما جاء في معجم " لسان العرب " الذي يعتمد دائماً عليه في بيان معاني الكلمات .

جاء في لسان العرب لابن منظور : وفرعون الذي ذكره الله تعالى في كتابه تُرك صرفه في قول بعضهم لأنه لا سَمِيَّ له كإبليس فيمن أخذه من أبْلَسَ قال ابن سيده وعندي أن فرعون هذا العَلَم أعجميٌّ ولذلك لم يصرف . (٢)

ولقد استخدمت الكتب المقدسة – كما سيأتي تفصيله – كلمة " فرعون " كما قال ابن سيده كعَلَم أعجمي وليس كلقب .

ومع الأسف أن كلمة " فرعون " قد شاع خطأً أنها لقب لكلِّ حكام مصر القديمة ومن كثرة تكرار هذه المعلومة – الخاطئة – تقررت وأصبحت من المسلَّمات التي لا يفكِّر أحد في مناقشتها أو التعرُّض لها ، ووُصفَت الحضارة المصريَّة بالحضارة الفرعونيَّة ، ووُصفَ المصريون بالفراعنة ، ولقد استضافني أحد المذيعين في لقاء تليفزيوني في قناة النيل الثقافيَّة ، وفوجئ المذيع بقولي الحضارة المصريَّة القديمة بدلاً من الحضارة الفرعونيَّة ، واعترف أنه أوَّلُ مرَّة يعرف هذه المعلومة !

يقول العقاد : " " خَلَطَ العامةُ من المسلمين بين اسم الفراعنة واسم قدماء المصريين ، أو ظنهم أن كل فرعون هو فرعون موسى بالكفر والطغيان في سور القرآن . فأصبح اسم قدماء المصريين مرادفاً عندهم لاسم فرعون المنبوذ في كتاب الله ، وأصبحت سلالة هذا الجنس في وهمهم رجساً غير مستغرب فيه قدح قادح ولا منتظر فيه دفاع مدافع ، ومن ذا الذي يدافع عن فرعون وآل فرعون ؟ (٣)

(١) مجمع اللغة العربية " المعجم الوسيط " الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٣ ص ٧٠٩ ، ٧١٠
(٢) لسان العرب لابن منظور ج ١٣ ص ٣٢٣ .
(3) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٢٠

فرعون في القرآن الكريم

وجرياً على المنهج الذي اتَّبعناه – في كتبنا السابقة – في محاولة فهم الحضارة المصريَّة القديمة أننا ندرسها في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحية أولاً ثم الاسترشاد بالتوراة والإنجيل ثانياً ؛ فإننا نقول إن كلمة " فرعون " قد ذكرت (٧٤ مرة) في القرآن الكريم (١) وجميعها تتكلَّم عن فرعون ملك مصر زمن موسى عليه السلام فقط ، ولم تذكر قط كلمة فرعون في القرآن الكريم إلا قصد بها هذا الملك الطاغية المتألِّه ، كما أن كلمة " فرعون " لم تأت إلا مفردة "فرعون" ولم تجمع قط في القرآن الكريم "فراعنة" ، كما أنها لم تعرَّف أبداً بـ " أل ، أو الإضافة " كأيِّ لقب فلم يذكر ولو مرة واحدة " الفرعون " ، أو " فرعون مصر " أو " فرعون موسى " كما يقال مع أيِّ لقب آخر : الملك ، أو ملك مصر أو الملك فاروق ، أو الإمبراطور أو إمبراطور اليابان ، أو كسرى بن هرمز ، أو الخليفة عمر بن الخطاب ، أو الخديو إسماعيل ، أو الرئيس عبد الناصر ... وكذلك سائر ألقاب الملوك والحكام وكلُّ هذا يؤكِّد أن كلمة " فرعون " اسم عَلَمٌ على ملك مصر الذي عاصر سيدنا موسى .

وفي المرات الأربع والسبعين التي ذكرت فيها كلمة " فرعون " في القرآن الكريم ذكرت كعلَم وليس لقباً ، وقد تتبعتُها جميعاً ووضعتُ مكانها اسماً عَلَماً مثل : إبليس ، هتلر ، هولاكو فاستقام المعنى ، ووضعت مكانها جميعاً لقباً مثل : ملك ، إمبراطور ، سلطان ... ففسد المعنى ، ودونك هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر :

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص : ٣٨]

فهنا الله تعالى يتكلَّم عن شخص معيَّن ادعى الألوهيَّة ولا يتكلَّم عن شخص ما أو ملك ما ، ومعلوم أنه ليس كلُّ الناس ادعوا الألوهيَّة ، ولا كلُّ ملك قال :" مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي " وأشهر من ادَّعى الألوهيَّة على الإطلاق " فرعون " ملك مصر أيام سيدنا موسى .

(١) محمد عبد الباقي " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " دار الحديث ص ٥١٥ ، ٥١٦ .

{ اذهب إلى فرْعَوْنَ إنَّهُ طغى } [طه : ٢٤]

والخطاب لسيدنا موسى ، والمعروف في كلٍّ الديانات السماويَّة أن الله تعالى أرسل سيدنا موسى إلى فرعون ذلك الملك الطاغية المُتألِّه .

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آَمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }[التحريم : ١١]

وامرأة فرعون معروفة بالاسم فقد صرح باسمها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة منها :

" أفضل نساء العالمين خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون "(حديث صحيح رواه الحاكم في مستدركه)

{ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ }[العنكبوت : ٣٩]

و" قارون " اسم عَلَم على رجل من قوم موسى قد خسف الله به وبداره الأرض، و" هامان " اسم عَلَم على وزير فرعون ، وكذلك " فرعون " اسم عَلَم على ملك مصر في زمن موسى ، وقارون ، وهامان .

لقد وقعت كلمة فرعون بين عَلَمَيْن ولا يصحُّ لغةً فيها إلا أن تكون عَلَماً مثلهما ولا يمكن بأي حال أن تكون لقباً .

فرعون في السنّة النبويّة

فإذا جئنا إلى الأحاديث الشريفة نجد أنها تستخدم كلمة فرعون بمعنى اسم عَلَم على ملك مصر إبان سيدنا موسى كما استخدمها القرآن الكريم .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلاَةَ يَوْمًا فَقَالَ : مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا ؟ كَانَتْ لَهُ نُورًا ، وَبُرْهَانًا ، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ ، وَلاَ بُرْهَانٌ ، وَلاَ نَجَاةٌ ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ ، وَفِرْعَوْنَ ، وَهَامَانَ ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ" (حديث صحيح أخرجه أحمد)

وكلُّ من ذكرهم النبي ﷺ مع فرعون أسماء أعلام فَلِمَ يستثنى فرعون من أن يكون اسماً عَلَماً مثلهم ؟!!

ويقول النبي ﷺ : " خَلَقَ الله يَحيى بنَ زكريَّا في بَطن أُمِّه مُؤمناً، وخَلَقَ فرعونَ في بَطن أُمِّه كافراً " (حديث حسن رواه الطبراني في المعجم الكبير)

ولمَّا أغرقَ اللهُ فرعونَ قالَ : " آمنتُ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ الَّذى آمنتْ به بَنُو إسرائيلَ ، قالَ جبريلُ يَا مُحمدُ ! لوْ رَأيتنى وأنَا آخذٌ منْ حَال البَحر فأدسُّهُ في فيه مَخافةَ أنْ تُدركهُ الرَّحمةُ" (حديث حسن رواه الترمذي وصححه غيره)

ومن المعروف في التاريخ وفي الكتب السماويَّة أن الذي أغرقه الله من ملوك مصر هو فرعون فقط ، وليس كل ملوك مصر على اعتبار أن كلمة فرعون لقب لكل حكام مصر القديمة !!

عن أبي عثمان عن سلمان رضي الله عنه قال : " كانت امرأة فرعون تعذَّب بالشمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة " (حديث صحيح رواه الحاكم في مستدركه)

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسيَةُ امْرَأَة فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ " (أخرجه البخاري)

وهذه الحديث – وغيرها – تؤكد أن فرعون اسم علَم وليس لقباً وهو الذي أرسل الله تعالى إليه موسى وهارون لهدايته بعد أن طغى .

{ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } [طه : ٤٢ – ٤٤]

وأن لفرعون هذا زوجة اسمها (آسية بنت مزاحم) وقد عُذِّبت بسبب إيمانها ، فهل كل ملوك مصر كانت أسماء زوجاتهم " آسيا " وعذبن كما عذبت آسيا زوجة فرعون ، وأن الله تعالى أرسل لهم جميعاً سيدنا موسى ، وأنهم جميعاً كذَّبوه ، وطاردوه فضرب بعصاه البحر فنجا هو وبنو إسرائيل وأغرق الله تعالى حكام مصر جميعاً على فرض أن كلمة فرعون لقب لجميع حكام مصر !!

{ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ } [الشعراء : ٦١- ٦٦]

فهل أغرق الله تعالى كلَّ حكام مصر القدماء نكال الأولى وسوف يعذبهم بالنار نكال الآخرة ؟!!

{ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى } [النازعات : ٢٥]

أظن أنه لا داعي للإكثار من ضرب المزيد من الأمثلة فالأمر أضحى واضحاً كفلق الصبح .

ملكا مصر في عصر إبراهيم ، ويوسف عليهما السلام

لقد ذكر الله تعالى كلمة " ملك " خمس مرات عند حديثه تعالى عن ملك مصر إبان زمن يوسف عليه السلام ، ولو كانت كلمة " فرعون " لقباً لذكرها الله تعالى ولو مرة واحدة على هذا الملك أو غيره من الملوك الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز .

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ... } [يوسف : ٤٣]

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ... } [يوسف : ٥٠]

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ... } [يوسف : ٥٤]

{ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ... } [يوسف : ٧٢]

{ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ... }[يوسف : ٧٦]

كما أطلق النبي ﷺ على ملك مصر الذي أراد اغتصاب سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لقب جبار ولم يطلق عليه لقب فرعون .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلام قَطُّ إِلا ثَلاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ { إِنِّي سَقِيمٌ } وَقَوْلُهُ {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهَا إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الإِسْلامِ فَإِنِّي لا أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ فَلَمَّا

دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ **أَهْلِ الْجَبَّارِ** أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلا لَكَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأُتِيَ بِهَا فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام إِلَى الصَّلاةِ فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً فَقَالَ لَهَا ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلا أَضُرُّكِ فَفَعَلَتْ فَعَادَ فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنْ الْقَبْضَةِ الأُولَى فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَفَعَلَتْ فَعَادَ فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنْ الْقَبْضَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ فَقَالَ ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي فَلَكِ اللَّهَ أَنْ لا أَضُرَّكِ فَفَعَلَتْ وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي وَأَعْطِهَا هَاجَرَ قَالَ فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا مَهْيَمْ قَالَتْ خَيْرًا كَفَّ اللَّهُ **يَدَ الْفَاجِرِ** وَأَخْدَمَ خَادِمًا " (متفق عليه)

ولقد ذكر النبي ﷺ لقب جبار مرتين ، وفاجر مرة في هذا الحديث ولم يذكر لقب فرعون والتوراة تنص على أن هذه الحادثة وقعت في مصر ومع ملكها .

وفي رواية أخرى " عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ " أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ إِلاَّ ثَلاَثًا ثِنْتَانِ فِى ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلُهُ (إِنِّى سَقِيمٌ) وَقَوْلُهُ (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِى أَرْضِ **جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ** إِذْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَأُتِىَ **الْجَبَّارُ** فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُ نَزَلَ هَا هُنَا رَجُلٌ مَعَهُ امْرَأَةٌ هِىَ أَحْسَنُ النَّاسِ قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ إِنَّهَا أُخْتِى. فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهَا قَالَ إِنَّ هَذَا سَأَلَنِى عَنْكِ فَأَنْبَأْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِى وَإِنَّهُ لَيْسَ الْيَوْمَ مُسْلِمٌ غَيْرِى وَغَيْرُكِ وَإِنَّكِ أُخْتِى فِى كِتَابِ اللَّهِ فَلاَ تُكَذِّبِينِى عِنْدَهُ " (السلسلة الصحيحة للألباني)

ولم يقل النبي ﷺ أن الذي أراد اغتصاب سارة فرعون من الفراعنة إنما قال جبار من الجبابرة .

رأي علماء المصريات في كلمة " فرعون "

وقد يقول قائل إن الذين كانوا يحكمون مصر في عهد سيدنا يوسف هم الهكسوس ، والهكسوس كان لقب حاكمهم " ملك " بعكس المصريين الذين كان لقب ملكهم " فرعون " ولبيان هذا الأمر لا بد من الاحتكام إلى رأي المتخصِّصين في علم المصريات .

يقول الدكتور زاهي حواس – وزير الدولة لشئون الآثار المصرية السابق، ومدير آثار الجيزة الأسبق – : " وهنا يجب أن نفسِّر معني كلمة " فرعون " لأننا

نستخدمها في بعض الأحيان دون معرفة معناها بل ونحاول أن نشير إلي أن كلمة "فرعون" تعني الطاغي أو الظالم وذلك من خلال قراءة الكتب السماويَّة خاصة القرآن الكريم في قصة موسي عليه السلام، و" الفرعون " الذي طغي وقد جعلَنا هذا نعتقد أن كلَّ الفراعنة طغاة وجعل البعض ينظر إلي الآثار كأنها أصنام لأنها من صنع الطغاة .

وهنا يجب أن نشير إلي أن اسم " فرعون " ينسب إلي الاسم المصري القديم (بر– عا) بمعني(المنزل العظيم) وهذا الاسم عرف فقط وارتبط بالفرعون منذ عصر الدولة الحديثة أي منذ حوالي ١٥٥٠ ق.م. وقد حُرِّف الاسم بالعبريَّة إلي "فرعو" ثم بالعربيَّة إلي " فرعون " وبالتالي فإن الاسم يعني الملك الذي يعيش في القصر العظيم وقد عرف حكام مصر قبل الدولة الحديثة باسم " ملك " وبعد الدولة الحديثة باسم " فرعون ".

وتظهر عظمة القرآن الكريم في قصة سيدنا يوسف حيث لم تذكر القصة كلمة فرعون لأن الحادثة وقعت قبل الدولة الحديثة. أما قصة سيدنا موسي فقد حدثت عندما كان الملك يطلق عليه اسم فرعون ." (١)

إذن ووفقاً لكلام علماء المصريات لم تظهر كلمة "فرعون" إلا في الدولة الحديثة ولم تكن كلمة "فرعون" معرفة في زمن الدولتين : القديمة والوسطى ، ولم تُعرف كلمة "فرعون" إلا زمن الدولة الحديثة فقط أي منذ حوالي ١٥٥٠ ق.م بتقدير د.زاهي حواس وينزل أصحاب معجم الحضارة المصريَّة بظهور كلمة "فرعون" إلى ألف سنة قبل الميلاد فقط .

فقد جاء في معجم الحضارة المصريَّة " فرعون : لم يستعمل هذا اللقب الذي يوحي إلينا بشخصيَّة ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة ، إلا في الألف سنة الأولى ق. م كلقب للملك عندما أنجزت مصر ما أراده لها القَدَر ، ولم يعد ملوكها يبهرون الدنيا بأعمالهم كأسلافهم الذين حكموا أيام عظمتها نقلنا كلمة " فرعون " عن لفظ حقيقي رسمي في التوراة وهي مشتقة من اللفظ المصري " برعا " أي "

---

(١) د. زاهي حواس في جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ ٢٠٠٥/١٢/١٠م

البيت العالي " التي بعد استعمالها للقصر استعملت لصاحبه . غير أن لقب فرعــون لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمي لملك . (١)

وعلى ذلك فالمتَّفق عليه بين علماء المصريات أن كلمة فرعون " لم تظهــر إلا في الدولة الحديثة ، واختلفوا في زمن ظهورها ما بــين ١٥٥٠ ق.م ، وألــف ق.م والراجح عند علماء المصريات الغربيين والمصريين أن ملك مصر زمــن ســيدنا موسى كان " رعمسيس الثاني " الذي ادَّعى الألوهيَّة وأهلكه الله غرقاً.

وعلى ذلك فهناك اتفاق تام بأن كلمة " فرعون " ليست لقباً لكــلٍّ حكــام مــصر القديمة ، ولم تظهر إلا في عهد الرعامسة في الأسرتين التاسعة عشرة والعــشرين في النصف الثاني من الدولة الحديثة والراجح إنها لم تظهر إلا في عهد " رمــسيس الثاني " لأن رمسيس الأول تبوأ العرش وهو شيخ هرم وترك مقاليد الحكــم لابنــه "سيتي" ، الذي صار " سيتي الأول "(٢) الذي لم يحكم سوى اثني عشر عامــاً فقــط (١٣١٢– ١٣٠٠ ق.م) وكانت فترة حكمه مليئة بالحروب والمعارك لتوطيد السلطة المصرية في فلسطين ومقاومة الحيثيين والليبيين والأموريين فــي قــادش (٣) أمــا "رمسيس الثاني" فهو " ابن سيتي الأول " وقد استمرَّ حكمــه ٦٧ عامــاً (١٣٠١– ١٢٣٥ ق.م) (٤) على حسب حولية دريتون وفانديه ، أو من (١٢٩٠ إلــى ١٢٢٤ ق. م) على حسب حولية روتون . (٥) كما أنه شارك أباه سيتى الأوّل في الحكــم ، وبناء على ذلك فهو أطول الحكام الرعامسة حُكْماً .

يقول موريس بكاي : " إن المعطيات التي سبقت تسمح إذن بإثبات ما يلي :

١– إن الخروج لا يمكن أن يُتَصوَّر قبل وصوله أحد الرعامسة إلــى الحكــم فــي مصر .

---

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " ترجمة أمين سلامة ، مراجعة د. سيد توفيق . الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية . ص ٥١ ، ٥٢ .
(٢) نفسه ص ١٧٣ .
(٣) نفسه ص ١٩٤ .
(٤) نفسه ص ١٧٣ .
(٥) موريس بوكاي " القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم " مكتبة مدبولي ص ٤٦٧ .

٢- أن موسى قد ولد في حكم باني مدينتي : رمسيس وبيتون . أي في عهد رمسيس الثاني . (١)

فرعون في التوراة

والتوراة تؤكد بجلاء أن فرعون اسم علَم وليس لقباً فقد جاء في التوراة :

"١٠ثُمَّ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: ١١«ادْخُلْ قُلْ لِفِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ أَنْ يُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِهِ». ١٢فَتَكَلَّمَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ قَائِلاً: «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَسْمَعُوا لِي، فَكَيْفَ يَسْمَعُنِي فِرْعَوْنُ وَأَنَا أَغْلَفُ الشَّفَتَيْنِ؟» ١٣فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ، وَأَوْصَى مَعَهُمَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ فِي إِخْرَاجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. (الخروج : ٦)

ووصف فرعون بملك مصر يقطع بأن كلمة فرعون اسم علَم وليست لقباً وأن حاكم مصر إبان زمن سيدنا موسى كان يلقّب بالملك أو ملك مصر ، وليس هذا هو النص الوحيد الذي وصفت فيه التوراة فرعون بملك مصر إنما هناك نصوص كثيرة منها :

" ٢٧هُمَا اللَّذَانِ كَلَّمَا فِرْعَوْنَ مَلِكَ مِصْرَ فِي إِخْرَاجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ. هذَانِ هُمَا مُوسَى وَهَارُونُ.

٢٨وَكَانَ يَوْمَ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى فِي أَرْضِ مِصْرَ ٢٩أَنَّ الرَّبَّ كَلَّمَهُ قَائِلاً: «أَنَا الرَّبُّ. كَلِّمْ فِرْعَوْنَ مَلِكَ مِصْرَ بِكُلِّ مَا أَنَا أُكَلِّمُكَ بِهِ». (الخروج : ٦)

" ٨وَشَدَّدَ الرَّبُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ حَتَّى سَعَى وَرَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ خَارِجُونَ بِيَدٍ رَفِيعَةٍ. " (الخروج : ١٤)

" ٩وَفَدَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ " (التثنية : ٧)

" ٣وَآيَاتِهِ وَصَنَائِعَهُ الَّتِي عَمِلَهَا فِي مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ وَبِكُلِّ أَرْضِهِ "
(التثنية : ١١)

" ١٩وَفِرْعَوْنَ مَلِكَ مِصْرَ وَعَبِيدَهُ وَرُؤَسَاءَهُ وَكُلَّ شَعْبِهِ " (إرميا : ٢٥)

---

(١) نفسه ص ٢٦٤

فإن قيل إن التوراة قد أطلقت اسم فرعون على ملك مصر إبان إبراهيم ويوسف عليهما السلام أيضاً " ١٤فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَعَا يُوسُفَ، فَأَسْرَعُوا بِهِ مِنَ السِّجْنِ. فَحَلَقَ وَأَبْدَلَ ثِيَابَهُ وَدَخَلَ عَلَى فِرْعَوْنَ. ١٥فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «حَلُمْتُ حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعَبِّرُهُ. وَأَنَا سَمِعْتُ عَنْكَ قَوْلاً، إِنَّكَ تَسْمَعُ أَحْلاَمًا لِتُعَبِّرَهَا». ١٦فَأَجَابَ يُوسُفُ فِرْعَوْنَ: «لَيْسَ لِي. اَللهُ يُجِيبُ بِسَلاَمَةِ فِرْعَوْنَ»." (التكوين : ٤١)

" ٤٦وَكَانَ يُوسُفُ ابْنَ ثَلاَثِينَ سَنَةً لَمَّا وَقَفَ قُدَّامَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ."

(التكوين : ٤١)

" ١٤فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. ١٥وَرَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، ١٦فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ. ١٧فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ. ١٨فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟ ١٩لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي؟ وَالآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ! خُذْهَا وَاذْهَبْ!». ٢٠فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رِجَالاً فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُ. " (التكوين : ١٢)

وقد بينّا أن القرآن الكريم قد ذكر خمس مرات كلمة " ملك " – وليس فرعون – لقباً على حاكم مصر إبان سيدنا يوسف ، كما أكد علماء الحضارة المصريَّة القديمة أن كلمة " فرعون " لم تكن معروفة قبل الألف الأولى قبل الميلاد وعلى أقصى تقدير قبل الميلاد بألف وخمسمائة عام زمن الدولة الحديثة وسيدنا يوسف كان في الدولة الوسطى ، وكذلك كان سيدنا إبراهيم .

والأمر لا يعدو أن يكون اجتهاداً ممن ترجموا التوراة عن العبريَّة القديمة فاستبدلوا اسم " فرعون " بلقب " ملك " .

يقول قاموس الكتاب المقدّس : " وابتداء من الأسرة الثانية والعشرين، بدأ المصريون في إضافة الاسم الشخصي لفرعون إلى لقبه "فرعون". فقد وُجد اسم " فرعون شوشنق" منقوشًا على لوح حجري في الواحات الداخلة، لعله يرجع إلى عصر "شوشنق" الأوَّل مؤسس الأسرة الثانية والعشرين، والمذكور في الكتاب المقدس باسم" شيشق"(فرعون شيشق) (مل ١١: ٤٠، ١٤: ٢٥، ٢أخ ١٢: ٢، ٥و٧و٩). ونجد هذا واضحًا في ذكر العهد القديم لأسماء ملوك مصر في الألف

الأخيرة قبل الميلاد، مثل: "فرعـون نخـو" (٢مـل ٢٣: ٢٩، إرميـا ٤٦: ٢ (.. "وفرعون حفرع" (إرميا ٤٤: ٣٠) (١)

ويمكن أن يكون حكام مصر في العصر المتأخر قد اتخذوا من فرعـون لقبـاً ، ولكنهم كانوا يحرصون على ذكر اسم الملك بعد كلمة فرعون " فرعون شيـشق" .. و" فرعون حفرع" و "فرعون نخو" حتى لا يلتبس بفرعون ، ويبقى اسم فرعـون عَلَماً على حاكم مصر زمن موسى عليه السلام .

فرعون ذو الأوتاد

والذي يؤكِّد أن فرعون هو " رمسيس الثاني " وصف القرآن له بذي الأوتاد .

{ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ } [الفجر: ٩،١٠]

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ } [ص : ١٢]

وقوله تعالى : { ذُو الأوتاد } صفة لفرعون ، وجاء في لسان العـرب : " وَتَـدَ الوَتِدُ وَتْداً وتِدَةً وَوَتَّدَ كلاهما ثَبَتَ ، وَتَدَ فلان رجلَه في الأرض إذا ثَبَّتَها ،ووَتِدٌ واتدٌ ثابت، وأوتاد البلاد رُؤساؤها ، وَوَتَّدَ في بيته أَقام وثبت " (٢)

إذن فرعون ذو الأوتاد أي الذي ثبَّت أركان دولته ووطَّدها ، وحماها من أعدائها في الداخل والخارج بفضل قوته وقوة جنده الذين ينفِّذون أمره ويـدعِّمون أركـان مملكته كما فسَّر العلماء قوله تعالى { وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ }.

فعن ابن عباس: " الأوتاد: الجنود الذين يشدُّون له أمره." (٣)

وقال القرطبي : " الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدُّ ملكه ." (٤)

وقال الألوسي : " { وَفِرْعَوْنَ ذى الأوتاد } وُصِفَ بذلك لكثرة جنوده وخيـامهم التي يضربون أوتادها في منازلهم " (١)

---

(١) كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس – الإسكندرية " قاموس الكتاب المقدس دائرة المعارف الكتابية المسيحية " .

(٢) ابن منظور " لسان العرب " ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٣) تفسير بن كثير ج ٨ ص ٣٩٧ .

(٤) تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ٤٨ .

وبهذا قال أغلب المفسرين مثل : البيضاوي والفخر الرازي والنسفي وغيرهم .

فرعون وجنوده

لقد قرن الله تعالى بين فرعون وجنوده في تسع آيات .

{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ في الأَرْض بغَيْر الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ في الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الظَّالمينَ }

[القصص : ٣٩ ، ٤٠]

{ فَأَتْبَعَهُمْ فرْعَوْنُ بجُنُوده فَغَشيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشيَهُمْ } (طه : ٧٨)

{ وَجَاوَزْنَا ببَني إسْرَائيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا } [يونس : ٩٠]

{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ في الْيَمِّ وَهُوَ مُليمٌ } [الذاريات : ٤٠]

{وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْض وَنُري فرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا منْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ } (القصص : ٦)

{ فَالْتَقَطَهُ آلُ فرْعَوْنَ ليَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إنَّ فرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطئينَ } (القصص : ٨)

{ وَاتْرُك الْبَحْرَ رَهْوًا إنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } [الدخان : ٢٤]

{ هَلْ أَتَاكَ حَديثُ الْجُنُود * فرْعَوْنَ وَثَمُودَ } [البروج : ١٧ ، ١٨]

فإذا أضفنا إلى الآيات التسع التي قرن الله تعالى فيهن بين فرعون وجنوده صراحة ، وبين الآيتين اللتين وصف الله تعالى فيهما فرعون بذي الأوتاد وفسَّر أغلب المفسرين الأوتاد بالجنود كما بيناً كان المجموع إحدى عشرة آية.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا قرن الله تعالى في إحدى عشرة آية بين فرعون وجنوده ؟

والإجابة لأن فرعون كان له جيش كبير قاتل به أعداءه في الخارج واستطال به على المعارضين له في الداخل فسخر به الناس ليذعنوا لأوامره بالقوة .

---

(١) الألوسي " روح المعاني " ج ٢٢ ص ٤١٧

ورمسيس الثاني من أشهر الملوك المحاربين فقد كان له جيش كبير عرمرم خاض به حروباً كثيرة مع أعدائه الخارجيين .

فقد قاد رمسيس الثاني عدة حملات شمالاً إلى بلاد الشام. وفي معركة قادش الثانية في العام الرابع من حكمه ١٢٧٤ ق.م – على حسب حولية روتون – قامت القوات المصريَّة تحت قيادته بالاشتباك مع قوات مُواتاليس ملك الحيثيين، وعلى مر السنين التالية لم يتمكَّن أي من الطرفين هزيمة الطرف الآخر، ولذلك أبرم رمسيس الثاني في العام الحادي والعشرين من حكمه ١٢٥٨ ق.م معاهدة مع حاتوسيليس الثالث، وهي أقدم معاهدة سلام في التاريخ .

قاد رمسيس أيضاً عدة حملات جنوب الشلال الأول إلى بلاد النوبة .(١)

لقد أمضى رمسيس الثاني أغلب حياته في حروب في الشرق والغرب والجنوب أمضى نحو ثمانين عاماً أميراً في جيوش أبيه أو قائداً لجيوشه لذا قرن الله تعالى بينه وبين جنوده في حوالي إحدى عشرة آية ، ولم ينافسه في كثرة حروبه إلا أحمس الأول محرِّر مصر من الهكسوس الذي حكم مصر ٢٥ عاماً من ١٥٥٠ حتى ١٥٢٥ ق.م ، وتحتمس الثالث الذي حكم ٥٤ عاماً من ١٤٧٩ حتى ١٤٢٥ ق.م وأقام أقدم إمبراطورية في التاريخ وهي أقصى حدود لمصر في تاريخها حيث وصلت حدود مصر إلى نهر الفرات وسوريا شرقاً وإلى ليبيا غرباً وإلى سواحل فينيقيا وقبرص شمالاً وإلى منابع النيل جنوباً حتى الجندل الرابع أو الشلال الرابع .

ولقد ذكر بعض المؤرخين أن هذا هو فرعون خروج بني إسرائيل من مصر وذلك استناداً إلى فقرة في التوراة تقول إن الملك سليمان قد بنى بيت الرب في العام ٤٨٠ من خروج بني إسرائيل من مصر والعام الرابع لحكمه وبتحديد العام الرابع لحكم سليمان وإضافة ٤٨٠ سنة سيقودنا هذا إلى نهاية تاريخ حكم تحتمس الثالث، ولكن هذا الافتراض مشكوك في صحته نظراً لاختلاف هذا الرقم في نسخ ترجمات التوراة حتى إن بعضها يجعل هذه الفترة ٥٠٠ عام مما يدل على أن هذا الرقم كان تخميناً من كتبة التوراة .ومن المعروف أن الملك سليمان حكم في فلسطين بين ٩٧٠ و ٩٢٨ قبل الميلاد. كما أن الأدلة على أن رمسيس الثاني هو فرعون ميلاد موسى وخروج بني إسرائيل أكثر وآكد .

---

(١) الهيئة العامة للاستعلامات .

المعنى الآخر لفرعون ذي الأوتاد

وبعض المفسرين وعلماء المصريات فسَّروا " الأوتاد " بالمنشآت الضخمة الخالدة على مر الزمان التي لم يخلق مثلها في البلاد .

يقول الشيخ الشعراوي في تفسير " الأوتاد " : " المسلات المصريَّة القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التي بهرت الناس في مختلف العصور .(١)

ورمسيس الثاني من أكثر ملوك مصر تشييداً للمعابد ونحتاً للمسلات فقد شيَّد معبدي : أبو سمبل ، ومعبد الرمسيوم إضافة إلى بهو الأعمدة في معبد الكرنك ، كما أقام ٣٥ مسلَّة في حين أقام الملوك العشرة الذين سبقوه ٣٣ مسلَّة فقط " (٢)

ولقد اشتهر " رمسيس الثاني " بنحته للمسلات التي كان يذكر د. سيد كريم عالم المصريات الكبير لنا – نحن رواد ندوته الأسبوعيَّة في بيته في المعادي – دائماً أن " الأوتاد " المذكورة في القرآن الكريم هي المسلات .

يقول د.سليم حسن : " أقام رعمسيس الثاني العمائر الدينيَّة التي أصبحت مضرب الأمثال في الضخامة والعظمة والأبهة ، مما يدلُّ على الرخاء ووفرة المال. فأقام لنفسه ولإلهه " آمون " معبداً جنائزيّاً يحتوي قصراً فاخراً له يطلق عليه المحدثون الآن اسم " الرمسيوم " وهو في ضخامته واتساع رقعته وحسن تنسيقه لا يدانى ، حتى إنه أصبح فيما بعد يعدُّ من العجائب التي تحدَّث بها الكتَّاب اليونان .

ولا تزال بعض بقاياه الضخمة تنطق بما كان عليه من أُبَّهة وبهاء . وقد أوقف عليه الضياع وأمدَّه بالموظفين والكهنة من كلِّ صنف . وكذلك حفر مقبرة عظيمة في أعماق صخور " طيبة " الغربيَّة ، وأقام المعابد للآلهة ولنفسه – لأنه كان مؤلَّهاً – في جميع أنحاء القطر ، في أمهات المدن مثل " منف " و "هليوبوليس" و" طيبة " و " العرابة " و" تانيس " ، وزيَّنها بالتماثيل والمسلات التي يخطئها العدُّ، وقطع لها الأحجار من محاجر سيناء والجبل الأحمر القريب من القاهرة ، ومن جبال أسوان ؛ هذا فضلاً عن أنه لم يترك مكاناً أثريّاً من الأمكنة التي أقامها أجداده الفراعنة الذين

(١) تفسير الشعراوي ص ٢١٠٧ .
(٢) محمد الشافعي مقدمة كتاب " مرنبتاح فرعون الخروج " سلسلة تاريخ المصريين للشباب دار الهلال ص ٦ .

سبقوه إلا جدّده أو زاد في مبانيه ؛ اعترافاً منه بجميل آلهته الذين آزروه في ساعة العسرة ، وحبوه النصر والقوّة – وتفاخراً بقوته وعظيم سلطانه ، ولذلك نجد أن مبانيه – على الرغم مما أصابها من تهديم وتخريب – لا تزال بقاياها في كلّ أنحاء القطر .

غير أنه مما يؤسف له جدّ الأسف أنه في كثير من الأحيان كان ينتحل آثار أسلافه بصورة ظاهرة ، وكان هذا سبباً في تحقير أعماله العظيمة في نظر المؤرخين . الواقع أن ما اغتصبه لا يكاد يعدُّ شيئاً بالنسبة لما أنجزه من أعمال ضخمة في فني النحت والبناء ، وبخاصة ما أقامه من المعابد الهائلة الحجم في بلاد " النوبة " فقد بنى فيها عدَّة عمائر للآلهة كانت في الواقع فريدة في بابها ؛ فقد نحتها كلها في الصخر بدلاً من إقامتها بالحجر ، وبخاصة معبد " بو سمبل " الذي يعد مفخرة الزمان ، ومعبد " بيت الوالي" ومعبد " السبوع " ومعبد " جرف حسين " ومعبد " الدر " وغيرها مما لا تزال بقاياه موجودة حتى الآن . (١)

وبهذا جمع رمسيس الثاني بين المعنيين اللذين فسَّر بهما المفسرون كلمة "الأوتاد" قوة الجيش ، وضخامة المباني والمعابد والتماثيل والمسلات .

وإذا صدَّقنا ما تركه لنا " رعمسيس الثاني " ووالده " سيتي الأول " من نقوش عن معاملتهما لأولئك العمال الذين نحتوا من الجبال تلك البيوت المقدَّسة ، وقطعوا تلك التماثيل الهائلة للآلهة – لسقط ما ينسب إليهم من أعمال " السخرة " والعسف ؛ لعلمنا أن العمال كانوا ينعمون برغد العيش ، وبالتشجيع الأدبي الذي كان يلقيه الفرعون على عماله بنفسه . (٢)

إن التاريخ عندما يُكْتَب في عصر الطغاة يُكْتَب حسب هواهم ، وتزلفاً لنيل عطاياهم والإفلات من نقمتهم ؛ لذا نجد المنافقين من الكتّاب يستبدلون الباطل بالحق، والأكاذيب بالصدق ، ويتحوَّل طغيان الحكام على يد أولئك الكتّاب إلى عين الرحمة ، والفقر المدقع الذي عاش فيه الشعب إلى غنى فاحش تدل عليه آثار الطغاة الباهرة .

---

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة ، عصر رعمسيس الثاني " ج ٦صفحة ي ، ك .
(٢) نفسه صفحة ك .

والحقيقة أن الذين كانوا يعيشون في رغد هم فرعون وجنوده وكهنته فقط دون سائر الشعب المصري .

يقول د. سليم حسن : " فنرى الجندي في ساحة القتال ، وبعد أن تضع الحرب أزارها ، يرتع في بحبوحة العيش الناعم . ولا أدل على ذلك مما جاء على لسان "رعمسيس الثاني" نفسه عندما تخلَّى عنه جنوده في ساحة القتال في موقعة " قادش" عند منازلة مملكة " خيتا " إذ يقول : " ألم أقم فيكم سيداً حين كنتم من البائسين ، ومع ذلك رضيت عن طيب خاطر أن تصبحوا عظماء بواسطة حضرتي كل الأيام، فقد ورَّثت الابن متاع الوالد ، وأبعدت كل الظلم الذي كان في الأرض ، ونزلت لكم عن جزية أرضكم ، ومنحتكم أخرى إذا اغتُصبَتْ منكم ، وأنصفتُ من استنصفني . وكنت أقول له (أي آمون) كل يوم ليس هناك سيد عمل لجنوده ما عمل جلالتي وذلك على حسب ما تهوى قلوبكم : وسمحت لكم أن تبقوا في مدنكم دون القيام بمهام الجنديَّة ، وجعلت لخيَّالتي طريقاً إلى مدنهم (أي سمحت لهم بالعودة إلى مدنهم) على شرط أن أستدعيهم لمثل هذا اليوم وقت خوض المعارك .. إلخ " (١)

والمتأمل في سورة الفجر الآيات من ٦: ١٠ يجد أن جميع الصفات التي وصف الله بها تعالى الطغاة والجبابرة تنطبق أكثر ما تنطبق على فرعون ، وإن شاركه غيره في بعضها . يقول تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } (الفجر : ٦- ١٤)

ففرعون أقام العمائر الدينيَّة على الأعمدة الشاهقة " ورمسيس الثاني هو الذي أقام بهو الأعمدة في معبد الكرنك " (٢) التي أصبحت مضرب الأمثال في الضخامة والعظمة والأبهة ، وفرعون جاب الصخر ببلاد " النوبة " فقد بنى فيها عدَّة عمائر للآلهة كانت في الواقع فريدة في بابها ؛ فقد نحتها كلها في الصخر بدلاً من إقامتها بالحجر ، وبخاصة معبد " بو سمبل " الذي يعد مفخرة الزمان ، ومعبد " بيت

---

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة ، عصر رعمسيس الثاني " ج ٦صفحة ك .
(٢) محمد الشافعي مقدمة كتاب " مرنبتاح فرعون الخروج " مرجع سابق ص ٦ .

الوالي" ومعبد " السبوع " ومعبد " جرف حسين " ومعبد " الدر " وغيرها مما لا تزال بقاياه موجودة حتى الآن . (١)

"وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ" الذي كوّن الجيوش الكبيرة وأقام المسلات الكثيرة ، وفرعون أفسد في الأرض وقهر الناس {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص : ٤] واستعبد الناس " فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى " [النازعات : ٢٤] لذا استحق أن يصبَّ الله تعالى عليه سوط عذاب.

وتأمل قوله تعالى { فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ } تجد أنها تنطبق تماماً على فرعون ؛ فعندما أوحى الله تعالى إلى موسى { أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم } [الشعراء : ٦٣] وصار البحر طريقاً يبساً يمشون فيه { فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [البقرة : ٥٠] فلما دخل فرعون الطريق اليبس صبَّ عليهم سياط أمواج البحر ضرباً وتعذيباً حتى غرقوا ، وتحيَّر العلماء وتضاربت أقوالهم عند تفسير قوله تعالى" فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ " فـ " صبُّ " الرجل في الوادي صبيباً انحدر والماء انسكب والماء ونحوه صبّاً سكبه . " والسوط " ما يضرب به من جلد سواء أكان مضفوراً أم لم يكن ، وهذه الآية العجيبة تبيِّن كيف أغرق الله فرعون وجنده بأن صبَّ عليهم ماء البحر صباً شديداً كأنه السياط " الكرابيج " التي تلذع أجسامهم .

قال قتادة : فكان "سَوْطَ عَذَابٍ " هو الغرق .

فرعون وهامان

الفئة الثانية التي كانت ترفل في النعيم في عصر رمسيس الثاني هم الكهنة فقد كانوا أصحاب نفوذ وحَوْل وطَوْل حتى أنهم أصبحوا كما يقول د. سليم حسن : دولة داخل دولة .

يقول سليم حسن : " وتدل شواهد الأحوال على أنه (أي رعمسيس الثاني) كان هناك اتصال أسري بين كهنة " أوزير " وكهنة الإله " آمون " بالكرنك . وقد عمل

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة ، عصر رعمسيس الثاني " ج ٦صفحة ي ، ك .

هؤلاء الكهنة مجتمعين على جعل كل وظائف الدولة الهامة في أيدي أفراد أسرتهم بما كان لهم من سلطان روحي على الشعب في تلك الفترة . وتدلُ الأحوال على أن " رعمسيس الثاني " نفسه لم يعارض في ذلك ، فنقرأ في الآثار التي تركوها لنا أنه كان من بينهم الوزير ، والقائد ، ورئيس الشرطة ، وحاكم السودان ، ورئيس الماليَّة ، وكانت نساؤهم يشغلن أهمَّ الوظائف الدينيَّة في مختلف المعابد المصريَّة ؛ وبذلك أصبح " رعمسيس " مسيطراً على داخليَّة البلاد من الوجهة الدينيَّة والإداريَّة، بتلك البطانة المخلصة لعرشه ، مما سهَّل له تنفيذ كل مآربه على حسب نظام " ماعت " . (١)

وادعاء نظام رمسيس الثاني القمعي المستبد العمل بنظام " ماعت " شريعة الحق والعدل والعدالة الاجتماعيَّة ادعاءٌ كاذبٌ وخداع للشعب الطيب ، ويبدو أن الاستعانة برجال الدين الذين باعوا دينهم بدنياهم لإيهام الناس بقبول طغيان الحاكم قديم في مصر فا هو رمسيس يستعين بسوط جنوده وضلال كهانه لتعبيد الشعب المصري .

يقول د. سليم حسن : " وقد بلغ من شأن رجال الدين ونفوذهم في البلاد وقتئذ أن أصبحوا أصحاب ثروة عظيمة ومكانة قوية ، مما مهَّد لهم السبيل فيما بعد إلى قيام أسرة منهم قبضت على زمام الملك ، وأصبحوا فراعنة في نهاية الأمر .

الواقع أن " رعمسيس الثاني " كان من الممهِّدين لهذا الانقلاب حينما ضعف أمام كهنة " آمون " وألقى في أيديهم رياسة الكهانة في " الكرنك " وفي " العرابة " وقد زاد الطين بلة أن " رعمسيس " اعترف لهذه الطائفة بأن تنصيب الكاهن الأكبر "لآمون" قد جاء من وحي الإله وبإذنه ، وأنه لا دخل له فيه . ومن ثمَّ أصبحت سلطاتهم جارفة ، حتى أصبحوا يؤلِّفون في الواقع مملكة داخل مملكة ليس للفرعون عليها سلطان إلا بالاسم . (٢)

وهناك إجماع من المفسرين على أن " هامان " هو وزير فرعون ، ومن هؤلاء المفسرين : ابن كثير ، الفخر الرازي ، القرطبي ، النسفي ، الألوسي ، أبو حيان ، رشيد رضا ، الشعراوي ، سيد قطب ، وسيد طنطاوي ...

---

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة ، عصر رعمسيس الثاني " ج ٦صفحة ي .
(٢) نفسه صفحة ن .

وإني أرى أن " هامان " قد جمع بين رئاسته للكهنة ورئاسته للوزارة ؛ فقد كان الكهنة في عهد رمسيس – كما ذكر د. سليم حسن – يتولون الوزارة ويكونون دولة داخل الدولة ، وإني أعتقد أن هامان قد كان رئيساً لدولة تشبه دولة " مدينة الفاتيكان" غير أن لها جيشاً يدافع عنهم ويأتمرون بأمرهم .

ولقد ذكر الله تعالى في آيتين من الآيات الست التي جاء ذكر هامان فيها جنود هامان .

{ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ } [القصص:٥، ٦]

{ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ }[القصص:٨]

{ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ }[العنكبوت : ٣٩]

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [غافر:٢٣-٢٤]

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ } [غافر: ٣٦]

قال تعالى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [القصص:٣٨]

ولكن التوراة والإنجيل لم يذكرا اسم رجل يُدْعى " هامان " زمن موسى وفرعون مما جعل بعض أهل الكتاب يتخذون هذا الأمر دليلاً للطعن في صحة القرآن الذي ذكر اسم " هامان " ست مرات .

قال فخر الرازي : " قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجوداً البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر . (١)

(١) تفسير فخر الرازي ج ١٣ ص ٣٣٦ .

وقال رشيد رضا في مجلة المنار : " في رد الشبهات التي يوردها الإفرنج على بعض آيات الكتاب العزيز المسألة الرابعةَ عَشْرَةَ (هامان وزير فرعون) قــال الله تعالى حكاية عن فرعون : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا } [القصص : ٣٨] وقــالوا : إن هامان كان وزيرًا لأحشويروش ملك فارس ، وهو متأخر عن فرعون بسنين " (١)

وهذه الشبهة التي أراد المغرضون الطعن بها في القرآن الكريم جعلها الله تعالى معجزة تؤكد أن القرآن الكريم كلام الله الذي { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِــنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت: ٤٢]

ذكر الدكتور موريس بوكاي في كتابه " موسى وفرعون " ما ملخَّصه: " لقد جاء ذكر هامان في القرآن كرئيس المعماريين والبنَّائين، ولكن الكتاب المقدس لا يــذكر أي شيء عن هامان في عهد فرعون، وقد قمــت بكتابــة كلمــة "هامــان" باللغــة الهيروغليفية وعرضتها على أحد المختصِّين في تــاريخ مــصر القديمــة، ولكــي لا أَدَعْهُ تحت أيِّ تأثير، فإنني لم أذكر له أنها وردت في القرآن، بل قلت لــه أنهــا وردت في وثيقة عربيَّة قديمة يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي، فقــال لــي المختص: "يستحيل أن ترد هذه الكلمة في أي وثيقة عربيَّة في القــرن الــسابع؛ لأن رموز الكتابة باللغة الهيروغليفيَّة لم تكن قد حُلَّت آنذاك". ولكي أتحقق من هذا الأمر فقد أوصاني بمراجعة قاموس" أسماء الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة " ورجعت إلى القاموس فوجدت أن هذا الاسم موجود هناك ومكتــوب باللغــة الهيروغليفيَّــة وباللغة الألمانيَّة كذلك، كما كانت هناك ترجمة لمعنى هذا الاسم وهو: رئيس عمــال مقالع الحجر، وكان يطلق هذا الاسم أو اللقب آنذاك على الرئيس الذي يتــولَّى إدارة المشاريع الإنشائيَّة الكبيرة .فنقلت تلك الصفحة من ذلك القــاموس، وذهبــت إلــى المختص الذي أوصاني بقراءة هذا القاموس، ثم فتحت ترجمــة القــرآن بالألمانيَّــة وأريته ورود اسم هامان فيه،فدهش كثيراً وصمت .

لو جاء ذكر اسم هامان فرعون في أي كتاب قبل القرآن، أو لو جاء ذكره فــي الكتاب المقدَّس لكان المعترضون علينا على حق، ولكن لم يرد هذا الاسم حتى نزول

(١) محمد رشيد رضا " مجلة المنار " ج ١١ ص ٤٤١ .

القرآن في أي نص، بل ورد فقط على الأحجار الأثريَّة لمصر القديمة وبالخط الهيروغليفي .

إن ورود هذا الاسم في القرآن بهذا الشكل المذهل لا يمكن تفسيره إلا بأنه معجزة، فلا سبب آخر لهذا، ولا تعليل آخر . "

وفي هذا السياق لابد من سرد بعض الحقائق :

بعد فك رموز الكتابة الهيروغليفيَّة زادت معلوماتنا حول تاريخ مصر القديم زيادة كبيرة، وعلمنا من الكتابات الموجودة على عدد من الأحجار الأثرية العائدة للتاريخ المصري القديم، وجود شخص مقرَّب من فرعون مصر في عهد موسى – عليه السلام – كان مسئولاً عن البناء اسمه "هامان". وهناك حجر من هذه الأحجار المصريَّة القديمة ورد فيه هذا الاسم وهو موجود في متحف "هوف" في فينا عاصمة النمسا . (١)

أوصاف فرعون الشكليَّة عند المفسرين

جاء في التفاسير أن بعض بني إسرائيل قد كذَّبوا بموت فرعون وقالوا أنه لا يموت .. فألقي علي ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل أحمر قصير كأنه ثور (٢) وهناك روايات أخري كثيرة وصفت فرعون بعد غرقه فعن ابن عباس قال: فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلَّف من قوم فرعون: ما غرق فرعون وقومه، ولكنهم في جزائر البحر يتصيدون، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عرياناً، فلفظه عرياناً أصلع أخنس قصيراً، فهو قوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ} (٣)

والخنس : ذو أنف مرتفع ومتأخِّر عن الوجه قليلاً .

وأخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال :" أخبرت أن فرعون كان أثرم ."

---

(١) نقلا عن موقع " المختار الإسلام " .
(٢) جلال السيوطي " التفسير بالمأثور " ج ٥ ص ٢٦٥ .
(٣)عبد المجيد الشيخ عبد الباري " الروايات التفسيرية في فتح الباري " رسالة دكتوراه منشورة على موقع مكتبة المدينة الرقمية ص ٥٥٤ .

وهناك رواية لأبي بكر أنه قال : أخبرت أن فرعون كان أثرم ، والثَّرَمُ :انْكسارُ السِّنِّ من أصلِها، أو سِنٍّ من الثَّنايا والرَّباعِياتِ، أو خاصٌّ بالثَّنِيَّة. (١)

وبهذا نستطيع أن نجمع صفات فرعون موسى كما وصفه المفسِّرون أنه كان قصيراً وأصلع وأثرم وأخنس .

بمقارنة هذه الصفات بمومياء رمسيس الثاني الموجودة بالمتحف المصري نجد أن رأسه صلعاء مع وجود بعض الشعر علي جانبي الرأس وخلفه وأن أنفه بارز قليلاً ومرتفع عن الفم قليل مع بروز أرنبه بأعلى أنفه كما أنه كانت هناك فحوص طبية أجريت علي مومياء رمسيس الثاني في فرنسا في أواخر السبعينيات في رحلة علاج مومياءه ذكر فيها د. سميث أن هناك كسوراً بأسنانه وخراريج بها خاصة في أسنان مقدمة الفم ، وبهذا نجد أن كل الصفات التي ذكرت في الروايات عن فرعون موسى الغريق تكاد تطابق مومياء رمسيس الثاني .

ونحن وان كنا نبحث عن الفرعون الذي جمع في بدنه هذه الأوصاف (قصير – أصلع – أثرم – أخينس) من بين ما يقرب من ٢٠٠ ملك وملكة (تقريباً) حكموا مصر خلال تاريخها القديم في ٣٠ أسرة ملكيَّة فان هذا الأمر يبدو صعباً للغاية لأننا في الواقع لم نتوصَّل حتى الآن إلا لعدد قليل من مومياواتهم ولكننا إذا ركَّزنا البحث في مومياوات ملوك الأسرتين الـ ١٨ والـ ١٩ التي اتَّفق غالبيَّة الباحثين أن فرعون موسى فيهم وهم . الأسرة الـ ١٨: أحمس الأول – أمنحتب الأول – تحتمس الأول – تحتمس الثاني – حتشبسوت – تحتمس الثالث – أمنحتب الثاني – تحتمس الرابع –أمنحتب الثالث – اخناتون – سمنخ كارع – توت عنخ آمون– أي– حور محب. الأسرة الـ ١٩ :رمسيس الأول – سيتي الأول– رمسيس الثاني– مرنبتاح– آمون مس– سيتي الثاني– رمسيس سابتاح . مع العلم بأن أغلبهم قد توصَّلنا إلى مومياواتهم . فأنه من السهل أنْ تجد أنَّ هذه الأوصاف (قصير – أصلع– أثرم – أخينس) لا تنطبق إلا على رمسيس الثاني كما بينا. (٢)

(١) القاموس المحيط مادة " ثرم " .
(٢) محمد عبد الرازق جويلي " أوصاف فرعون موسى تكشف رمسيس الثاني " موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة مقال بتاريخ ٤/ ٤/ ٢٠١١ .

فرعون الاضطهاد والخروج

ذكرنا الأدلة التي تؤكد أن فرعون علَم على ملك مصر في عصر موسى عليه السلام ، كما أكدنا أنه رمسيس الثاني ، ولكن بعض الباحثين والمؤرخين ذكروا أن هناك فرعونين : فرعون الاضطهاد وهو " سيتي الأول" أو" رمسيس الثاني " وفرعون الخروج وهو " رمسيس الثاني " أو " مرنبتاح " ابنه .

والرأي الذي نطمئن إليه هو أن فرعون الاضطهاد هو نفسه فرعون الخروج وهو " رمسيس الثاني " وأن القرآن الكريم لم يحدِّثنا إلا عن فرعون واحد عاصر ميلاد موسى كما عاصر خروج بني إسرائيل وإليك الأدلة على ذلك .

كان بنو إسرائيل يقيمون في دلتا النيل في أرض جاسان بمحافظة الشرقيَّة بالقرب من عاصمة " رمسيس الثاني " الجديدة " بررعمسيس " التي تقول التوراة إن فرعون سخَّر اليهود في بنائها .

وعندما أخبر الكهنةُ فرعونَ ، بأن مولوداً سيولد في بني إسرائيل ، يكون ذهاب ملكه على يده بدأ يذبح مواليد بني إسرائيل الذكور ويترك الإناث .

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [القصص : ٤]

وذكر المفسِّرون أن فرعون كان يذبح الذكور من بني إسرائيل دون الإناث . لأن الكهنة أخبروه ، بأن مولوداً سيولد من بني إسرائيل ، يكون ذهاب ملك فرعون على يده .

ومن الطبيعي عندما تلقى أم موسى الصندوق الذي يحوي طفلها الذي خافت عليه من فتك فرعون أن يتجه الصندوق شمالاً في اتجاه تيار النهر حيث قصر فرعون ، وبما أن الصندوق قد أُلقي قريباً من قصر فرعون ، فهذا يؤكد أن الأحداث قد حدثت في عصر " فرعون " الذي عاش في عاصمة آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة أي إما في عصر " رعمسيس الثاني " الذي بنى عاصمته "بررعمسيس" بالقرب من فاقوس بالشرقيَّة الآن أو ابنه " مرنبتاح " ويؤدي ذلك تلقائيّاً إلى استبعاد كل النظريات الأخرى القائلة بأن " فرعون " ليس " رعمسيس الثاني " أو ابنه " مرنبتاح " لأن ملوك مصر قبل " رعمسيس الثاني " كانوا يعيشون جنوباً في طيبة ، ومن المستحيل أن يتجه الصندوق جنوباً عكس التيار ..

وتذهب أغلب اجتهادات العلماء إلى أن فرعون الخروج هـو " رمـسيس الثـاني " أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والذي حكم لمدة ٦٧ سنة كاملة ، شهدت نهـضة عمرانيَّة كبيرة حيث شيَّد معبدي أبو سمبل ومعبد الرمسيوم إضافة إلى بهو الأعمدة في معبد الكرنك ، كما أقام ٣٥ مسلة في حين أقام الملوك العشرة الذين سـبقوه ٣٣ مسلة فقط ، وتؤكد العديد من الآثار بأن "رمسيس الثاني" هو " فرعون " الذي ألَّـه نفسه حال حياته . (١)

والقرآن الكريم في حديثه عن فرعون ملك مصر إبَّان سيدنا موسى لم يتحدث إلا عن فرعون واحد هو الذي ربَّى موسى صغيراً واستعبد بني إسرائيل وأخرجهم من مصر ، وأغرقه الله في البحر ، ونجاه ببدنه .

ويذكر الله تعالى لنا الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون بعد عودة موسى من أرض مدين: { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُـرِكَ سِـنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِـنَ الـضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَـةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء : ١٨-٢٢]

قال فرعون لموسى بعد أن عرفه ، وبعد أن طلب منه موسى أن يرسل معه بنو إسرائيل : { أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً } أي : ألم يسبق لك أنـك عـشت فـي منزلنـا ، ورعيناك وأنت طفل صغير عندما قالت امرأتي { لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً . . } { وَلَبِثْتَ فِينَا } أي : في كنفنا وتحت سقف بيتنا { مِـنْ عُمُـرِكَ سِـنِينَ } عدداً { وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ } وهى قتلك لرجـل مـن شـيعتي { وَأَنـتَ مِـنَ الكافرين} أي : وأنت من الجاحدين بعد ذلك لنعمتي التي أنعمتها عليك ، في حـال طفولتك ، وفى حال صباك ، وفى حال شبابك .

لأنك جئتني أنت وأخوك بما يخالف ديني ، وطلبتما مني أن أرسل معكمـا بنـي إسرائيل . فهل هذا جزاء إحساني إليك ؟

وهكذا نرى فرعون يوجِّه إلى موسى عليه السلام تلك الأسئلة على سبيل الإنكار عليه لما جاء به ، متوهِّماً أنه قد قطع عليه طريق الإجابة .

---

(١) محمد الشافعي مقدمة كتاب " مرنبتاح فرعون الخروج " مرجع سابق ص ٦ .

ولكن موسى عليه السلام وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وأزال عقدة لسانه ، رد عليه رداً حكيماً ، فقال كما حكى القرآن عنه : { قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضالين} .

أي قال موسى في جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التي تذكرني بها ، ولكنى فعلتها وأنا في ذلك الوقت من الضالين ، أي : فعلت ذلك قبل أن يشرفني الله بوحيه ، ويكلفني بحمل رسالته ، وفضلاً عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة تؤدى إلى قتل ذلك الرجل من شيعتك ، لأني ما قصدت قتله ، وإنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره ، وبعد هذه الفعلة التي فعلتها وأنا من الضالين، توقعت الشر منكم ، ففرت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسي فكانت النتيجة أن وهبني { رَبِّي حُكْماً } أي : علماً نافعاً { وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين } الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته والتشرف بنبوته .

ثم أضاف موسى عليه السلام إلى هذا الرد الملزم فرعون ، رداً آخر أشد إلزاماً وتوبيخاً فقال : { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } . [1]

والقرآن الكريم يتحدث عن فرعون واحد عاصر موسى من الميلاد حتى الخروج وهذا لا خلاف فيه عند العلماء المسلمين ، لكن يستوحي من نصوص التوراة أن موسى عاصر فرعونين وليس فرعوناً واحداً .

وهاك ما جاء في التوراة : " ١١وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ لَمَّا كَبِرَ مُوسَى أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى إِخْوَتِهِ لِيَنْظُرَ فِي أَثْقَالِهِمْ، فَرَأَى رَجُلاً مِصْرِيًّا يَضْرِبُ رَجُلاً عِبْرَانِيًّا مِنْ إِخْوَتِهِ، ١٢فَالْتَفَتَ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ وَرَأَى أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ، فَقَتَلَ الْمِصْرِيَّ وَطَمَرَهُ فِي الرَّمْلِ. ١٣ثُمَّ خَرَجَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَإِذَا رَجُلاَنِ عِبْرَانِيَّانِ يَتَخَاصَمَانِ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: «لِمَاذَا تَضْرِبُ صَاحِبَكَ؟» ١٤فَقَالَ: «مَنْ جَعَلَكَ رَئِيسًا وَقَاضِيًا عَلَيْنَا؟ أَمُفْتَكِرٌ أَنْتَ بِقَتْلِي كَمَا قَتَلْتَ الْمِصْرِيَّ؟». فَخَافَ مُوسَى وَقَالَ: «حَقًّا قَدْ عُرِفَ الأَمْرُ». ١٥فَسَمِعَ فِرْعَوْنُ هذَا الأَمْرَ، فَطَلَبَ أَنْ يَقْتُلَ مُوسَى. فَهَرَبَ مُوسَى مِنْ وَجْهِ فِرْعَوْنَ وَسَكَنَ فِي أَرْضِ مِدْيَانَ، وَجَلَسَ عِنْدَ الْبِئْرِ.

١٦وَكَانَ لِكَاهِنِ مِدْيَانَ سَبْعُ بَنَاتٍ، فَأَتَيْنَ وَاسْتَقَيْنَ وَمَلأْنَ الأَجْرَانَ لِيَسْقِينَ غَنَمَ أَبِيهِنَّ. ١٧فَأَتَى الرُّعَاةُ وَطَرَدُوهُنَّ. فَنَهَضَ مُوسَى وَأَنْجَدَهُنَّ وَسَقَى غَنَمَهُنَّ. ١٨فَلَمَّا

---

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٣١٥٤

أَتَيْنَ إِلَى رَعُوئِيلَ أَبِيهِنَّ قَالَ: «مَا بَالُكُنَّ أَسْرَعْتُنَّ فِي الْمَجِيءِ الْيَوْمَ؟» ١٩فَقُلْنَ: «رَجُلٌ مِصْرِيٌّ أَنْقَذَنَا مِنْ أَيْدِي الرُّعَاةِ، وَإِنَّهُ اسْتَقَى لَنَا أَيْضًا وَسَقَى الْغَنَمَ». ٢٠فَقَالَ لِبَنَاتِهِ: «وَأَيْنَ هُوَ؟ لِمَاذَا تَرَكْتُنَّ الرَّجُلَ؟ ادْعُونَهُ لِيَأْكُلَ طَعَامًا». ٢١فَارْتَضَى مُوسَى أَنْ يَسْكُنَ مَعَ الرَّجُلِ، فَأَعْطَى مُوسَى صَفُّورَةَ ابْنَتَهُ. ٢٢فَوَلَدَتِ ابْنًا فَدَعَا اسْمَهُ «جَرْشُومَ»، لأَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ نَزِيلاً فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ».

٢٣وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ مَاتَ. وَتَنَهَّدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَصَرَخُوا، فَصَعِدَ صُرَاخُهُمْ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ الْعُبُودِيَّةِ. ٢٤فَسَمِعَ اللهُ أَنِينَهُمْ، فَتَذَكَّرَ اللهُ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. ٢٥وَنَظَرَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَلِمَ اللهُ.(الخروج : ٢)

ورواية التوراة – في المرحلة الأولى من حياة موسى – لا تختلف كثيراً عما جاء في القرآن إلا في موت فرعون ، وتستمر رواية التوراة فتذكر اختيار الله موسى للذهاب إلى فرعون لتحرير بني إسرائيل من عبوديته .

٩وَالآنَ هُوَذَا صُرَاخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَتَى إِلَيَّ، وَرَأَيْتُ أَيْضًا الضِّيقَةَ الَّتِي يُضَايِقُهُمْ بِهَا الْمِصْرِيُّونَ، ١٠فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ». (الخروج :٣)

ولا تفرّق التوراة بين شخصيَّة " الفرعونين " ولا تميّز بين اسميهما بأي تمييز كأنهما شخص واحد لا شخصين . فكلاهما قد اضطهد بني إسرائيل وسخّرهم في بناء مدينته ، ومعروف تاريخيّاً أن الذي سخّر بني إسرائيل في بناء عاصمته الجديدة " بررعمسيس " هو " رمسيس الثاني " ومعروف عند اليهود أن فرعون الخروج هو " رمسيس الثاني " ونص موت فرعون مُقْحَم على نص التوراة الأصلي.

ويشك الأب " ديفو " مدير المدرسة الفرنسيَّة للدراسات التوراتيَّة بالقدس في مصدر هذه الآية " ٢٣وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ مَاتَ. وَتَنَهَّدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ" (الخروج : ٢). وأكثر ما يثير الدهشة هو أن الأب ديفو ، يعتقد أن فرعون قد مات وهو يطارد الهاربين ، وتلك تفصيلة تجعل من المستحيل أن يكون خروج بني إسرائيل قد وقع في زمن آخر سوى نهاية حكم ما (١)

---

(١) موريس بوكاي " القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم " مكتبة مدبولي ص ٢٦٤

واليهود المعاصرون يصرُّون على أن " رمسيس الثاني " هو فرعون الخروج مما دفع وزير الدفاع الصهيوني " موشى ديان " إلى الذهاب وراء مومياء رمسيس الثاني ولكزه بعصا المارشاليَّة في قدمه قائلاً : " أخرجتنا من مصر وأخرجناك من مصر ميتاً " وكان الطبيب الفرنسي "موريس بوكاي" قد أقنع مسئولي الآثار في مصر بخروج مومياء رمسيس الثاني إلى فرنسا لإخضاعه لكثير من الدراسات والتحاليل ، ولموريس بوكاي كتاب بعنوان (موسى وفرعون) (١)

وقال باحثون آخرون إن " رمسيس الثاني " هو فرعون الاضطهاد وأن ابنه "مرنبتاح " هو فرعون الخروج ، و" مرنبتاح " عاش حتى وصل سن الستين وهو قائد لجيش أبيه " رمسيس الثاني " ، وفي هذه السن تولَّى الحكم لمدة تتراوح بين ثماني وعشر سنوات ، واصل خلالها معاركه ضد الأغراب من اللوبيين والحيثيين ومن يعاونهم من قبائل بني إسرائيل ، ويذهب المدافعون عن كون مرنبتاح هو فرعون الخروج إلى أن أكبر الأدلة على ذلك مومياءه المحفوظة بالمتحف المصري فهي المومياء الوحيدة التي تتسم باللون الشاحب أو الأبيض وليست سوداء مثل كل المومياوات ويرجعون ذلك إلى تشبع المومياء بالماء والملح بعد الغرق في خليج السويس .

ويؤكد بعض العلماء إلى أن (لوح الانتصارات) الذي سجَّله مرنبتاح يؤكد على أنه فرعون الخروج لأنه ينص على مطاردته لبني إسرائيل ، وفي المقابل يذهب بعض العلماء على أن لوح الانتصارات دليل نفي وليس دليل إثبات على أن مرنبتاح هو فرعون الخروج حيث حدَّدوا تاريخ كتابة هذا اللوح في العام الخامس من حكم مرنبتاح بينما كانت حملته على سوريا في العام الثالث لحكمه ، وبما أن فرعون قد غرق أثناء مطاردته لبني إسرائيل فإن هذا يعني أنه لو كان مرنبتاح هو فرعون الخروج فإن هذا اللوح قد كتبه من جاء بعده وكتب " بذرة إسرائيل قد أبيدت " كنوع من الافتخار الكاذب فإن مرنبتاح هو كاتب اللوح بينما والده رمسيس الثاني هو فرعون الخروج الذي غرق أثناء مطاردته لبني إسرائيل ، ورغم أن معظم الأدلة تميل إلى كون " رمسيس الثاني " هو فرعون الخروج إلا أن بعض العلماء عمدوا إلى ليِّ الحقائق لإثبات أن " مرنبتاح " هو فرعون الخروج . (٢)

---

(١) محمد الشافعي مقدمة كتاب " مرنبتاح فرعون الخروج " مرجع سابق ص ٩ .
(٢) نفسه ص ٧، ٨ بتصرف يسير .

والحقيقة أن الدارس لتاريخ " رمسيس الثاني " في التاريخ المصري القديم يطمئن تماماً إلى كونه هو وحده الذي استعبد بني إسرائيل في بناء عاصمته الجديدة " بررعمسيس " بالقرب من فاقوس بالشرقية حالياً ، وكان من سبقه من ملوك مصر يسكنون في طيبة ، وكان بنو إسرائيل يسكنون قريباً من هذه المدينة والذي يؤكد ذلك أن أم موسى عندما أمرها الله تعالى بوضع موسى في صندوق وإلقائه في اليم، لم يلبث الصندوق طويلاً حتى رسا عند قصر " فرعون " والتقطه آل فرعون .

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [القصص : ٧- ١٣]

والقرآن يبيِّن بجلاء سكنى بني إسرائيل قريباً من قصر فرعون فبعد أن ألقت أم موسى ابنها في اليم أمرت ابنتها أن تتبع أثره، وتعرف خبره، ولما استقرَّ موسى، عليه السلام، بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها ثديًا، وأبى أن يقبل شيئًا من ذلك . فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت: { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ } فذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا. وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها، وأعطتها عطاءً جزيلا وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة . (١)

يقول د. سليم حسن " كان اليهود يسكنون في بقعة من بقاع الجزء الشرقي من الدلتا وكان " رعمسيس الثاني " قد سخرهم في إقامة عاصمة ملكه التي جاء ذكرها في التوراة باسم " رعمسيس " ودلت الكشوف الحديثة على أنها "بررعمسيس" (قنتير

(١) راجع تفسير بن كثير ج ٦ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

حالياً) وهي التي أُخْرجوا منها مولّين وجوههم شطر فلسطين ومن أجل ذلك أصبح من المرجَّح أن خروج بني إسرائيل من مصر قد وقع في عهد " رعمسيس الثاني " أو في عهد ابنه " مرنبتاح " غير أن الرأي الأوّل هو الأرجح . " (١)

وهاهو عالم المصريات الكبير د. سليم حسن يرجِّح أن " رعمسيس الثاني " هو فرعون الميلاد والاضطهاد والخروج وأنه فرعون واحد وليس فرعونين كما زعمت "التوراة" والذي يؤكد ذلك أن " رعمسيس الثاني " عاش طويلاً "وعندما مات كان عمره أكثر من مائة عام " (٢) وقد استمر حكمه ٦٧ عاماً (١٣٠١– ١٢٣٥ ق.م) (٣) وهو أطول الحكام الرعامسة حُكْماً .

و" سيتي الأول " أبو " رمسيس " لم يحكم سوى اثني عشر عاماً فقط (١٣١٢– ١٣٠٠ ق.م) ، " مرنبتاح " ابن " رمسيس الثاني " لم يحكم سوى بضع سنوات ، ولمَّا كان القرآن الكريم لم يذكر في قصة موسى من ميلاده إلى خروجه من مصر إلا اسم " فرعون " فإنه من المنطقي أن يكون هو " رمسيس الثاني " .

فرعون وعبادة الشيطان

يقول د. سليم حسن عن أسرة " رمسيس " : " تنتمي إلى شمال " الدلتا " ونسلت من أصول كانت في خدمة الإله " ست " إلههم المحلي ذي السمعة السيئة في سائر البلاد الذي قتل أخاه " أوزير " صاحب الخلق الرفيع والسمات الفاضلة.

وما عهدنا من قبل أن تجيء فراعين (يقصد ملوك) البلاد من هذه الطريق بل كانوا ينحدرون من أصل " منفي " أو من أرومة " طيبة " أو يترعرعون في مقاطعات مصر الوسطى بين " فقط " و " اليوم " . (٤)

والإله " ست " الذي كانت تعبده أسرة رمسيس الثاني هو إله الشر أو هو الشيطان الرجيم ولم يكن ملوك مصر يعبدون هذا الإله حتى جاءت الدولة الحديثة التي أنشأها الرعامسة فكانوا يستعينون به كإله الجبروت والبطش والانتصار.

---

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " مرجع سابق ج ٧ ص (ي) .
(٢) معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ١٧٤ .
(٣) نفسه ص ١٧٣ .
(٤)د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " ج ٦ عصر رمسيس الثاني " صفحة ح .

ويقدِّمون له القرابين بغرض مساعدتهم في محاربة أعدائهم . وأعزيت إليه انتصارات كبيرة " وكان " سيتي الأول " ابنه الإلهي " ، **ورمسيس عابده الوفي** .. بيد أن تماثيله واسمه حطِّمت من على الآثار القديمة . وحُرِّمت عبادته في مدنه . وهكذا صار شيطاناً رجيماً بعد أن كان إلهاً باسلاً . " (١)

وعابد الشيطان الوفي " رمسيس الثاني " يعتقد أن " ست " إله الجبروت والبطش والانتصار كان وراء انتصاراته التي حقَّقها على أعدائه .

والمصريون الأبطال هم أصحاب الانتصارات لا " ست " ولا أتباعه ؛ فالشيطان وحزبه أعجز عن نفع أنفسهم فضلاً عن أتباعهم فلا يملكون إلا تزيين الشر لأتباعهم ولا يعدون الناس إلا غروراً .

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال : ٤٨]

إن من تلبيس إبليس على أوليائه إدعاءه القدرة على نصرهم من دون الله وما يعدهم إلا غروراً .

{وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ } [الشعراء: ٩٢- ٩٥]

والله تعالى يقول لأتباع الشيطان الذين يزعمون أنه هو الذي ينصرهم من دون الله أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها تشفع لكم اليوم ؟ هل ينصرونكم، فيدفعون العذاب عنكم، أو ينتصرون بدفع العذاب عن أنفسهم؟ لا شيء من ذلك. فجُمعوا وأُلقُوا في جهنم، هم والذين أضلوهم وأعوان إبليس الذين زيَّنوا لهم الشر، لم يُفْلت منهم أحد.

ولقد أخذ الله تعالى على بني آدم العهد منذ البدء ألا يعبدوا الشيطان فهو العدو الحقيقي الواضح ، وأن يعبدوا الله تعالى وحده شريك له .

{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }[يس: ٦٠، ٦١]

(١) " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق . ص ١٨٦ ، ١٨٧

وعبادة الشيطان عبادة قديمة متجددة ، وقد اختفت تلك العبادة لـزمن طويـل ، ولكنها بدأت تعود في العصر الحديث بقوة حتى وجدت منظمـات شـيطانيه لعبـدة الشيطان كمنظمة (ONA) في بريطانيا ، و (OSV) في أيرلندا ، و(**معبد سـت**) فـي أمريكا ، و(كنيسة الشيطان) وهى أكبر وأخطر هذه المنظمات جميعاً وقد أسـسها الكاهن اليهودي الساحر (أنطون لافي) سنه ١٩٦٦ ، ويقدَّر عدد المنتمين إليها ٥٠ ألف عضو .

برغم أننا لم نسمع عنهم كثيراً في السابق إلا أنهم بدءوا في الظهور في مـصر في سنة ١٩٩٦ و١٩٩٧حيث تم القبض على أكثر من ١٤٠ شـخص مـن ذكـور وإناث وأغلبهم من الطبقة الغنيَّة ، وأبناء نجوم المجتمع .

وأهم أفكار عبدة الشيطان تأليه أنفسهم فهم يقولون : " إن الإنـسان مـا هـو إلا صورة مصغَّرة للكون، فهو كـون مـصغر يـشبه تمامـاً ذلـك الكـون الكبيـر ينادون بأن ذلك الكون الكبير أزلي .. أبدى وعليه فالإنسان أزلي .. أبدى، أنه إله ، لا بداية له ولا نهاية ،إننا جميعاً آلهة ، يقولون أنه يجب على الإنسان أن يـتخلَّص من خوفه من الموت ، فالموت ليس النهاية ، لكنه نقطة الانطلاق إلى حلقة جديـدة ينادون بأن الخطيَّة ليست إلا بدعة بشريَّة أخترعها الإنسان وصار لها عبداً يخـاف منها، فلا يوجد ما يسمى خطيَّة أو شر وبما أنه لا خوف مـن المـوت ولا وجـود لمعنى الخطيَّة إذاً فالانتحار ليس خطيَّة ولا يعتبر تقديم الذبائح البشريَّة جريمـة أو قتلاً ، غاية الصلاة في عبادة الشيطان هي الوصول إلى ما يسمونه (النور) وذلـك عن طريق الدخول في حالة النشوة والكمال أو الصفاء الذهني ، وللوصول إلى هـذه الحالة يستخدمون الموسيقى أو الخمور أو المخدرات والعقاقير وبالطبع الممارسـات الجنسيَّة الطبيعي منها والشاذ أيضاً ، الفردي والجماعي. [1]

ومن بين الشعائر التي يمارسها عبدة الشيطان غير تأليه أنفسهم ذبـح الأطفـال والقطط ، ولقد ذبَّح رمسيس الثاني الأطفال ، وألَّه نفسه لأنه كان من عبدة الشيطان فهو من نسل الإله ست لذا كانت آية الله تعالى أن نجَّاه ببدنه ليكون لمن خلفـه آيـة دالة على أنه ليس إلهاً ، وأنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضر ولا الموت .

---

[1] الشيخ محمد العوضي .

ادعاء فرعون الإلوهية

القرآن الكريم يقطع بتأليه " فرعون " نفسه .

والتوراة تذكر أن فرعون كان يستعبد بني إسرائيل ليس في بناء مدينته فحسب،وإنما يأمرهم بعبادته وأن سبب اشتداد غضب " فرعون " على بني إسرائيل حدث بعدما أعلمه موسى بأن رب آبائه يريد أن يخلِّص شعبه من العبوديَّة في مصر ويخرج به إلى فلسطين .

"١وَبَعْدَ ذلِكَ دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ وَقَالاَ لِفِرْعَوْنَ: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيُعَيِّدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ». ٢فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ، وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ». ٣فَقَالاَ: «إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ الْتَقَانَا، فَنَذْهَبُ سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا، لِئَلاَّ يُصِيبَنَا بِالْوَبَإِ أَوْ بِالسَّيْفِ». ٤فَقَالَ لَهُمَا مَلِكُ مِصْرَ: «لِمَاذَا يَا مُوسَى وَهَارُونُ تُبَطِّلاَنِ الشَّعْبَ مِنْ أَعْمَالِهِ؟ اذْهَبَا إِلَى أَثْقَالِكُمَا». ٥وَقَالَ فِرْعَوْنُ: «هُوَذَا الآنَ شَعْبُ الأَرْضِ كَثِيرٌ وَأَنْتُمَا تُرِيحَانِهِمْ مِنْ أَثْقَالِهِمْ». (الخروج : ٥)

ويتَّضح من النص الآتي اشتداد غضب " فرعون " على بني إسرائيل ليس فقط أن موسى يريد أن يخرج بهم إلى فلسطين ويعطِّلون العمل في مدينته التي سخَّرهم للعمل فيها إنما لأنهم كانوا عبيده من قبل وهاهم يعبدون رباً آخر ويريدون أن يخرجوا للبريَّة لعبادته والذبح له .

" ١٥فَأَتَى مُدَبِّرُو بَنِي إِسْرَائِيلَ وَصَرَخُوا إِلَى فِرْعَوْنَ قَائِلِينَ: «لِمَاذَا تَفْعَلُ هكَذَا بِعَبِيدِكَ؟ ١٦اَلتِّبْنُ لَيْسَ يُعْطَى لِعَبِيدِكَ، وَاللِّبْنُ يَقُولُونَ لَنَا: اصْنَعُوهُ! وَهُوَذَا عَبِيدُكَ مَضْرُوبُونَ، وَقَدْ أَخْطَأَ شَعْبُكَ». ١٧فَقَالَ: «مُتَكَاسِلُونَ أَنْتُمْ، مُتَكَاسِلُونَ! لِذلِكَ تَقُولُونَ: نَذْهَبُ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ. ١٨فَالآنَ اذْهَبُوا اعْمَلُوا. وَتِبْنٌ لاَ يُعْطَى لَكُمْ وَمِقْدَارَ اللِّبْنِ تُقَدِّمُونَهُ». (الخروج : ٥)

وواضح من حوار فرعون مع بني إسرائيل إقرارهم له بالألوهيَّة حيث إنهم لم يقولوا عمالك أو حتى خدامك إنما قالوا " عبيدك " وتأكيد لفظ العبودية ثلاث مرات.

" ٦لذلكَ قُلْ لبَني إسْرَائيلَ: أَنَا الرَّبُّ. وَأَنَا أُخْرجُكُمْ منْ تَحْت أَثْقَال الْمصْريِّينَ وَأُنْقذُكُمْ منْ عُبُوديَّتهمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بذرَاع مَمْدُودَة وَبأَحْكَام عَظيمَة، ٧وَأَتَّخذُكُمْ لي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إلهًا. " (الخروج : ٦)

وفي خطاب " يهوه " لموسى يطلب منه أن يعلِّم بني إسرائيل أنه هو الرب وليس "فرعون " وأنه ينقذهم من تسخير المصريين لهم ، كما يحررهم من تعبيد فرعون لهم ، وانه سيتخذهم شعباً وسيكون لهم إلهاً من دون فرعون المتألِّه .

" ٤وَلاَ يَسْمَعُ لَكُمَا فرْعَوْنُ حَتَّى أَجْعَلَ يَدي عَلَى مصْرَ، فَأُخْرجَ أَجْنَادي، شَعْبي بَني إسْرَائيلَ منْ أَرْض مصْرَ بأَحْكَام عَظيمَة. ٥فَيَعْرفُ الْمصْريُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حينَمَا أَمُدُّ يَدي عَلَى مصْرَ وَأُخْرجُ بَني إسْرَائيلَ منْ بَيْنهمْ».(الخروج : ٧)

وفي حديث " يهوه " مع موسى وهارون بيَّن لهم أنه سيعاقب المصريين جميعاً لكي يثبت لهم أنه هو الرب وليس فرعون لأن فرعون سيعجز عن إنقاذهم من العقوبات التي ستنزل بهم .

" ٢٠ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لمُوسَى: «بَكِّرْ في الصَّبَاح وَقفْ أَمَامَ فرْعَوْنَ. إنَّهُ يَخْرُجُ إلَى الْمَاء. وَقُلْ لَهُ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: أَطْلقْ شَعْبي ليَعْبُدُوني. ٢١فَإنَّهُ إنْ كُنْتَ لاَ تُطْلقُ شَعْبي، هَا أَنَا أُرْسلُ عَلَيْكَ وَعَلَى عَبيدكَ وَعَلَى شَعْبكَ وَعَلَى بُيُوتكَ الذُّبَّانَ، فَتَمْتَلئُ بُيُوتُ الْمصْريِّينَ ذُبَّانًا. وَأَيْضًا الأَرْضُ الَّتي هُمْ عَلَيْهَا. ٢٢ولكنْ أُمَيِّزُ في ذلكَ الْيَوْم أَرْضَ جَاسَانَ حَيْثُ شَعْبي مُقيمٌ حَتَّى لاَ يَكُونُ هُنَاكَ ذُبَّانٌ. لكَيْ تَعْلَمَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ في الأَرْض. ٢٣وَأَجْعَلُ فَرْقًا بَيْنَ شَعْبي وَشَعْبكَ. غَدًا تَكُونُ هذه الآيَةُ».(الخروج:٨)

ومثل هذا النص قد تكرر عشر مرات فقد ضرب الله فرعون بعشر ضربات حسب رواية التوراة ، وخمس فقط في القرآن الكريم وهي { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آَيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ } (الأعراف : ١٣٣) وبعد أن يضرب الله تعالى فرعون والشعب المصري ببلاء لا يقدر فرعون على دفعه ، ولا يستطيع سحرته فعل مثله ولا إبطاله ؛ لذا يطلب فرعون من موسى في كل مرة أن يدعو ربه أن يرفع عنهم هذا البلاء ويعده بأنه سيطلقهم من مصر ويحرِّرهم ، وعندما يرفع الله بلاءه ينقض فرعون وعده ويعود إلى كبره وتألهه ، فيضربه الله ببلاء آخر حدث هذا عشر مرات .

" ١٣ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «بَكِّرْ فِي الصَّبَاحِ وَقِفْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي. ١٤لأَنِّي هذِهِ الْمَرَّةَ أُرْسِلُ جَمِيعَ ضَرَبَاتِي إِلَى قَلْبِكَ وَعَلَى عَبِيدِكَ وَشَعْبِكَ، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي كُلِّ الأَرْضِ. ١٥فَإِنَّهُ الآنَ لَوْ كُنْتُ أَمُدُّ يَدِي وَأَضْرِبُكَ وَشَعْبَكَ بِالْوَبَإِ، لَكُنْتَ تُبَادُ مِنَ الأَرْضِ. ١٦وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا أَقَمْتُكَ، لِكَيْ أُرِيَكَ قُوَّتِي، وَلِكَيْ يُخْبَرَ بِاسْمِي فِي كُلِّ الأَرْضِ."

(الخروج : ٩)

هذا النص يبين لماذا لم يهلك الله فرعون إنما كان يضربه وشعبه الذين عبدوه من دون الله لكي يثبت الله تعالى لمن عبد فرعون أن فرعون ليس إلهاً إنما بشر مثلهم لا يقدر أن يجلب لنفسه – فضلاً عن غيره – نفعاً ولا يقدر أن يدفع ضراً ؛ لأن النافع هو الله والضار هو الله .

وبالفعل ضجَّ المصريون من هذه البلايا وطلبوا من فرعون أن يترك بني إسرائيل يخرجون ليعبدوا إلههم ، لكي يرتاحوا هم من البلاء .

" ٧فَقَالَ عَبِيدُ فِرْعَوْنَ لَهُ: «إِلَى مَتَى يَكُونُ هذَا لَنَا فَخًّا؟ أَطْلِقِ الرِّجَالَ لِيَعْبُدُوا الرَّبَّ إِلهَهُمْ. أَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدُ أَنَّ مِصْرَ قَدْ خَرِبَتْ؟». " (الخروج: ١٠)

أما القرآن الكريم فيصرّح بكل وضوح وجلاء بتأليه فرعون نفسه .

{ فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [النازعات : ٢٣ – ٢٦]

وقال تعالى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [القصص : ٣٨]

وتؤكد العديد من الآثار المصريَّة القديمة أن "رمسيس الثاني" هو " فرعون " الذي ألَّه نفسه حال حياته وفرض على الناس عبادته وتقديم القرابين لتماثيله ، فعلى جدران المعابد رسوم لقارع الطبل وهو يتعبد لرمسيس الثاني ، وتصور الرسوم أيضاً الوزير "رع حتب " وهو يتعبد للملك قائلاً : " رمسيس حاكم الحكام والإله الأكبر وسيد السماء " [١]

([١]) محمد الشافعي مقدمة كتاب " مرنبتاح فرعون الخروج " مرجع سابق ص ٦ .

وذكر القرآن والتوراة ادعاء " فرعون الألوهيَّة " معروف ولكن أن يقيم علماء المصريات الأدلة على أن " رمسيس الثاني " ألَّه نفسه وعبده الناس من دون الله تعالى هو ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن فرعون هو نفسه " رمسيس الثاني " .

يقول د. سليم حسن : " ونجد منقوشاً على التمثال الذي في القسم الأعلى ما يأتي " رعمسيس " حاكم الحكام والإله الأكبر وسيد السماء مخلداً " . وقد ظهر في الصورة في الجزء الأعلى ملك يخطو إلى الأمام وفي الجهة الأخرى مائدة القربان ونشاهد فرعون "رعمسيس الثاني" لابساً قبعة الحرب وهو يقدِّم البخور ويصب الماء لتمثاله وقد نقش فوق صورته اسمه ولقبه وعلى يمينه قرص الشمس يتدلَّى منه صلان وكذلك النقش التالي : " بحدتي الإله الأكبر " والواقع أن ما جاء على هذه اللوحة برهان على عبادة " رعمسيس الثاني " لنفسه بوصفه إلهاً في مدة حياته والحث على هذه العبادة في صورة تمثاله كالتماثيل التي كانت تنحت للآلهة . " [1]

وبهذه المناسبة نضع أمام القارئ بعض الأمثلة عن صور التضرُّع للملك المؤلَّه دون أن ندخل في تفاصيل موضوع عبادة الملك " رعمسيس الثاني " بوصفه إلهاً وهو ...

١- ففي معابد بلاد النوبة يظهر أمامنا " رعمسيس الثاني " نفسه مؤلَّهاً وهو في كل حالة منها تكون صورته ممثلة كأي إله آخر غير أنه لم يظهر قط وهو مؤله في صورة تمثال بل في صورة إله ، فمثلاً في معبد " بوسمبل " نراه في هيئة إله برأس صقر أي أنه في هذه الحالة يمثل إله الشمس ويسمى " رعمسيس الإله الأكبر " وكذلك يظهر في صورة إنسان ولكن على رأسه قرص الشمس ويسمى "رعمسيس الإله الأكبر رب السماء" وفي معبد " أكشه " ببلاد النوبة مُثِّل في صورة إنسان ولكن النقوش التي تتبعه تقول عنه " وسر ماعت رع **ستبن** رع الإله الأعظم رب النوبة " أي أنه في كل هذه الحالات كان يُعَدُّ إلهاً خاصاً لبلاد النوبة ، (وهو الإله ست) وعلى ذلك نفهم من كل الأمثلة التي ضربناها أنها تتناول العلاقة التي كانت بين "رعمسيس الثاني" الملك وبين صوره الخاصة بوصفة إلهاً .

٢- والواقع أن الصور التي على لوحة " رع محب " تقرب من الصورة التي ذكرناها لأننا نشاهد هذا الوزير في هذه اللوحة يتعبد " لرعمسيس " كما يتعبد أيَّ

([1]) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " ج ٦ ص ٤٦٨ .

موظف لأي إله ، وكما يتعبد لروح الملك (كا) غير أن الروح كان لا يُرسم قـط بل يستدل عليه من النقوش التي كانت تدوَّن خلف الآلهة مثال ذلك ما نجده في نقوش " السلسلة " في تعبيرات صيغ القربان فيقال مثلاً " قربان يقدمه الملك والإله " حوراختي " الخ والنيل والد الآلهة وروح الملك " مرنبتاح " حتى يمكنهم أن يعطوا الخ لفلان وكذلك نجد بالعكس أن الآلهة كان يتضرع إليهم ليهبوا إلى روح الملك الحياة وفي مثل هذه الحالة قد يخالج الإنسان الشك فيما إذا كان روح الملك هنا يمثل بكل بساطة الملك العائش أو أن الآلهة قد وهبوا الملك المؤله – في صورة روح ملكي – الحياة الأبدية ، ولكن لدينا نقش في " السلسلة " يقرب من النقش الذي على لوحة " رع حتب " وهو على الجدار الخارجي لمقصورة " حور محب " إذ نرى في هذا المنظر وزيراً يصلي لروح الإله " بتاح " ، ولروح الملك " رعمسيس الثاني " ويرى هنا الملك " رعمسيس الثاني " واقفاً بين الوزير المتضرع والإله " بتاح " ، ولكن هذا الإله الذي يصلي له الوزير قد ولاه ظهره وقد عرف الملك هنا بأنه : " الإله ابن الإله " بتاح " " رعمسيس الثاني " وبذلك لم يكن يقوم بدور إله أو بدور الروح الملكي . والتفسير المعقول لهذا المنظر هو أن الوزير كان يوجه تضرعه بواسطة الروح الملكية إلى الإله " بتاح " وبهذه الكيفية يصبح هذا التضرع له قيمته عندما ينقل الملك الحي للإله تضرع وزيره .

وعلى ذلك نعلم من هذه المجموعة أن تمثال الملك المؤله كان يلعب دوراً بجوار الملك الحي ، ولدينا تمثال آخر يمكن الإدلاء به غير لوحة الوزير " رع حتب " وهو لوحة عثر عليه في " هربيط " وهي في نقوشها وتوزيع أشكالها تشبه لوحتنا وصاحبها يدعى " موسى " .

ومن ثم يمكننا أن نقرر هنا أن الصلاة التي على لوحة " رع حتب " كانت موجَّهة للروح " كا " وللتمثال الملكي معاً ، أي أن الروح يتقمص أو يسكن الملك المؤلَّه ... وإذا نظرنا بعين فاحصة وجدنا أن تقسيم اللوحة بهذه الكيفية قسمين له مدلوله المنطقي المتناسق ، ففي القسم الأسفل من اللوحة من جهة اليمين نجد الوزير راكعاً يقرأ التضرع لأذني تمثال الروح ، وفي أعلى اللوحة نشاهد صورة الملك الحي يحقق رجاء الوزير كما نشاهد مثل هذا على لوحة "موسى" (١)

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " ج ٦ ص ٤٦٩– ٤٧١ بتصرف .

ويقول طارق عبد المعطي : " إن خرطوش فرعون – رعمسيس الثاني – قد تغيَّر علي مر حياة فرعون أربع مرات هكذا ثم هكذا ثم هكذا ثم هكذا فبعد السنة السادسة من حكم "فرعون" أي بعد معركة قادش بدأ الخرطوش يتطوَّر ووضع مكانه خرطوش آخر (رع مر مس س سو الذي هو "بنا" و "رع" ق إله طبقاً لترجمتي) أي أن"فرعون" قائد للإلهين " بنا " و"رع " وذلك بعد انتصاره في معركة قادش ، ولكن بعد حكم " فرعون " بـ (٣٥ عاماً) تقريبا حذف حرف (ق) فأصبح الخرطوش (رع مس س سو ويعنى بترجمتي بنا، رع إله) أي أن " فرعون" لم يعترف بأي " إله " من " آلهة " مصر كلها إلا الإلهين (بنا و رع) ونصَّب " فرعون" نفسه إلهاً مثلهم يحمل صفات الآلهة . وقبل هلاك " فرعون " بـ(عشر سنوات) غيَّر الخرطوش للمرة الرابعة (رع مس س سأي "لله فرعون") ومعنى ذلك أن " فرعون " نصَّب نفسه إلهاً على كل الآلهة الموجودين بما فيهم الإلهين " بنا " و " رع " وأثار " فرعون " في آخر حياته تشهد على ذلك . (١)

لم يبق لنا لتأكِّيد أن فرعون هو " رمسيس الثاني " سوى قصة غرق فرعون وتنجية الله تعالى بدنه ؛ ليبقى هذا البدن إلى يومنا هذا شاهداً على كذب ادعاء رمسيس الإلوهية .

" فاليوم ننجِّيك ببدنك " والإعجاز العلمي

اشتهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتماما بالآثار والتراث ، وعندما تسلَّم الرئيس الفرنسي "فرانسوا ميتران زمام الحكم في البلاد عام ١٩٨١ طلبت فرنسا

(١) نقلاً عن موقع طارق عبد المعطي " إحياء علوم مصر القديمة " .

من مصر في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (رمسيس الثاني) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة لها .

تمَّ نقل جثمان أشهر طاغوت عرفته مصر .. وفي فرنسا وعلى أرض المطار اصطف الرئيس الفرنسي منحنياً هو ووزراؤه وكبار المسئولين في البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك وكأنه مازال حياً..!

عندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا ، حُمِلَت مومياء الطاغوت بموكب لا يقلُ حفاوة عن استقباله وتمَّ نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي ، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسئول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونيَّة هو البروفيسور موريس بوكاي . (١)

كان المعالجون مهتمِّين بترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم (موريس بوكاي) عنهم مختلفاً للغاية ، كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني، وفي ساعة متأخرة من الليل.. ظهرت نتائج تحليله النهائيَّة ..

لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقاً .. !

وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فوراً ، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه !

لكن ثمة أمراً غريباً مازال يحيره وهو كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونيَّة المحنطَّة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استخرجت من البحر.. ! كان موريس بوكاي يعدُّ تقريراً نهائيّاً عما كان يعدُّه اكتشافاً جديداً في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة ، حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً لا تتعجَّل فإن المسلمين يتحدَّثون عن غرق هذه المومياء ..

ولكن بوكاي استنكر بشدَّة هذا الخبر ، واستغربه ، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطوِّر العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة ، فقال له أحدهم إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق ..!

---

(١) موريس بوكاي رئيس قسم الجراحة بجامعة باريس ، أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة .

فازداد بوكاي ذهولاً وأخذ يتساءل .. كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلاً إلا في عام ١٨٩٨ م أي قبل مائتي عام تقريباً ، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام ؟!

وكيف يستقيم في العقل هذا ، والبشريَّة جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط ؟

جلس " موريس بوكاي " ليلته محدِّقاً في جثمان فرعون ، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدَّث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق بينما كتابهم المقدس (إنجيل متى ولوقا) يتحدَّث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرَّض لمصير جثمانه البتة .. وأخذ يقول في نفسه : هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى ؟!

وهل يعقل أن يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتوّ أعرفه ؟!

لم يستطع (موريس) أن ينام ، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في (سفر الخروج) من التوراة قوله " ٢٨ فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ . " (الخروج:١٤)

بقي موريس بوكاي حائراً حتى الإنجيل لم يتحدَّث عن نجاة هذه الجثَّة وبقائها سليمة !

بعد أن تمَّت معالجة جثمان فرعون وترميمه ، أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون ! ولكن .. بوكاي لم يهدأ له بال ، منذ أن هزَّه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة !

فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعوديَّة لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين ..

وهناك كان أول حديث تحدَّثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالى { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } [يونس :٩٢]

لقد كان وقع الآية على بوكاي شديداً ، ورُجَّت له نفسه رجَّة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته : " لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن " .

رجع موريس بوكاي إلى فرنسا بغير الوجه الذي ذهب به .. وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلميَّة والمكتشفة حديثاً مع القرآن الكريم ، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدَّث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى عن القرآن الكريم : { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت :٤٣]

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي بوكاي أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هزَّ الدول الغربيَّة قاطبة ورجَّ علماءها رجّاً ، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة).. فماذا فعل هذا الكتاب ؟

من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات ! ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسيَّة) إلى العربيَّة والإنجليزيَّة والإندونيسيَّة والفارسيَّة والصربكرواتيَّة والتركية والأورديَّة والكجوراتيَّة والألمانيَّة ..!

نعم والله لو كان من عند غير الله لما تحقَّق قوله تعالى في فرعون { فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية } كانت حقاً آية إلهيَّة في جسد فرعون البالي.. تلك الآية التي أحيت الإسلام في قلب موريس بكاي ... ! (١)

الإشكالية الأخيرة في قصة فرعون

والإشكالية الأخيرة في قصة فرعون " رمسيس الثاني " لماذا لم يسجِّل المصريون قصة موسى مع فرعون على أهميَّتها ، وقصة غرق فرعون على خطورتها البالغة وهم الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة في حياة ملوكهم إلا سجَّلوها ؟!

والحقيقة أن تاريخ المصريين كان يكتب بأمر من الملوك ووفق هواهم ، ومن الطبيعي وقد تولَّى " مرنبتاح " الحكم بعد أبيه " رمسيس الثاني " الهالك أن يتجاهل

---

(١) من مقال بقلم د.محمد يوسف المليفي .

ذكر قصة بني إسرائيل مع أبيه فضلاً عن غرق أبيه وخروج بني إسرائيل من مصر رغماً عنه بمعجزة إلهيَّة ، لم يسجِّل " مرنبتاح " في لوحة انتصاراته " سوى أنه قضى على بذرة إسرائيل في مصر ؛ ليؤكِّد أنه هو الذي طردهم وقضى عليهم لا أن الله تعالى هو الذي أنقذهم من فرعون وعمله .

وهاك جزء من أنشودة انتصار " مرنبتاح " على أعدائه والمنقوشة على لوحة تذكارية من الجرانيت الأسود وهي المسماة " لوحة إسرائيل " .

" ولقد وجهه " رع " إلى مصر ثانية وقد ولد مقدَّرا له حمايتها ، هو الملك "مرنبتاح" .

ويقول الرؤساء مطروحين أرضاً : السلام .

ولم يعد يرفع واحد من بين قبائل البدو تسعة الأقواس رأسه (اسم لجيران المعادين لها) .

التحتو قد خربت .

وبلاد " خاتي " أصبحت مسالمة .

" وكنعان " أُسرت مع كل خبيث .

وأُزلت " عسقلان " .

" وجيزر " قُبض عليها .

" وبنوم " أصبحت لا شيء .

وإسرائيل خُربت وليس بها بذر " (١)

ويعلِّق سليم حسن على العبارة الأخيرة الخاصة ببني إسرائيل فيقول " هذا هو أوَّل عهدنا باسم إسرائيل ، بل هي المرَّة الأولى التي ذكر فيها الاسم في نص مصري ، وبموازنته بأسماء أخرى نجد أن كلمة إسرائيل كتبت لتدل على شعب لا على بلد " (٢) ويقول في موضع آخر " هذه اللوحة قد ذكرت لنا إسرائيل للمرَّة الأولى والأخيرة أيضاً وعلى ذلك تكون الإشارة إلى هؤلاء القوم هنا تشير إلى حادثة الخروج وعدم وجودهم في مصر " إني لا أزال مُسلِّماً بوجهة النظر التي أدلى بها " لبسيوس " عن موضوع خروج بني إسرائيل – وهي التي يقتفيها معظم

---

(1) نقلا عن سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " الجزء السابع مرجع سابق . ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(2) نفسه ص ١٠١

الأثريين – أن مضطهد اليهود هو " رعمسيس الثاني " الذي كان حكمه الطويل بداية انحلال الإمبراطوريَّة المصريَّة ، وأن الفرعون الذي ينسب إليه خروج بني إسرائيل ابنه " مرنبتاح " (١)

والذي جعل د. سليم حسن يعود فيذكر أن مرنبتاح هو فرعون الخروج بعد ترجيحه – كما ذكرنا من قبل – بأن رمسيس الثاني هو فرعون الميلاد والخروج هو ما كتبه مرنبتاح في لوحة انتصاراتها ، ولقد قاده هذا الخطأ إلى ادعاء أن فرعون موسى لم يغرق وأن قوله تعالى { فاليوم ننجِّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية} أن فرعون " نفد بجلده " كما يقول المثل المصري .

والذي دعا سليم حسن إلى القول بعد عدم غرق مرنبتاح هو أن زمن كتابة لوحة انتصاراته يعود إلى العام الخامس من توليه الحكم بينما كانت حملته على سوريا في العام الثالث لحكمه . (٢) وبما أن فرعون قد غرق أثناء مطاردته لبني إسرائيل فإن هذا يعني أنه لو كان مرنبتاح هو فرعون الخروج فإن هذا اللوح قد كتبه من جاء بعده وكتب " بذرة إسرائيل قد أبيدت " كنوع من الافتخار الكاذب ، ولما كانت اللوحة تنص على أن مرنبتاح هو الذي كتبها في العام الخامس من حكمه فإن هذا يعد دليلاً قاطعاً على أن " رمسيس الثاني " هو فرعون الخروج ، وليس مرنبتاح أو غيره . وأن مرنبتاح في هذه اللوحة يحاول أن يدَّعي أنه هو الذي أخرج بين إسرائيل من مصر وقضى على بذرتها ؛ ليغطي على فشل أبيه في إدراكهم وغرقه دون ذلك .

يقول " سميث" إن سكوت الآثار المصرية عن قصة خروج بني إسرائيل من مصر من وجهة النظر المصريَّة الفرعونيَّة لا تزيد عن كونها فرار مجموعة من العبيد من سادتهم المصريين وما كانت هذه بالحادثة التي تسجَّل على جدران المعابد أو التي تقام لها الآثار لتسجيلها كما أنه من المؤكَّد أن هذه التسجيلات لم تكن – كما نقول بلغة عصرنا – صحافة حرَّة تسجِّل الأحداث كما وقعت – بل لا بد كانت تحت رقابة صارمة من الفراعنة فلا تسجِّل إلا ما يسمح به الفراعين أنفسهم ويكون فيه تمجيد لهم ولمَّا كان الفراعنة يدَّعون أنهم من نسل الآلهة فليس من المُتصوَّر أن

---

(١) نفسه ص ١٠٩

(٢) محمد الشافعي مقدمة كتاب " مرنبتاح فرعون الخروج " مرجع سابق ص ٧.

تسجّل على المعابد دعوة موسى لإله أكبر هو رب العالمين، كما أنه من غير المعقول تسجيل فشل الفرعون في منع خروج بني إسرائيل فضلاً عن غرقه أثناء مطاردتهم، إذ أنها أحداث يجب فرض تعتيم إعلامي كامل عليها وعلى كل ما يتعلّق بها والعمل على محوها من ذاكرة الأمَّة وهو أمر غير مستغرب.. بل ويحدث في أيامنا هذه وكم من حقائق عملت الرقابة والمخابرات على إخفائها عن الشعوب !

ولكن يجب أن نعرف أن من المؤكد في وقتنا هذا حسب رأي العلماء والمؤرخين والمفكرين الإسلاميين أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني . (1)

وبناء على كل ما سبق ذكره يكون فرعون اسم علَم على حاكم مصر زمن موسى عليه السلام وهو رمسيس الثاني الذي اضطهد بني إسرائيل وأغرقه الله تعالى في اليم ونجَّاه بعد موته ببدنه ليكون لمن خلفه آية ، وعليه فإننا لسنا فراعنة ولا من نسل الفراعنة كما زعم الجاهلون بالتاريخ المصري وبحقيقة أصل المصريين .

***

(1) د. رشدي البدراوي " من هو فرعون موسى؟ " نقلاً عن مدونة " عالم المعرفة " .

الفصل الثالث

لسنا محتلّين ، فماذا يكون الفتح العربي الإسلامي ؟

أثيرت قديماً وحديثاً عدة قضايا حول الفتح العربي مصر ، ورأينا أن نناقش هذه القضايا بصراحة وصدق وأمانة وحكمة يحدونا الأمل في كشف حقائق تاريخيَّة كان الخلاف حولها سبباً في إثارة بعض المشاحنات والاحتقانات بين المصريين لأكثر من ألف وأربعمائة عام .

ونصوغ هذه القضايا في شكل أسئلة نحاول الإجابة عنها :

١-ماذا كان حال المصريين قبل الفتح العربي ؟

٢-ما موقف المصريين من الفاتحين العرب ؟

٣-هل كان الفتح العربي احتلالاً استيطانيّاً ؟ وكيف تمَّ هذا الفتح ؟

٤-هل حرق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندريَّة عند الفتح أو بعده ؟

٥-كيف حكم الولاة المسلمين مصر ؟

٦-ما حقيقة الجزية التي فرضها المسلمون على المصريين ؟

٧-لماذا ثار المصريون على بعض الولاة الأمويين والعباسيين ؟

٨-كيف دخل المصريون في الدين الإسلامي أفواجاً ؟

٩-هل المسيحيون مصريون والمسلمون عرب ؟

١٠-هل الإسلام خصيصة عربيَّة أم دعوة عالميَّة ؟

١١-ما الفرق بين العرب المُستَعْرِبَة والعرب المُستَعْجَمَة ؟

١٢-من هم أقباط المهجر ؟ وما أهم أفكارهم وممارساتهم ؟

هذه أهم الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في هذا الفصل بادئين بالإجابة عن السؤال الأخير ؛ لأن أقباط المهجر هم أكثر من يثير هذه القضايا ولهم آراء خاصة فيها تختلف كثيراً عن موقف المسيحيين المصريين منها .

قصة أقباط المهجر من الرحيل إلى المؤامرة

أقباط المهجر عامَّة هم المسيحيون الذين قرَّروا الهجرة من مصر لظروف مختلفة منذ خمسينيات القرن الماضي ليستقرُّوا في بلدان الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وكندا، ولكن المصطلح أصبح يستخدم إعلاميّاً وسياسيّاً على مجموعات مسيحيي المهجر النشطاء سياسيّاً للدفاع عن حقوق المسيحيين دينيّاً وسياسيّاً في مصر لتشكيل ضغط على الحكومة المصريَّة لاستعادة هذه الحقوق .

وخطاب منظمات أقباط المهجر قد يكون له أحياناً خطاب سياسي مختلف مع سياسة الحكم في مصر وازدادت وتيرتها بعد وصول الإخوان المسلمين للحكم، ودعم بعضهم مثل مدحت قلادة رئيس اتحاد المنظمات القبطيَّة الأوروبيَّة الفريق أحمد شفيق في انتخابات رئاسة الجمهوريَّة بعد ثورة ٢٥ يناير ضد د. محمد مرسى، لكنه لم يتطرَّق لأمور دينيَّة ضد الإسلام مثلما فعل موريس صادق الذي دأب على سبِّ الإسلام في بياناته والطعن في أصول الدين نفسها، حتى شارك في إنتاج الفيلم المسيء الذي فجَّر أزمة كبيرة في الربع الأخير من عام ٢٠١٢م ، لذلك خرجت المنظمات القبطيَّة بالمهجر تدين الفيلم المسيء وتطالب بالتفرقة بين الشخصيات المخطئة التي كانت وراء إنتاج الفيلم المسيء وعموم أقباط المهجر .

اتَّهم نشطاء وشخصيات مسيحيَّة عدداً من رموز أقباط المهجر بالحصول على تمويلات خارجيَّة "مشبوهة" من أمريكا وإسرائيل لخدمة "الصهيونيَّة العالميَّة" والسعي لخدمة أهداف مشبوهة، منها تقسيم مصر وتكوين ما يسمى بـ"الدولة القبطيَّة المزعومة" لخدمة الكيان الصهيوني وزعزعة استقرار مصر. فيما أكَّد إسلاميون أن أقباط المهجر يحصلون على تمويل من مصادر متعدِّدة منها رجال الأعمال الأقباط في الخارج الذين يستخدمون "المال الطائفي" لإحداث فتن طائفيَّة

بين الشعب المصري، عبر المنظمات اليهوديَّة والأمريكيَّة التي تتولّى عملية دعم أقباط المهجر لتشويه صورة الإسلام، وأن أمريكا وإسرائيل يهدفان من وراء عملية تمويل موريس صادق وعصمت زقلمة تحقيق أهداف "الصهيونيَّة العالميَّة" لمحاربة الدين الإسلامي . (١)

والحقيقة أن أقباط المهجر هؤلاء ليسوا جماعة واحدة متَّفقة في الأهداف والوسائل بل كانوا ومازالوا طَرَائِقَ قِدَدًا ، وهؤلاء خارجون عن مسيحيي مصر في الداخل المرتبطين بكنائسهم المتمسِّكين بتعاليمها التي تعبِّر عندهم عن القوميَّة المصريَّة ، وأغلب المسيحيين الذين هاجروا إلى الغرب ظلّوا مرتبطين بالكنسية المصريَّة ، ومن جانبها فتحت لهم الكنيسة المصريَّة الأم فروعاً كنسية في أمريكا وكندا وأوربا .

وأفراد قلائل من مسيحيي المهجر هم الذين يسيئون إلى مصر ويحاولون زعزعة أمنها ، وإشعال الفتنة فيها ، وكان من أكبر جرائمهم هو أقدام بعضهم على إنتاج الفيلم المسيء .

ولقد هممت أن أعرض أهم ما جاء في الفيلم من بذاءات ولكنني أعرضت عن ذلك ؛ فما جاء في الفيلم من سب وقذف وطعن في الإسلام ورسوله الكريم غير مسبوق من أعداء الإسلام !

ولقد صدَّقت محكمة جنايات القاهرة برئاسة المستشار سيف النصر سليمان في جلستها التي إنعقدت يوم الثلاثاء ٢٩ يناير ٢٠١٣م ، على قرارها بإعدام ٧ من المتهمين في قضية " الفيلم المسيء " بتهم الإساءة للدين الإسلامي والمساس بالوحدة الوطنيَّة، وذلك بعد موافقة فضيلة مفتي الديار المصرية .

والمتَّهمون في القضية هم: موريس صادق جرجس عبد الشهيد، محامٍ ومؤسِّس الجمعيَّة القبطيَّة الوطنيَّة بواشنطن، ومرقص عزيز خليل، مقدم

---

(١) راجع مقال محمد عوض ومايكل فارس ورامي نوار " متطرفو المهجر من شعارات المواطنة إلى المطالبة بالدولة المستقلة " جريدة اليوم السابع بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠١٢م

برامج دينيَّة بالولايات المتحدة، وفكري عبد المسيح زقلمة، طبيب بشري، ونبيل أديب بسادة، المنسق الإعلامي للجمعيَّة القبطيَّة الوطنيَّة بواشنطن، وإيليا باسيلي وشهرته (نيقولا باسيلي)، حاصل على ليسانس آداب جامعة القاهرة، وناهد محمود متولي وشهرتها (فيبي عبد المسيح بولس صليب)، طبيبة وتقيم بمدينة (سيدني) بأستراليا، ونادر فريد نيقولا، حاصل على بكالوريوس تجارة .

وقضت المحكمة بالسجن ٥ سنوات لتيري جونز، راعي كنيسة دوف الإنجيليَّة، بولاية فلوريدا الأمريكيَّة .

ويحاكم المتهمون غيابيًا باعتبارهم هاربين، ويقيم ٧ منهم بالولايات المتحدة، وكانت النيابة العامة قد أحالت المتهمين الثمانية للمحاكمة الجنائيَّة، وأمرت بإلقاء القبض عليهم وحبسهم احتياطيًا على ذمة القضية.

ونسبت النيابة إلى المتهمين جميعًا، وهم مصريّو الجنسيَّة عدا المتهم الأخير، أمريكي الجنسيَّة، ارتكاب جرائم المساس بوحدة الوطن واستقلاله وسلامة أراضيه، وازدراء الدين الإسلامي، وإذاعة أخبار وشائعات كاذبة والتعدي بطريقة العلانية على الدين الإسلامي، والاشتراك فيها، وهى من الجرائم التي يعاقب عليها القانون المصري بعقوبة تصل إلى الإعدام .

عقدت الجلسة برئاسة المستشار سيف النصر سليمان، بعضوية المستشارين محمد عامر جادو، وحسن إسماعيل حسن، بحضور خالد ضياء رئيس نيابة أمن الدولة العليا، وأمانة سر عادل عبد الحميد. (١)

بالإضافة إلى الفيلم المسيء فإن أقباط المهجر هؤلاء يشيعون أن العرب الفاتحين كانوا غزاة مستوطنين ، ولقد عاقبوا أقباط مصر بعد أن غزو أرضهم بجزية قصمت ظهورهم ، ولم يكتفوا بذلك بل أجبروهم على الدخول في الإسلام وترك

---

(١) جريدة المصري بتاريخ ٢٩ يناير ٢٠١٣م .

المسيحيَّة ؛ لذا فإن قساوسة مصر يرتدون الزى الأسود حزناً على ضياع ملكهم وأرضهم ، والآن على العرب المسلمين أن يرحلوا عن أرض الكنانة ويتركوها لأصحابها المسيحيين !!

وسيكون ردنا على أقباط المهجر هؤلاء ومن نحا نحوهم من خلال الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها في بداية الفصل .

حال المصريين قبل الفتح العربي الإسلامي

قبل الحديث عن الفتح العربي الإسلامي سنتحدَّث عن حال المصريين قبل الفتح لنبيِّن الفرق بين حال المصريين قبل الفتح وبعده لبيان ما بينهما من اختلاف وسوف نعتمد في الحديث عن هاتين الحالين على كتابات مسيحيي مصر المخلصين الذين لا مجال للتجريح في شهاداتهم ، وفي سبيل تحقيق ذلك طلبت من صديقي العزيز رفعت عبد المسيح أن يرشِّح لي عدداً من الكتب المسيحيَّة التي تحدَّثت عن تاريخ مصر عامَّة وفتح العرب مصر خاصة فقام مشكوراً بإهدائي عدداً كبيراً من الكتب على رأسها كتاب يعقوب نخلة روفيله (١) " تاريخ الأمَّة القبطيَّة " أول كتاب باللغة العربيَّة يتناول تاريخ الأقباط متعرِّضاً لأحداث تكشف النقاب عن وضعهم في المجتمع المصري ومعاملة الحكام لهم على مر العصور ، ومستخلصاً نتائج هامَّة تدلُّ على قدرته على النظرة الشاملة والفاحصة في نفس الوقت لتاريخ الأقباط . (٢)

يقول يعقوب نخلة : " قضت الأحوال السياسية بتقسيم المملكة الرومانيَّة إلى مملكتين : شرقيَّة وعاصمتها القسطنطينيَّة ، وغربيَّة وقاعدتها روميَّة . أما مصر

---

(١) يعقوب نخله روفيله (١٨٤٧– ١٩٠٨م) مؤرِّخ ولغوى ومحرِّر مصري ولد في القاهرة سنة ١٨٤٧ في عائلة مسيحيَّة ويعتبر من أشهر مسيحيي مصر في القرن التاسع عشر . أسَّس جريدة " وطني " ، ومن أهم مؤلفاته " تاريخ الأمة القبطيَّة. " . ولقد عرضت كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس – الإسكندرية – سيرة يعقوب نخلة على أنها إحدى " سير القديسين والشهداء في الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة" وتقول عنه فيها : " أثناء إقامته بمدينة الإسكندرية خدم كنائس الإيبارشية هناك كما أسَّس فيها مدرستين وفرعًا لجمعية التوفيق. ومما يجدر ذكره أنه حين كان يعمل بالمطبعة الأميرية لم يعقه عمله الحكومي عن خدمة كنيسته، فأسس مدرسة قبطيَّة بالفجالة أصبحت فيما بعد الأساس الذي قامت عليه مدارس جمعية التوفيق. كتاباته: أعظم خدمة أسداها لوطنه ولكنيسته هي كتابه: "تاريخ الأمة القبطيَّة" الذي مازال حجَّة يستند إليها الكتاب. وإلى جانب هذه الأعمال فقد فاز بعضوية المجلس الملي سنة ١٨٨٣ م. ثم أعيد انتخابه سنة ١٨٩٢ م . " .

(٢) د. جودت جبره في تقديمه للطبعة الثانية من كتاب يعقوب نخلة " تاريخ الأمة القبطية " صفحة م د .

فكانت تابعة للمملكة الشرقيَّة ولكن لم يغيِّر هذا التقسيم في حالتها شيئاً بل زاد في الطنبور نغمةً أن ملوك القسطنطينيَّة كانوا يحاولون توحيد العقائد وإزالة الخلاف بإلزام جميع الرعايا التابعين لهم بالتمسُّك بمذهب واحد وهو مذهب الروم أو بالحري التمسُّك بمذهب القوَّة الحاكمة ولذا كان الروم يُسَمَّوْن ملكيين ، ولكن لم يُجْدِ هذا نفعاً ولا فائدة بل كان سبباً للنفور منهم أكثر فأكثر ليس في مصر فقط بل وفي غيرها من الولايات التابعة للمملكة الشرقيَّة ؛ ولهذا السبب كثرت القلاقل والفتن في داخليَّة البلاد وصغرت الحكومة الرومانيَّة في عيون المصريين فاستعمل الحكام والولاة العسف والقوَّة في تنفيذ أوامرهم وأغراضهم فكان هذا داعياً إلى انقلاب الأهالي على الحكام وتعديهم عليهم وإخراجهم من بلادهم . " (١)

وكان سوء حال مصر وسائر الممالك الرومانيَّة الشرقيَّة سبباً في تجرؤ الفرس على تلك الممالك وانتزاعها من قبضة الرومان فهل تغيَّر حال مصر تحت الحكم الفارسي الشرقي عنه تحت الحكم الرومان الغربي ؟

يقول يعقوب نخلة في كتابه " تاريخ الأمة القبطيَّة " الذي يمثِّل تاريخ الكنيسة المصريَّة شبه الرسمي : " فمن جراء هذه المنازعات التي دامت زمناً طويلاً وأهرقت بسببها دماء ألوف ومئات من الأبرياء وغير ذلك من نتائج سوء تدبير الملوك والولاة أصبحت المملكة الرومانيَّة الشرقيَّة في تقهقر وانحطاط فانتهزت بعض الممالك المعادية لها هذه فرصة مناسبة لتجريدها من أعظم وأهم ولاياتها ففاجأها ملك الفرس بالحرب واستولى على سوريا ومصر وغيرهما .

وبقيت مصر في يد الفرس نحو عشر سنوات ساموا فيها المصريين الخسف والعذاب أشكالاً واستمرُّوا على ذلك إلى أن قام هرقل ملك الروم وقاتلهم وهزمهم واسترجع البلاد من يدهم ، ولكن لم ينل أقباط مصر مع الأسف من هذا التغيير خيراً بخلاف ما كانوا يتوقَّعونه من أن الحوادث علَّمته والتجارب ربَّته بل كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإن هرقل بعد ما خلَّص البلاد من يد الفرس حوَّل نظره إلى تنفيذ الغرض الأصلي الذي كان يسعى وراءه الملوك سلفاؤه وهو توحيد العقيدة النصرانيَّة وجعلها واحدة في كل المملكة ولمَّا لم يجد منهم إلا الرفض

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مؤسسة مارمرقس لدراسات التاريخ القبطي ط٢ سنة ٢٠٠٠ ص ٢٩

والإباء التجأ في تنفيذ غرضه هذا إلى القوَّة والشدَّة وحد السيف فقتل كثيراً من السوريين والمصريين واستباح دماءهم وسلب أموالهم وعزل البابا بنيامين بطريرك الأقباط وعيَّن بدله ممن على مذهبه ثم طلبه ليقتله فهرب واختفى من وجهه في دير صغير بالصعيد وبقي مختفياً فيه إلى مجيء العرب واستيلائهم على مصر ، ولمَّا لم يعثر عليه قبض على أخيه المدعو مينا وألقاه في اليم لأنه أصر على عدم الإرشاد إلى محل أخيه (بنيامين) وأنكر معرفة محل وجوده .

ومن جراء هذه الاضطهادات والقلاقل والفتن الداخلية المُسَبَّبة عن انقياد ولاة الأمور لأئمة الدين انقياداً أعمى وإذعانهم لمشوراتهم الفاسدة وانصياعهم لتمويهاتهم التي كانوا يتخذونها ذريعة للتوصُّل إلى أغراضهم الذاتيَّة وكذلك سوء سياسة وتدبير الملوك باهتمامهم بجعل جميع الرعايا على دين ومذهب واحد واشتغالهم بالأخذ بناصر الرؤساء الذين كانوا على شاكلتهم ومعتقداتهم والانتقام للواحد من الآخر بسفك دماء محازبيه بغير تبصر في عواقب الأمور وما ينجم عن ذلك من الخراب والدمار أصبحت المملكة الرومانيَّة الشرقيَّة في انحطاط زائد وأصيبت بداء عضال تعذَّر البرء منه وهذه عاقبة كل مملكة تكثر فيها التعصُّبات الدينيَّة والاختلافات المذهبيَّة .

ولم يقتصر الملك هرقل فقط على اضطهاد النصارى الذين كانوا على غير مذهبه ومعتقده بل اشتد على اليهود وذلك لأنه لمَّا انتصر أغراه بعض أئمة النصارى على الإيقاع بهم بعلَّة أنهم كانوا يعاونون ويحرِّضون الفرس على قتل المسيحيين وأنهم كانوا يشترون منهم الأسرى النصارى بمبالغ طائلة ويقتلونهم فاحتدم عليهم الملك غيظاً وأباح للنصارى قتلهم وسلب أموالهم وسبي نسائهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ولاسيما في مدينة القدس فكانت كل هذه الأحوال سبباً في نفور الناس ولاسيما أقباط مصر من الروم وجورهم خصوصاً وأن الملك الذي كان قبل هرقل أنفذ أمراً إلى نائبه بمصر بطرد جميع الأقباط من خدمة الحكومة ودواوينها وعدم قبول أحد منهم في مصالحها قصداً منه في إذلالهم فكان ذلك من أقوى البواعث على قنوط الأقباط واعتزالهم الروم بالكليَّة وقطع كل العلاقات معهم فتأصَّلت الكراهية .

وبينما كان الملك هرقل مهتمّاً بتأييد مذهبه واضطهاد مخالفيه في سوريا ومصر متشاغلاً بذلك عن إجراء ما فيه حفظ البلاد وصونها وراحة العباد وتنظيم أحوال مملكته ولَمِّ شعثها ظهرت الدولة العربيَّة الإسلاميَّة في شبه جزيرة العرب في أوائل الجيل السابع للميلاد وكان ظهورها قاضياً على مملكة الروم الشرقيَّة بالويل والخراب لأن الاختلال كان ضارباً أطنابه في كل أنحائها . " (١)

وعن تلك الفترة يقول د. ميلاد حنا : " عندما دخل القبط القرن السابع الميلادي كانت أزمة المجتمع من خلال الصراعات الدينيَّة قد استعصت على الحل وهنا حاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م) أن يعيد الوحدة إلى جسم الإمبراطوريَّة الممزَّق ، فطرح مذهباً دينيّاً جديداً عام ٦٢٢م بأن يوفِّق بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (كنيسة الإسكندريَّة) وأصحاب مذهب الطبيعتين (كنائس قسطنطينيَّة وروما) وأقام مذهبه التوفيقي على أساس وحدة المشيئتين في شخص المسيح أي المشيئة الإلهيَّة والمشيئة الإنسانيَّة .

ولم تنجح محاولات هرقل رغم استخدامه العنف ، ودخلت مصر فيما أسماه المؤرِّخون " عهد العذاب العظيم " واضطر البطريرك بنيامين الأول (٦٢٣ – ٦٦٢ م) أن يترك كرسيَّه ويختفي هارباً فتشرَّد الأساقفة والقسس وأرغم الكثيرون من الأهالي – بما في ذلك عدد من رجال الدين – على التنكُّر لعقيدتهم وهذا هو سر استمرار هذه الأقليَّة الهزيلة من " الروم الأرثوذكس " في مصر .

وحدث هذا كله في وقت احتدم فيه سخط الشعب واختل الأمن وتردَّت التجارة والصناعة وكانت هذه الأحوال كلها باعثاً للمصريين على الترحيب بالعرب ويحدوهم الأمل في أن يتمتعوا بحياة فيها راحة وطمأنينة . " (٢)

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٣٤– ٣٧

(٢) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٩٤، ٩٥.

الفتح العربي لمصر في كتب المؤرّخين المسيحيين

زعم بعض أقباط المهجر أن الفتح العربي كان احتلالاً استيطانيّاً ؛ فقد اغتصب أرض مصر من أهلها ، واستذل أقباطها وأجبرهم على تغيير دينهم والدخول في الإسلام قسراً .

والحقيقة أن العرب عندما فتحوا مصر لم يكن للأقباط حول ولا قوة فلم يكتف الرومان بنهب ثرواتهم ، وإقصائهم عن إدارة شئون بلادهم ، بل إنهم راحوا يكرهونهم على دينهم ، فكيف كان فتح العرب المسلمين مصر ؟ وما موقف أقباط مصر من هذا الفتح ؟ وهل كان حكم الولاة المسلمين استمراراً لحكم اليونان والفرس والرومان أم كان نظاماً مختلفاً هذا ما سوف نتعرّف عليه من كتابات المؤرخين المسيحيين ملتزمين بذاكر النصوص كما هي دون تغيير في ألفاظها ولا تحريف الكلام عن مواضعه .

يقول يعقوب نخلة عن فتح العرب مصر : " وصار عمرو يخترق الهضاب والبطاح ويجوب الفيافي والبلاد حتى وصل إلى حدود مصر فدخل مدينة العريش وذلك في ١٨ هـ ولمَّا استولى عليها وجد بها " أرمانوسة " بنت المقوقس فلم يمسَّسها بأذى ولم يتعرَّض لها بشرٍّ بل أرسلها إلى أبيها في مدينة منف مكرَّمة الجانب معزَّزة الخاطر فعدَّ المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة من عمرو وحسبها منه له . " (١)

كانت " أرمانوسة " ابنة المقوقس حاكم القبط من قبل هرقل عظيم الروم تعيش في " بلبيس " وكان أبوها قد زوَّجها من قسطنطين بن هرقل وقد جهزَّها وأرسلها مع غلمانها وأموالها إلى بلبيس ، فماذا فعل معها عمرو بن العاص عندما وقعت في الأسر .

يقول الواقدي : " أخذت أرمانوسة ابنة الملك وجميع ما معها من الأموال والرجال والجواري والغلمان .

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٣٩، ٤٠

فقال عمرو بن العاص لأصحاب رسول الله ﷺ مثل يزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد الطائي والقعقاع بن عمرو التميمي وخالد بن سعيد وعبد الله بن جعفر الطيار وصفوان وأمثالهم أن الله سبحانه وتعالى قد قال: { هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ} [الرَّحمن:٦٠] وهذا الملك قد علمتم أنه كاتب رسول الله ﷺ وبعث هدية ونحن أحق بمن كافأ عن نبيه ﷺ هديته وكان يقبل الهدية ويشكر عليها وقد رأيت أن ننفذ إلى المقوقس ابنته وما أخذنا معها ونحن نتبع سُنَّة رسول الله ﷺ وقد سمعته يقول: " ارحموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر" فاستصوبوا رأيه فبعث بها مُكَرَّمة مع جميع ما معها مع قيس بن سعد رضي الله عنه . " (١)

وهكذا فتح العرب المسلمون قلوب المصريين بحسن أخلاقهم قبل أن يفتحوا بلادهم .

ونعود إلى يعقوب نخلة ليصف لنا كيف فتح عمرو بن العاص حصن بابليون :

" لمَّا وصل عمرو إلى بابليون وجد الحصن غاصّاً بأعظم أبطال الروم وأجنادهم فنزل أمامه بعسكره وحاصره وضيَّق على من فيه واستمر محاصراً له سبعة أشهر موالياً الهجوم من وقت إلى آخر والمقوقس يتظاهر بمقاومة جنود العرب وصد هجماتهم فلم يشك أحد من رؤساء جنود الروم في إخلاصه لدولته ولما طال الحصار وأبطأ الفتح طلب عمرو من الخليفة أن يمدَّه بالرجال فأنفذ إليه أربعة آلاف مقاتل فتقوَّى بهم وشدَّد الحصار وجعل يتخابر مع الروم في أمر التسليم بالتي هي أحسن فأبوا كل الإباء غير أن المقوقس كان يميل إلى ذلك تخلُّصاً من الروم إلا أنه لم يستطع أن يكشف عن غامض رغبته لأن رجاله ولاسيما الروم منهم لم يكونوا كلهم من حزبه ولما رأى تشديد الحصار وتجلُّد العرب على القتال عمد هو ومن معه من الذين كان يعتمد عليهم ويركن إليهم إلى الانسحاب من الحصن فانسحب منه وعبر نهر النيل وذهب إلى الجزيرة المعروفة الآن بالروضة وتحصَّن فيها وحصَّن مدينة منف أيضاً وترك الحصن في يد نفر قليل وكانت قيادة الجند موكلة لعهدة رجل من الروم يُسمَّى الأعرج وهذا لمَّا رأى أن المقوقس قد انسحب من

(١) الواقدي " فتوح الشام " دار الكتب العلمية ج ٢ ص ٤٤

الحصن تبعه برجاله وبقي في عهده عدد قليل من القبط لم يقووا على مقاومة العرب فعمدوا إلى الهرب قاصدين منف . " (١)

لم يعتبر المصريون الفتح العربي الإسلامي غزواً واحتلالاً إنما اعتبروه منقذاً لهم من الظلم الروماني ؛ فقد سمعوا بعدل المسلمين في الأمم التي فتحوها ، وقد كان حالهم مع الفاتحين المسلمين كحالهم مع الإسكندر الأكبر ذو القرنين رسول الله.

يقول د. ميلاد حنا : " في القرن السابع دخل العرب إلى مصر في ظروف خاصة غير متكرِّرة إذ لم يتم الغزو بحد السيف ، بل رحَّب المصريون بالعرب كجزء من الخلاص في " عهد الاضطهاد العظيم " والذي كان قد سنَّه هرقل إمبراطور الرومان لإخضاع المصريين لعقيدة ومذهب مسيحي يختلف عن المذهب الأرثوذكسي الذي تمسَّكوا وناضلوا في سبيل الاحتفاظ به . " (٢)

والذي يؤكِّد ترحيب المصريين بالمسلمين ومساعدتهم في حربهم ضد البيزنطيين هو دخول المصريين في الإسلام أفواجاً وهم الذين قاوموا بل استشهدوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم ضد الرومان وغيرهم .

ويشهد التاريخ أن المصريين لم يشاركوا في أي حرب ضد العرب المسلمين بل إنهم ساعدوهم على فتح مصر ، وقبلوا حكمهم راضين .

يقول يعقوب نخلة : " التفت المقوقس إلى أصحابه الحاضرين معه وكلَّمهم قائلاً: " أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم نجبهم إليها طائعين لنجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين " . فقالوا وأيَّة خصلة نجيبهم إليها قال " أما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم أحد به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة " قالوا سنكون لهم عبيداً " قال " نعم تكونوا عبيداً مسلطين في بلاد آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم فأطيعوني من قبل أن تندموا " ومازال يحاججهم ويناقشهم ويقنعهم حتى أذعنوا للجزية ورضوا بها على صلح يكون بينهم يعرفونه وحينئذ قال المقوقس لعبادة بن

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٤٠ ، ٤١
(٢) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٢٥ .

الصامت " اذهب الآن أنت وأصحابك وأعلم أميرك بأني مجيب له إلى واحدة من الخصال الثلاثة التي أرسل إليَّ بها . فليضرب موعداً لاجتمع أنا به في نفر من أصحابي وهو في نفر من أصحابه ليستقيم الأمر بيننا وإلا عدنا إلى ما كنا عليه . ولما اجتمعا تقرَّر الصلح بينهما بوثيقة أن يعطي الأمان للأقباط ومن أراد البقاء بمصر من الروم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وفي نظير ذلك يدفع كل قبطي دينارين ما عدا الشيخ والولد والمرأة وأُحْصِيَ من دفع الجزية في هذه السنة من القبط فكان عددهم ستة ملايين وقيل ثمانية . " (١)

وعلى ذكر الجزية نترك الحديث عنها لكاتب مسيحي آخر يحدثنا عنها .

هل الجزية عقوبة أم ضريبة دفاع ؟

ونترك الإجابة عن هذا السؤال للدكتور نبيل لوقا بباوي الذي ألَّف كتاباً كاملاً للإجابة عنه جاء فيه : " إن الجزية التي فُرِضَت على غير المسلمين في الدولة الإسلاميَّة بموجب عقود الأمان التي وُقِّعت معهم، إنما هي ضريبة دفاع عنهم في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم من أي اعتداء خارجي، لإعفائهم من الاشتراك في الجيش الإسلامي حتى لا يدخلوا حرباً يدافعون فيها عن دين لا يؤمنون به . ومع ذلك فإذا اختار غير المسلم أن ينضمَّ إلى الجيش الإسلامي برضاه فإنه يعفى من دفع الجزية .

إن الجزية كانت تأتي أيضاً نظير التمتُّع بالخدمات العامَّة التي تقدمها الدولة للمواطنين مسلمين وغير مسلمين، والتي ينفق عليها من أموال الزكاة التي يدفعها المسلمون بصفتها ركناً من أركان الإسلام .

وهذه الجزية لا تمثِّل إلا قدراً ضئيلاً متواضعاً لو قورنت بالضرائب الباهظة التي كانت تفرضها الدولة الرومانيَّة على المسيحيين في مصر والتي كانت قدرها ٢٥ ضعفاً بالنسبة للجزية ، ولا يعفى منها أحد !! في حين أن أكثر من ٧٠% من

---

(٢) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٤٣ ، ٤٤

الأقباط الأرثوذكس كانوا يعفون من دفع هذه الجزية. فقد كان يُعفى من دفعها: القُصَّر والنساء والشيوخ والعَجَزَة وأصحاب الأمراض والرهبان .

ولم تكن الجزية من مستحدثات الإسلام فقد فرضها اليونانيون القدماء على شعوب سواحل آسيا لحمايتها من هجمات الفينيقيين وعرفت باسم "ضريبة الرعوس" في القرن الخامس الميلادي، كما فرضها الفرس والروم على الشعوب الخاضعة لهم." (١)

إذن الديناران اللذان كان يدفعهما القادر من غير المسلمين في العام كله لم يكونا عقوبة بل كانا ضريبة دفاع وانتفاع ، دفاع عن الوطن وانتفاع بخدماته ، لقد أدرك المصريون أن العرب المسلمين ليسوا غزاة طامعين إنما كانوا فاتحين مصلحين لذا تعاونوا معهم في إدارة البلاد وإصلاحها وتطهيرها من الرومان وفلولهم .

يقول يعقوب نخلة : " لما رأى عمرو زوج من الحمام تحته صغاره في خيمته ترك خيمته منصوبة قائلاً : " معاذ الله أن نأبى حماية ذي حياة استجار بنا فاتركوا خيمتي منصوبة حتى نعود إن شاء الله " ولما عاد وجدها كما تركها والطيور بها فبنى في مكانها جامعاً وبنى العرب حوله منازل فأصبحت مدينة وسماها بالفسطاط ومن ثم صارت عاصمة الديار المصريَّة ومركز الإمارة العربيَّة إلى زمن الفاطميين .. كما عيَّن عمرو بن العاص المقوقس حاكماً على الإسكندرية والوجه البحري ، وعيَّن أيضاً أحد رجاله المسمى عبد الله بن سعد بن أبي سعد حاكماً على الوجه القبلي . أما هو فتولَّى إمارة مصر جميعها . ولما شرع عمرو في بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين على عمارتها ولا سيما رجال الحكومة الذين كان معظمهم إن لم نقل كلهم من الأقباط فشيَّدوا بها القصور العالية والدُور الرحبة والكنائس والديارات الواسعة والمنتزَّهات والبساتين والنضرة وكان العرب يشجِّعونهم على ذلك لما فيه من العمران وهكذا أصبحت الفسطاط بهمَّة الأقباط الذين بذلوا النفس والنفيس في تشييدها مدينة زاهية زاهرة تحاكي في البهجة والرونق مدينة منف القديمة التي شيَّدتها أيدي الملوك الفراعنة وفي هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب في ذلك الزمان حتى أباحوا لهم

(1) راجع د. نبيل لوقا بباوي " الجزية على غير المسلمين عقوبة أم ضريبة " دار البباوي للنشر.

بناء الكنائس ومعابد متعددة في وسط الفسطاط التي هي مقرُ جيش الإسلام على حين أن المسلمين كانوا يصلّون ويخطبون في الخلاء أو أنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص . " (١)

هذا هو تاريخ مصر الحقيقي تاريخ الفتح العربي كما كتبه المؤرخون المحقِّقون من المسلمين والمسيحيين على السواء .

لماذا رحَّب المصريون بالفتح العربي الإسلامي ؟

لقد فرح الأقباط بخروج الروم (البيزنطيين) من مصر ، وعبَّر البطريك بنيامين لعمرو بن العاص عن فرح المسيحيين بقوله : " كنت في بلدي وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنّا اضطهاد الكفرة (يقصد الروم) وبأسهم " وقال أيضاً عن نفسه وعن بقية القبط : " لقد فرحوا كما يفرح السِّخال (٢) إذا ما حُلَّت لهم قيودهم وأطلقوا ليرشفوا من ألبان أمهاتهم " (٣)

هكذا كان حال المصريين عند الفتح ورأي البطريرك بنيامين الشخصيَّة الدينيَّة الأولى بالنسبة لمسيحيي مصر ، ولم يكتف عمرو بن العاص بخطب ودِّ المصريين قولاً بل ترجمه لإجراءات عمليَّة على الأرض فاستجاب لكل طلباتهم ، ونفَّذ كل رغباتهم .

يقول المؤرخ الكبير يعقوب نخلة : " ولمَّا ثَبَتَتْ قدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه واكتساب ثقتهم به وتقريب سُرَاة القوم وعقلائهم منه وإجابة طلباتهم وأوّل شيء فعله من هذا القبيل استدعاء بنيامين البطريرك الذي اختفى من أمام هرقل ملك الروم وذلك أنه كان بين رؤساء الأقباط المقرَّبين من عمرو واحد يسمى " شنودة " فتقدَّم إليه وأعلمه بخبر البطريرك وما كان من أمر هروبه واختفائه وطلب منه أن يأمر بعودته فلبَّى طلبه وكتب أماناً وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولا تثريب . ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٥١ ، ٥٢
(2)(السخلة) الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سخل وسخال وسخلان .
(3) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيَّته وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل وردَّ بنيامين إلى مركزه الأصلي معززاً مُكَرَّماً وهكذا عادت له المياه إلى مجاريها وبعد اختفاء مدة طويلة قاسى فيها ما قاساه من الشدائد وكان بنيامين هذا موصوفاً بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) وقيل أن عمراً لما تحقق ذلك منه قرَّبه إليه وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمَّة المتعلِّقة بالبلاد وخيرها ، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منَّة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو .

وأمر عمرو بأن من لا يرغب من الروم البقاء في مصر فليخرج منها بأمان ومن يفضل البقاء تضرب عليه الجزية ويكون له ما للأقباط وعليه ما عليهم . وكان عدد الروم بمصر ينوف عن ثلاثمائة ألف نفس فهاجر أغلبهم ولم يبق منهم إلا من كانت له علاقات ومصالح لا تسمح له بالخروج منها والابتعاد عنها .

وانتهز القبط خروج الروم فرصة مناسبة فوضعوا يدهم على كثير من كنائسهم وأديرتهم وملحقاتهم بدعوى أنها كانت في الأصل ملكاً لهم والروم نزعوها من يدهم قوَّة واقتداراً بسبب ما كان بينهم من الشقاق ومن ذلك الحين عاش الروم بالحسنى وانتهت من بينهم المنازعات والمخاصمات التي كانت تفضي إلى قتل الألوف المؤلفة لزوال أسبابها . " (١)

لقد أعاد عمرو بن العاص الحق لأصحابه فأعاد كنائس المصريين وأديرتهم التي اغتصبها منهم الرومان إليهم وبذلك زالت أسباب الشقاق بين مسيحيي مصر والمستوطنين الرومان الذين آثروا البقاء في مصر على الرحيل عنها ولم يكونوا بالعدد اليسير نعم لقد هاجر معظم الرومان الذين كان عددهم ينوف عن ثلاثمائة ألف نفس ، لكن من بقي من الرومان واستوطن مصر لن يقل ، بأية حال ، عن عدد العرب الذين استوطنوها ، وفي هذا رد قاطع على من زعم أن مسيحيي مصر اليوم هم فحسب أحفاد المصريين القدماء .

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٥٥ ، ٥٦

ويسجِّل د. وليم سليمان قلادة في كتابه " المسيحية والإسلام على أرض مصر " النصوص التاريخية لهذا الحدث حول دخول العرب إلى مصر من خلال وثائق أربع مختلفة كالآتي :

(أ) شهادة عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشي المصري مؤرِّخ الفتح الإسلامي إذ يقول : " كان بالإسكندرية أسقف القبط يقال له أبو بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوناً " .

(ب) شهادة ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين ومؤرِّخ كتاب " بطاركة الكنسية القبطيَّة " فقد كتب بعد نحو أربعة قرون من هذه الواقعة يقول : " إن سانوتيوس (الذي كان من رؤساء الأقباط وتولي شئون الكنيسة مدة اختفاء البطريرك بنيامين) عرف " عمرو " أمر الأب المجاهد بنيامين البطريرك وأنه هارب من الروم خوفاً منهم ، فكتب عمرو بن العاص إلى عمال مصر كتاباً يقول فيه " الموضع الذي فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله ، فليحضر آمنا مطمئناً ويدير حال بيعته وسياسة طائفته ، فلما سمع القديس بنيامين عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشر عاماً .. ففرح الشعب كله بمجيئه " .

وذهب سانوتيوس وأعلم عمرو بوصوله وحينئذ أمر بإحضاره بكرامة وإعزاز ومحبة ، فلما رآه أكرمه وقال لأصحابه : إن في جميع الكور التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلاً يشبه هذا .

وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً جيد الكلام بسكون ووقار ثم التفت إليه عمرو وقال : جميع بِيَعِك ورجالك اضبطهم ودبِّر أحوالهم . وانصرف من عنده مُكرَّماً مُبَجّلاً " .

(ج) جاء في تاريخ الأنبا يوحنا أسقف شبشير والذي كان معاصراً لأحداث الفتح الإسلام " إن عمراً لم يأخذ شيئاً من أموال الكنائس ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب وأسبغ عليها الحماية طوال مدة حكمه " .

(د) جاء في كتاب سيَر القدِّيسين والمسمى " بالسنكسار " والذي يتلى منه عــادة فصل يناسب كل يوم في صلوات الكنيسة وذلك فيما يتعلَّق بـسيرة الأنبــا بنيــامين وظروفه حياته ما يلي : " وقرَّب عمرو بن العاص رؤساء الأقباط وأحسن معاملتهم فاتجه هؤلاء إلى إصلاح شئون الكنيسة التي كان قد اختلَّ نظامها وتفــرَّق شــملها فتقدَّموا إلى ابن العاص وأعلموه خبر اختفاء البابا بنيامين طالبين عودته إلى كرسيِّه فاستدعاه ومنحه الحريَّة وأعاد له الكنائس التي كان قد اغتصبها البطريــك الملكــي البيزنطي وأمره أن يتصرَّف في أمورها كما يريد فاستطابت لذلك قلوب المسيحيين وشكروا حسن صنيع عمرو إليهم " . (١)

يقول د. ميلاد حنا معلِّقاً على الوثائق الأربع التي ذكرها د. وليم سليمان :

" ويبدو أن عمرو بن العاص كان متفهِّماً ومقدِّراً لموقف المصريين الأقباط من ترحيبهم به لسَخَطهم على النظام البيزنطي وأتصوَّر – بمفهوم سياسي – أنه لا بـدَّ من أن يكون قد قطع على نفسه وعوداً بأن يترك الأقباط وشانهم فيما يتعلَّق بالعقيدة الدينيَّة ، فضلاً عن أنه قد خفَّف الضرائب عن الأهالي .

وتتفرَّد مصر في أن لها علاقة مع الإسلام منذ الأيام الأولى إذ يروي المؤرِّخون أن الرسول ﷺ قد بعث برسائل إلى الحكام البارزين في ذلـك العهـد فـي الـسنة السادسة من الهجرة وكان من بينهم مقوقس مصر .

وكلمة " مقوقس يونانية الأصل وتعني "حاكم" وكان العــرب يــسمونه "عظــيم القبط" أما اسمه الأصلي فكان " جرجس بن مينا " وهــو مــصري رغــم جــذوره اليونانيَّة منذ عهد البطالمة .

وفي تلك الحقبة كان الفرس قد داهموا مصر واستولوا عليها بالفعل لمدة عــشر سنوات قتلوا خلالها ٨٠ ألف مصري ، ٧٠٠ راهب ودمَّروا ٦٢٠ ديــراً للرهبــان وللراهبات .

---

(١) د. وليم سليمان قلادة " المسيحية والإسلام على أرض مصر " نقلاً عن د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " مرجع سابق ص ٩٦ ، ٩٧ .

وعندما وطّد هرقل حكمه في بلاد الشام ترك المقوقس يحكم مصر ولكنه كان يميل إلى الأقباط ومن ثم كان لديه استعداد للتفاهم مع أيِّ قوَّة يمكن أن يخلّص بها الأقباط من اضطهاد البيزنطيين كما سبق القول .

ومن المعروف أن المقوقس قد أرسل هدية إلى " الرسول " جاريتين ودابتين وعسل وثياب وأن " الرسول " قد تزوج من " مارية القبطية " وقد ولدت له "إبراهيم" الذي مات قبل أن يبلغ ستة عشر شهراً .

أما " أخت مارية " فقد تزوَّجها " جهم بن قيس العبدري " وهي " أم زكريا بن جهم " والذي كان خليفة " عمرو بن العاص " في حكم مصر .

وهكذا توجد لمصر علاقة خاصَّة ومتميِّزة منذ فجر الإسلام ولكن بسرعة تحول الإسلام إلى قوَّة سياسيَّة وعسكريَّة هائلة ولذلك فإن الحكام العرب – في نشوة انتصاراتهم وفتوحاتهم وفي السنوات الأولى من عهد الخفاء الراشدين – لم يحاولوا أن يفرضوا الدين الجديد مع الغزو ذاته ، إذ كان هدفهم الأساسي هو تثبيت أقدام الحكم في المناطق المفتوحة ثم تجهيز الجيوش لتوسيع الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة " (١)

وحان الوقت لكي نبحث زعم آخر من مزاعم بعض أقباط المهجر وهو أن مسيحيي مصر اليوم هم أحفاد المصريين القدماء ، وأن مسلمي مصر إنما هم أحفاد العرب الغزاة المستوطنين ؛ لذا على المسلمين أن يجلوا عن مصر ويعودوا من حيث أتوا !!

هل المسيحيون مصريون والمسلمون عرب ؟

زعم دعاة القبطيَّة أن المسلمين ، غالبيَّة سكان مصر ، من أصل عربي وليسوا مصريين ، وأن الأقباط (يقصدون المسيحيين) هم ، فحسب ، الذين ينحدرون من سلالة المصريين القدماء ؛ لذا يصرُّون على أن يطلقوا على أنفسهم أقباطاً ، ويسعدهم أن يدعوهم المسلمون أقباطاً ، والعجيب أن كثيراً من المسلمين يطلقون على مسيحي مصر أقباطاً ويقصدون بها الديانة وليس الجنسيَّة ، وبعض المسلمين يعتزُّون بأنهم عرباً – رغم أنهم الحقيقة غير هذا – كاعتزازهم بأنهم مسلمون .

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " مرجع سابق ص ٩٩ .

وبعض الباحثين يرون أن المصريين القدماء من أصل عربي ، ويستدلون على ذلك بتشابه كثير من المفردات العربيَّة للكلمات الهيروغليفيَّة ، والبعض الآخر يرى أن المصريين ساميون كالعرب .

يقول رشيد رضا : " إن العرب من أقدم أمم الأرض حضارة وعمرانًا ورسلاً وشرائع ، حتى إنهم استعمروا أقدم البلاد مَدَنيَّة كمصر وسورية والعراق ، فلهم في حضارة الفراعنة والفينيقيين والكلدانيين العِرْق الراسخ ، والمجد الشامخ ، فإن لم تكن تلك الأمم فروعًا منهم ، فلها وشائج أرحام مشتبكة بهم ، من قبل أن مزجها الإسلام بهم في الدين واللغة والنسب بألوف السنين.. ومن ذلك ما اكتشفه أحمد بك كمال العالم الأثري المصري من امتزاج اللغة المصريَّة القديمة (الهيروغليفيَّة) باللغة العربيَّة الدال على أحد أمرين ، إما أن العرب وقدماء المصريين من عِرْق واحد ، وإما أن العرب قد استعمروا مصر وحكموا فيها قبل دولة الرعاة العربيَّة المعروف خبرها في تاريخ مصر ، فكان للغتهم الأثر الخالد في لغتها . " (١)

[يونس : ٣٦]

في بداية حديثنا عن الجنس المصري لا بدَّ أن نذكر أن مفهوم "الجنْس" من مُستحدَثات القرن التاسع عشر الأوربي، وقد وُضِع اعتسافًا لتبرير سيطرة الغرب الاستعماريَّة، وللفصل بين الفصائل اللغويَّة، بناءً على فكرة الاختلاف "البيولوجي" ولا سيما فكرة التدرُّج بين الأجناس الإنسانيَّة الكبرى .

وقد توصل الكونت دي جوبينو في كتابه: "دراسة عن تفاوُت الأجناس الإنسانيَّة " إلى نتيجة هي: أن الأجناس تَفْسَدُ حين تتهجَّن .

لقد استُخدمت النظرية الكاذبة عن الجنس دائمًا لتبرير أعمال السيطرة والعُنْف، والمثال الذي بلغ الذِّرْوة في ذلك هو النازيَّة، فهتلر يتَّهم في كتابه: "كفاحي" اليهود بأنهم يُريدون أن يدمِّروا بالغباء الناشئ عن التهجين هذا الجنس الأبيض الذي يَمقُتونه ثم يقول: "إن اليهودي يُسمم دم الآخرين، ولكنه يَحتفظ بدمه".

إن العنصريَّة ليس لها أيُّ أساسٍ علمي، ولقد ظهر من الناحيَّة البيولوجيَّة أن النظرية القديمة التي كانت تَستخدم "دليل الجُمجمة" لتمييز مُستطيلي الرأس عن

---

(١) رشيد رضا " مجلة المنار " ج ٢٢ ص ١٣٣

"عِرَاض الجُمجمة" هي نظريَّة يَستحيل التسليم بها، ذلك أن علْم الوراثة الحديث أثبت أن بعض "الجينات" تحكم الخواص المَصلية في الدم، وهو دليل يكشف بُطلان المفهوم البيولوجي عن الجنس.

وجاء أعظم المُتخصِّصين في الموضوع، وهو الأستاذ جان برنارد فهدم "أسطورة الدم" التي تفترض تفاوت الدماء، والقيمة المتفاوتة لدماء الناس المُختلفين، وكتب يقول: "إن هناك علاقةً مُقرَّرة، ومُسلَّمة، بين قيمة الدم من ناحية، وقيمة الإنسان من ناحية أخرى، ذكائه، وقوته، وشجاعته، وفضائله المادية والأخلاقية، وتلك نظرية قديمة جدًّا، ذاعت كثيرًا في القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين، من جالتون ، وهو قريب من داروين، إلى هتْلر، مُرورًا بفاشر دي لبوج وجوبينو، وهي ما زالت تُلهم حديثًا بعض المُتمسكين بها من البيولوجيين الاجتماعيين الجُدد ولم تكف خواصُّ الدم، وصفات الذكاء عن أن تَتشابك على طول هذا التاريخ الخطِر، تَارة يكون التركيز على خواص الدم، وتارة أخرى على صفات الذكاء.

والحق أن هذه الأحكام المؤكدة، الخادعة والمُهلكة في آن واحد ـــ لا تقوم على شيء.

لقد كان الهدف من القوانين الهتْلرية في نورمبرج "حماية الدم الألماني" بمُطاردة الدم اليهودي، وقد اصطدم تطبيقها بنفس المشكلات الزائفة التي هي اليوم مشكلات دولة إسرائيل فيما شرعته من "قانون العودة": مَن يكون اليهودي؟ إذ إنه لم يعُد يُوجد "جنس يهوديٌّ " كما لا يُوجَد "جنس آري". (١)

وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين كانت الحياة في الغرب قد تحوَّلت عن العنصريَّة التي فقدت إلى حدٍّ كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلميَّة. وكما يقول الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف: بعد أن عشنا عصراً أصبحت فيه كلمة «عنصر» أو «عرْق» معادلة للقسوة والبربريَّة، فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح .. (2)

---

(1) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الثاني : من اليهودية إلى القومية الصهيونية .

(2) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٢ ج١ إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية .

وبعد أن تحدَّث لويس عوض عن أسطورة النقاء العرقي ودوافع من نادوا بهــذه الأسطورة يردُّ في لغة واضحة جليَّة على من زعموا نقاء العرق المسيحي ، وقصر القبطيَّة كجنس على المسيحيين فقط ، كذلك من زعم نقاء العرق العربي ، وقــصر العروبة كجنس على المسلمين فقط .

يقول لويس عوض : " إن أقباط مصر لا ينطبق عليهم أي ركــن مــن أركــان تعريف الأقليَّات الذي نصَّت عليه لجنة حقوق الإنسان .

أولاً : لأن الأقباط ليسوا جماعة لها أصــل عرقــي يختلــف بــصفة واضــحة ولا بصفة غامضة عن بقيَّة الشعب المصري الذي تعــيش فيــه . فــالمعروف أن المصريين ، مسلموهم كأقباطهم تنحدر أعراقهم الأساسيَّة عن القدماء المــصريين ، فإن كانت في هؤلاء أو أولئك دماء وافدة فقد ذابت في البحر المصري الكبير .

ومن خرافاتنا المتوارثة أننا نتحدث عن " عنصري " الأمَّة المــصريَّة ، فالأمَّــة المصريَّة ليس فيها إلا عنصر واحد يتجلَّى في الأغلبيَّة الساحقة من أبنائها أيًّا كــان دينها . وإن خرافة العنصرين نزلت إلينا من زعم الأقباط أنهم وحدهم مــن ســلالة قدماء المصريين وإنهم أصحاب مصر الأصليين ، ومن زعم المسلمين أنهــم مــن سلالة العرب الشريفة ، وفي حين أن الأنثروبولوجيا الجنسيَّة لا تميِّز بــين هــؤلاء وأولئك لا في مقاييس الجماجم والأنوف والعظام ولا في نسبة تجلط الــدم ولا فــي خواص الشعر الخ .. بينما هي تميِّز في كلٍّ هذه الخصائص السلاليَّة بين المصريين عامَّة وبين جيرانهم من شعوب غربي آسيا في الشام والعراق والجزيرة العربيَّــة . .. الكثرة المطلقة من المسلمين أقباط اعتنقوا الإسلام قرناً بعد قــرن منــذ الفــتح : وحكاية عمر بن عبد العزيز معروفة ، وهي أنه عندما كثــر دخــول المــصريين الإسلام في أيامه نقصت حصيلة الجزية فاستأذن عامل مصر في أن يمــنعهم مــن ذلك تأسيساً على أن الإسلام دين عربي أرسل للعرب ، فنهره عمر بن عبد العزيــز وكتب إليه يقول : " إن الله أرسل محمداً هادياً لا جابياً " .

وثانياً : لأن الأقباط ليسوا جماعة لها تقاليد لغويَّة وصفات تختلف بصفة واضحة أو غامضة عن بقية الشعب الذي نعيش فيه ، فهي تتكلم عربيَّة مصر العاميَّة وهــي تكتب وتقرأ العربيَّة الفصحى والتراث العربي ، وهي قد تخلَّت عن اللغــة القبطيَّــة

حين تخلّى المسلمون عنها لا لشيء إلا لأن المصريين من عجينة واحدة ، ولست أعرف أن للأقباط " صفات " خاصة يختلفون بها عن المسلمين .

وثالثاً : لم يبق إلا المعتقدات والتقاليد الدينيَّة ، فهذه وحدها يختلف فيها أقباط مصر عن مسلميها ، وحتى في هذه الحدود فمعروف للخاص والعام أن الكنيسة المصريَّة كنيسة قوميَّة لا تعرف لها أباً روحيّاً إلا بابا الإسكندرية ، وأنها نشأت قبل أن تنشأ كنائس العالم أجمع بما في ذلك الفاتيكان أو كنيسة القديس بطرس وأنها في عقائدها متّهمة من سائر كنائس العالم بالإسراف في التوحيد أو ما يسمونه "المونوفيزية" أو الإيمان بالطبيعة الواحدة ، ومتّهمة بالإسراف في تقديس مريم إلى حد وصفها " بالماريولوجيَّة " بل معروف للخاص والعام أنه في كثير من الشعائر الدينيَّة ولاسيما طقوس الموت والميلاد والإخصاب والسحر والشفاعة ، وبعض الأعياد لا فرق هناك بين قبطي ومسلم في التقاليد والعادات ، لأن أكثرها نزل إلى المصريين مع موروثات مصر القديمة . فالأقباط إذن ليسوا أقليَّة بتعريف لجنة حقوق الإنسان كالأكراد في العراق ، والأرمن في الدولة العثمانيَّة والدروز في لبنان .. الخ لأن وحدة العرق ووحدة اللغة فضلاً عن انسجام التقاليد والثقافة تجعل من الأمَّة المصريَّة سبيكة واحدة رغم أن أبناء كل ملَّة فيها لا يتزاوجون مع الآخرين إلا غراراً ، بحيث لا تميِّز بين المسلم والقبطي إلا بمعونة دلالات عرضية، ولا حواجز بينهما إلا عند المتعصبين في الدينيين . " (١)

ويقول د. نجيب ميخائيل إبراهيم (من أبرز علماء المصريات) : " القبط لا تعني ديناً وإنما القبط هم المصريون اعتنقوا المسيحيَّة جميعهم دهراً فأصبحت الكلمة ترادف مسيحيي مصر أو المصريين قاطبة ثم جاء الإسلام فاعتنقه غالبيَّة القبط على مر العصور وظلّوا قبطاً مسلمين أي مصريين مسلمين كما ظلّ إخوانهم في الوطن قبطاً مسيحيين .. أولئك من وراء محمد ، هؤلاء من وراء المسيح ، والدين من قبل ومن بعد للديان جلّ جلاله والوطن لأصحابه القبط المصريين . " (٢)

إن أسطورة نقاء العنصر القبطي المسيحي كانت من بين الأسافين التي حاول المحتلِّين الأجانب دقّها بين المصريين لتمزيق جسد الأمَّة الواحدة .

---

(١) لويس عوض " دراسات في الحضارة " دار المستقبل العربي ص ٢١، ٢٢
(٢) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر والشرق الأدنى القديم " مؤسسة المطبوعات الحديثة ط٣ ص ٢

جاء في كتاب وصف مصر : " لعلَّ أكثر الطوائف إثارة للاهتمام من بين كلٍّ السكان هي طائفة الأقباط بلا جدال ؛ ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم أحفاداً للمصريين القدماء ، كما يرون في لغتهم وفي المسارات التي سلكتها الأحداث التاريخيَّة ما يرجِّح كفة هذا الادعاء ، ومما لا جدال فيه أن لهم ملمحاً فيزيقياً شديد القرب من ملمح الإفريقيين لحد يكفي لكي يحملنا على أن ننسب لهم أصلاً يعود إلى الدولة القديمة ، ولعلَّ بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم قد استطاع أن يظل نقيّاً بعيداً عن أي اختلاط بالإغريق إذ ليس ثمة بينهما أي ملمح من تشابه . وعندما استولى الإسكندر على مصر واستقرَّ فيها الإغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلابد أن كان ثمة جنسان متميزان ، ومنذ ذلك الوقت أصبح المصريون ، الذين عُرفوا باسم الأقباط يشكلون طائفة منعزلة تماماً حتى اليوم عن بقية الأجناس التي تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر ... ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم فقد كانت أعدادهم هناك على الدوام كبيرة وما يزال الأمر كذلك حتى اليوم ، لكنهم بعد كثير من التقلبات السياسيَّة والأزمات السياسيَّة لقوا مصير سكان مصر الآخرين . " (١)

وهذا الذي ذكره الفرنسيون الصليبيون الغزاة للأسف ما زال بعض الناس يؤمنون به والعجيب أن هذا البعض من المسلمين والمسيحيين على السواء ، والأعجب من ذلك أن بعض وعاظ الدين الإسلامي أكثر إيماناً وتمسُّكاً بل وجهراً بأن نصارى مصر الحاليين هم أحفاد أقباط مصر القدماء الذين فتح العرب المسلمون بلادهم ؛ لذا يُصرُّون على أن يطلقوا عليهم لفظ " الأقباط " أو " نصارى مصر " كما يعتقد هؤلاء الوعاظ أن مسلمي مصر الحاليين هم أحفاد الفاتحين العرب !!

وفي مقابل هؤلاء الوعاظ المسلمين نجد بعض القساوسة والرهبان في مواعظهم وأحاديثهم الخاصَّة يؤكِّدون ما ذكره علماء الحملة الفرنسية عن أجدادهم ، أما أقباط المهجر فالأمر عندهم يتجاوز كل حد .

(١) موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب ج ١ " المصريون المحدثون " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٤ ، ٢٥ .

والحقيقة أن الشعب المصري عظيم العنصر قد اختلطت به دماء كثيرة : يونان، ورمان ، عرب ، مماليك ، أتراك ، يونان ، إنجليز ... انتفع بأجمل سماتهم مع احتفاظه بخصائصه الأصيلة .

وإذا تحدثنا بلغة الأرقام نجد أن المؤرخين المسيحيين والمسلمين الأوائل ممن أرَّخوا لفتح مصر في شبه إجماع على أن عدد المصريين عند الفتح لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً .

يقول الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني : " من فرضت عليهم الجزية دينارين بحسب معاهدتي بابليون والإسكندرية بلغوا ستة ملايين وذلك لأن مقدار الجزية وحدها (بخلاف الضرائب الأخرى على الأرض وخلافه كانت تسمى الخراج) التي جمعت منهم بلغت اثني عشر ألف ألف دينار (اثني عشر مليوناً) ومعلوم أن الجزية كانت تقرر على الذكور ممن تبلغ أعمارهم من ١٥ إلى ٦٠ ويعفى منها النساء والشيوخ والصبيان والمعوقين وغير القادرين والرهبان ، واضح أن من تنطبق عليهم شروط دفع الجزية كانوا حوالي ربع سكان مصر من القبط في ذلك الوقت ، نعتقد أن عددهم كان لا يمكن أن يقلَّ عن خمسة وعشرين مليوناً هذا وإن كان المؤرخ الإنجليزي ستانلي لين بول يقول إن ابن عبد الحكم يقدِّر دافعي الجزية (ضريبة الرأس من ستة إلى ثمانية ملايين نسمة فإذا كان الأمر كذلك فالعدد يرتفع إلى ثلاثين مليون قبطي " [١]

وهذا الرقم – في ظني – مبالغ فيه جداً جداً فعدد سكان مصر عام ٦٤٠ م لن يزيد بحال عن خمسة ملايين فمصر ، ومصر بلد جاذبة للسكان من المهاجرين من العرب والمماليك والأتراك وغيرهم ، وبرغم ذلك كان عدد سكانها في مطلع القرن العشرين نحو عشرة ملايين كما سيأتي تفصيله .

ولكن دعنا نسلِّم بأن عدد المصريين كما يقول المؤرخون المسيحيون والمسلمين خمسة وعشرون مليوناً عند الفتح ، منهم نحو عشرين ألف روماني مسيحي ممن استوطنوا مصر ، واثنا عشر ألف عربي مسلم هم إجمالي جيش عمرو بن العاص،

(١) الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني " وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها " مرجع سابق ص ٦٧

فهل يعقل أن جيش عمرو بن العاص الذي استشهد معظمه في فتوح مصر وفتح شمال إفريقيا قد أصبح نحو ثمانين مليوناً ، والخمسة والعشرون مليون مسيحي مصري وروماني قد صاروا نحو ستة ملايين مسيحي مصري الآن .

والحقيقة التاريخية التي لا تتناطح فيها عنزتان أن معظم المصريين المسيحيين وغير المسيحيين قد دخلوا في الدين الإسلامي أفواجاً ، وأن أي إنسان لا يستطيع التكهُّن بأن هذا المسيحي أو ذاك من أصل روماني أو مصري كما لا يستطيع أن يتكهَّن بأن هذا المسلم أو ذاك من أصل عربي أو مصري ، فدعنا من هذه التُّرهات التي يثيرها المتطرِّفون من هذا الطرف أو ذلك ولنبحث عما يجمع المصريين حول مصالحهم العليا وأهدافهم الكبرى بدلاً من إضاعة الوقت والجهد فيما لا طائل منه إلا الفرقة والضعف والانقسام والصراع .

ودونك الآن بعض الإحصاءات الحاسمة في هذا الموضوع .

أُجْرِيَ أول تعداد للسكان في عام ١٨٠٠م إبان عصر محمد علي باشا حيث بلغ عدد السكان ٢,٥ مليون نسمة، وفى ١٨٥٠ بلغ عدد السكان في تعداد إحصائي ٤,٥ مليون نسمة، وفى تعداد ١٨٨٢ بلغ عدد السكان ٦,٣ مليون نسمة .

فأين ذهب الخمسة والعشرون مليون مصري الذين كانوا عند الفتح على فرض أن عددهم لم يزد ؟!

الحقيقة إن دعوى أن مسيحيي مصر هم المصريون الخُلَّص فوق أنها دعوى عنصريَّة فهي دعوى خرافيَّة لا تقوم على ساقين .

نسبة المسيحيين في الإحصاءات الرسميَّة في آخر مائة عام

ودونك عزيزي القارئ جدول الإحصاءات التاريخيَّة الرسميَّة للتعداد نقلاً عن كتاب " مشاكل الأقباط في مصر وحلولها " الذي أصدره الكاتب المسيحي د.نبيل لوقا بباوي ، ٢٠٠١م .

مسلسل	السنة	مجموع سكان مصر	المسلمون	المسيحيون (كل الطوائف)	النسبة المئوية للمسيحيين	ملاحظات
1	1897	9,734,405	9,992,203	609,511	6.26 %	نسبة أصحاب الديانات الأخرى ١,٣٦%
2	1907	11,189,978	10,269,445	706,322	6.3 %	نسبة المسيحيين الأجانب ١,٥ %
3	1917	12,718,205	11,623,753	1,026,107 (مصريون وأجانب)	6.6 % (مصريون فقط) 8.1 % (مصريون وأجانب)	لم تُحدد نسبة المسيحيين المصرين لكن حددت نسبة المسيحيين كلية مصريون وأجانب وكانت ١،٠٢٦،١٠٧

ملاحظات	النسبة المئوية للمسيحيين	المسيحيون (كل الطوائف)	المسلمون	مجموع سكان مصر	السنة	مسلسل
= ٨,١ % بطرح نسبة المسيحيين الأجانب كما كانت نسبتهم في إحصاء 1907 وكانت ١,٥% تكون نسبة المسيحيين المصريين ٦,٦ % - عدد اليهود ٥٩،٥٣١ بنسبة ٠,٤٦% - ملل أخرى ٨،٨١٤ بنسبة ٠,٠٧ %						
يهود	6.67	946,393	12,929,260	14,177,864	1927	4

ملاحظات	النسبة المئوية للمسيحيين	المسيحيون (كل الطوائف)	المسلمون	مجموع سكان مصر	السنة	مسلسل
٦٣،٥٥٠ بنسبة ٠,٤٥% - ملل أخرى ٣،١٤٤ بنسبة ٠,٠٢٢%	% (مصريون فقط) 8.4 % (مصريون وأجانب)	(مصريون فقط) 1,181,910 (مصريون وأجانب)				
نسبة المسيحيين المصريين والأجانب ٨,٢% وبالمقارنة ب تعداد 1927 تكون نسبة المسيحيين المصريين ٦,٨%	6.8 % (مصريون فقط) 8.2 % (مصريين وأجانب)	1,303,970 (مصريون وأجانب)	14,616,724	15,920,694	1937	5
	7.6 % (مصريون	1,435,097	17,397,946	18,901,128	1947	6

مسلسل	السنة	مجموع سكان مصر	المسلمون	المسيحيون (كل الطوائف)	النسبة المئوية للمسيحيين	ملاحظات
					فقط) 7.95 % (مصريون وأجانب)	
7	1966	29,846,809	27,829,273	2,017,536 (مصريون وأجانب)	6.4 % (مصريون فقط) 6.76 % (مصريون وأجانب)	وهو أول تعدد تقوم به حكومة مصرية مستقلة، فكل التعدادات السابقة كانت تحت إشراف الاحتلال
8	1976	36,626,204	34,340,574	2,285,630 (مصريون وأجانب)	5.9 % (مصريون فقط) 6.24 % (مصريون وأجانب)	
9	1986	48,254,238	45,386,099	2,868,139	5.6	يهود

مسلسل	السنة	مجموع سكان مصر	المسلمون	المسيحيون (كل الطوائف)	النسبة المئوية للمسيحيين	ملاحظات
				(مصريون وأجانب)	% (مصريون فقط) % 5.94 (مصريون وأجانب)	١،٢٨٦ - آخرون ٦،٥٢٧
10	1996	61,452,382				منذ هذا التعداد توقف نشر أعداد الطوائف والملل في مصر

وهكذا كما ترى عزيزي القارئ فإن نسبة المسيحيين المصريين كما ذكرت الإحصاءات المصريَّة الرسميَّة حوالي ٦ % وهي في تناقص مستمر بسبب الهجرة، والتحوُّل إلى الإسلام ، ونحن إذ نذكر هذه الإحصاءات لا نقصد تقسيم المصريين إلى أكثريَّة وأقليَّة ؛ فالمصريون جميعاً نسيج واحد وأمَّة واحدة ، وهذا ليس كلاماً مرسلاً أو شعاراً دعائيّاً إنما حقيقة علميَّة أثبتتها الأبحاث العلميَّة ، وهذا ما يؤكده د. وسيم السيسي الطبيب والمفكر المسيحي : " إننا شعب واحد.. من الناحية الجغرافيَّة، ونشرب من إناء واحد إلا وهو نهر النيل، ومائدة واحدة نتناول منها طعامنا وهي الوادي، ونحن كذلك شعب واحد من الناحية السياسية، ويتجلي ذلك في حكومة لم ينفرط عقدها منذ ٦ آلاف سنة، وكذلك نحن شعب واحد من الناحية البيولوجية وأول من أشار إلي ذلك هو فلندر اسبتري حين قال إن المشكلة في مصر

ليس في غزوها.. وإنما المشكلة هي في الوصول إليها.. لماذا ؟! لأنك نادراً ما تجد شعباً متماثلاً في شكله الظاهري، بل في طباعه وأخلاقه ومزاياه، مثل الشعب المصري. وقد ظل هذا القول قائما ومشهورا حتى جاءت السيدة مارجريت كندل وهي عالمة جينيات والتي أجرت دراسة عن ثلاثة شعوب، الألمان باعتبار أن هتلر كان يعلن دائما بأنهم من أنقي الشعوب لأنهم ينتمون الي الجنس الآري، فوجدت أن الجينات مختلفة وأن شعبها متباين تماما ثم البحث الثاني عن اليهود.. وقد فوجئت بأن يهود الاتحاد السوفيتي يحملون نفس فصائل الدم، وجينيات شعب الاتحاد السوفيتي، ويهود انجلترا مثل بقية الشعب الإنجليزي، ويهود أمريكا مثل الأمريكان. إذن مسألة نقاء العرق اليهودي غير صحيحة، وهذا ما كان قد قاله العقاد منذ فترة طويلة، عندما ذكر أن العرق اليهودي النقي الوحيد متمثل في٣٠٠ شخص ينتمون إلي قبيلة السامرية، وهم من الذين لم يختلطوا بالشعوب الأخرى.

لقد أعلنت أن الصدمة التي تلقتها من خلال بحثها الثالث ترتبط بالشعب المصري. إذ أخذت عينات متعددة من أسوان إلي الإسكندرية ومن الصحراء الغربية إلي الشرقية ومن المدن الكبرى والقرى والكفور والنجوع وعيادات الأطباء ومن المسلمين ومن المسيحيين. فكانت الصدمة الحضارية أن المسلمين والمسيحيين، جيناتهم واحدة في ٧٩٪ من العينات التي أخذتها.

يؤكد ما ذكره «إستامب» من عشرات السنين حين قال إنه بالرغم من الغزوات الكثيرة التي مرت علي مصر عبر العصور، إلا انه كان تغيراً في الحكام ولم يكن تغيراً في جنسية مصر لأن البحر المصري الكبير كان يذيب أية جينات وافدة عليه.. إذن ما ذكره استامب وفلندر اسبتري ومارجريت كندل بالنسبة للشعب المصري ومن دور هذا التأكيد العلمي السابع الإشارة إليه.. وهو أننا شعب واحد وتاريخيّاً وجغرافيّاً وسياسيّاً وبيولوجيّاً. وهذه هي عظمة مصر وسر قوتها. (١)

نأتي إلى قضيَّة مهمَّة أيضاً نرُد فيها على هؤلاء المصريين الذين يزعمون أن كل مسلم مصري من أصل عربي !! كأن الإسلام خصوصيَّة عربيَّة ، وليس هناك فرق بين العرب المُستَعْرِبَة والعرب المُستَعْجَمَة .

(١) من حوار أجراه صلاح صيام مع د. وسيم السيسي نشر علي بوابة الوفد الاليكترونية بتاريخ ٢٠١٣/٧/١١

الإسلام والعروبة

الإسلام ، كدين ، ومن حيث أصوله الاعتقاديَّة ، ليس " خصوصيَّة عربيَّة " حتى يكون قسمة من قسمات العرب القوميَّة ، وإنما هو من هذا الجانب ، وفي هذه الأصول – علاوة على كونه وضعاً إلهيّاً وليس إفرازاً بشريّاً – ذو قسمة عالميَّة وإنسانيَّة ، وذو طابع عام يتعدَّى الأمم والشعوب والقوميات والحضارات .. إنه في مجاله كالقوانين العامَّة التي – لعلميتها – تتعدَّى بصلاحياتها وتوجهها كلَّ ما على الأرض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود .

والإسلام الدين رغم عالميَّته التي تتعدَّى وتتخطَّى حدود القوميَّات والحضارات والأجناس . نجده يطلب من أتباعه إن هم أرادوا فقه معجزته ووعي آيته الكبرى أن يتعرَّبوا ؟! وتلك ولا شك خصوصيَّة عربيَّة للإسلام لا ريب فيها ولا إبهام رغم " عالميَّة الدين " ! (١)

وفي مصر قدَّم الإسلام الحضارة مفهوماً للعروبة يتجاوز عصبيَّة الجاهليَّة ويرفضها . ويتجاوز النعرات العرقيَّة وينهي عنها ويضع محلَّ كل ذلك مفهوماً حضاريّاً ، يعتمد الفكر واللغة والعلائق القوميَّة بين أبناء هذه الجماعة البشريَّة معياراً لمن هو العربي .

فيخطب الرسول في الناس قائلاً : " يا أيها الناس إن الربَّ واحد ، والأب واحد، وليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أمٍّ ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلَّم بالعربيَّة فهو عربي. "

وروي في مناسبة هذا الحديث أن قيساً بن مطاطية جاء إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ قائماً يجر ردائه حتى دخل المسجد ثم نودي: أن الصلاة جامعة ، وقال : (ذكر هذا الحديث) ، فقام معاذ بن جبل وهو آخذ بتلبيبه ، قال : فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : دعه إلى النار ، فكان قيس ممن ارتدَّ في الردة ، فقتل .(رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق)

---

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص١٠، ١١ .

وهذا الحديث – ضعيف السند صحيح المعنى – يسحب بساط العنصريَّة المقيتة من العرب المُسْتَعْرِبة وينفي استئثارهم باللسان العربي دون العرب المُسْتَعْجَمَة ، وينزع نبرة الاستعلاء ونزعة العنصريَّة التي كانت لدى بعض العرب – كالأمويين ومن جاراهم – في التفاخر بأنهم أفضل البشر لأنهم هم العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول آخر الزمان من بينهم .

{ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (سورة الحجرات : ١٧)

عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلتك العرب فقال رسول الله ﷺ إن فقههم قليل وان الشيطان ينطق على ألسنتهم ونزلت {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} (رواه النسائي)

ولقد أسلمت هذه النزعة العنصريَّة المقيتة اليهود إلى الادعاء أنهم شعب الله المختار وتحلَّلوا من العهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب " الأميين " .

{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } (: ٧٥)

فمن اليهود من امتنع عن الوفاء بالعهود ، وجحدوا الأمانات والحقوق ؛ بسبب زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إثم أو تبعة في استحلال أموال العرب الأميين واستلابها منهم بأية طريقة ، لأن الأميين ليسوا على ملتهم .

واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم ، كما يحل لهم أخذ ما له بأي وسيلة . وهذا الخلق الذميم معرق في اليهود ، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما تهوى نفوسهم . (١)

وبعض العرب في العصر الأموي فاخروا بعروبتهم وسيادتهم على غيرهم من المسلمين من غير العرب وقسَّموا المجتمع إلى طبقات ثلاث وجعلوا أنفسهم على

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٦٤٧ .

رأس هذه الطبقات وجعلوا العرب المستعجمين موالياً لهم ثم جعلوا العبيد – وإن كانوا مسلمين – في الطبقة الدنيا .

وهذا التقسيم لم يقل به القرآن الكريم ولم يعلِّمه رسوله الأمين إنما القرآن الكريم يقرر .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣]

يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأُم واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضًا، إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له. إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة قال : " يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِيَّةَ الجاهلية – أي تكبرها ، وتعظمها بآبائها ، الناس رجلان ، رجل برتقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله . إن الله – تعالى – يقول : { يا أيها الناس إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى . . } ثم قال : " أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " .

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينيَّة إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينيَّة، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا، منبها على تساويهم في البشرية: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } أي: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته. " (١)

عن أبي هريرةَ أنه قَالَ : قِيلَ: يَا رسولَ الله ، مَنْ أكرمُ النَّاس ؟ قَالَ : أَتْقَاهُمْ . فقالوا : لَيْسَ عن هَذَا نسألُكَ ، قَالَ : فَيُوسُفُ نَبِيُّ الله ابنُ نَبِيِّ الله ابن نَبِيِّ الله ابن خليل الله قالوا : لَيْسَ عن هَذَا نسألُكَ ، قَالَ : فَعَنْ مَعَادنِ العَرَبِ تَسْألُوني ؟ خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإسْلامِ إذَا فقُهُوا " [مُتَّفَقٌ عَلَيه]

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨٥

و" فَقُهُوا " أيْ عَلِمُوا أَحْكَامَ الشَّرْعِ وعَمِلُوا بِهَا . وكذلك خياركم قبل الإسلام من كل الشعوب خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

فعن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: " انْظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلاَ أَسْوَدَ إِلاَّ أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى . " (رواه أحمد وحسنه الألباني)

رغم أن أبا ذر عربي ، والسود والحمر – غالباً – ليسوا عرباً .

" « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَخْرَ بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ فَخْرِهِمْ بِآبَائِهِمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلاَنِ الَّتِى تَدْفَعُ النَّتْنَ بِأَنْفِهَا " (صحيح رواه النسائي وأبو داود)

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوهُ لَيْسَ لأَحَدٍ فَضْلٌ على أَحَدٍ إِلاَّ بِالدِّينِ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلاً جَبَانًا." (السلسلة الصحيحة للألباني)

إن اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، تنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : { إن الله عليم خبير } .

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : إلوهية

الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبيَّة الجاهليَّة في كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنسانيَّ العالميَّ في ظل راية واحدة : راية الله .

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية : « دعوها فإنها مُنْتِنَة » .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلاميُّ . المجتمع الإنسانيُّ العالميُّ، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة . . راية الله . (١)

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر وقد ضرب ابنه مصريّاً وافتخر بآبائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم ؟

وابن الأكرمين – العرب – ليس كل من لبس الجلباب والغترة وسكن جزيرة العرب فليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربيَّة فهو عربيٌّ لا يتميز عليه غيره إلا بالتقوى وحسن العمل والخُلُق وتعمير الأرض .

فالعربيَّة ليست عرقاً ونسباً إنما هي لغة ولسان فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربيٌّ وإن لم يكن أصله عربي وإسماعيل أبو العرب كان أبواه أعجميين ولم يكونا عربيين .

ويُقسم ابن خلدون العرب إلى أربع طبقات متعاقبة في المدى الزمني: العرب العاربة وهم البائدة، ثم العرب المُستَعْرِبة وهم القحطانية، ثم العرب التابعة لهم من

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " دار الشروق ج ٧ ص ٣ .

عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة، ثم العرب المُستَعْجَمَة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلاميَّة. (١)

ويقول الجاحظ " إن العرب قد جعلت من إسماعيل وهو ابن أعجمين – إبراهيم وهاجر – عربيّاً لأن الله فتق لهاته بالعربيَّة المبينة ، ثم فطره على الفصاحة (٢) وعلى ذلك فسكان العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا وكل من يتكلم العربيَّة هم عرب يجمعون بين فضائل أصولهم العرقيَّة وحضاراتهم الإنسانيَّة وفضائل الإسلام التي لا يجنيها إلا من تعرَّب لسانه ليفهم الدين في نصوصه الأصليَّة وليس من المترجمات ولقد أفسدت المترجمات الديانات السابقة وكانت سبباً من السباب تحريفها والخروج بها عن هديها فالترجمة خيانة كما يقول المترجمون أنفسهم لذا حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التحريف كما حفظ العرب المؤمنون اللغة العربيَّة وآدابها من الفساد عن طريق تأليف معاجم اللغة ، وعلم النحو والصرف والبلاغة وعلوم اللغة) وحفظوا الحديث الشريف ونقوه مما علق به من موضوع وضعيف عن طريق علوم الجرح والتعديل والرجال ولقد ساهم بالجهد الأكبر – ويا للعجيب – في حفظ اللغة العربيَّة وآدابها ونشأة علومها وحفظ الحديث الشريف ونشأة علومه مسلمو العرب المُستَعْجَمَة وليس العرب المُستَعْرِبَة وهذا يدل على أن الحفاظ على اللغة العربيَّة صيانة للإسلام وليس عصبيَّة جاهليَّة كالتي وقع فيها بعض من تفاخر بعروبته أو بقرشيته .

يقول ابن خلدون : " إن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضريَّة وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ .
(٢) نقلاً عن د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص٢٣ .

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. (١)

ومن تعلَّم العربيَّة من غير العرب تعلَّم العربيَّة الإسلاميَّة التي تحمل الثقافة الإسلاميَّة وتمجد قيمه وتنفِّر من عادات الجاهليَّة المذمومة فاللغة العربيَّة التي تعلمتها الشعوب المُسْتَعْجَمَة لغة الإسلام ذات القيم الدينيَّة والرشاد وليست لغة الجاهليَّة التي ترسخ قيم الجاهلية الأولى ، تعلَّموا لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف ولغة الخلفاء الراشدين وفقهاء الإسلام وعلمائهم ؛ لذا لا عجب أن يقول سيدنا محمد ﷺ على سلمان الفارسي " سلمان منَّا أهل البيت " (٢) ومن المعلوم أن سلمان فارسيٌّ غير عربي وفي هذا بيان أن رابطة الدين بما تشتمل عليه من قيم إلهيَّة عالميَّة خالدة أهم من الرابطة العرقيَّة المحليَّة العنصريَّة الضيقة .

وكان من الطبيعي أن نجد فهم العرب المُسْتَعْجَمَة – أصحاب الحضارات العريقة – الإسلام فهماً يختلف عن فهم البدوي ، فإسلام العرب المُسْتَعْجَمَة إسلاماً حضاريّاً سمحاً وسطيّاً راقياً بعكس الإسلام البدويِّ المتشدِّد المتطرِّف الشكليِّ العنصريِّ .

وكما أن روافد النهر تعمِّق مجراه وتزيد غزارة مياهه وقوة جريانه لكنها لا تغير مساره ولا تحرفه عنه مصبه فكذلك اختلاط غير المصريين بالمصريين (بالزواج والمعاشرة والاختلاط) قوَّى العنصر المصري وغزَّاه ولم يغيِّر طبيعته وذلك مثل عروبة مصر ثقافيّاً ، أما إسلام مصر فقد ردَّها إلى مجراها الطبيعي الذي فطرت عليه واقتلع الحشائش الضارة التي كانت تعيق الحركة المياه وبعض الجراثيم والميكروبات التي كانت تشوب صفائه وتغير من طعمه ولونه ورائحته لذا أصبحت الشعوب المُسْتَعْجَمَة أنقى عنصراً باختلاطها بالجنس العرب فمن المعروف أن التزاوج من غير الأقارب يقوى النسل بعكس زواج الأقارب .

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٥٤٤ .
(٢) هذا الحديث في رفعه إلى النبي ضعف ، والصحيح وقفه على علي بن أبي طالب .

وهذا يؤكده ما جاء في الأثر " لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً"(١) " ضاوياً " أي هزيلاً ضعيفاً والذي يقوي هذا الأثر ما ذكره العلم الحديث من أن زواج الغرباء يقوي النسل بعكس زواج الأقارب .

فالاغتراب في الزواج فيه مصلحةٌ؛ حيث إنه يقوِّي النسل ويوسِّع الروابط الأسريَّة والصِّلات بين الناس، والاغتراب يقوِّي النَّسل، وهو ما أكَّده علماء الهندسة الوراثية.

وبعد تجلية أسطورة " المسيحيون مصريون أما المسلمون فعرب " نعود إلى حديثنا عن الفتح العربي لمصر كما جاء في كتب المؤرخين المسيحيين الموثوق برواياتهم من قبل الإخوة المسيحيين .

كيف حكم عمرو بن العاص مصر ؟

عرفنا كيف ساعد المصريون المسلمين في حربهم ضد الاحتلال الروماني ، وكيف أحسن عمرو بن العاص إليهم ، ولبَّى طلباتهم ، وأجاب رغباتهم ، والآن نذكر كيف حكم عمرو بن العاص مصر .

يقول يعقوب نخلة : " أخذ عمرو في تنظيم البلاد وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معاً فقسَّم البلاد إلى أقسام يرأس كل منها حاكم قبطي له اختصاصات وحدود معينة ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم ورتَّب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة وعيَّن نواباً مخصوصين من القبط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصَّة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية فكانوا بذلك في نوع ما من الحرية والاستقلال المدني وهي ميزة كانوا قد جُرِّدوا منها في أيام الدولة الرومانية ولذا لم يجعلوا الحكومة في راحة بال .

---

(١) هذا الأثر لا يصح مرفوعاً إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا النوابغ كما قال ابن الصلاح .

وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة وولّى عليه مُتولياً من ذويه يقبضه أقساطاً في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد .

ورتّب الدواوين فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابيَّة والحسابيَّة وكانت كلها تجري باللغة القبطيَّة وبلغ ما جباه عمرو من الخراج في السنة اثني عشر مليوناً من الدنانير مع أن الذي كان يجبيه المقوقس في أيام الروم لم يكن أقل من ثمانية عشر مليوناً .

وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان "(١)

أرأيتم كيف حكم المسلمون مصر عند الفتح لقد عرفوا قدر مصر وعظمة أهلها فلم يتركوهم يقيمون شعائرهم الدينيَّة التي اضطهدهم الرومان بسببها بل منحوا فضلاءهم حرية إدارة شئون المحليَّات الدينيَّة التي حرَّمها الرومان عليهم ، وإدارة شئون المحليَّات المَدَنيَّة التي حَرَمَهم الرومان عنها .

مصر بعد عمرو بن العاص

كانت فترة حكم عمرو بن العاص نموذجاً للعدل والمساواة وتعاون بين العرب المسلمين والمصريين كما رأينا ، ولكن الوضع اختلف بعد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر .

يقول يعقوب نخلة : " لما مات الخليفة عمر بن الخطاب وتولّى عثمان الخلافة بعده عزل عمرو بن العاص عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه في الرضاعة وهو الذي كان حاكماً على الوجه القبلي في إمارة عمرو بن العاص كما مر .

ولمَّا تولّى الإمارة جبا في أول سنة أربعة عشر مليوناً من الدنانير أي بزيادة مليونين عما كان يجبوه عمرو بن العاص فَسُرَّ الخليفة بهذه الزيادة وقال لعمرو يوماً مفتخراً بذلك : " يا أبا عبد الله درَّت اللقحة (٢) بأكثر من درها الأول " أي قد زاد الإيراد عما كان في أيام إمارتك . فقال له عمرو على الفور : " قد أضررتم

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٥٦ ، ٥٧

(٢) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

بولدها " أي أن هذه الزيادة لا بد من أن تضر بأهل البلد لأنهم لم يزيدوا في العدد عما كانوا قبلاً وما هي إلا نتيجة ضرائب جديدة قد أوجدها عبد الله بن أبي سرح ليظهر الفرق بينه وبين سلفه حتى يكون مقبولاً عند أمير المؤمنين . " (١)

وأسكت جواب عمرو عثمان فلم يعقِّب إقراراً بصحَّة جواب عمرو وإبراءً لذمته

إن الحق الذي أمرنا ديننا به يحتِّم علينا ألا نزيِّف الحقائق التاريخيَّة حتى ولو كان ذلك بغرض الدفاع عن بعض الولاة المسلمين ، فلم يكن ولاة المسلمين على مصر سواء فكان منهم العادل ، وكان منهم من دون ذلك ، ونحن نقول ذلك لننصف الإسلام من جور بعض الحكام فالإسلام ما أمر إلا بالعدل والإحسان ، والرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق أبداً بالرجال .

إن حسن سياسة عمرو بن العاص مع المصريين حملتهم على حبه وحب العرب لدرجة أنهم رضوا بحكمهم ، وأنسوا بمعاشرتهم ، وقاوموا الرومان الذين حاولوا استعادة مصر من العرب .

يقول يعقوب نخلة : " وفي خلال ذلك كان الروم في القسطنطينيَّة يفكِّرون في استرجاع مصر فلما استقرَّت أحوالهم وزالت الارتباكات الحاصلة بسبب الطامعين في الملك جرَّدوا حملة لإنقاذها من يد العرب فساروا بمراكبهم حتى الإسكندريَّة وحاولوا النزول بها فمنعهم المقوقس من ذلك فنزلوا بساحلها وانضم إليها من كان بها من الروم الذين نقضوا العهد أما المقوقس والقبط فتمسكوا بعهدهم مع المسلمين ودافعوا عن المدينة ما استطاعوا فخرج الروم منها وصاروا يعيثون فساداً في القرى وينهبون ما بها ويقتلون سكانها فخاف أهل مصر سوء العاقبة واجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم لتدربه على الحرب ، وهيبته في عين العدو فأجاب طلبهم وأرسله فصار يحاربهم ويقاتلهم حتى أبعدهم عن المدينة فركبوا سفنهم وعادوا إلى بلادهم بالخيبة ولم يرجعوا وكان القبط يحاربون في هذه الواقعة مع العرب ويقاتلون الروم خوفاً من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها فيقع الأقباط في يدهم مرة

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٥٧

أخرى وبذلك ينتقمون منهم لتفضيلهم العرب عليهم فتكون الواقعة الثانية شراً من الأولى .

ولما انتهى عمرو من قتال الروم أراد الخليفة أن يكافئه على أتعابه الكثيرة في هذه الحرب الأخيرة بأن يوليه رئيساً على جند مصر ، وعبد الله بن سعد على الخراج فلم يرض عمرو بذلك وانصرف عنها ، ولم يعد إليها إلا في سنة ٣٨هـ .

أما عبد الله بن سعد فبقي والياً على مصر ولكنه لم يحسن التدبير لمعاملته الناس بالجور والعسف فكرهه المسلمون والنصارى وفي أيامه تفشى في البلاد وباء شديد وقحط تسبب بهما موت خلق كثير من المصريين فازدادت كراهيتهم له وتشاءموا منه وهمُّوا إلى خلعه فذهب إلى الخليفة وفد من العرب مؤلَّف من ألف رجل وكاشفوا الخليفة بحالهم وجور عبد الله بن سعد وطلبوا منه عزله بالتي هي أحسن ملحِّين عليه فلم يرَ بُداً من إجابة طلبهم رغماً عن ميله له ، وولّى مكانه محمد بن أبي بكر الصديق أوّل الخلفاء بعد الرسول لكنه لم يصل إليها إلا في خلافة الإمام علي بن أبي طالب . (١)

وعلى هذا النحو عاش المصريون والعرب الذين استوطنوا مصر في حب ووئام، ويداً واحدة على كل ظالم ؛ لذا كان عدم ثورة المصريين على الفاتحين العرب أمراً طبيعيّاً لأنهم وجدوا في ظلِّ الإسلام العدل والمساواة ،والأمن والأمان ،والحب والإخاء ،والحرية والرخاء .

لقد كان للمصريين الحرية الكاملة في ظلِّ الحكم الإسلامي في ممارسة شعائرهم الدينيَّة العامة في مصر فكانت النواقيس تدقُّ ، والأبواق ينفخ فيها ، والمواكب الدينيَّة تسير بالصلبان والمجامر(٢) دون اعتراض ولدينا في المصادر التاريخيَّة أوصاف كثيرة لاحتفالات أعياد المسيحيين واليهود في مصر ، وكانت هذه الأعياد فرصة للهو لجميع الناس ، وكثيراً ما كان الخلفاء والحكام المسلمين يشاركون فيها بأنفسهم أو بممثلين عنهم تكرمة لأصحابها .

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٥٨ ، ٥٩ .
(2) المجامر : جمع مجمرة وهي الوعاء الذي يحوي الجمر والبخور .

وقد تخصَّص المصريون في بعض الأعمال في المجتمع الإسلامي ، فعمل كبراؤهم في التجارة والصيرفة والجهبزة (١) والكتابة في الدواوين كما عملت الطبقة المتوسطة منهم في الزراعة ، وفي صناعة النسيج والدباغة ، كما عمل الفقراء منهم في الأعمال المتصلة بنظافة الشوارع والأسواق وعملوا إسكافيين وحدادين. (٢)

وظلَّت مصر هكذا طوال حكم ولاة الخلفاء الراشدين ، وولاة الأمويين فقد كان أغلب ولاة مصر يتَّسمون بالعدل والقدوة وحسن الخلق ، ويحافظون على عهودهم مع المصريين ، أما الفترة الأولى من الحكم العباسي ، وحتى مجيء ابن طولون إلى مصر فهي فترة تتّسم بالقلق السياسي والفوضى الإداريَّة ، وارتفاع مبالغ الجبايات وتعدُّدها ، ويشكو المصريون الظلم ، وتتعرَّض أمور البلاد كلها للفساد "(٣)

فهل سكت المصريون على الظلم والفساد ونقض العهد الذي تعاهد عليه المسلمون معهم ؟

اللهم لا .. فقد ثار المصريون على ظلم بعض ولاة بني أمية وبني العباس .

نقض الولاة الظالمين عهدهم مع أقباط مصر

لقد نهى النبي ﷺ عن ظلم أهل الذمة تحريم أو انتقاصهم حقاً من حقوقهم .

" من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقًا، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه؛ فأنا حجيجه يوم القيامة " (رواه أبو داود والبيهقي)

وعنه ﷺ أيضًا: "من آذى ذميًا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله" (رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن)

وبرغم الموقف الشرعي السمح للإسلام حيال أهل الذمة فإن وضع أهل الذمة لم يمض على نسق واحد خلال ولاة الأمويين والعباسيين .

تعسُّف سليمان وعدل عمر

مع كل الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة التي تؤكد على وجوب الوفاء بالعهد وعدم نقض المواثيق إلا إن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ)

---

(1) الجهبزة : هي العمل في بيت المال .
(2) د. عطية القوصي وآخرون " الحضارة الإسلامية " ص ٢٠، ٢١ .
(3) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٧ .

عَيَّن أسامة بن زيد (١) على الخراج في مصر ، وكتب إليه يأمره بالتشدد في جمع الخراج والجزية ونفَّذ أسامة سياسة الخليفة فتشدد في جمع الأموال ، وأخذ الجزية من الرهبان وكانوا يعفون منها . (٢)

وبدأ المصريون يتذمَّرون بسبب تعسُّف سليمان بن عبد الملك وعامله على الخراج ولكن شاءت حكمة الله تعالى أن يخفِّف عن المصريين فتُوفِّي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز الذي تبرَّأ من كلِّ مظالم بني أمية ، وعمل على إنصاف كل من ظلموه وتعويض كل من حرموه مُعيداً سيرة جدِّه لأمه عمر بن الخطاب .

وكان من أوَّل ما قام به عمر بن عبد العزيز من أعمال وحتى قبل أن يُدفَن سليمان بن عبد الملك هو عزل أسامة بن زيد صاحب الخراج على مصر ، لما بلغه عنه من استنزافه موارد مصر لصالح الدولة الأمويَّة ، وأمر بالقبض عليه وسجنه جزاءً له على ما اقترفته يداه ، وأصدر الخليفة أمره بوقف تحصيل الخراج من المصريين لمدة عام على سبيل التخفيف والتعويض عن أهلها .

وكان من أثر عدل عمر بن عبد العزيز وسياسته أن دخل كثير من أقباط مصر في الإسلام ، مما أثَّر على حصيلة الجزية والخراج فكتب حيان بن شريح ، والي جند مصر ، يقترح على عمر بن عبد العزيز أن تؤخذ الجزية من الأقباط حتى في حالة إسلامهم خوفاً من أن تنقطع موارد الدولة .

فكتب إليه عمر : " أما بعد : فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عن من أسلم قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه ." (٣)

وكتبت امرأة مصرية مسكينة تشتكي لعمر: أن لها حائطاً قصيراً، وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين

(١) أسامة بن زيد صحاب خراج مصر غير أسامة بن زيد الصحابي الجليل الذي تُوفِّي عام ٥٤ هـ .
(2) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ٢٧ .
(3) المقريزي " المواعظ والاعتبار ذكر الخطط والآثار " ج١ ص ٩٧ .

إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرتي من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجك، فقد كتبت كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل آمره بأن يبني لك ذلك يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها . (١)

نبوءة النبي ﷺ بثورة القبط

ولكن بعد وفاة عمر بن عبد العزيز لم يَنهج خلفاء بني أميَّة نهجه في معاملة أهل مصر ففي عهد يزيد بن عبد الملك زادت الجزية قيراطاً على الدينارين المقررين ، وبهذا نقض يزيد عهد أقباط مصر فكيف يزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يُزَاد عليهم شيء على الفرد منذ الفتح في شروط الصلح مع القبط ؛ مما أدى إلى ثورة المصريين على هذه الزيادة ثورات مختلفة ، وفي أماكن مختلفة سنة ١٠٧ ، ١٢١، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ٢١٦ هـ وامتنعوا عن دفع الجزية ، والخراج أثناء تلك الثورات .

وقد تنبّأ رسول الله ﷺ بثورة القبط أهل الذمة ومنعهم ما في أيديهم بسبب ظلم بعض الولاة المسلمين .

خَرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لم تجبوا ديناراً ولا درهماً؟ قالوا: وكيف نرى ذلك كائناً يا أبا هريرة ؟ قال: إي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق والمصدوق، قالوا: عم ذلك؟ قال: تنتهك ذمّته وذمّة رسوله فيشدّ اللّه عز وجل قلوب أهل الذمّة فيمنعون ما في أيديهم . "

وصدق رسول الله ﷺ فقد ظلم الولاة الأمويين والعباسيين أقباط مصر وانتهكوا ذمة الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ فثار أقباط مصر عليهم ومنعوا الخراج عنهم وقاوموا عمالهم وتعاقبت الثورات لأكثر من مائة عام (١٠٧ – ٢١٦ هـ) وللأسف قابل

---

(1) ابن عبد الحكم " سيرة عمر بن عبد العزيز " ص ١٦٣، ١٦٤ نقلاً عن علي محمد الصَّلاَّبيَّ "الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار" ج ٣ ص ٤٨٦ .

الولاة العرب هذه الثورات بكل عنف وقسوة وبهذا أضافوا إلى ظلم المصريين سفك دمائهم بغير حق !!

لم تكن ثورات أقباط مصر على والولاة العرب بسبب اضطهاد ديني كما حدث مع الهكسوس والفرس والبيزنطيين ، ولم يكن بسبب إهانة كرامتهم ، ولكن بسبب الطمع في أرزاقهم بزيادة الجزية والخراج ، ولم تكن الزيادة كبيرة أو مجحفة إنما كانت قيراطاً واحداً (١) لكن المصريين أبوا إلا إلزام جباة الجزية بما تعاهد المسلمون مع أقباط مصر عليه .

كتب عبد اللّه بن الحبحاب صاحب خراج مصر إلى هشام بن عبد الملك، بأنّ أرض مصر تحتمل زيادة الجزية على المصريين ، فزاد على كل دينار قيراطاً ، فانتقصت كورة (٢) تنو ونمي وقربيط وطرابية ، وعامة الحوف الشرقيّ، فبعث إليهم الحر بن يوسف بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، وذلك أول انتقاض القبط بمصر، وكان انتقاضهم في سنة ١٠٧هـ . (٣)

إذن لم تكن ثورة المصريين الأولى على العرب إلا نتيجة ظلم وقع عليهم ، وبرغم أن المصري هادئ ومسالم إلا أنه لا يقبل الضيم أبداً .

يقول د. حسين نصار " اشتهر المصري بالدعة ، وحب السلام ، والقناعة والرضا بما يتعاقب عليه من أحوال ، وكراهية العنف .

وتلقّف تلك الخصائص المؤرِّخون الذين لا يتعمقون الأمور ، ولا يستقصون البحث، فظنُّوها ضعفاً في طبيعة المصري ، وخوراً في قلبه ، وقال قائلهم عن المصريين: " عبيد لمن غلب " .

ذلك ما شتهرت به مصر عند القدماء المؤرخين ، فما مبلغ صحة هذه الشهرة ، وما أسسها ؟ " (٤)

(1) القيراط : في القياس جزء من أربعة وعشرين . المعجم الوسيط .
(2) الكورة : البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال (ج) كور . المعجم الوسيط .
(3) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ٩٩ .
(4) د. حسين نصار " الثورات الشعبية في مصر الإسلامية " الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ٨

إن ثورات المصريين ضد الطغاة سواء أكانوا حكاماً محليين ، أو أجانب تـشهد بكذب المقولة التي وصم المؤرِّخون بها تاريخ مصر المجيد وهـي أن المـصريين عبيد لمن غلب ؛ فقد بدأت ثوراتهم ضد الطغاة منذ بيبي الثاني وابنـه ، حتـى ٢٥ يناير ٢٠١١ ، ٣٠ يونيه ٢٠١٣ مروراً بثوراتهم ضـد الهكـسوس ، والفـرس ، واليونان ، والرومان ، وهاهم يثورون لأكثر من مائة عام ضد الظالمين من الحكام العرب بسبب زيادة قيراطين فقط على الجزية . (١)

والبعض يستشهد بثورات القبط هذه على اضطهاد العرب أقبـاطَ مـصر ، وأن العرب المسلمين لا يختلفون عن غزاة مصر الـسابقين : الهكـسوس ، والفـرس ، واليونان ، والرومان !!

وللردِّ على هؤلاء نذكِرهم بالحقائق الآتية :

١- أن ظلم أهل الذمة أو الاعتداء عليهم ليس من شريعة الإسلام كما بينا .

٢- أن الظلم والاضطهاد ونقض العهود لم يقتصر على الأقباط المسيحيين فقـط إنما شمل العرب الذين استوطنوا مصر ، والأقباط المسلمين وقد صاروا أغلبيَّة بعد مرور نحو أربعمائة عام على الفتح العربي مصر كما سنبين لاحقاً .

٣- أن مقاومة الولاة العرب الظالمين كانت بالتعاون بين أقباط مصر والعـرب الذين استوطنوا ريفها في الحوف ، وبلبيس ، والصعيد ...

٤- أن عدل الولاة العرب مع أقباط مصر هو الأصل ، وأن ظلمهـم لهـم هـو الاستثناء ؛ بدليل اعتناق غالبيَّة أقباط مصر الإسلام الذي يأمر بالعـدل والإحـسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .

يقول ميلاد حنا : " وهكذا تعايشت المسيحية مع الإسلام فـي العائلـة الواحـدة لسنوات ، وتعايش الأقباط مع المسلمين في كل بيت وزقاق وحارة وشـارع وحـي وقرية ونجع ومدينة ، ومن هنا كان هذا الانتشار للأقباط في كل موقع في مـصر ،

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول ثورات المصريين الرجوع لكتابنا " متى يثور المـصريون " دار زهـور المعرفة والبركة .

لم ينعزلوا في حي أو قرية أو جبل أو منطقة كما هو الحال في لبنان ، ولـم يرفـع أحد على أحد سلاحاً على مدى التاريخ إلا لخصومة فردية ، ولا يجد الأقباط أماناً لهم في مصر إلا في هذا الانتشار والوجود في كل مكان ، وقد قاوموا على مـدى أربعة عشر قرناً – حتى في عهود الاضطهاد – أن يتقوقعوا داخل سور أو حي أو منطقة ورفضوا فكرة " الجيتو " المعروفة والتي مارسها اليهود في كل مكان عاشوا فيه ، فأنشئوا منطقة أو حيّاً تجمعوا داخله ورفضوا إقامة " الغريب " فيـه ، وكـان لهم منطقة معروفة باسم " حارة اليهود " في حي الموسكي بالقـاهرة حيـث كانـت إقامتهم في مصر ولم نسمع عن يهودي مصري عاش في قرية بعيداً عن قومه ! (١)

كيف دخل المصريون في الإسلام أفوجاً ؟

زعم بعض أقباط المهجر أن المصريين اضطروا للدخول في الإسلام هرباً مـن دفع الجزية التي أثقلت كواهلهم !

والحقيقة التي شهد بها الكتاب المسيحيون أنفسهم أن الجزية لم تكن عقوبـة بـل كانت ضريبة دفاع وانتفاع على الرجال القادرين فقط وهم لا يزيـدون عـن ربـع سكان مصر فحسب كما بينا ، وعندما حاول بعض الـولاة المـسلمين أن يزيـدوا قيراطاً واحداً على الدينارين ثار المصريون على هؤلاء الولاة وامتنعوا عـن دفـع الجزية لأكثر من مائة عام .

والآن سوف نتعرَّف على تفسير أحد الكتاب المسيحيين الأسباب الحقيقية لدخول المصريين في الإسلام .

يقول د.ميلاد حنا : " نوضِّح في إيجاز كيف تحوَّلوا من المسيحية إلى الإسلام ، وكيف استمرَّت الديانتان معاً ، وفي معايشة لنحو أربعة أو خمسة قرون ولكن الأمر المثير للدهشة أن المصريين جميعاً : مسلمين ومسيحيين قد تحوَّلـوا جميعـاً مـن القبطيَّة إلى العربيَّة في ذات المرحلة والفترة ، إلـى أن تقهقـرت اللغـة القبطيَّـة وأصبحت في الأديرة والكنائس فقط .

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٤٧.

هناك نظريات وآراء كثيرة عن الأسباب التي دعت المسيحيين – عبر قرون – أن يتحوّلوا من المسيحيَّة إلى الإسلام نذكر منها :

أولاً : يبدو أن الخلافات المذهبيَّة المعقَّدة التي أثيرت عبر المجامع المسكونيَّة قد أوجدت حالة من البلبلة وعدم الفهم عند المواطن البسيط العادي ، وبدلاً من صراعه مع سلطة الإمبراطوريَّة الحاكمة والقابضة حول أن " للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان " وجد إجابة جاهزة وسهلة ومباشرة في شعارات الإسلام البسيطة أن " لا إله إلا الله " وأن " لا كهنوت في الإسلام " .

ثانياً : عند دخول المسيحيَّة مصر تكونت الكنيسة كتنظيم – سرّي تحت الأرض – يدعو للتبشير بها كأنه " حركة تحرير " فانتشرت المسيحيَّة بسرعة وفي يسر وكجزء من الاحتجاج على الاضطهاد الروماني وكجزء من حركة تحرير العبيد .

ثالثاً : رغم البداية الرائعة لملابسات دخول عمرو بن العاص إلى مصر ، ولكن مع استقرار الحكم وتتالي الخلفاء في دمشق وبغداد ظهرت بعض قرارات وتعليمات تعامل الأقباط كذميين ، فالخليفة المتوكل (توفي في ديسمبر ٨٦١م) أمر بإجبار أهل الذمة على لبس الطيالسة العسليَّة والزنانير وأن يضعوا على رءوسهم القلانس المختلفة الألوان .

ويذهب بعض المؤرِّخين إلى أن مثل هذه الإجراءات التي طبِّقت على قبط مصر كان الولاة يتساهلون في تنفيذها في معظم الأحيان وأن التمسك بها كان يقل تدريجيّاً حتى وإن تم تنفيذها بدقة وقت صدورها وأن هذا الأمر صحيح وثابت تاريخيّاً ، ومن هنا ظهر المثل الشعبي : الغربال الجديد له شدة " .

رابعاً : لقد أدرك الفلاح المصري أن الإسلام في صوره الأولى البسيط لا يفرض " مؤسَّسة دينيَّة دنيويَّة" وأن العلاقة الدينيَّة ستكون مباشرة بينه وين ربه مما يسمح له بأن ينقل معه إلى الإسلام ما يستهويه من طقوس وعادات من دياناته القديمة سواء تلك التي مارسها في المسيحيَّة أو تلك التي أخذها معه عبر الفرعونيَّة والتراث القديم .

إن ثقة المصري البسيط المتدين قد اهتزَّت – عبر التاريخ – في مؤسَّساته الدينيَّة، فقد عرف أن كهنة آمون قد تحالفوا مرات متعدِّدة مع الفاتحين والغزاة ، فقد

رحبوا بالإسكندر لتخليصهم من الفرس ونصَّبوا بطليموس الأوّل فرعوناً من نسل الآلهة مقابل المحافظة على أملاكهم ومعابدهم ورد ما نهبه الفرس منها ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع ولاة الإمبراطوريَّة الرومانيَّة وذلك في سبيل الحفاظ على امتيازاتهم ومصالحهم وبدعوى الإبقاء على المعتقدات والمعابد ومن ثمَّ هرع المصريون القدماء إلى المسيحيَّة في بحر فترة قليلة وكأنهم ينتقمون من المؤسسة الدينيَّة التي تخلّت عنهم .

وعندما دخل العرب مصر قامت المؤسَّسة الدينيَّة مرة أخرى والتي تحوّلت إلى المسيحيَّة بالتحالف والخضوع للفاتحين ، وكان ذلك بدعوى إنقاذ الكنيسة من اضطهاد هرقل إمبراطور بيزنطة ، وأمَّنت الكنيسة نفسها ومصالحها وأديرتها ، ولذلك – وتحت ضغوط أخرى سبق الإشارة إليها – برَّر المصريون الأقباط لأنفسهم التخلّي عن المؤسَّسة الدينيَّة والانضمام إلى الدين الجديد الصاعد والذي يعطي أصحابه مميزات من ضمنها أنه لا يحتوي على " مؤسسة دينيَّة قابضة ومسيطرة " .

وإن هذه الدولة المركزيَّة التي سيطر عليها الوالي وتملَّك كلَّ شيء ، قد أوجدت على مر العصور والقرون حالة من الخضوع والسلبيَّة لا زالت آثارها موجودة حتى الآن وكان ذلك مثار تعليق وتندر كثير من الكتاب والمفكّرين نذكر منها بعض العينات : " يرى أرنولد توينبي أن الفلاح المصري – على مر التاريخ – كان ينظر إلى ممثلي السلطة ٠ وعلى رأسهم – حاكم الدولة – نظرة إجلال بلغ حد التأليه والتقديس ولذلك كان يذعن لأوامرهم بصورة شبه مطلقة وأصبحت طاعة الحكام وكل من يمثّله واحدة من أبرز صفات الفلاح المصري .

ويصل الباحث المصري كمال المنوفي إلى ذات النتيجة وبتبرير مماثل فيرى "أن الفلاح المصري يتصوَّر أن الثورة على الحاكم المسلم ، مهما بلغ جوره شيء مرذول " (١)

ونحن إذ نتفق مع د. ميلاد في أن من أهم أسباب دخول أقباط مصر في الإسلام هو الخلافات المذهبيَّة المعقَّدة التي أثيرت عبر المجامع المسكونية والتي أدّت إلى

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ١٠٢، ١٠٣ .

التقاتل والتناحر ، في مقابل يسر الإسلام ووضوح عقيدته وسهولة شريعته فجميع المسلمين يتّفقون على أصول دين واحدة ، ويعذر بعضهم بعضاً في اختلاف التنوُّع الذي قد يقع في بعض الفروع ففي هذا الاختلاف سعة ورحمة .

كما نتّفق مع د. ميلاد في أن الإسلام لا يفرض " مؤسسة دينيَّة دنيويَّة " وأن العلاقة الدينيَّة مباشرة بين العبد وربه تعالى فلا كهنوت في الإسلام ولا رجال دين يتوسَّطون بين العبد وربه { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : ١٨٦] ولكنني أختلف معه تماماً في أن المصري كان خاضعاً لسلطان الدولة المركزيَّة الحاكمة سلبيّاً في مقاومة ظلمها ؛ فالمتتبِّع لتاريخ مصر المديد يجد أن المصري طيب القلب، هادئ الطبع ، لا يميل إلى العنف ولا الثورة بل يميل إلى الاستقرار والهدوء والالتزام بالشرعيَّة والقانون. ومع ذلك فالمصري لا يقبل أبداً أن تهان ديانته أو تنتهك كرامته أو تنهب ثروته . هذه مقدَّسات ثلاثة لم يسكت الشعب المصري طوال تاريخه عن انتهاك إحداها. (١)

أما عن طاعة الفلاح المصري لحكامه فهذا إمعاناً في حبه لأرضه وتمسكه بها وحفاظاً عليها وعلى وإنتاجيته الزراعيَّة والحيوانيَّة ؛ فقد أُشْرِب قلبُه حُبَّ أرضه كما أُشرب حب زوجته وأولاده فتفانى في الحفاظ عليها وتحمَّل تسلُّط الحكام في سبيلها .

لقد أصبحت علاقة الفلاح بأرضه تشبه علاقة العبد بسيده فكما أنه لا حقَّ للعبد على سيده إلا ما يجود به سيده عليه فكذلك لا حقَّ للفلاح على أرضه إلا ما تجود به أرضه عليه وإن كان قليلاً بعد نهب الحكَّام معظمه ، وإن أردَّت الدقَّة فإن علاقة الفلاح بأرضه أشبه ما تكون بعلاقة الأمِّ المصريَّة بأولادها فهي تضحِّي بكلِّ حياتها من أجلهم ولا تنتظر منهم المقابل ؛ لأنها تفعل ذلك بدافع الأمومة وهي غريزة طبيعيَّة تولد بها المرأة وهي أرقى وأصدق مشاعر الحب وربما هي المشاعر الوحيدة التي نجحت في كل اختبارات الحياة وصمدت تحت أقصى الظروف والضغوط . (٢)

---

(١) " متى يثور المصريون " للمؤلف دار زهور المعرفة والبركة ص ٥
(٢) " حضارات مصر ونهضاتها " للمؤلف دار زهور المعرفة والبركة ص ٢٧٩

ومع ذلك فإن للظلم عند الفلاح المصري قدر ، وللصبر عنده حدود فإن تجاوز الحاكم قدر الظلم أو حدود الصبر ثار الفلاحون المصريون في وجهه غير مباليين بعواقب الأمور ، وكثيراً ما ثار الفلاحون في وجه الطغاة من حكامه .

لقد استفاد المصريون من الفتح العربي الكثير ، استفادوا توحيد الله الخالص وشريعة الله الخاتمة الغراء ، وسيرة النبي العطرة القدوة الحسنة ، وسير الخلفاء الراشدين المهديين ، ومعاشرة صحابة رسول الله والتتلمذ على أيديهم .

كما استفادوا بمصاهرة العرب قوة في النسل وإثراء في الثقافة والمعرفة ، وانفتاحاً أكثر على شعوب إسلاميَّة عربيَّة ومُستَعْجَمَة ، وتعلُّم لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وعلماء الإسلام .

وفتح المسلمين مصر وما صاحب ذلك من فوائد جمة للمصريين لم يغير طبيعتهم ويجعلهم مُستَعْرِبَة (عرب الجزيرة) إنما أيقظ همتهم ، وشحذ عقولهم ، وأسقط نير الاحتلال الغربي عن كاهلهم ، وحطم القيود التي كانت تكبلهم ، وأصقل معدنهم النفيس فانطلقوا يصنعون الحضارة الإسلاميَّة متعاونين مع إخوانهم من المسلمين .

فلم يكن الفتح العربي مصر أبداً احتلالاً استيطاناً بغيضاً اغتصب البلاد واستذل العباد ونهب ثرواتها ، إنما كان فتح خير وبركة حرر البلاد وأكرم العباد ونمى الثروات .

ونختم هذا الفصل بالرد على اتهام العرب الفاتحين بحرق مكتبة الإسكندرية بدعوى احتوائها على كتب كفر وإلحاد !!

يقول ميلاد حنا عن مكتبة الإسكندرية : " ومن المؤكد أنه منذ القرن الثالث لم يعد للمكتبة الرئيسية وجود كما أن ظهور المسيحية وانتشارها كان ضربة قاضية على المكتبة الملحقة بالسرابيوم الذي أُحْرِق ودُمِّر في أواخر القرن الرابع الميلادي؛ ولذا يجب ألا نأخذ بالقول الذي يتهم عمرو بن العاص بحرق المكتبة وهي التهمة التي ألصقها به المؤرخ أبو الفرج (اتضح فيما بعد أن أبا الفرج من أصل يهودي).

ويذكر البعض ما أصاب المكتبة الرئيسية عندما أمر يوليوس قيصر عام ٤٨ق.م بحرق الأسطول الذي حوصر في الميناء الكبير الشرقي خوفاً من أن يستولي عليه الأعداء فامتدت ألسنة النيران وأحرقت جزءاً من المكتبة على أنه من المحقق أن مكتبة الإسكندرية نالها الكثير من الإهمال بعد الاحتلال الروماني ؛ إذ بدأت الكتب النادرة تتسرب في طريقها إلى روما . وفي عام ٢٧٠ م دمَّر الإمبراطور الروماني أوريليان الحي الملكي الذي كانت تقع فيه المكتبة انتقاماً من المدينة إثر ثورة قامت بها فاضطر علماء دار الحكمة ومكتبتها إلى اللجوء إلى السرابيوم ورحَّل البعض إلى الخارج . (١)

الحقيقة أن ذكر أن عمرو بن العاص حرق مكتبة الإسكندرية حديث خرافة فعندما دخل عمرو بن العاص الإسكندرية عام ٦٤٢م لم تكن مكتبة الإسكندرية موجودة حتى يحرقها حيث إنه ثبت أن مكتبة الإسكندرية تم إحراقها عن آخرها في زمن الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر عام ٤٨ ق.م " ، ولم يرد ذكرها في كتب الأقدمين كاليعقوبي، والبلاذري، وابن عبد الحكم، والطبري، والكندي، ولا في تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم كالمقريزي، وأبي المحاسن، والسيوطي، وغيرهم.

وهكذا فإن كل الاتهامات التي رمى بها بعض أقباط المهجر العرب المسلمين تتهافت أمام الحجج الدامغة والحقائق الناصعة التي ذكرها المؤرخون والكتاب المصريين مسيحيين ومسلمين .

***

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٨٤ ، ٨٥ .

الفصل الرابع

لسنا أورمتوسطين ، فماذا تكون الأورمتوسطية ؟

موجز علاقة مصر بالغرب والشرق

البحر المتوسط بالنسبة لمصر يعنى الاتجاه شمالاً .. يعنى أوروبا ، وأوروبا لها معان متعدِّدة ليس في مصر فحسب، بل في كل دول شمال أفريقيا والعالم الثالث فهي تعنى الاستعمار ، كما تعنى الازدهار ، تعني الحروب الصليبيَّة ، كما تعني الثورات العلميَّة والتكنولوجيَّة ؛ لهذا لم يكن هناك ثبات ما أو سياسة ثابتة في التعامل مع أوروبا عبر البحر المتوسط فهي كالبحر بين مد وجزر .

وأوَّل لقاء بين مصر وأوربا كان عندما حضر طلاب العلم اليونانيين إلى مصر ليتلقَّوا العلوم الدينيَّة والمَدَنيَّة في القرن الثامن قبل الميلاد ،ليعودوا فيقيموا بما تلقَّوا من علوم مصر حضارةَ اليونان ، وتاريخ رواد النهضة اليونانيَّة وصانعي حضارتها ومجدها يبيِّن بجلاء لا يحتمل الشك مصدر معارفهم وعلومهم ، فما من عالم بارز من علماء الإغريق إلا وزار مصر وتعلَّم في جامعاتها وتتلمذ على يد كهانها وعلمائها بل واعتنق ديانة التوحيد التي علَّمتها مصر لكلِّ بلاد العالم .

ولما تراجع المد الحضاري المصري وتكالب عليها الغزاة الشرقيين والغربيين الذين كان آخرهم الفرس حرَّرها الاسكندر الأكبر تلميذ أرسطو الذي قام بعدة رحلات إلى أرض مصر وزار معابدها وتتلمذ على يد كهنتها وتأثَّر بالعقيدة المصريَّة واعتنقها ونادى بعبادة زيوس آمون (آمون رع) (١) واتباع تعاليمه . ولما كان فيليب المقدوني قد عهد إلى الفيلسوف أرسطو تعليم الإسكندر وتربيته فقد

---

(١) معنى آمون : الذي لا تدركه الأبصار ، ورع : القوة الكامنة خلف قرص الشمس ، وكان المصريون القدماء في حروبهم يهتفون " آمون رع " أي : الله أكبر وظل هذا هتاف المصريين طوال تاريخهم المديد حتى نصر أكتوبر العظيم . من حديث د. سيد كريم عن جيش مصر عبر التاريخ .

تأثَّر الإسكندر بما كان يسمعه عن أرض الآلهة من علمه لذا فقد وضع في برنامج فتوحاته المشهورة زيارة مصر وتقديم الولاء إلى والده الروحي الإله آمون في معبده المشهور بسيوة ، وإنقاذها من الفرس الطغاة المستبدِّين الذين نهبوا ثروات مصر واضطهدوهم .

ولقد تعاون المصريون مع اليونان في إقامة الحضارة " الهيلينستية " ، وكانت المائة سنة الأولى من الفتح اليوناني لمصر في عهد الإسكندر الأكبر والبطالسة الكبار من عصور النهضة والازدهار الحضاري في مصر . (١)

ولكن بعد ذلك استبد حكام اليونان بالمصريين وثار المصريون عليهم وورث الرومانُ اليونانَ في حكم مصر فساموا مصر سوء العذاب نهبوا خيراتها وحاربوا ديانتها المسيحيَّة حتى حررهم العرب المسلمون من الاحتلال اليوناني الروماني الذي دام نحو ألف عام متصلة .

ومع الفتح العربي الإسلامي لمصر اتجهت مصر صوب المشرق العربي حيث أصبحت مصر إحدى ولايات الخلافة الإسلاميَّة : الراشدة ، الأمويَّة ، العباسيَّة ، الفاطميَّة ، العثمانيَّة .

لقد حوَّل الفتح العربي الإسلامي مصر من الشمال الأوربي إلى الشرق العربي فقد جاء الفتح العربي بديانة وثقافة ولغة جديدة، لتغيِّر مصر لغتها إلى العربيَّة ، وتواصل اعتناقها لرسالات السماء فكما آمنت مصر بأوَّل رسالات السماء منذ إدريس في فجر التاريخ فقد آمنت بآخر رسالات السماء التي أنزلت على محمد ﷺ واتجهت تفاعلاتها الخارجيَّة نحو شبة الجزيرة العربيَّة، والهلال الخصيب (بلاد الشام والعراق) .

ومع اتجاه مصر صوب المشرق العربي الإسلامي إلا أن العلاقة بين مصر الإسلاميَّة وبين أوروبا لم تنقطع واستمرَّت العلاقات ما بين التعاون والصراع الذي وصل ذروته في الحروب الصليبيَّة ، وكان لمصر وجيشها وسلطانها الفضل الأكبر

(١) لمزيد من التفاصيل حول الحضارة الهيلينستية راجع كتابنا " حضارات مصر ونهضاتها " دار زهور المعرفة والبركة .

في تحرير القدس والإمارات العربيَّة ودحر الصليبيين ، وردِّهم على أعقابهم خاسرين .

وإذا كانت الحروب الصليبيَّة قد جرَّت الخراب والدمار لمصر والشام فقد جلبت الخير لأوروبا التي أفادت من العلوم والمعارف ومختلف الصنايع التي كانت مزدهرة في مصر والشام والعراق ،كما نهلت من الحضارة الإسلاميَّة في الأندلس، وفي حين بدأ قطار النهضة يتحرك في أوروبا بفضل ما تعلَّموه من المسلمين توقَّف قطار النهضة العربيَّة بدخوله في الكهف العثماني ، وظلَّ المصريون في الكهف العثماني ثلاثمائة سنة تحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ولم ينتبهوا من رقادهم إلا على صوت مدافع الفرنسيين تدك كهفهم في أواخر أعوام القرن الثامن عشر .

وكما أفاد الأوربيون من الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة إبان الحروب الصليبيَّة أفاد المصريون من الحملة الفرنسيَّة التي غزت مصر بجيشين لا بجيش واحد : جيش مسلَّح بآلات الحرب والدمار ، وجيش مسلَّح بأدوات العلم والازدهار ، لقد نبَّهت الحملة الفرنسيَّة المصريين إلى مدى جناية العثمانيين عليهم وحاجتهم لاستعادة أمجادهم الحضاريَّة والثقافيَّة من جديد على أسس حديثة وهو الحلم الذي حوَّله محمد على باشا والى مصر إلى واقع عندما استقلَّ بمصر عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وضاعف علاقات مصر العلميَّة والثقافيَّة والاقتصاديَّة مع أوروبا فأقام دولة قوية فكانت قوتها خطراً على الإمبراطوريات القائمة آنذاك وانتهى الأمر بالاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢م مصر ؛ لتقع مصر في براثن احتلال إنجليزي بغيض لا يقلّ عن الاحتلال الروماني القديم ، ولقد استمرَّ حتى عام ١٩٥٦ رغم إعلان انتهاء الحماية على مصر عام ١٩٢٢ ، وكما خلَّف الاحتلال اليوناني /الروماني ، والحروب الصليبيَّة جراحاً في نفوس المصريين لا تندمل نكأ الاحتلال الإنجليزي هذه الجراح وحشاها ملْحاً ؛ مما ولَّد الكراهية لدى المصريين ليس للإنجليز فقط إنما للغرب الأوربي كله ثم الأمريكي بعد ذلك خاصَّة بعدما زرعوا إسرائيل الخليَّة السرطانيَّة في جسد الوطني العربي .

كانت النهضة هي ما كان يشغل بال المثقفين إبان النهضة المصريَّة التي بدأت بعد الحملة الفرنسيَّة وإن كانت مسألة الهُويَّة تأتي عرضاً فقد كانت مصر تحكم من

قبل الأتراك والمماليك ولم يكن المصريون يشاركون في الحكم ولا يطمحون في المشاركة فيه فقد كان محمد علي وبنوه ينظرون إلى المصريين نظرة دونيَّة لا تؤهلهم لتبؤ المناصب العليا في البلاد ويتضح ذلك في كلمة الخديو توفيق لأحمد عرابي حين قال : " كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا . "

فردَّ عليه أحمد عرابي : " لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثا أو عقار فوالله الذي لا إله إلا هو لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم . " حتى بعد نجاح الثورة العرابيَّة لم يتغيَّر الوضع فسرعان ما تواطأ الأتراك مع الإنجليز لاحتلال مصر وإجهاض الثورة العربيَّة وفرض الاحتلال الإنجليزي .

وبعد الاحتلال الإنجليزي أصبح هَمُّ النخبة المصرية جلاء الإنجليز ، والنهضة الحديثة التي تمكنهم من ذلك .

كانت حملة نابليون هي إذن الصدمة التي خصت مصر بدروس عاجلة ، وكانت دروساً محتومة لا تمهل المتعلم أن يتردد بين الجمود والحركة ، ونابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح ، وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق .

وربما كان من بواعث إحياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الإقبال على هذه العلوم الغربيَّة بعد نفور منها والإعراض عنها ، أن أذكياء البلد فهموا أنها "بضاعتنا رُدَّت إلينا" وأن الفرنسيين إنما أخذوا من علومنا في الشرق ما أهملناه وضيَّعناه فبلغوا به من القوَّة حديثاً مثل ما بلغناه قديماً ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليبلغوا فوق ما بلغوا ، وقد فارقت الحملة الفرنسيَّة مصر ولم تفارقها فكرة التقدم العصري الذي سبق إليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منَّا ، وآن لنا أن نردها إلينا . (١)

لقد كان المصريون في حاجة للعلوم الحديثة التي أخذها الأوربيون عنَّا وطوَّروها وبنوا بها نهضتهم ، ومن هنا تولَّدت الإشكالية التي انقسم المثقفون المصريون إزاءها ، واختلفوا بشأنها .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول النهضة المصرية راجع عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مكتبة مصر ، فصل " العصر " .

ويمكن تقسيم التوجُّه الأورمتوسطي في الفكر السياسي المصري إلى أقسام أربعة :

الأول : التوجُّه الأورمتوسطي الواضح الصريح ويمثله طه حسين .

الثاني : التوجُّه الأورمتوسطي الكاره للعرب ويمثله سلامة موسى .

الثالث : التوجُّه الأورمتوسطي في إطار الاتجاه القومي العربي ويمثله سليمان حزين ، جمال حمدان .

الرابع :التوجُّه الأورمتوسطي في نتاج مدرسة العلاقات الدوليَّة المصريَّة .

أولاً : التوجُّه الأورمتوسطي الصريح ، طه حسين نموذجاً

كان المصريون دائماً يعتبرون أنفسهم شرقيين وجزء لا يتجزأ من الأمَّة العربيَّة، ويؤكدون ذلك بوحدة التاريخ والجغرافيا والدين واللغة والثقافة والأدب والذوق والمشاعر ، وبقد وحدة وتقارب المصريين مع العرب يكون اختلافهم وتباعدهم عن الغرب : أوربا ، وأمريكا . لكن في مطلع القرن العشرين خرج علينا بعض الكتاب بفكرة مناقضة للتوجُّه العربي فأصحاب هذا الرأي يجاهرون صراحة وبلا مواربة أن المصريين أقرب إلى أوربا في العقليَّة والثقافة والذوق والحياة العمليَّة بعامة من العرب .

وأشهر من تبنَّى واستفاض في هذه الفكرة د. طه حسين في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر " وسوف نقوم الآن باستعراض أفكار طه حسين والرد عليه.

يقول طه حسين في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر " :

" المسألة الخطيرة حقاً ، والتي لا بدَّ من أن نجلِّيها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك ، وتعصمها من كل لبس ، وتبرئها من كل ريب هي أن نعرف : أمصر من الشرق أم من الغرب ؟ وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي ، وإنما أريد الشرق الثقافي والغرب الثقافي . فقد يظهر أن في الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف ، ويتصل بينهما صراع بغيض ، ولا يلقي كل منهما صاحبه إلا محارباً أو متهيئاً للحرب . أحد هذين النوعين هذا الذي نجده في أوربا منذ العصور القديمة ، والآخر هذا الذي نجده في أقصى الشرق منذ العصور القديمة أيضاً .

وقد نستطيع أن نضع هذه المسألة وضعاً واضحاً قريباً إلى الأذهان وييسرها على الألباب . فهل العقل المصريُّ شرقي التصوُّر والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ، أم هل هو غربيُّ التصوُّر والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟ " (١)

ويجيب طه حسين عن التساؤل الذي طرحه فيقول : " فإذن لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصري نقرُّه فيها ، فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم . وقد كان العقل المصري أكبر العقول التي نشأت في هذه الرقعة من الأرض سناً ، وأبلغها أثراً . (٢)

ثم يحدِّد طه حسين الأسس الذي يجب أن تقوم عليها الوحدة بين الشعوب فيرفض أن تكون من بينها وحدة الدين واللغة والجنس !

" من المحقَّق أن تطوُّر الحياة الإنسانيَّة قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ، ووحدة اللغة ، لا يصلحان أساساً للوحدة السياسيَّة ولا قواماً لتكوين الدول .

فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد قد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للملك وقواماً للدولة . وليس المهم أن يكون هذا حسناً أو قبيحاً وإنما المهم أن يكون حقيقة واقعة . وما أظن أحداً يجادل في أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العمليَّة ، وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينيَّة واللغويَّة والجنسيَّة ، قبل أن يقضي القرن الثاني للهجرة ، حين كانت الدولة الأمويَّة في الأندلس تخاصم الدولة العباسيَّة في العراق ." (٣)

مناقشة آراء طه حسين في مستقبل الثقافة في مصر

وطه حسين في سبيل إثبات فكرته الرامية إلى عدم قيام الوحدة على أساس الجنس والدين واللغة يخلط بين مقوِّمات الوحدة العربيَّة وهي كثيرة وبين سياسة الحكام العرب القائمة على التنافس ، والمثال الذي ساقه لا حجَّة له فيه بل هو حجَّة عليه فحكام الدولة الأمويَّة في الأندلس كانوا في خصومة سياسيَّة مع الخلفاء العباسيين نعم ، ولكن سكان الأندلس لم يكونوا أبداً في خصومة مع شعوب المشرق

(١) د. طه حسين " مستقبل الثقافة في مصر " دار المعارف ص ١٨
(٢) نفسه ص ٢٢
(٣) نفسه ص ٢٣

العربي فقد كانت هناك أواصر قويَّة بين هؤلاء وأولئك لم تفسدها سياسة الحكام فلم ينقطع اتصال أهل الأندلس بالمشرق العربي على مستوى العلمي والثقافي والديني فقد كان الأندلسيون يعتبرون المشرق العربي هو الأصل الذي تفرعوا منه وتغذوا على روافده ، ولا حياة لهم بدونه ، فقد كان أهل الأندلس يعتبرون أنفسهم عرباً مسلمين مثل عرب المشرق ولمَّا كان المشرق العربي هو مهد اللغة والدين والأدب والثقافة لذا لم ينقطع قط حج الأندلسيين – رغم الخلافات السياسيَّة – إلى بلاد المشرق العربي : إلى مكة والمدينة للحج والعمرة ، وإلى بغداد والبصرة والكوفة ومصر لتلقي العلوم الدينيَّة واللغويَّة والفنون الأدبيَّة .

لذا نجد الشعر الأندلسي ، وهو المعبِّر عن العقل والعاطفة والذوق والثقافة والشعور واللغة والبيان ، يسير في أوزانه وقوافيه وأغراضه بل في صوره وأساليبه ومحسناته على نفس منهج القصيدة العربيَّة المشرقيَّة وذلك لأن الأندلسيين شعروا بأنهم جزء من العالم العربي ، وأنهم حملة التراث العربي كالمشارقة كما كانوا يرون أن المشرق هو مهد اللغة العربيَّة وموضع ظهور الإسلام ، وموطن نبيه ومكان الخلافة الأولى، فكان من المنطقي :عكوفهم على تراث المشرق العربي الديني والثقافي واللغوي ، القيام برحلات إلى المشرق للقاء العلماء والحج ، واستقدام علماء المشرق العربي إلى الأندلس للتدريس بمساجدها ، ومنهم" أبو علي القالي" صاحب " الأمالي " كما كان منهم من رجال الفنون والموسيقا مثل " أبو الحسن علي بن نافع " مولى المهدي الخليفة العباسي . الملقب بـ"زرياب" الذي أحدث في الموسيقا تجديداً كبيراً .

لذا لا عجب أن يشبَّه شعراء الأندلس بشعراء المشرق العربي فيلقِّب نقاد الأدب ابن هانئ الأندلسي بمتنبي المغرب ، وابن زيدون ببحتري المغرب ، وأبا العباس الجراوي (وغيره) بأبي تمام ، وهذا المعلومات معروفه يدرسها أبناؤنا في المدارس ، وبالقطع لا يجهلها طه حسين ومع ذلك يصرُّ على فكرته فيقول : " إن العقل المصري القديم لم يتأثَّر بالشرق الأقصى ، ولا بالشرق البعيد ، قليلاً ولا كثيراً ، وإنما نشأ مصريّاً ، ثم أثَّر فيما حوله وتأثَّر به .. ولكن المصريين يعرضون عن هذه الأوليات ، ويرون أنفسهم شرقيين . فإذا سئلوا عن معنى هذه الشرقيَّة لم يحقِّقوها ، ولم يصلوا منها إلى شيء . وأمَّا الأوربيون فهم كالمصريين

يقرِّرُون هذه الأوليات في كتبهم ، ويعلِّمونها في مدارسهم ، ويبذلون الجهود الخصبة الشاقة في تحقيق الصلات بين المصريين القدماء والحضارة اليونانيَّة التي هي أصل حضارتهم ثم هم بعد هذا كله يعرضون عن الحق ، ويتجاهلون هذه الأوليات ، ويرون في سيرتهم وسياستهم أن مصر جزء من الشرق ، وأن المصريين فريق من الشرقيين .. إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقليَّة المصريَّة عقليَّة شرقيَّة كعقليَّة الهند والصين.(١)

ورغم اتفاق المصريين والغرب في حقيقة أن مصر جزء من المشرق العربي،عقلاً وثقافة وشعوراً بالإضافة إلى الوحدة الدينيَّة واللغويَّة والتاريخيَّة إلا أن الملاحظ تعمُّد طه حسين عدم ربط العقليَّة المصريَّة بالعقليَّة العربيَّة ، إنما دائماً يدلِّل على اختلاف العقليَّة المصريَّة عن عقليَّة الشرق ببيان اختلاف العقليَّة المصريَّة عن عقليَّة الهند والصين ، ولكن ماذا يقول طه حسين عن علاقة العقليَّة المصريَّة بالعقليَّة العربيَّة المشرقيَّة ، وأيهما أقرب لمصر ، العقليَّة العربيَّة أم العقليَّة الغربيَّة ؟

والحقيقة أن اختلاف المصريين ، عقلاً وشعوراً ومخزوناً حضاريّاً ، الكبير عن المشرق العربي – كما بينا في فصل سابق – لا يجعلهم أورمتوسطين عقلاً وشعوراً وحضارة بل على العكس تماماً إن ما يجمع بين المصريين والمشرق العربي لا يقارن بين ما يجمعهم بأوربا فيكفي توحُّدهم في الدين واللغة والتاريخ والثقافة والعداء للغرب الاستعماري وربيبته إسرائيل .

ولكن ما قول طه حسين في الوحدة الدينيَّة التي تجمع المصريين والمشرق العربي ؟

يقول طه حسين : " وجاء الإسلام وانتشر في أقطار الأرض ، وتلقَّته مصر لقاء حسناً وأسرعت إليه إسراعاً شديداً فاتَّخذته لها ديناً واتَّخذت لغته لها لغة "(٢)

---

(١) د. طه حسين " مستقبل الثقافة في مصر " مرجع سابق ص ٢٤
(٢) نفسه ص ٢٦

ولم يقل لنا طه حسين السر وراء إسراع مصر إلى الإسلام ، ولماذا قبلت مصر دين المشرق العربي وهي غربيَّة العقليَّة والهُويَّة كما يزعم ؟ ولماذا تركت مصر لغتها وتعرَّبت ؟ وهي التي تمسَّكت بلغتها وديانتها أيام اليونان الذين احتلوا مصر نحو ثلاثة قرون (٣٣٢ ق.م - ٣٠ ق.م) والرومان الذين احتلُّوا مصر نحو سبعة قرون (٣٠ ق.م - ٦٣٩م) لقد رفضت مصر أن تدين بديانة اليونان والرومان أو تتكلَّم لغتهم رغم القرون المتطاولة .

وسر إسلام مصر وتعرُّبها أنها وجدت في الإسلام دينَ المصريين القدماء .. دين العلم والإيمان .. دين التوحيد والحضارة .. دين إدريس ولقمان وإبراهيم ويوسف ويعقوب والأسباط ، دين موسى وهارون وآسيا امرأة فرعون وعيسى ابن مريم ، وتعرَّبت لأن العربيَّة كانت لغة القرآن الكريم آخر كلمات السماء ولغة هدى خاتم الأنبياء ، ولغة علوم الدين الإسلامي الذي يدينون به .

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف: ١٥٧]

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة : ١-٥]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ :أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ ، إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ : هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ. " [متفق عليه]

ويعود طه حسين فيزعم أن العقليَّة المصريَّة الغربيَّة لم تتأثَّر بالإسلام ولا بلغته " فهل أخرجها ذلك (أي أخرج إسلام مصر وتعربها) عن عقليتها الأولى ، وهل جعلها ذلك أمة شرقيَّة بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة الآن ؟

كلا ! لأن المسيحيَّة التي ظهرت في الشرق قد غمرت أوروبا ، واستأثرت بها دون غيرها من الديانات فلم تصبح أوربا شرقيَّة ولم تغيِّر طبيعة العقل الأوربي . وإذا كان فلاسفة أوربا وقادة الرأي الحديث فيها يعدُّون المسيحيَّة عنصراً من عناصر العقل الأوربي فلست أدرى ما الذي يفرق بين المسيحيَّة والإسلام وكلاهما قد ظهر في الشرق الجغرافي . وكلاهما قد نبع من نبع واحد كريم واحد ، وهبط به الوحي من لدن إله واحد يؤمن به الشرقيون والغربيون على السواء ! " (١)

والحقيقة إن مصر إذا كانت قد قبلت المسيحيَّة الشرقيَّة الأرثوذكسيَّة فإنها رفضت المسيحيَّة الرومانيَّة الغربيَّة الكاثوليكيَّة ، وفضَّلت فنون التعذيب وترك الوادي الخصيب الحبيب وسكنت قفار سيناء هرباً بدينهم ، ولماذا لم يدخل الغرب المسيحي في الإسلام كما دخل المصريون الذين يشتركون معهم في نفس العقليَّة والشعور بزعمه ؟!

يقول د. ميلاد حنا : " عندما دخلت القوات العربيَّة أرض مصر أدرك القائد العربي الإسلامي عمرو بن العاص أنه أمام شعب قبطي مسيحي في حالة صراع شديد واضطهاد من الدولة البيزنطيَّة أسماه الأقباط بالبطريرك الملكي (نسبة إلى الملك) إذ كان لهم بطريك وطني منهم وهو الأنبا بنيامين والذي اضطرته هذه الظروف لأن يهرب داخل البلاد من وجه الحاكم البيزنطي وذلك عقب أن أوفد هرقل (إمبراطور الدولة البيزنطية آنذاك) والياً شرساً يفرض على الأقباط ما تصوره عقيدته المسماة " المونوثيلية " (٢) والتي اعتبرها الإمبراطور حله التوفيقي بين عقائد الكنائس المتصارعة في كل من الإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية وروما ." (٣)

ويكمل طه حسين فيقول : " وكيف يستقيم للعقل السليم والرأي المنصف أن يقرأ الأوربيون الإنجيل فلا يرون به بأساً على العقل الأوربي ، ولا يرون أنه ينقل هذا

---

(١) نفسه ص ٢٦

(٢) المونوثيليتية أو المشيئة الواحدة هي عقيدة مسيحية تعالج العلاقة بين الألوهية والبشرية في يسوع المسيح. وترى أن للمسيح طبيعتان منفصلتان ومشيئة واحدة، وهي خلاف العقيدة الديوثيلية التي تتبعها معظم الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية.

(٣) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٩٦ .

العقل من الغرب إلى الشرق فإذا قرءوا القرآن رأوه شرقيّاً خالصاً مع أن القرآن كما يقول في غير عوج ولا التواء إنما جاء متمّماً ومصدّقاً لما في الإنجيل ! " [١]

الحقيقة أن الأوربيين هم الذين نقلوا المسيحيَّة من الشرق الأرثوذكسي إلى الغرب الكاثوليكي – والبروتستانتي بعد ذلك – وحاولوا فرضه بالقوة على جميع الشعوب والممالك الواقعة تحت سيطرتهم .

فالأوربيون هم الذين غيَّروا المسيحيَّة المشرقيَّة ، وجعلوها مسيحيَّة غربيَّة ؛ لتتناسب مع عقليتهم ، ولم يشأ الله تعالى أن يؤمن قياصرة الرومان بالإسلام ويصوغوه بعقليتهم ليصير إسلاماً كاثوليكيّاً ويفرضوه على شعوبهم وعلى مستعمراتهم كما فعلوا مع المسيحيَّة .

ومع ذلك يستمر طه حسين في مغالطاته ولي الحقائق ليثبت نظريته فيقول : " إذا صح أن المسيحيَّة لم تمسخ العقل الأوربي ، ولم تخرجه عن يونانيته الموروثة، ولم تجرِّده من خصائصه التي جاءته من إقليم البحر المتوسط ، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغيِّر العقل المصري ، أو لم يغيِّر عقل الشعوب التي اعتنقته والتي كانت متأثِّرة بهذا البحر الأبيض المتوسط ." [٢]

والحقيقة التي يعترف بها طه حسين أن المسيحيَّة لم تغيِّر العقل الأوربي ليس كما يزعم ؛ وإنما لأن الأوربيين صاغوها صياغة أوربية كما بينا ، ثم يستنتج من هذه الفرضيَّة الخاطئة نتيجة أكثر خطأ وهي أن الإسلام العربي المشرقي لم يؤثِّر في العقليَّة المصريَّة الغربيَّة اليونانيَّة وغيرها من البلاد المطلَّة على البحر المتوسِّط وهي : (سوريا – لبنان– فلسطين– مصر – ليبيا – تونس – الجزائر– المغرب – الأندلس) !!

إن الحقيقة التي تتبدى لكلِّ من عنده درهم من عقل أو مثقال ذرة من فَهْم هي التغيير الجوهري الذي أحدثه الإسلام في كلِّ الشعوب التي آمنت به ولاسيما الشعوب المطلَّة على البحر المتوسط بالإضافة للعراق . [٣]

---

(١) د. طه حسين " مستقبل الثقافة في مصر " دار المعارف ص ٢٦
(٢) نفسه ص ٢٦
(٣) بعض الكتاب يعدون العراق إحدى البلاد التي كانت تتكلم العربية قبل الفتح الإسلامي مثل بلاد الحجاز واليمن ، والحقيقة أن العراق لم تتعرب كلها إلا بعد الفتح الإسلامي حيث كان معظم سكانها =

ويكفي أن نلقي نظرة عامة على أحوال هذه الشعوب السياسيَّة والاقتصاديَّة والعلميَّة والثقافيَّة قبل الإسلام وبعده حتى نكتشف أثر الإسلام العظيم في هذه الشعوب .

نعم لم يوحِّد الإسلام عقليَّة العرب المُستَعرِبَة والمُستَعْجَمَة ، إنما أصقل عقليَّة من آمن به وطهَّرها مما علق بها من أوهام عاقت انطلاقه وحدَّت من إبداعه فانطلق العقل العربي المسلم يضرب في كلِّ ميادين العلم والمعرفة لا يكتفي باستيعاب ما أنتجته الحضارات الشرقيَّة والغربيَّة من علوم ومعارف بل نهض بها فكانت الحضارة الإسلاميَّة منارة العالم وهادية البشريَّة ليس في مجال العلوم الدينيَّة فحسب بل في العلوم المَدَنيَّة والنفسيَّة تدبروا آيات الله الثلاث أو عوالم العلوم الثلاثة :

١- آيات كتاب الله المقروء (القرآن الكريم) .

٢- آيات كتاب الله المنظور (الكون) .

٣- آيات إعجاز الله تعالى في خلق الإنسان (العلوم الإنسانيَّة) .

عملاً بقوله تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [فصلت: ٥٣]

ومن مقتضى إشارات الله تعالى الكثيرة في القرآن الكريم والحديث الشريف لتدبر آياته الثلاث أنطلق المسلمون – ومعظمهم من العرب المُستَعْجَمَة شعوب جنوب ، وجنوب غرب البحر المتوسط – يكشفون علوم الآفاق : الفيزياء والكيمياء والأحياء والطب والفلك والهندسة والجغرافيا والرياضة والحساب .. والعلوم الإنسانيَّة التي تتضمن اللغات والأدب، والتاريخ، والفلسفة والديانات ، والقانون ، والسياسة والحكم والفنون البصريَّة والتعبيريَّة ... بالإضافة إلى علوم الدين وعلوم اللغة العربيَّة وعلوم الحديث الشريف ..

لقد كانت دعوة الإسلام لتدبُّر القرآن والكون والنفس حافزاً كبيراً للمسلمين ليطوِّرا حضاراتهم القديمة التي قضى عليهم الاحتلال الغربي الأوربي والشرقي

= ما عدا المناذرة الذين اتخذوا من الحيرة عاصمة لهم – يتكلمون اللغة الآرامية منذ حوالي سنة ٥٠٠ ق.م .استمرت اللغة الآرامية ومن بعدها السريانية حتى ٦٤٠ م. عندما بدأت اللغة العربية تسود المنطقة بعد الفتوحات الإسلامية .

الفارسي ويكونوا قبلة العالم علميّاً وحضاريّاً لنحو ألف عام في العصور الوسطى حيث كانت أوربا ترسف في أغلال الجهل والتخلّف ، وتتخبَّط في عصور الظلام .

ويعود طه حسين يلحُّ على فكرته إلحاحاً ويسوق الأدلة قسراً لتأكيد فكرته .

فيقول : " وإذن فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوربي يمتاز عن العقل الشرقي الذي يعيش في مصر وما جاورها من بلاد الشرق ، وإنما هو عقل واحد تختلف عليه الظروف المتضادة فتؤثِّر فيه آثاراً متباينة متضادة ، ولكن جوهره واحد وليس فيه تفاوت ولا اختلاف . " (١)

والحقيقة إن أهم ما يميز الشخصيَّة المصريَّة أنها شخصيَّة روحانية متديِّنة ، شخصيَّة وجدانيَّة رقيقة المشاعر في مقابل الشخصيَّة الأوربيَّة العقلانيَّة غير المتديِّنة وهذا فارق جوهري يدركه أي دارس للشخصيَّة المصريَّة والشخصيَّة الأوربيَّة ، ولقد ألَّف د. زكي نجيب محمود كتاباً في هذا الموضوع أسماه " الشرق الفنان " يقول فيه : " الشرق يدرك العالم بروحه لا بعقله أما الغرب فطابعه الأصيل العميق هو النظر إلى الوجود الخارجي بعقل منطقي تحليلي يقف عند الظواهر مشاهداً لها وهي تطَّرد وتتابع على هذه الصورة أو تلك فيجعل من هذه الاطرادات في الحدوث قوانين يستخدمها بعدئذ في استغلال الظواهر الطبيعيَّة على النحو الذي يرضيه ولا بدَّ لمثل هذه النظرة من السير في خطوات استدلالية تنتزع النتائج الصحيحة من مقدماتها الصحيحة وتلك هي نظرة العلم وهذه التفرقة التي تجعل من الشرقي فناناً يدرك الحقيقة بذوقه ومن الغربي عالماً يدرك الحقائق بالمشاهدة والتجربة والتحليل والتعليل لا تنفي بطبيعة الحال أن يكون في الشرق علماء ، ولا أن يكون في الغرب رجال دين وفن لكننا نطلق القول على وجه التعميم الواسع الذي يفسر بعض التفسير ما هو شائع على الألسنة من وصف الشرق بالروحانيَّة ووصف الغرب بالماديَّة "(٢)

ويخلُص طه حسين من كل ذلك إلى نتيجة غاية في الخطورة فيقول تحت عنوان: "وجوب الصراحة في الأخذ بأسباب الحضارة الأوربيَّة " لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالاً ، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفَّقة ،

---

(١) د. طه حسين " مستقبل الثقافة في مصر " مرجع سابق ص ٣٠

(2) د. زكي نجيب محمود " الشرق الفنان " ص ٤ الهيئة العامة للكتاب .

وإنما هي واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي واحدة فذة ليس لها تعدُّد وهي : أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً؛ ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومُرِّها ، وما يحبُّ منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب .

ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع . والغريب أنا نسير هذه السيرة ونذهب هذا المذهب في حياتنا العمليَّة اليوميَّة ، ولكننا ننكر ذلك في ألفاظنا وعقائدنا ودخائل نفوسنا ، فنتورَّط في نفاق بغيض لا أستطيع أن أسيغه ولا أن أسكن إليه . إن كنَّا صادقين فيما نعلن ونسر من بغض الحياة الأوربيَّة فما يمنعنا أن نعدل عنها عدولاً ونصد عنها صدوداً ونطرحها إطراحاً ؟ وإن كنا صادقين فيما نقدم عليه كل يوم وفي كل شي من أثناء حياتنا العمليَّة من تقليد الأوربيين ومجاراتهم فما يمنعنا أن نلائم بين أقوالنا وأعمالنا وبين آرائنا وسيرتنا ، فإن هذا النفاق لا يليق بالذين يكبرون أنفسهم ويريدون أن يرتقوا بها عن النقائص والدنيَّات ؟ " (١)

هذا غاية ما يرمي إليه طه حسين أن نحذوا حَذْو أوربا حذو النَّعْلِ بالنعل وإلا كنَّا منافقين نعلن كرهنا للأوربيين ونأخذ عنهم كلَّ علومهم وفنونهم !
ونحن لا نكون منافقين حين نتمسَّك بديننا وثقافتنا وهو أفضل ما نملكه ونعتز به ونأخذ من الغرب ما ينقصنا من علم وتكنولوجيا وهو أفضل ما عندهم إنما نكون تابعين أغبياء عندما نقلِّد الغرب تقليداً أعمى في خيره وشرِّه ، حلوه ومُرِّه ، وما يحبُّ منه وما يكره ، وما يحمد منه وما يعاب .

ثانياً : الأورمتوسطون الكارهون للعرب سلامة موسى نموذجاً

وإذا كان طه حسين لا يجاهر بعدائه للعرب والإسلام وإن كان يجاهر بحبه للغرب حلوه ومره فإن سلامة موسى يجاهر بكرهه للعرب ويغمز الإسلام !!

يقول سلامة موسى (١٨٨٨ – ١٩٥٨م) " كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة ، وتوضَّحت أمامي أغراضي .. وهي تتلخص في إنه : يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوربا فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له ،

(١) د. طه حسين " مستقبل الثقافة في مصر " مرجع سابق ص ٣٩

وشعوري بأنه غريب عني . وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها ، وتعلقي بها ، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها .

- أريد تعليمات أوربا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه .
- وحكومة كحكومات أوربا .. لا كحكومة هارون الرشيد والمأمون .
- وأدباً أوربيّاً .. أبطاله مصريون .. لا رجال الفتوحات العربيَّة ..
- وثقافية أوربيَّة .. لا ثقافة الشرق .. ثقافة العبوديَّة والذل والتوكل على الآلهة .
- واللغة العاميَّة .. لغة الهكسوس .. لا اللغة الفصحى ، لغة التقاليد العربيَّة والقرآن .
- والتفرنج في الأزياء ، لأنه يبعث فينا العقلية الأوربية .
- هذا هو مذهبي ، الذي أعمل له طول حياتي ، سراً وجهرة .. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب .. ، لأنه إذا كانت الرابطة الشرقيَّة سخافة ، فإن الرابطة الدينيَّة وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين " (١)

وإذا كان كلام طه حسين يحسن الرد عليه – وقد فندناه – فإن ترَّهات سلامة موسى خير من أجابتها السكوت .

ثالثاً : التوجه المتوسطي في إطار الاتجاه القومي العربي

سوف نعرض لرؤية مفكرين مصريين من ذوى الاتجاه العربي لمصر، وهما د. سليمان حزين ، ود .جمال حمدان ، وهما يركزان وإن اختلفت الأسس التي يقوم عليها تحليل كل منهما على أن التوجه المتوسطي لمصر، يأتي في نطاق دورها العربي، ونعرض أولا لأفكار د. حزين ثم د. جمال حمدان .

١- رؤية سليمان حزين للتوجه المتوسطي لمصر

يحدد د. سليمان حزين جذور الثقافة المصريَّة بقوله أنها ثلاثيَّة الجذور، فهناك البيئة المصريَّة الأفريقيَّة والنيليَّة التي خرجت منها الثقافة المصريَّة مستندة إلى أصول البيئة في أرض الكنانة بوادي النيل الأسفل، وهناك البيئة العربيَّة في شبه

(١) سلامة موسى " اليوم والغد " ص ٥-٧ .

جزيرة العرب، وهى التي خرجت منها الأصول الحاميَّة والساميَّة ثم الإسلاميَّة ووصلت إلى مصر، واختلطت ببعض أصولها الأولى وتبنتها لتنشرها على العالم الإسلامي كله، ثم هناك بيئة البحر المتوسط واليونان وما وراء ذلك في غرب أوروبا وهى التي أضافت إلى ملامح الحضارة والثقافة المصريَّة، ولكنها لم تطمس معالمها الأصيلة المصريَّة والعربيَّة وإنما أضافت إليها ما أثراها على مر الزمان وعلى طريق المستقبل . (١)

بالنسبة للجذر الأوَّل الذي تحدَّث عنه د.حزين : البيئة المصريَّة الأفريقيَّة والنيليَّة التي خرجت منها الثقافة المصريَّة نقول : إن البيئة لا تصنع حضارة ، ومصر ليست هبة النيل ولا الطبيعة المصرية كما زعم هيرودوت ، والحضارة المصريَّة القديمة ليست هبة المصريين وحدهم كما زعم جمال حمدان فالحقيقة أن الحضارة المصريَّة القديمة هبة الله للمصريين فالله تعالى هو الذي أرسل إدريس إلى مصر فعلَّمهم التوحيد كما علمهم العلوم التي بنوا بها حضارتهم كما سيأتي تفصيله في الفصل الأخير .

أما بالنسبة للجذر الثاني : البيئة العربيَّة في شبه الجزيرة العربيَّة ، فإن كلَّ الأمم والشعوب زعمت أن المصريين القدماء ينتسبون إليها !

يقول عالم الأجناس الطبيب إليوت سميث : " أنه ليس هناك مكان في العالم لم يدَّع عنه كاتب أو آخر أنه مصدر قدماء المصريين " (٢)

وإن كان لابد من أن ننسب مصر لجنس من الأجناس فنحن سلالة إدريس عليه السلام ، وهي سلالة كانت قبل أولاد نوح الثلاثة التي يزعم مؤرخو أهل الكتاب والعلمانيون أن البشر يُنْسَبُون إليهم جميعاً بدعوى أن البشريَّة قد أبيدت عن بكرة أبيها ولم يبق منها إلا من ركب السفينة وهو نوح وأولاده الثلاثة : حام ، وسام ، ويافث وأولادهم وأحفادهم .

أما عن اختلاط العرب بالمصريين قبل الفتح وبعده وتقارب الشخصيتان العربيَّة والمصريَّة فالحقيقة أن الشخصيَّة المصريَّة تختلف عن الشخصيَّة العربيَّة ، وإن

---

(١) نقلاً عن محمد سعد أبو عامود " التوجه المتوسطي في الفكر السياسي المصري " موقع الأهرام الرقمي ١/ ٤ / ١٩٩٦

(٢) نقلاً عن محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ص ٩١ .

كانت هناك بعض الهجرات العربيَّة لمصر قبل الإسلام أو بعده فإنها قطرات مطـر احتواها نيل مصر العظيم .

أما الجذر الثالث : بيئة البحر المتوسِّط واليونان وما وراء ذلك في غرب أوربا، فليس هناك تشابه بين الشخصيَّة الأوربيَّة وبين الشخصيَّة المصريَّة في العقليَّة والنفسيَّة كما زعم طه حسين إنما هناك تأثير حضاري علمي ثقافي بين أوربا ومصر؛ فقد تتلمذ علماء اليونان الذين أقاموا حضارتها القديمة على يد المصريين القدماء ، وما قامت الحضارة اليونانيَّة القديمة إلا على ما تعلَّمته من الحضارة المصريَّة القديمة وهذا من المسلمات لا ينكرها دارس عربي أو غربي ، ولمَّا وقعت مصر فريسة بين كيد الأعداء الخارجيين وضعف وفساد الأبناء ردت اليونان الجميل لمصر وفتح الإسكندر الأكبر مصر وطهَّرها من الفرس الطغاة الكافرين وأعادت الحضارة الهلنستية (المصريَّة / البطلميَّة) بعضاً من مجد مصر القديم المبني على العلم والإيمان .

إن رؤية سليمان حزين للبعد المتوسطي لمصر، تأتي بوصفه أحد مكونات الدور المصري في المنطقة العربيَّة بصفة أساسيَّة، وليس بوصفه بعداً مستقلاً عن الإطار العربي ، إلا أنه يوضِّح من ناحية أخرى أن هناك علاقة تأثير ذات طابع استراتيجي متبادل بين مصر والبحر المتوسط، فإن كان موقع مصر قد برز من خلال حدث متوسطي كموقع هام ومؤثر، إلا أن التفاعلات المصريَّة كان لها أثرها بعد ذلك على هذا البحر من حيث فقدانه أهميته كممر بحري لحركة التجارة العالميَّة أو استرداده لها بعد ذلك. (١)

٢- جمال حمدان والبعد المتوسطي في إطار الاتجاه العربي

أما جمال حمدان أحد دعاة البعد المتوسطي في إطار الاتجاه العربي القومي فيرى أن هناك أربعة أبعاد في توجيه مصر، الآسيوي والأفريقي على مستوى القارات، والنيلي والمتوسطي على المستوى الإقليمي، وهذه الأبعاد يتداخل بعضها في بعض كما يفعل النيلي والأفريقي، ويتداخل المتوسطي مع البعد الأوروبي، غير أن الكل يتداخل مع الإطار العربي الكبير .

---

(١) محمد سعد أبو عامود " التوجه المتوسطي في الفكر السياسي المصري " مرجع سابق .

يقول جمال حمدان عن البعد المتوسطي : " إن البحر المتوسط بُعْدٌ من أبعاد التوجه المصري ، قضيَّة لا يمكن بداهة أن تكون خلافيَّة . فالنيل إذ ينحدر شمالاً ليصبَّ فيه ، والحياة المصريَّة إذ تجري مع النيل نحوه ، فإن مصر برمتها تتوجه إليه وتتطلَّع نحو الشمال . والبلد إذ يطل عليه بجهة بحريَّة مشرفة مترامية نوعاً ، وإذ يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة ، أو بالأصح الضلع الوحيد الحي الذي يتصل مباشرة بالمعمور المصري باعتبار الضلع الغربي ميتاً والجنوبي والشرقي شبه ذلك" (١)

مناقشة آراء جمال حمدان في شخصيَّة مصر

الحقيقة إن جمال حمدان يميل دائماً في كتابه شخصيَّة مصر إلى الاستدلال ببعض الظواهر الجغرافيَّة لبيان رؤية فكريَّة ، كما يميل إلى استخدام تعبيرات مجازية يقرب بها فكرته ، ولكن أحياناً تكون تعبيراته المجازيَّة واستدلالاته ببعض الظواهر الجغرافيَّة على رؤاه الفكريَّة غير دقيقة كما في الفقرة السابقة؛ فهو يستنتج من اتجاه حركة مياه النيل نحو الشمال كظاهرة جغرافيَّة رؤية فكريَّة وهي توجُّه مصر نحو البحر المتوسط وتطلعها نحو الشمال ! ويطلق على البعد المتوسطي الضلع الحي في مقابل الأضلاع الثلاثة الأخرى العربيَّة الميِّتة أو شبه الميِّتة !

ونهر النيل يتجه نحو الشمال منذ الخليقة ، ومصر لم تتطلع نحو الشمال إلا في العصر الحديث إبان النهضة ؛ فتاريخ مصر القديم يؤكد اتجاه مصر نحو الشرق غالباً ونحو الجنوب والغرب أحياناً ، ولم تتطلع نحو الشمال أبداً ؛ فما كان في الشمال المتوسطي خيراً يرجى إنما كان العكس فإن الشمال كان طامعاً أبداً في مصر ؛ فعندما كان جاهلاً - قبيل نشأة الحضارة اليونانيَّة - طمع في التعلم والتحضر ، وعندما قوي عسكريّاً طمع في الغزو والسلب والنهب ولقد احتل مصر نحو ألف سنة قديماً دمر فيها الحضارة المصريَّة القديمة وسام مصر سوء العذاب ولا سيتثنى من الألف عام إلا مائة عام فقط هي فترة حكم البطالمة الأوائل الذين ساروا على نهج الإسكندر الأكبر (ذو القرنين) من ٣٢٣ إلى ٢٢٢ ق.م فقد كانت فترة رخاء وثراء وقوة .

---

(١) جمال حمدان " نحن وأبعادنا الأربعة " مكتبة مدبولي ص ٩١

وفي العصور الوسطى كانت مصر لا تنظر إلى الشمال (أوربا) إلا نظرة ازدراء واستهجان بسبب فساد عقائدهم ، وتخلفهم ، وحملاتهم الصليبية التي بلغت تسع حملات امتدت لقرنين (١٠٩٦- ١٢٩١م) استولوا فيها على بعض الإمارات العربيَّة منها القدس وارتكبوا فيها من المذابح والجرائم ما يندى له الجبين .

والشرق كله لا يرى في الحروب الصليبية إلا أنها كانت حروب استعمارية، وتتلخص في الذاكرة الجماعيَّة بأنها دمويَّة، إقصائيَّة بالإضافة لكونها استغلاليَّة انتهازيَّة سعى قادتها من الفرنجة إلى تطويع إيمان البسطاء للسيطرة على ثروات ومقدرات الشرق ، ويرى المسلمون في شخصيات : صلاح الدين والظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون أبطالاً محرِّرين، وكذلك يرى الأوروبيون الشخصيات المشاركة في الحروب الصليبية أبطالاً مغامرين محاطين بهالة من القداسة، فيعتبر لويس التاسع قديساً ويمثل صورة المؤمن الخالص في فرنسا، ويعتبر ريتشارد قلب الأسد ملك صليبي نموذجي، وكذلك فريدريك بربروسا في الثقافة الألمانيَّة.

كما ينظر إلى مسمى حملة صليبيَّة في عديد من الثقافات الغربيَّة نظرة إيجابيَّة على أنه حملة لأجل الخير أو لهدف سامي ويعمم المصطلح أحيانا ليتخطى الإطار الديني، فقد ترد عبارات كـ " بدأ فلان حملة صليبيَّة لإطعام الجياع " ، كما استخدم المصطلح من قبل الرئيس الأمريكي جورج بوش لوصف ما أسماه الحرب على الإرهاب في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في عبارة مثيرة للجدل :

"This crusade, this war on terrorism is going to take a while."

أي "هذه الحملة الصليبيَّة، هذه الحرب على الإرهاب يستلزمها وقت "

أما في العصر الحديث فإن صورة أوربا ترتبط دائماً بصورة الإمبرياليَّة العالميَّة ترتبط بالحملة الفرنسيَّة وحملة فريزر والاحتلال الإنجليزي وقيام دولة إسرائيل والدعم الغربي المتنامي المستدام لها ولأطماعها ...

حتى الذين تطلَّعوا إلى الشمال تطلَّعوا إلى علومه الحديثة فحسب وكرهوا سياسته الاستعماريَّة ، وإباحيَّته الأخلاقيَّة ، وعلمانيَّته اللادينية.

نعود لجمال حمدان والبعد المتوسطي " يوضع البعد المتوسطي في مرتبة أدنى بالضرورة بين أبعادنا وفي تاريخنا بحيث يصعب أن يوضع تماماً على قدم المساواة وعلى نفس المستوى . فتوجهنا الجغرافي أرضي أكثر مما هو مائي وتاريخنا بـرِّي بمقدار ما أنه تاريخ نهري وأكثر مما هو بحري . " (١)

ثم يقول حمدان في موضع آخر : " إن مصر تتأثَّر بمصاير البحر المتوسط أكثر مما تؤثِّر فيه ، وإن كانت أهم حلقة تتحكم فيه . ولهذا كله تظل معطيات النظريَّة ، ويظل البحر المتوسط بعداً محورياً من أبعادنا ، وإن كان من الصعب أن يعد الأهم على الإطلاق " (٢)

وكلام حمدان هذا يعد تراجعاً عن كلامه السالف فبعد أن قال إن مصر تطلع دائماً إلى الشمال ، وأن ضلعها الشمالي هو الضلع الوحيد الحي عاد يقول إن مصر دائماً تتصل باليابس الشرقي والغربي والجنوبي أكثر من اتصالها بالشمال المفصول بالمانع المائي ، وأن الضلع الشمالي لمصر من الصعب أن يكون الأهم على الإطلاق .

ويعود حمدان فيرد على طه حسين الذي يرى أن مصر جزء من حضارة البحر المتوسط فيقول : " البعض من مثقفينا يود أو ودَّ يوماً أن يجعلنا جزءاً من حضارة وعالم يتصورونه هو البحر المتوسط . ومنهم من عبَّر عن هذا بالدعوة إلى أن نتجه إلى البحر وأن نعطي ظهرنا للصحراء .. غير أن هذا الاتجاه أدنى في الحقيقة أن يكون " رجعة " تاريخية إلى نظرية سادت وروَّج لها الكثيرون في الغرب . ولكنها حتى في ذلك الغرب أصبحت اليوم بالية أو شبه ذلك .

والإشارة هنا بطبيعة الحال إل نظرية " بيرين " الشهيرة عن " وحدة البحر المتوسط " الكلاسيكيَّة التي يفترض أن الاستعمار الإغريقي ثم الروماني حققاها بالقوة بين شاطئ البحر الشمالي والجنوبي حين كان شمال إفريقيا من جبل طارق إلى السويس بل الإسكندرية خاضعاً لهما . ولكن من الواضح أن تلك كانت وحدة قهرية مفروضة من طرف واحد ، وسلبيَّة من الطرف الآخر ولا يمكن أن تحسم علاقة .

---

(١) جمال حمدان " نحن وأبعادنا الأربعة " مكتبة مدبولي ص ٩٤
(٢) نفسه ص ١٠٠

ومن المعروف أن بعض الكتَّاب الاستعماريين في عصرنا هذا تلقَّفوا النظرية من جانبهم وعملوا على بعثها وإشاعتها لأهداف سياسية بعيدة وهي توجيه المنطقة، سواء مصر أو غير مصر من دول البحر العربيَّة ، وتوجيهاً أوروبيّاً يجرها إلى عجلتها السياسيَّة أو على الأقل حتى تتطلع إلى أوربا كقبلة حضاريَّة كذلك فقد تبنَّت الدعوة بعض الأقليات أو الانفصاليات العربيَّة في بعض الدول العربيَّة نفسها ، تلك التي حاولت أن تتَّخذ من المتوسطيَّة بديلاً عن العروبة أو أن تقدمها كمصل مضاد للعربيَّة .

والواقع أن أبرز أو أخطر ما في نظرية وحدة البحر المتوسط أنها تكاد تفصل إفريقيا شمال الصحراء عن بقية القارة . " (١)

وحمدان هنا يعود فيقلِّل من أهمية البعد المتوسطي أو الأوربي ويَعُدُّ نظرية "وحدة البحر المتوسط " نظرية بالية ، وأن الداعين إلى توجيه مصر أوربيّاً انفصاليون بل عملاء للاستعمار الأوربي .

ومع ذلك يعود فيقول : " ومن الناحية الموضوعيَّة ، فلا مجال للخلاف على أن شمال إفريقيا في معظمه هو جيولوجيّاً ومورفولوجيّاً جزء من النظام الألبي الذي يرتكز أساساً على جنوب أوروبا ويلف البحر المتوسط لفاً . كذلك فإن مناخ ونبات البحر المتوسط يميِّز شمال القارة عن بقية جنوب الصحراء ويكاد من هذه الزاوية يضمها إلى أوروبا المتوسطيَّة .

حتى من الناحية الجنسيَّة البحتة ، فإن إفريقيا شمال الصحراء هي الشريحة القوقازيَّة ، وبالدقة المتوسطيَّة . الوحيدة في إفريقيا ، وتكمل بذلك الجنس الأوربي الأبيض أو المتوسطي الأسمر على الجانب الآخر من البحر . كذلك تشارك الضفتان في حضارة واحدة أساساً أصولاً وميولاً ، مثلما تشابكا في العلاقات التاريخيَّة إن سلماً أو حرباً ولا ننسى قبل هذا كله وبعده وخلفه عامل القرب الجغرافي فكما يفصلنا البحر المتوسط عن أوربا . تفصلنا الصحراء الكبرى عن إفريقيا . بل ولمَّا كانت الصحراء ضعف البحر عمقاً على الأقل ، وأضعافه عزلاً في الواقع نجدنا أقرب إلى أوربا منا إلى إفريقيا بالموقع والمسافة .

(١) جمال حمدان " نحن وأبعادنا الأربعة " مكتبة مدبولي ص ١٠١، ١٠٢

فالجزء الأكبر من أوربا أقرب إلينا في مصر مثلاً من حيث المسافة من أي نقطة في إفريقيا جنوب الصحراء .

هذا عن المسافة الجغرافيَّة البحتة أو جانب الكم إن شئت ، ولكن الكيف أو التفاعل الإقليمي لا يقل خطورة ، فتاريخيّاً وعلى الجملة ، فلقد كانت إفريقيا شمال الصحراء بحكم هذه الصحراء نفسها ، تتطلع إلى وتتفاعل مع ، حوض البحر والشاطئ الأوربي بقدر ما كانت تعطي ظهرها للقارة . ولا شك أنها أقرب في نواحي كثيرة إلى أوربا المواجهة منها إلى القارة الأم " (١)

وهنا يبدو حمدان أورمتوسطيّاً أكثر ممن عاب عليهم توجههم المتوسطي كطه حسين ، فطه حسين لم يقل إن مصر أورمتوسطيَّة جنسيًّا وأرومة كما قال حمدان إنما قال إنها متوسطة عقلاً وشعوراً ، والحقيقة أن كلام حمدان في حديثه عن أبعاد مصر الأربعة مضطرب غاية الاضطراب ومتضارب أحياناً تضارباً بيّناً ، ولقد أطلت في النقل عنه لبيان ذلك وحتى لا أتهم باجتزاء كلامه وإخراجه عن سياقه ، وأنا حقيقة ممن يقدِّرون إسهامات حمدان وأعدُّه من خيرة علمائنا الأفذاذ ، ولكن حبي له لا يمنعني أن أختلف معه ، وأهدي إلى الباحثين عيوبه كما أتمنى أن يهدي إليَّ الباحثون عيوبي فكل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب الرسالة الخاتمة عليه الصلاة والسلام .

وبعد أن استفاض حمدان في الحديث عن مدى التقارب بين مصر وأوروبا المتوسطيَّة جغرافيّاً وجيولوجيّاً ومورفولوجيّاً ومناخيّاً وزراعيّاً ، ووحدة مصر وأوروبا المتوسطيّة جنسيّاً ، ومشاركتها لها حضاريّاً أصولاً وميولاً بعد كل هذا عاد يقول تحت عنوان " البعد التوسطي الأوربي " : " من هذا كله تتضح أبعاد الموقف . فلا جدال أن البحر المتوسط بُعد ، وبُعد هام للغاية ، في توجيهنا الجغرافي ؛ فهو نافذة لمصر على الشمال ، وضابط إيقاع لنبضها الحضاري والمادي أو كما يوجز بيتري ، مراحل موجات الحضارة كانت واحدة ومتماثلة في مصر وأوربا إلى قرن مضى ، والمتوسِّط ومصر من ثم يؤلِّفان مجموعة واحدة في تاريخ الحضارة .

---

(١) جمال حمدان " نحن وأبعادنا الأربعة " مكتبة مدبولي ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

غير أن من الواضح بعد هذا ، ربما بحكم الانقطاع الأرضي أن ذلك توجيه متقطع يشتد حيناً ويضعف حيناً ، أي متذبذب (١) بين شد وجذب . ثم عن دور مصر فيه الآن استقبال أكثر مما هو إرسال ، وإن كانت العلاقة عكسيَّة في التاريخ القديم ، كما أن دوره هو في كيان مصر ربما تضاءل على مر التاريخ باطراد ، وذلك لأن دور البحر المتوسِّط ككل قد قلَّ نسبيّاً مع اتساع العالم ومنذ أصبح المحيط الأطلسي هو البحر المتوسِّط الجديد .

أما ما نرى من خطورة علاقاتنا بأوربا المعاصرة عن طريقه فهي لا تجعل منها إلا محطة طريق أكثر منها محطة وصول . فبرغم أن الجزء الأكبر من تجارتنا الخارجيَّة وعلاقتنا الحضاريَّة تعبر البحر المتوسط اليوم ، فإن نصيب دولة منها محدود إلى حد بعيد ، ومعروف كقاعدة عامة في التجارة الدوليَّة أن العلاقات التبادلية بين كل دول الحوض ضعيفة بصورة ملحوظة لتشابه الإنتاج فيه . (٢)

وهكذا بعد أن بيَّن حمدان مدى الارتباط الجنسي والتاريخي والجغرافي بين مصر وأوربا المتوسطيَّة عاد يقول عن أوربا ما هي إلا محطة طريق أكثر منها محطة وصول ، والمشكلة أن غرام حمدان بالعبارات البلاغيَّة والمجازيَّة ، رغم أنه يكتب في مجال العلم ، قد أوقعه في بعض التناقض ؛ والاهتمام بلفظ العبارة وإيقاعها جاء أحياناً على حساب معناها ، والأسلوب الأدبي الذي يؤثِر الكتابة به جاء على حساب دقة البحث العلمي .

ويتضح ذلك جليّاً في خلاصة قوله عن البعد المتوسطي : " فبصورة عامة ، بعدنا المتوسطي حضاري أكثر مما هو طبيعي ، واقتصادي أكثر مما هو بشري ، ويتركَّز في الحوض الشرقي أكثر مما يرتبط بالحوض الغربي وهو في هذا قد يكون النقيض المباشر أو الجزئي للبعد الإفريقي . فهذا طبيعي أكثر بينما المتوسطي حضاري أكثر ، والإفريقي كذلك بشري أكثر حيث المتوسطي اقتصادي أكثر . على أن البعدين في الوزن الصافي وربما كانا متساويين تقريباً وأقرب إلى التكافؤ ."(٣)

---

(١) متذبذب ككلام حمدان عن أبعاد مصر وخاصة البعد الأورمتوسطي .
(٢) جمال حمدان " نحن وأبعادنا الأربعة " مكتبة مدبولي ص ١٠٤ ، ١٠٥
(٣) نفسه ص ١٢٣ .

وبسبب حرص حمدان الشديد على صياغة عباراته بطريقة أدبيَّة نـاقض نفسه وعكس كلامه فيقول إن البعد المتوسطي ثقافي أكثر منه طبيعي ، وقد ذكر قبل ذلك أنه طبيعي وجيولوجي ، ثم يقول وهو اقتصادي أكثر منه بشري وقد ذكر قبل ذلك أنه بشري وأن مصر شريحة قوقازية تكمل الجنس الأوربي ، وقال إن مصر ترتبط بحوض الشرق أكثر من حوض الغرب ، وأن البعد الإفريقي طبيعي أكثر من الأوربي وقد قال عكس ذلك تماماً وأقام الأدلة على مدى تقارب مصر جغرافيّاً ومناخيّاً من أوربا وبعدها عن إفريقيا ، بعد أن استفاض في تقارب مصر أوربيّاً عنه إفريقيا ختم عبارته بقوله على أن البعدين في الوزن الصافي وربما كانا متساويين !!

وفي موضع آخر يقول : " فرغم كل شيء ، ورغم الماضي التعس مراراً ومرارة الذكريات أحياناً فإن الذي يربطنا بأوربا أقوى بكثير جداً ، وعلى الأقل، فإن أوربا أقرب إلينا من إفريقيا ليس بقياس المسافة الجغرافيَّة البحتة ولكن بكل المقاييس . فتاريخيّاً وحضاريّاً وسياسيّاً بل وجنسيّاً فإن أوربا الأقرب بلا مناقشة . طبيعي جداً بهذا كله أن نكثِّف علاقتنا مع المتوسِّط وأوروبا . " (١)

وبعد أن كان البعد الأورمتوسطي هو البعد الحي الوحيد ، باعتبار الضلع الغربي ميتاً، والجنوبي والشرقي شبه ذلك بنص عبارته الأدبيَّة عاد يقول : "أيا ما كان فيبقى في النهاية أن البعد المتوسطي بهذا المقياس وعلى خطورته وأهميته هو بعد تكميلي نوعاً أو هو على الأقل لا يرقى إلى مستوى البعد الآسيوي أو النيلي الذي هو أسبق وأثبت ، وإن كان لا يقل بحال عن البعد الإفريقي إن لم يزد ، كما لا يجوز علميّاً أن يوضع في مقابل العروبة أو العربيَّة . ومن الناحية الأخرى فإن من المحقق أن البعد المتوسطي في حياة مصر كان يمكن أن يكون أكبر واخطر لولا أننا أهملناه كجزء من إهمالنا العام للبحر حيث استغرقتنا العقليَّة البريَّة استغراقاً شديداً . ولعلنا لا نغالي إذا قلنا : إن دور البحر المتوسط في مصر أقل منه في معظم بلاد الحوض . ويكفي في هذا الصدد أن نقارن بالشام أو المغرب فضلاً عن أشباه الجزر الأوربية الثلاث.(٢)

---

(١) نفسه ١١٦، ١١٧ .
(٢) نفسه ص ١١٨.

ويعود حمدان مرة ثانية يناقض نفسه ويرى أن شمال أفريقيا (شمال الصحراء الكبرى) يتطلع إلى أوربا وأقرب إلى أوربا من نواحي كثيرة ولم يدلل لنا تاريخيّاً متى كان هذا في العصر القديم والوسيط والحديث وما نوع التطلع المصري إلى أوروبا وما تأثيره وقد سبق أن رددنا على كلام حمدان هذا من قبل ولا داعي للتكرار ، وإن كان هو يكرر الحديث فيه .

بعد أن عرضنا لآراء جمال حمدان وتحليله المفصل للبعد المتوسطى بالنسبة لمصر، نعرض للاتجاه الرابع :

الاتجاه الرابع : التوجه الأورمتوسطى والعلاقات الدوليّة المصريّة

وسوف نبحث في هذا الاتجاه الأفكار المتعلِّقة بالتوجُه المتوسطي في الفكر السياسي المصري، من خلال تحليل عينة من النتاج الفكري للباحثين المصريين في مجال العلاقات الدوليَّة .

المتوسطيّة كبديل مقترح للمستقبل

تناول عدد من الباحثين المصريين موضوع المتوسطيَّة بوصفه أحد البدائل المقترحة لإقامة نوع من أنواع التكتل الإقليمي الذي يمكن أن تنتظم من خلاله التفاعلات السياسية والاقتصادية والثقافية في المنطقة .

ويرى لطفي الخولي أن البديل المتوسطي يمكن أن يحقِّق مصالح بلدان الشرق الأوسط بصورته التقليدية ومنها :

١- بناء مركز تفاوضي قوى لدول المتوسط شماله وجنوبه في مواجهة التكتلات الاقتصادية الكبيرة .

٢- استفادة دول جنوب المتوسط من حجم ونوعية التطور الاقتصادي والتكنولوجي لبلدان أوروبا المتوسطيَّة .

٣- يمكن أن يحقق البديل المتوسطي التوازن في علاقات القوة بين الدول العربية والبلدان غير العربية في الشرق الأوسط .

٤- نظام الأمن والتعاون المتوسطي يوفر كما لم يحدث من قبل رادعاً خاصاً ضد إسرائيل النووية .

٥- النظام الأمني بأبعاده الأوروبيَّة وصورته الجديدة في الشرق الأوسط من شأنه أن يوفِّر حلولاً ممكنة التطبيق للمشكلات الأمنيَّة العويصة التي تفجرت في المنطقة .

وهناك اتجاه معارض للبديل المتوسطي والبدائل الأخرى باعتبارها في مجملها تمثل إلغاء للبديل العربي، في هذا الاتجاه يذكر د. عبد الملك عودة وجميل مطر أن معظم البدائل المطروحة متداخلة العضوية وتقوم على أساس الجوار الجغرافي وهو ما يمثل عودة على بدء لسياسات ما قبل ١٩٥٢م حين تنافست في السياسة المصرية تيارات العروبة والشرق الأوسط والاتجاه شمالاً نحو البحر المتوسط، ويرى د. عودة أن التصوُّر الرسمي المصري المطروح يقوم على أساس محورية متوقعة للدور المصري فمصر هي قلب الدائرة العربيَّة، والدائرة العربيَّة هي القلب النابض للدائرة الشرق أوسطيَّة والدائرتان سوف تكوِّنان القلب النابض للدائرة المتوسطيَّة، في حين نلاحظ أن الاتحاد الأوروبي لديه الرغبة والتصوُّر للقيام بدور القلب النابض للدائرة المتوسطيَّة، كما أن الشركة الإسرائيليَّة الأمريكيَّة ترغب وتتصور القيام بدور القلب النابض في الدائرة الشرق أوسطيَّة، وهذان التصوران يقومان على تقدير عملي وهو أن الدائرة العربيَّة يسودها التردد والتشتت .

ويرى جميل مطر أن العرب ينتقلون بوعي أو بدون وعى نحو مرحلة تأسيس النظام المتشابك الأقاليم لأنه يقوم بتجزيء العرب إلى أجزاء جغرافية منفصلة ومتشابكة في آن واحد، جزء كبير منهم في الإقليم الشرق أوسطى، وبعض هذا الجزء مع جزء آخر في الإقليم المتوسطي، والإقليمان الأوسطي والمتوسطي بدأ فعلاً في تأدية عملهما وترسيخ قواعدهما، ويبقى الإقليم العربي الذي انشغل الجميع عنه بالأوسطيَّة والمتوسطيَّة فقرروا تجميده ووقف نشاطه وتفسيخ قواعده وحرمانه من تأدية وظائفه .

أما السفير صلاح بسيوني فيرى أن أغلبيَّة الدول العربيَّة تركز الآن نشاطها وفكرها حول الشرق أوسطيَّة والتعاون المتوسطي بحيث تتوارى الخلافات العربية خلف الواجهة الأوسطيَّة والمتوسطيَّة، إلا أن هناك بعداً في غاية الخطورة وهى أن هذه المشاريع الجديدة التي تفرض نفسها هي جزء لا يتجزأ من النظام الجديد في

المنطقة والذي يقوم على خطين متوازيين وهما السلام الشامل والتعاون الإقليمي، ثم خطط وأهداف أبعد من المقترحات المعلنة الآن والتي تهدف إلى قيام نظام أمن جديد في إطار حلف أمنى جديد تكون الغلبة والسيطرة فيه لتركيا وإسرائيل ويضم عراق جديد، أي عودة مرة أخرى إلى حلف السنتو ليشكل طوقاً من نصف دائرة شرق أوسطية تفصل المشرق العربي عن المغرب العربي، ويكون محور هذا الحلف هو ضمان سياسي واقتصادي وأمنى في الخليج وحصاراً إقليميّاً لإيران ورباطاً بين الخليج وإسرائيل وعزلاً للدور المصري الإقليمي وبحيث تجد مصر نفسها بين مشرق أعيد تنظيم أوضاعه وبين مغرب له أوضاعه ومستقبله المرسوم، ثم مواجهة مع الجنوب في السودان والقرن الأفريقي بكل ما فيه من توتر وخلافات.

ويقدم لطفي الخولي ردّاً على مخاوف جميل مطر وصلاح بسيوني من خلال ما يطلق عليه استراتيجية الدوائر المتقاطعة المفتوحة والدائمة التحرك بمرونة تتجاوز النماذج المتصلبة والأبدية، وهى التي أثبتت نجاحها عالميّاً وذلك مقابل استراتيجية الدوائر الثابتة المتطابقة المغلقة على نفسها التي انتهت إلى فشل درامي في الاتحاد السوفيتي ومجموعة بلدان أوروبا الشرقية الاشتراكية، وتحقق هذه الاستراتيجية لكل عضو فيها استقلالاً عن الآخر، في جزء من دائرته الوطنية أو القومية، وفى الوقت نفسه يتقاطع مع دائرة أو دوائر أخرى حول مصالح مشتركة تضيق أو تتسع حسب الظروف ولكنها لا تستقل ولا تنعزل تماماً ، وتنشئ نتيجة لذلك نماذج لنظم مختلفة من الأمن والتعاون في حدود تقاطع الدوائر وبالتالي تصبح على قدر من المرونة وإمكانية التكيف والتغيير، من دون عنف أو تكلفة باهظة مع متطلبات حركة الأحداث الموضوعية، ويصل إلى أنه لا سبيل إلى الأمن الوطني لكل بلد عربي على حدة وللأمن القومي العربي إلا بانتهاج استراتيجية الدوائر المتقاطعة المرنة المفتوحة: دائرة البلد العربي الواحد، دوائر المجموعات الإقليمية المحدودة، دائرة النظام العربي، دوائر البلدان الشرق أوسطية غير العربيَّة، وأخيراً الدائرة المتوسطيَّة .

بعد أن عرضنا لأهم الأفكار التي قدمها الباحثون والمفكرون المصريون في حقل العلاقات الدوليَّة لموضوع المتوسطيَّة بوصفه أحد البدائل المقترحة للمستقبل يمكن أن نقدم الملاحظات التالية :

أولاً : هناك ميل واضح لدى قطاع كبير من هؤلاء الباحثين نحو البديل المتوسطي مقارنة بالبديل الشرق أوسطى، وهذا التأييد للمتوسطية ينبع من مزايا اقتصادية واستراتيجية وثقافية يمكن أن تتحقق من خلال المتوسطية .

ثانياً :أن تبنى المتوسطية بوجهة نظر المؤيدين لها لن يمس الهوية العربية لمصر، بل أنه قد يساعد مصر على القيام بدورها العربي المطلوب.

ثالثاً : أن تبنى المتوسطية لا يعنى وفقاً لبعض المؤيدين مثل لطفي الخولي تجاهل الدوائر الأخرى المتاحة للحركة أمام السياسة الخارجية المصرية، بل يمكن وضع استراتيجية للتحرك المرن في نطاق عدد من الدائر الإقليمية الأخرى الأقل اتساعاً .

رابعاً : عنى الباحثون المصريون بالتحليل المفصل حول العائد المتوقع للبديل المتوسطي سواء على المستوى الثنائي أو الجماعي الأمر الذي يؤكد الملاحظة الأولى .

خامساً : إن إمكانية تطوير البديل المتوسطي واردة، فالتوجه المتوسطي لمصر لا يعنى أن نسلم بكل ما يقدمه الجانب الأوروبي من أفكار في هذا الصدد، بل من الممكن أن نقدم أفكاراً جديدة تتوافق مع أهدافنا ومصالحنا، ومن خلال الحوار والتفاوض يمكن الوصول إلى بعض التعديلات على الصيغة الأوروبية المقترحة في هذا الصدد، بما يتواءم مع المصالح المصرية والعربية .

سادساً : إن على صانع القرار في السياسة الخارجيَّة المصريَّة مهمة صعبة وبالغة التعقيد، في تقييم البدائل المتاحة، وعليه أن يوازن في إطار حسابات دقيقة بين هذه البدائل، كي يصل إلى بناء بديل مقبول يتناسب مع الأهداف والمصالح المصرية .

وفي ختام هذا الموضوع يمكن رصد عدة ملاحظات أهمها :

١- تلعب الفكرة العربية دوراً مهماً في بناء الإدراك الفكري المصري للبدائل المتاحة، فالرافضون والمؤيدون للتوجُّه المتوسطي يستندون في تحليلهم إلى عوامل تتعلق بالدائرة العربيَّة، بل أن البعض قد أيَّد المتوسطية بوضوح، باعتبارها طوق

الإنقاذ من الشرق أوسطيَّة، التي يمكن أن تحمل في حياتها مشكلات خطيرة بالنسبة لمصر، ودورها الإقليمي في المنطقة .

٢- بروز تأثير العوامل الأيديولوجيَّة في التحليل على المستوى الماكرو، كما هو الحال لدى طه حسين وحسين مؤنس اللذان سيطرت عليهما روح الأيديولوجيَّة الليبراليَّة الغربيَّة، في حين كان تأثير أيديولوجيَّة القوميَّة العربيَّة واضحاً على أعمال جمال حمدان وسليمان حزين.

٣- تراجع تأثير العوامل الأيديولوجيَّة نسبيّاً على النتاج الفكري للباحثين المصريين في العلاقات الدولية .

٤- هناك تقارب في بعض النتائج التي توصل إليها المفكرون المصريون على المستويين السابق الإشارة إليها، وإن اختلف الهدف فالتوجه المتوسطي وفقاً لجمال حمدان على سبيل المثال، يمكن توظيفه لتصفية الكيان الإسرائيلي، أما بالنسبة لطه المجدوب ولطفي الخولي، فإنها تعنى محاولة استيعاب الطموحات الإسرائيلية في الانفراد بالدور القيادي في المنطقة.

٥- أكد الفكر السياسي المصري على أن البدائل المقدمة بما فيها التوجه المتوسطي، ليست قدراً محتوماً أو أمراً مفروضاً بصورته المقدمة على مصر، عليها أن تتقبله كما هي، وإنما هي بمثابة مقترحات قابلة للنقاش والتطوير والتعديل.(١)

كان هذا موقف المفكرين السياسيين تجاه طبيعة العلاقة بين مصر والدول الأورمتوسطيَّة خاصة والأوروبية عامة ، فماذا عن موقف التيار الإسلامي تجاه هذه العلاقة .

الأحزاب المصرية والعلاقة بالغرب

للأسف الأحزاب المصرية بشقيها المدني والديني لم يول موضوع شخصيَّة مصر وعلاقتها بدول البحر المتوسط أو أوربا اهتماماً يذكر ونأخذ هنا مثالاً لهم

(١) لمزيد من التفاصيل حول الاتجاه الرابع : " التوجه الأورمتوسطي في نتاج مدرسة العلاقات الدولية المصرية " راجع محمد سعد أبو عامود " التوجه المتوسطي في الفكر السياسي المصري " موقع الأهرام الرقمي ١/ ٤ / ١٩٩٦ .

وهو جماعة الإخوان المسلمين، ففي بحث أجراه أحد الدارسين وجد ــ أن الجماعة لم تتابع الموضوع من أساسه، فلم تصدر عنها أبحاث ولم تعقد دورات لمناقشة القضيَّة، ولم تكلف أحداً من أعضائها بهذا الملف كما كانت الأسئلة المطروحة عليهم مفاجئة بالنسبة لهم .

وفى بحث أجرته الدكتورة نيفين مسعد عن المشاركة الأوروبيَّة المتوسطيَّة في رؤية أحزاب المعارضة المصريَّة حيث درست وحلّلت إصدارات أحزاب العمل والتجمع والعربي الناصري والوفد توصّلت الباحثة إلى أن موضوع المشاركة الأوروبية ــ المتوسطية لا يحظى باهتمام الأحزاب الأربعة كما أن الأسلوب الصحفي الذي اتبع في معالجة الموضوع يكشف عن ضآلته على سلم أولويات كل حزب حيث يغلب عليه الطابع التقريري والجزئي على تلك المعالجات . (١)

الاتجاهات الإسلامية والعلاقة بالغرب

بداية لم تفرّق التيارات الإسلاميَّة على تنوعها بين الدول الأورمتوسطيَّة والدول الأوربيَّة ولا الغرب عامَّة فكل التيارات الإسلاميَّة رغم اختلافاتها تعاملت مع الغرب تعاملاً واحداً ولم تميّز بين الدول الأورمتوسطيَّة والأوروبيَّة وأمريكا .

ويمكن رصد ثلاث اتجاهات إسلاميَّة في هذا الصدد هي :

١- السلفية الرجعيَّة .

٢- السلفية النهضويَّة .

٣- السلفية الجهاديَّة .

السلفيون الرجعيون يقابلون العلمانيين الأورمتوسطين الصرحاء كطه حسين وسلامة موسى فإذا كان السلفيون الرجعيون يرمون الدنيا والعقل وراء ظهورهم فإن العلمانيين الأورمتوسطين يرمون التراث الديني وراء ظهورهم ، وإذا كان السلفيون الرجعيون يقدّسون أقوال السالفين فإن المثقفين العلمانيين يقدّسون كتب دارون ، ونيتشة ، وماركس ، وسارتر، وفرويد ...

---

(١) أسامة فاروق مخيمر " البحر المتوسط في السياسة المصرية - نقد واستشراف لقرن جديد " موقع الأهرام ١ يناير ٢٠٠٠

والخلاصة إن كان السلفيون الرجعيون ييمّمون وجوههم قِبَل القديم ويعتبرون أن كل فهم جديد للدين والدنيا بدعة ضالة وأن الوقوف عند حدود ما أبدعه السالفين نجاة ؛ وأن السابق لم يترك للاحق شيئاً .

فإن العلمانيين الأورمتوسطين ييمّمون وجوههم قِبَل الغرب ويعتبرون كل فهم قديم تخلف ورجعيَّة وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم ، المادي ، والحكمة تقضى «في نظرهم» : " أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً؛ ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومُرّها ، وما يحبُّ منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب . " كما قال طه حسين .

وإذا كانت حجة السلفيين الرجعيين أن المسلمين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه فى أزهى عصورهم إلا بفضل تمسكهم بالدين ، واعتقادهم أن التمسك بأقوال وآراء بعض السلف سيحقق لهم ما تحقق لأسلافهم من ظهور على سائر الأمم . فإن المثقفين العلمانيين يقولون إن أوربا ما تقدَّمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي .

والحق أن كلا الفريقين مصيب ومخطئ ، فنعم تقدَّم المسلمون عندما تمسَّكوا بالإسلام لكن فهمهم للإسلام يختلف عن فهم السلفيين النصيين الحرفيين له .

فقد فهموا الإسلام على أنه نظام شامل دين ودنيا ، مأثور ومعقول ، إيمان وعمل لا كما يفهمه السلفيون اللا أصوليون على أنه نقل لا عقل فيه ومأثور لا فقه فيه وثبات لا تطور فيه !!

كما أن أوربا ما تقدَّمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلم المادي وهذا حق ، ولكن الحق أيضاً أن الدين الذي طرحته أوربا والذي كان عائقاً للتقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلميَّة ! ليس هو دين الإسلام الذي يجعل العلم ، بمفهومه الشامل ، فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية . (١)

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول موقف العلمانيين والسلفيين من النهضة الحديثة راجع كتابنا " ميزان الحق بين العمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " الطبعة الثانية دار زهور المعرفة البركة .

وندع رشيد رضا يحدثنا عن السلفيين الرجعيين وما قابلهم من علمانيين تغريبيين ثم يبيِّن لنا منهج السلفيَّة الإصلاحيَّة التي توفِّق بين الاتجاهين السابقين .

يقول رشيد رضا : " كنا نعد فرق المسلمين الذين يتنازعون أمر الأمَّة في هذا العصر ثلاثًا :

(الأولى) : حماة تقليد الكتب المدوَّنة في المذاهب المتَّبعة من سنَّة وشيعة زيديَّة وشيعة إماميَّة وإباضية . وحجتهم أن علوم الشريعة المودعة في الكتاب والسنة إجمالاً وتفصيلاً قد انحصرت فيها ، فمن لم يأخذ بمذهب منها فليس على ملَّة الإسلام ، دع ما يرجِّح به كلُّ منهم مذهبه على غيره .

(الثانية) : دعاة الحضارة العصريَّة ، والنظم المدنيَّة ، والقوانين الوضعيَّة ، الذين يقولون : إن هذه الشريعة الإسلاميَّة المدوَّنة لا تصلح لهذا الزمان ، ولا يمكن أن تصلح بها حكومة ، ولا تستقيم بها مصالح أمَّة . فيجب تركها ، واستبدال قوانين الإفرنج بها ، أو استقلال كل قوم أو شعب من المسلمين كغيرهم بتشريع جديد يوافق مصالحهم ، وإلا كانوا من الهالكين ، ومن هؤلاء من يرى من مصلحة قومه وبلاده المحافظة على مهمات شعائر الإسلام ، وما لا ينافي المَدَنيَّة من خصائصه الاجتماعيَّة والأدبيَّة ، ومنهم من لا يرى وجوب ذلك ، وهم درجات أو دركات في هذه المسائل ، منهم المسلم المتأول ، والزنديق المجاهر أو المستكتم .

(الثالثة) : دعاة الإصلاح الإسلامي المعتدلين الذين يثبتون أنه يمكن إحياء الإسلام ، وتجديد هدايته الصحيحة باتباع الكتاب والسنة الصحيحة وهدي السلف الصالح ، والاستعانة بعلوم أئمة المذاهب كلها بدون التزام شيء معين من كتب الفقه والكلام المذهبيَّة التي جمد عليها الفريق الأول ، وأنه يمكن الجمع بينه وبين أشرف أساليب الحضارة والنظام وهو ما ينشده الفريق الثاني ، بل يرى هؤلاء أن ما يدعون إليه – وهو أقدم هداية الدين وأحدث وسائل الحضارة والقوة – صديقان يتفقان ولا يختلفان ، وإن كلا منهما يزيد الآخر قوة وشرفًا .

فدين العصر الأول للإسلام ينفي خبث المَدَنيَّة الماديَّة الحاضرة ، وينقي قلوب أهلها من الرجس ، وينقذهم من فوضى الحريَّة البلشفيَّة ، وأخطار الفلسفة الماديَّة ، ويزكي أنفسهم من الظلم والفسوق والعصيان . كما أن علومها وفنونها الصحيحة

تظهر من إعجاز القرآن ، ومن آيات الله في الأكوان ما يكمل به الإيمان ، ويوجه قوى هذه العلوم إلى العمران ، وإصلاح نوع الإنسان . (١)

وبعد أن عرفنا موقفي السلفيَّة الرجعيَّة والسلفيَّة الإصلاحيَّة من الغرب بقي أن نعرف موقف السلفيَّة الجهاديَّة منه .

تؤمن السلفية الجهادية بعدة مبادئ تميزها عن سائر المدارس السلفيَّة الأخرى منها :

المبدأ الأول : مبدأ الحاكميَّة لله الذي يعني أن تكون مرجعيَّة التشريع الوحيدة في الدستور والقوانين هي الشريعة الإسلاميَّة بما تحمله من مصادر أصليَّة وفرعيَّة وتعني أن الحكم والتشريع هو حق خالص للخالق، فأي إضافة مساوية أو إباحة للأخذ من مرجعيَّة أخرى بجانب الشريعة الإسلاميَّة فهذا شرك وكفر بالله الخالق.

المبدأ الثاني : مبدأ الولاء والبراء ويعني أن تكون الدولة قائمة على أساس إسلامي ديني وليس شعوبي قومي ولاؤها للإسلام والمسلمين ومعادية للشرك والمشركين دولة تتبنى الإسلام في سياستها الداخليَّة ليصبح المسلمون في موضع عزَّة وتحكم في مفاصل الدولة المهمة، وفي السياسة الخارجيَّة هدفها إعلاء كلمة الله وإقامة دولة إسلاميَّة عالميَّة قويَّة، دولة معادية للأنظمة المحاربة وغير الشرعيَّة والنظام الشرعي من وجهة النظر السلفيَّة الجهاديَّة إما أن تكون الدولة: إسلاميَّة تحكم بالشريعة أو ذميَّة تدفع الجزية أو معاهدة .

المبدأ الثالث : مبدأ الجهاد ضد الأنظمة غير الشرعيَّة خاصة الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلاميَّة، والجهاد ضد الدول المحتلَّة والدول الداعمة للاحتلال والأنظمة العميلة .

وقد كان تنظيم الجهاد المصري يركِّز على جهاد الأنظمة العميلة، في مقابل تنظيم القاعدة السعودي يركز على جهاد الدول المحتلَّة والداعمة، ثم تحالفا وكونا تنظيم قاعدة الجهاد .

(١) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣ .

لقد أساء هذا التنظيم للإسلام ولعلاقة الغرب بالشرق وجرَّ على المسلمين حروباً كان في غنى عنها فقد استغلَّت أمريكا ما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وشنَّت مع حلفائها الأوروبيين حربها الشعواء على أفغانستان ، كما عملت الدعاية الغربيَّة على تشويه صورة الإسلام والمسلمين .

الإسلام الوسطي وعلاقته بالغرب القرضاوي نموذجاً

يتفق أصحاب وسطيَّة الإسلام مع المدرسة السلفيَّة النهضويَّة فيما يذهبون إليه من وجوب تمسُّك المسلم بثوابت دينه والاستفادة من العلوم الغربيَّة دون تقليد الفاسد من طباعهم وأخلاقهم ، فهم يميزون بين سمات الفكر الإسلامي وسمات الفكر الغربي ، ويجعلون هذا في مقابل ذاك .

يقول د. يوسف القرضاوي : " الفكر الغربي النظري فكر خاص له سماته وخصائصه التي يتفرَّد بها عن فكر الشرق عامَّة ، والشرق العربي والإسلامي خاصَّة ، وهي خصائص عميقة الجذور ، لازمته منذ نشأته في بلاد الإغريق ، وانتقاله منها إلى الرومان ، حتى انتقل إلى أوربا المعاصرة ، ومن ورائها أمريكا ، وأثَّرت فيه عوامل تاريخية خلال صراعات القرون الوسطي تركت " بصماتها " عليه إلى اليوم .

١ – الغبش في معرفة الألوهية

أول سمات الفكر الغربي : غبش رؤية لحقيقة الألوهيَّة ، فليست رؤية صافية تقدِّر الله حق قدره ، وإنما هي رؤية غائمة مضطربة ، تحيط بها الأوهام والجهالات ، بل الحق أن الغرب – كما يظهر من تاريخه – لم يعرف الله جلَّ شأنه معرفة صحيحة ، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره ، ولم يعرف حقيقة الألوهيَّة الكاملة العالمة القادرة المريدة البارة الرحيمة ، وذلك لأنه لم يعرف النبوَّة الهادية ، والوحي المعصوم ، معرفة مباشرة ، فيما علمنا من تاريخه . ومن ثمَّ سار في الطريق وحده باحثاً عن " العلَّة الأولى " أو " المحرك الأول " أو "واجب الوجود " فتعثَّر وتخبَّط ، وغلبت عليه الأوهام والأهواء .

حتى الفلاسفة الذين يسميهم تاريخ الفلسفة " الإلهيين " أي الذين اعترفوا بالألوهيَّة في الجملة ، مثل العمالقة الكبار : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد ، لم يكن تصورهم للألوهية تصوراً صحيحاً ، بل كان تصوراً قاصراً مضطرباً مشوباً بالكثير من الأوهام والتخليطات . (١)

٢- النزعة الماديَّة

ومن سمات الفكر الغربي : الماديَّة ، ونعني بها النزعة التي تؤمن بالمادة وحدها ، وتفسِّر بها الكون والمعرفة والسلوك ، وتنكر الغيبيات ، وكل ما وراء الحس ، فهي لا تؤمن بإله خالق لهذا الكون ، ولا بُرسُل له ينزل عليهم الوحي ، ولا بروح خالدة لهذا الإنسان ، ولا بحياة أخرى بعد هذه الدنيا ، ولا بعالَم غيبي غير هذا العالَم المنظور ، ولا بقيم مثاليَّة فوق المنافع واللذات الحاضرة ، لأن كل هذه الأشياء لا يشهد لها الحس ، ولا تهدي إليها الملاحظة والتجربة .

الفكر الغربي فكر مادي ، يحتقر الروحيات .. حسي لا يحفل بالمعنويات .. واقعي ولا يؤمن بالمثاليات .

وأود أن أنبه أننا نحكم هنا على الغالب والسائد ، فلا يحتج علينا محتج بأن في الغرب روحيين وأخلاقيين ومثاليين ، إذ النادر لا حكم له ، والأكثر له حكم الكل ، كما هو معلوم .

وقد غلبت هذه النزعة الماديَّة على الحياة الغربيَّة المعاصرة ، سواء منها الجانب النظري أم الجانب العملي ، حتى أصبح معروفاً لدى الدارسين المتعمقين أن ديانة الغرب الحقيقي اليوم هي " المادية " . (٢)

وقد ذكرت الإحصاءات الحديثة أن ٥ % فقط من الغربيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد ، وإن لم يكن هذا الذهاب يعني التدين بالضرورة .

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الإسلام حضارة الغد " مكتبة وهبة ص ١٣
(٢) نفسه ص ١٥

٣- النزعة العلمانية

ومن سمات الفكر الغربي وخصائصه : النزعة العلمانيَّة – وهي من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما – وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والدولة، وبعبارة أخرى : بين الدين والحياة الاجتماعيَّة .(١)

٤- الصراع

ومن خصائص الحضارة الغربيَّة : أنها حضارة تقوم على الصراع ، لُحمتها وسداها الصراع ، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب .

وهو صراع متغلغل في كل النواحي ، متنوِّع الأشكال ، متعدِّد المجالات ، متباين الأسلحة والأساليب .

إنه صراع بين الإنسان ونفسه ، وصراع بين الإنسان والطبيعة ، وصراع بين الإنسان والإنسان ، وصراع أيضاً بين الإنسان والإله ! .. وإنسان الحضارة الغربيَّة في صراع مع الطبيعة ، لأنه ينطلق من أن الطبيعة عدو له ، يجب أن يفرض سيطرته عليها ، ولهذا يعبر الغربيُّون عن ذلك بكلمة " قهر الطبيعة " وهي كلمة لها دلالتها وإيحاؤها . على حين يرى الإسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مسخَّرة لمنفعة الإنسان كما في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } [لقمان:٢٠]

وهو ما عبر عنه النبي ﷺ أجمل تعبير وأرقة في شأن جبل أحد حين قال :

" أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ " [متفق عليه]

والإنسان في الحضارة الغربيَّة في صراع مع أخيه الإنسان ، وهو صراع يأخذ صوراً شتى .

فهو صراع بين الأفراد من أجل منافعهم الفرديَّة المتباينة ، ولا سيما مع سيادة النزعة الفرديَّة ، والفلسفة النفعيَّة ، وشيوع مقولة " هوبز " : " الإنسان ذئب للإنسان " ! وقول كل امرئ بعد ذلك : " أنا وليخرب العالَم " !(٢)

---

(١) نفسه ص ٢٠
(٢) نفسه ص ٢١، ٢٢

وهو صراع بين الطبقات والجماعات ، وخصوصاً مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها ، وجورها على غيرها ، واحتقارها لمن سواها .

وهو صراع بين الأمم والأجناس ، وخصوصاً مع حدة الشعور القومي ، ونزعة الاستعلاء عند كلِّ أمَّة ، وهو ما أدَّى إلى حروب إقليميَّة وعالميَّة ، ولا نزال نرى أثره في العلاقة بين البيض والسود ، أو البيض والملونين عامة ، في أمريكا وإفريقيا وغيرها .

وهو صراع بين المؤسسات كالصراع بين الكنيسة والدولة ، الذي انتهى إلى ما عُرف عندنا باسم " العلمانيَّة " وتعني : فصل الدين عن الدولة شئون الدولة والمجتمع .

ومثله الصراع بين الدين والعلم ، وبعبارة أخرى بين المؤسَّسة التي تمثل الدين وهي الكنيسة ورجال الأكليروس ، والمؤسَّسة التي تمثِّل العلم ، وهي الجامعات ومراكز البحث وغيرها .. وقد تجسد هذا الصراع في محاكم التفتيش التاريخيَّة وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآس تشيب لهولها الولدان .

وأدهى من ذلك كله وأمر في الحضارة الغربيَّة : الصراع بين الإنسان والرب أو الإله ، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسيين :

١- وثنيَّة اليونان وآلهتها التي كانت تُغير وتدمر وتحرق .

٢- العهد القديم (التوراة وملحقاتها) الذي يصور الإله حاقداً ناقماً غيوراً حتى أنه يخلق الإنسان " آدم " ثم يخاف منه ، ويخشى أن يزاحمه في المعرفة أو الخلود؛ فيُحرِّم عليه الأكل من الشجرة ، وهو يصارع إسرائيل فيصرعه إسرائيل ، فلا يفلته إلا بوعد منه لمصلحة نسله وذريته !!

٥- الاستعلاء على الآخرين

ومن سمات الفكر الغربي : نزعة الاستعلاء على الآخرين ، التي تسري وتتحكَّم في عقول الغربيين كافة ، فهم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم عنصراً ، وأنقى دماء ، وأنهم خُلِقوا ليقودوا ويسودوا ويحكموا ، وأن الآخرين خُلِقوا ليكونوا مسودين ومحكومين لهم . هكذا بالفطرة والخِلْقة .

ولهذا سادت نظرية عندهم هي نظرية " تفاضل الأجناس " وأن الناس ليسوا سواسية ، كما نؤمن نحن المسلمين ، لأن أباهم واحد ، وربهم واحد ، بل الأجناس والعروق متفاوتة بحكم الخِلْقة ، والجنس الآري أفضلها وأذكاها وأقدرها ، وهكذا آمن " رينان " وغيره من الفلاسفة من القرن الماضي .

ولقد سقطت هذه النظرية من الناحية العلميَّة ، فلم يُثبت العلم أن هناك جنساً أفضل من جنس ، من جهة الخِلقة والفطرة ، ولكنها البيئة والظروف المساعدة ، وقد كانت شعلة الحضارة في يد الشرق قديماً ، أيام حضارة الفراعنة والهنود والصينيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم ، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان ، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الغرب بعد أن مسته نفحة من الشرق الإسلامي عن طريق الأندلس وصقلية ، ولقاءات الحروب الصليبيَّة ، والدور الآن للشرق لا للغرب الذي أفلس في قيادة الحضارة وإسعاد العالم بها .

لقد سقطت نظرية تفاضل الأجناس علميّاً ، ولكنها لم تسقط نفسيّاً ، ولا زال لها تأثيرها في أنفس الكثيرين ، بل الأكثرين من أبناء الغرب في علاقتهم بالآخرين .(١)

وهذه الاختلافات الجوهريَّة : العقليَّة والنفسيَّة والدينيَّة بل الجنسيَّة بين الغرب وبين المصريين تؤكِّد بجلاء أننا لسنا أورمتوسطين ولا غربيين كما زعم طه حسين وسلامة موسى وغيرهما إنما لنا سماتنا التي تميزنا عن غيرنا من الشرق والغرب وليس معنى هذا أننا نوافق د. القرضاوي في كلٍّ ما قال فإنه لم ير في الغرب : الأوربي والأمريكي إلا الشر والمر وما يُكْره وما يُعاب بخلاف طه حسين الذي رأى فيه الخير والحلو وما يُحَبُّ وما يُحْمَد.

والحقيقة أن كلا النظرتين متطرفتين في فهم الغرب فليس الغرب شيطاناً رجيماً كما زعم القرضاوي ويكفيهم تقدمهم العلمي والتكنولوجي وإنجازاتهم في العلوم الإنسانيَّة والقيم الحضاريَّة ، كما أنه ليس ملاكاً رحيماً كما زعم طه حسين فيكفيهم

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الإسلام حضارة الغد " مكتبة وهبة ص ٢٣، ٢٤

نهبهم ثرواتنا وزرع البؤرة السرطانيَّة إسرائيل في أرضنا ومحاولاتهم التدخل فـــي شئوننا وعرقلة نمو بلادنا .

وأن الحكمة ، والحكمة ضالة المؤمن ، أن نأخذ من الغرب حلوه وخيـــره ومـــا يُحَبُ وما يُحْمدُ ، وندع مُرَّه وشرَّه وما يُكْره وما يُعاب .

***

الفصل الخامس

من نحـــــن ؟

عرفنا في الفصول السابقة إننا – المصريين – لسنا فراعنة فما فرعون إلا اسم عَلَمٌ على حاكم مصر في عهد سيدنا موسى ، وليس لقباً لكل حكّام مصر القديمة ، كذلك لسنا عرباً فما كان العرب الفاتحون والمستوطنون إلا نقطة في نهر المصريين، ولسنا أورمتوسطين فبرغم أن اليونانيين والرومان حكمونا نحو ألف عام إلا أنهم لم يستطيعوا أن يغيِّروا الطبيعة المصريَّة التي ثارت على طغيانهم واستبدادهم وساعدت العرب المسلمين على فتح مصر وتخليصها منهم .

وحان موعد الإجابة عن السؤال الذي طرحه عنوان الكتاب من نحن إذن إذا لم نكن فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين ؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال سنقوم بعرض موجز لتاريخ مصر ، وسمات شعبها ، وعلاقته بالغزاة والفاتحين ، وعوامل استمرار هذا الشعب العظيم مُوَحّداً مُتَوَحِّداً .

التوراة وأصل المصريين

كثيراً ما تختلف الآراء في تحديد أصل المصريين القدماء فالبعض يرى أنهم من الجنس السامي ، وآخرون يرجِّحون الأصل الحامي أو اللوبي . وثمة آراء تتضارب في نسبة المصريين إلى مختلف الأجناس ابتداء من أقصى الشرق الآسيوي إلى أقصى الغرب الأوربي .. وكما يقول عالم الأجناس الطبيب إليوت سميث : " أنه ليس هناك مكان في العالم لم يدَّعِ عنه كاتب أو آخر أنه مصدر قدماء المصريين " (١)

---

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلاً" ص ٩١ .

تقول نعمات أحمد فؤاد : " كلما راعت الحضارة المصريَّة ، مـشاهديها ، حـلا للبعض التشكُّك في نسبتها إلينا ، لوناً من العجز أمام الإعجاز ، أو تحقيقاً لأغراض سياسيَّة تستهدف الحط من روحنا المعنويَّة ، أو إخماد الجذوة المشتعلة في الـروح المصريَّة حتى من تحت الرماد ، وسيلتهم إلى هذا التلويح بالغزوات أو الهجرات .

وفدت على مصر ككلٍّ مكان وفادات من جهات مختلفة ولكن مصر كمـا يقـول بحث د. سليمان حزين : " سكان مصر ودراسة تاريخها الجنسي " : لم يصلها فـي أي وقت من الأوقات هجرات كبيرة العدد تغطِّي علـى حياتهـا وتطمـس معـالم عمرانها السابق ، وتغيِّر صفات سكانها الجنسيَّة تغييرات أساسيَّة كمـا حـدث فـي بعض البلاد الأخرى المجاورة ، لمناطق بها كثرة من الرعاة " . (١)

والحقيقة أن الشعب المصري لا ينتسب لا لحام ولا لسام ولا ليافث أولاد نـوح عليه السلام الذين يرجع علماء الأجناس الغـربيِّين : اليهـود والمـسيحيِّين أصـل البشريَّة إليهم بناء على ما جاء في التوراة ؛ فالتوراة تزعم أن البشريَّة قـد هلكـت جميعاً بعد طوفان نوح ولم يبق منها إلا أولاد نوح الثلاثة ونـسلهم ومـن هـؤلاء الأولاد جاءت البشريَّة .

فحسب التوراة فإن من أبناء نوح الثلاثة انبثقت البشريَّة بعد الطوفان ،وأبناء نوح هم:

١- سام أكبر الأبناء ، ويُعْتَقَد أن الأشوريين والعبريين والعرب والآراميـين قـد انبثقوا من سلالته.

٢- حام ، ويُعْتَقَد أنه والد الشعوب الأفريقيَّة ومنهم المصريون القدماء .

٣- يافث أصغر أبناء نوح ، ويُعْتَقَد أن من سـلالته انبثقـت شـعوب أوروبـا، والفرس والأكراد .

تقول توراة اليهود : " كَانَ نُوحٌ رَجُلاً بَارًّا كَامِلاً فِي أَجْيَالِه. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ.
١٠ وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلاَثَةَ بَنِينَ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ. ١١ وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ، وَامْتَلأَتِ

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد " شخصية مصر " الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٥ ص ٢٤٩ .

الأَرْضُ ظُلْمًا. ١٢ وَرَأَى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ.

١٣ فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ " .. ١٧ فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ. ١٨ وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، **فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ** ." (التكوين : ٦)

وبعد أن ركب نوح وزوجته وأبناؤه الثلاثة وزوجاتهم ، واثنان : ذكر وأنثى من كل طير وحيوان وكل ما يدبُّ على الأرض فجَّر الله من الأرض عيوناً وفتح طاقات السماء وهطلت الأمطار لمدة ٤٠ يوماً وليلة حتى تعاظمت المياه وغطّت كل الأرض وهَلَكَ كلُّ حيٍّ " ٢٣ فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ: النَّاسَ، وَالْبَهَائِمَ، وَالدَّبَّابَاتِ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ. فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرْضِ. وَتَبَقَّى نُوحٌ **وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ**. ٢٤ وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الأَرْضِ مِئَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا." (التكون : ٧)

ومن ذرية نوح فقط ، وما معه من طير وحيوان ، نشأت البشريَّة نشأتها الثانية.

"١٨ وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ. ١٩ **هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ**." (التكوين:٩)

مناقشة رواية التوراة حول النشأة الثانية للبشريَّة

القرآن الكريم يذكر أن الذين ركبوا في الفلك مع نوح ليس أهله فقط بل دخل معه مؤمنون من قومه وإن كان عددهم قليل ، كما يذكر القرآن الكريم أن أحد أبناء نوح لم يركب معه وهلك مع الهالكين ، وكذلك أن زوجته كانت من الخائنين .

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ } [هود : ٤٠]

وهذا أوَّل مأخذ يؤخذ على الرواية التوراتيَّة وهي أنها ذكرت أنه لم يركب السفينة إلا نوح وزوجته وأولاده الثلاث وزوجاتهم .

يقول د. سيد طنطاوي في تفسير الآية الكريمة : " قال الله تعالى لنوح : احمل فيها من كلٍّ نوع من أنواع المخلوقات التي أنت في حاجة إليها ذكر أو أنثى ،

واحمل فيها أيضاً من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كـذلك جميع المؤمنين الذين اتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك . " (١)

ويؤكد القرآن الكريم أن من ركب مع نوح ليس فقط أهله إنما معهم أمم أخرى .

{ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [هود : ٤٨]

أما قوله تعالى { وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } فيشير إلى وجود أمـم أخرى غير المؤمنين من أهل نوح وقومه الذين حملهم معه في السفينة .

المخالفة الثانية ، أن أحد أبناء نوح الثلاثة لم يركب السفينة وكان من المُغْرَقِين .

{ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } [هود : ٤٢ ، ٤٣]

المخالفة الثالثة هي ، ركوب زوجة نوح السفينة معه رغم أنها بنص القرآن مـن الخائنين الداخلين النار .

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِـنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيـلَ ادْخُـلَا النَّـارَ مَـعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم: ١٠]

{ فَخَانَتَاهُمَا } أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمـان، ولا صـدقاهما فـي الرسالة، فلم يُجْد ذلك كله شيئًا، ولا دفع عنهما محذوراً ؛ ولهذا قال: { فَلَـمْ يُغْنِيَـا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } أي: لكفرهما، { وَقِيلَ } أي: للمرأتين: { ادْخُـلَا النَّـارَ مَـعَ الدَّاخِلِينَ } وليس المراد: { فَخَانَتَاهُمَا } في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبيـاء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء . " (٢)

(1) د.سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٢٢٠٨
(2) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٧١

المأخذ الرابع على رواية التوراة ، أن الله تعالى أرسل نوحاً لكلِّ البشر وليس لقومه فحسب بدليل أن الله قد أهلك كلَّ من كفر به فأهلك كلَّ البشر غير من ركب معه في السفينة .

والحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في آيات عديدة أن الله تعالى لم يرسل نوحاً لكلِّ البشر إنما أرسله إلى قومه فقط .

ولم يختلف خطاب القرآن الكريم حول قوم نوح عن غيرهم من الأقوام كقوم لوط أو قوم هود أو قوم صالح . وقد وردت قصة نوح عليه السلام في عدة مواضع من القرآن الكريم مقرونة بقصص الأنبياء الآخرين وأقوامهم دون وجود ما يميزها أو يدل أن قومه كانوا البشر جميعاً، وكان قوم نوح يسكنون شمال العراق كما ذكر المؤرِّخون ، ومما يؤكِّد ذلك أن السفينة عندما رست رست على جبل الجودي في تركيا. وهو جبل قريب من العراق .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ إِنِّـي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأعراف : ٥٩]

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [هود : ٢٥]

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْـرُهُ أَفَـلا تَتَّقُونَ } [المؤمنون:٢٣]

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًـا فَأَخَـذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [العنكبوت : ١٤]

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالَ يَـا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [نوح : ١، ٢]

{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا } [نوح-٥]

{ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ } [الفرقان : ٣٧]

والنبي الوحيد الذي أرسله الله تعالى لكلِّ البشر هو محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا }[سبأ : ٢٨]

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف: ١٥٨]

{ تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } [الفرقان: ١]

{ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } [الأنبياء : ١٠٧]
{ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ } [الأنعام: ١٩]

وعن عكرمة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن الله فضّل محمدًا ﷺ علـى أهـل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا بن عباس ، فيم فضله الله على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } ، وقال للنبي ﷺ : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ } ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رَفْعهُ عن جـابر قـال: قـال رسول الله ﷺ : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَـهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الـصَّلَاةُ فَلْيُـصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ".

قال ابن كثير : " والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر مـن أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه ﷺ رسول الله إلى الناس كلهم." (١)

المأخذ الخامس على رواية التوراة ، هو إهلاك الله تعالى كل دابة علـى الأرض وكل طائر في السماء غير نوح وأهله " ٢٣ فَمَحَا اللهُ كُـلَّ قَـائِمٍ كَـانَ عَلَـى وَجْـهِ الأَرْضِ: النَّاسَ، وَالْبَهَائِمَ، وَالدَّبَّابَاتِ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ. فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرْضِ. وَتَبَقَّـى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ. " (التكون : ٧)

وهذا مناقض لوقائع التاريخ الثابتة فكثير من الأمم اتصل تاريخها بعد الطوفـان وقبله ولا أثر لذكر الطوفان في بلادهم فيما دوّنه من عاصر زمن الطوفان أو بعده كالهند والفرس والمصريين القدماء وغيرهم .

كما أن السفينة مهما كان حجمها فإنها لن تسع لحمل زوجـين مـن كـل دواب الأرض وطيورها فهناك ما لا يحصى من مخلوقات الله تعالى فـي الأرض وفـي السماء فإذا قال قائل ولكن القرآن الكريم ذكر أن الله تعالى أمر نوحاً بحمل من كـل

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٨٩ .

زوجين { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ } [هود : ٤٠]

والمراد بقوله تعالى { مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } المستأنس من الحيوانات والطيور التي كان يستخدمها نوح وقومه وينتفع بها وليس كل دواب الأرض وطيور السماء لاستحالة ذلك ؛ فمن المعروف أن هناك حيوانات لا تعيش إلا في المناطق الباردة وأخرى لا تعيش إلا في المناطق الحارة ، وثالثة لا تعيش إلا في الغابات الاستوائية، ورابعة لا تعيش إلا في الصحاري ، وخامسة لا تعيش إلا في البحار والمحيطات ، وسادسة لا تعيش إلا في الأنهار.. وهلم جرا ، فكيف أتت هذه الكائنات من مناطقها النائية المتباينة إلى نوح ؟! وكيف استوعبتها جميعاً السفينة ؟!

إن الله تعالى عندما أمر نوحاً بأن يأخذ من كل زوجين اثنين فإنما أمره أن يأخذ من كل ما يجده ومن كل ما هو حوله زوجين اثنين ، فالكل هنا المقصود به الكل الموجود والمتوفر وليس الكل المطلق لأن هذا مما لا يطيقه ولا يقدر عليه سواء سيدنا نوح أو غيره .

وقوله تعالى : {مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } لا يدل على حصر كل زوجين على وجه الأرض إنما المعنى : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنت في حاجة إليها ذكراً وأنثى . (١) من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة لنوح في ذلك الزمان ، الميسرة كذلك لبني الإنسان . (٢)

وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى عن ملكة سبأ : { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل ٢٤] ولا أظن أن أحداً يقول إن هذا يعني أن ملكة سبأ قد أُوتيت من كل شيء مطلقاً ! بل إنها أوتيت الكثير من أسباب الملك .

وإذا قيل إن نوحاً أرسل إلى قومه ثم دعا عليهم فأغرق الله العالم كله ، فما ذنب هؤلاء الأبرياء الذين لم تصلهم الدعوة ؟ ولِمَ تُهلَك الأرض كلها بذنب قوم كفروا وظلموا ؟

---

(1) د. سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٢٢٠٨

(2) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٢٣٣

يقول ابن القيم : " إن العقاب على ترك الواجب يتأخر إلى حين ورود الشرع كما دل عليه قوله تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : ١٥] وقوله : { كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا } [الملك : ٨ ، ٩] وقوله : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص : ٥٩] وقوله : { ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون } [الأنعام : ١٣١] فهذا يدل على أنهم ظالمون قبل إرسال الرسل وأنه لا يهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم .. كما قال تعالى { وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
[القصص: ٤٧]

فأخبر أن ما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل سبب لإصابتهم بالمصيبة ولكن لم يفعل سبحانه ذلك قبل إرسال الرسول الذي يقيم به حجته عليهم كما قال تعالى : { رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء : ١٦٥] وقال تعالى : { وَهَذَا كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ }[الأنعام: ١٥٥-١٥٧] وقوله : { أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ } [الزمر: ٥٦] إلى قوله : { بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ }
[الزمر : ٥٩]

وهذا في القرآن كثير يخبر أن الحجَّة إنما قامت عليهم بكتابه ورسوله كما نبههم بما في عقولهم وفطرهم من حسن التوحيد والشكر وقبح الشرك والكفر . (1)

وسائر الأمم غير قوم نوح الظالمين إما أنهم قد أرسل فيهم رسلاً { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : ٢٤] ،{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل : ٣٦] فمنهم من آمن وأصلح ومنهم من كفر وظلم فكيف يهلك الله تعالى تلك الأقوام جميعاً ويسوِّى بين المؤمنين المصلحين والكفار

---

(1) التفسير القيم لابن القيم ج١ ص ٣٢٧ .

الظالمين ؟! { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود:١١٧] ، وإما أن بعض هذه الأقوام لم يبعث فيهم رسل ولم يأتهم كتاب فكيف يعذبهم الله تعالى وهو القائل جل وعلا { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا } [الإسراء : ١٥]

هذه هي بعض المآخذ التي أخذت على الرواية التوراتيَّة لقصة نوح والطوفان ، ونختم هذا الموضوع بفتوى الشيخ محمد عبده وقد ورد إليه سؤال من أحد أهل العلم بمدينة نابلس وفيه ذكر لما يستند إليه منكرو عموم الطوفان وعموم رسالة نوح عليه السلام.

يقول الشيخ محمد عبده : " أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عُدَّ اعتقادها من عقائد الدين . وأما المؤرِّخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجِّحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرِّخ أو صاحب الرأي . وما يذكره المؤرِّخون والمفسِّرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ولا يتخذ دليلاً قطعيًّا على معتقد ديني " [1]

وأغلب المؤرِّخين يقول بأن طوفاناً وقع حوالي ٣,٠٠٠ قبل الميلاد في منطقة وادي الرافدين الذي يُعتقد أنه طوفان نوح، ولقد أجرت عدة بعثات أثرية ببعض التنقيبات في سهول بلاد الرافدين للبحث عن الآثار التي تذخر بها تلك المنطقة التي شهدت عدة حضارات ولقد كشفت تلك التنقيبات إلى أن هذه المنطقة شهدت طوفاناً عظيماً قضى على الحضارة السومريَّة التي كان أهلها يقطنون في سهول الرافدين فقد ظهرت آثار الطوفان جليَّة في أربعة مدن رئيسيَّة في بلاد الرافدين : أور ، أريش ، شورباك ، كيش .

وقال المؤرِّخون إن الفرس والهند يقولون إن تاريخهم متصل ولم ينقطع ، وكذلك كان المصريون يتحدَّثون عن فيضان النيل الذي يجعل المدن كالجزر المنفصلة ولكنهم لم يتحدَّثوا قط عن طوفان أهلك الحرث والنسل ولم يبق على أحد

---

(1) مجلة المنار ج ٣ ص ٣٠٢

من الآباء والأجداد ، ولم يأت ذكر أي طوفان في تاريخ المصريين القـدماء ولـم يذكره علماء الحضارة المصريَّة القديمة .

ونخلص من ذلك كله إلى أن المصريين إن كان لابد من نسبتهم لأصل قديم فهم ينتسبون لإدريس عليه السلام نبي المصريين العظيم وهو نـسب ثابـت مـستيقن ، ولا ينتسبون لأحد أبناء نوح : سام وحام ويافث فهو نسب ظني لا دليل علمي عليه إلا رواية توراة اليهود .

أصل المصريين الحقيقي

إن جميع المؤرِّخين القدماء الذين أرَّخوا لتاريخ مصر كانوا من غير المصريين، ومن الجاهلين باللغة المصريَّة القديمة ، ولم يكونوا من كبار الكُهَّان حتى يتسنى لهم الإطلاع على الوثائق الحقيقيَّة ومن هنا جاءت كتاباتهم غير دقيقة بل مُضلِّلة .

ولكن القدر لم يحرم هذه الحضارة العظيمـة مـن معرفـة تاريخهـا الزمنـي والحضاري وساعد في ذلك ما دوَّنه الكاهن المصري مـانيتون (٣٢٥-٢٦٨ ق. م) ويعتبر مانيتون في نظر علماء التاريخ المصري القديم المرجع الأوَّل بعـد الآثـار نفسها . وصل مانيتون في أواخر أيامه إلى مركز الكاهن الأكبر لمعبد هليوبـوليس وكان أول من كتب تاريخ مصر الزمني وقوائم الملوك ابتداء من فجر التاريخ أو ما أطلق عليه بداية الخليقة حتى نهاية الأسرة الثلاثين التي اعتبرها نهايـة الأسـرات المصريَّة القديمة فكان أوَّل من قسَّم تاريخ مصر إلى عهود وعصور وأسرات وحدَّد بدقة التاريخ الزمني لحكم كلٍ أسرة من الأسرات ومدَّة حكم كلٍ ملك من الملـوك ، وقد ساعده على ذلك ما وُضِعَ تحت يده من الوثائق والمستندات التي كانت تحـتفظ بها المعابد المصريَّة القديمة كما وُصِفَ بأنه أعلم أهل مصر بتاريخ ولغة القـدماء ، وكان ضليعاً في اللغة المصريَّة القديمة وكتاباتها المختلفة ، كما كان يـتقن اللغـات الإغريقيَّة والمقدونيَّة والشرقيَّة .

كتب مانيتون تاريخ مصر في ثمانية مجلدات خصَّ منها " الأجيتياكا " بأجزائهـا الثلاثة بقوائم الملوك وأسمائهم والأحداث التاريخيَّة المهمَّة التي ارتبطت بحكم كـلٍ منهم وهي التي جمعها واحتفظ بها كلٌ من " أفريكـانوس " و " يوسـيفوس " مـن مؤرخي اليونان ، والراهب " سينكليوس " من مؤرخي العصور الوسـطى ، بينمـا

فُقدت بقيَّة المجلَّدات وطرأ عليها الكثير من التحريف والتغيير من كثرة نقلها بواسطة مؤرخي العهد القديم بعد أن فقدت أصولها في حريق مكتبة الإسكندرية. (١)

وقد اعتمد مانيتون في كتابه على الوثائق التي خلَّفتها الحضارة المصريَّة والتي كانت موجودة بدُور حفظ الوثائق بالمعابد بالإضافة إلى كلِّ ما وجده في متناول يده من وثائق الإدارات الحكوميَّة وغيرها .

ويعتبر تاريخ مانيتون بمثابة السند الأوَّل لتقسيم الأسرات لدى علماء التاريخ المصري القديم حيث وضع مانيتون قائمة عُرِفت باسمه تتألف من قوائم بأسماء الملوك منذ بدء التاريخ حتى نهاية الأسرات. (٢)

إذن قوائم مانيتون من أدقِّ المراجع التي حدَّدت التاريخ الزمني لمصر ، وقد قسَّمه إلى مرحلتين : المرحلة الأولى التي أطلق عليها مرحلة الخلق والتكوين ، وهي مرحلة ما قبل الأسرات التي بدأت بعصر الكهنة المبجَّلين وهو العصر الذي أنزل فيه الإله تعاليم العقيدة وبذور المعرفة وتشريع الحكم ونُظُم المجتمع الإنساني.

وتلي ذلك العصر أربعة عهود مختلفة من بينها حكام الدلتا وعهد الوحدة الأولى ثم عهد الانفصال وعهد أتباع تحوتي في الجنوب ، وانتهت تلك المرحلة بقيام نعرمر بتوحيد القطرين مؤسس الأسرة الأولى الذي أطلق عليه اسم مينا وقد حدَّد مانيتون في قوائمه الفترة الزمنيَّة لكلِّ عهد من تلك العهود وعدد الملوك والحكام معتمداً في ذلك على التقويم الكهنوتي القديم لمعبد هليوبوليس . (٣)

تاريخ مصر الحقيقي

ولكي نعرف تاريخ مصر الحقيقي فعلينا أن نعود إلى التقويم الزمني للمؤرِّخ المصدري القديم مانيتون والذي أورد في الفصل الأوَّل والمسجَّل في قوائمه والذي اعتمده جميع المؤرِّخين القدماء واتخذوه مرجعاً لهم قد أرَّخ عن بدء الخلق والتكوين، ويعتبر هذا التقويم أقدم قائمة تاريخيَّة انفرد بهذا التقويم الفريد ، ونكتشف

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٩، ١٠ .
(٢) د. عبد الحليم نور الدين الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار الأسبق " مانيتون ، أحمس بن أبانا ، مرنبتاح " مكتبة الإسكندرية ص ٣ .
(٣) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " ص ١٩ . مرجع سابق

منه بدء ظهور الحضارة البشريَّة المصريَّة في عصر الخلق والتكـوين فـي عـام ٣٠,٥٤٤ ق.م وتلاه عصر الكهنة المبجّلين في عام ١٦,٦٤٤ ق.م ثم عصر ملوك العهد الأوّل أو عهد ملوك الشمس إلى ١٥,٣٨٩ ق.م ثم عهد ملوك العهد الثاني أو عهد أتباع حورس (٣٠ ملكاً) عام ١٣,٥٧٢ ق.م وعصر ملوك العهـد التاسـي أو عهد ملوك الشمال (١٠ ملوك) عام ١١,٧٨٢ ق.م ثم عهد البحـث والعقيـدة عـام ١١,٤٣٢ ق.م ثم عهد الوحدة الأولى عام ٦,٩٨٢ ق.م ثم تلاه عهد الوحدة الثانيـة بالملك مينا – نعرمر عام ٥,٦١٩ ق.م وبعد ذلك ابتدأ عـصر الأسـرات وانتهـى بالأسرة ٣١ بالملكة كليوباترا عام ٣٠ ق.م . (١)

ومن العجيب بل من المدهش عند وضع الآثار المصريَّة تحت منظار الكربـون المشع لمعرفة التاريخ الزمني للحضارة المصريَّة القديمة – كانت المفاجأة أن النتائج أكّدت صحة ما دونه مانيتون من تواريخ " ابتداء مما أطلق عليه بدء الخليقة وحُكْـم الكهنة المبجّلين عام (١٦,٥٠٠) ق . م إلى نهاية حكم الفراعنة وحدَّد فيـه بدايـة تاريخ الأسرات عام (٥,٦١٩) ق . م بدلاً من عام (٣,٢٠٠) ق . م الـذي حـدَّده المؤرِّخون الأجانب .

إن تصحيح ذلك الخطأ الزمني في تاريخ مصر سـيزيد مـن قـدم الحـضارة المصريَّة القديمة عما جرى العرف عليه وحدَّده المؤرِّخون والأثريون القدامى وتأثر بهم كتاب العصر الحديث كما سيؤكد عراقة الحضارة المـصريَّة وكونهـا " مهـد الحضارات جميعها " وسيقطع الحيرة والبلبلة التي حاول بعض الكتاب في العـصر الحديث إثارتها في محاولة يقصد بها عزو بعض مقومات الحضارة المصريَّة إلـى بعض الحضارات الأخرى كالحضارة السومارية والإغريقيَّـة القديمـة والكريتيَّـة والفينيقيَّة والصينيَّة لتقارب نشأة كل منها مع الحضارة المـصريَّة القديمـة نفـسها واشتراكها في بعض عناصر الحضارة كعلوم الفلك والتنجيم والعقائد والفنون . (٢)

لقد أعلن علماء مرصد برلين عند اكتشافهم أن محور القطب المغناطيـسي فـي حركة ذبذبيَّة مستمرَّة عن طريق عدة درجات ثابتة فـي فتـرات زمنيَّـة متباعـدة

---

(١) راجع د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " ص ٢٥. مرجع سابق
(٢) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣١

وبدراسة درجة الانحراف وبعده عن موقعه عند إقامة الهرم الأكبر أعلنوا أن تاريخ بناء الهرم الأكبر يرجع إلى ما يقرب من ستة آلاف عام . وهو ما يتَّفق مع تـــاريخ بناء المرصد (الهرم) الذي أقامه إيمحوتب عام ٥,٠٠٠ ق.م . " (١)

ويؤكد برستد (رائد مؤرخي الحضارة المصريَّة القديمة) أسبقيَّة مــصر لجميــع الحضارات الإنسانيَّة .

يقول د. سليم حسن في مقدمته لكتاب فجر التاريخ لبرستد : " ولعمري لقد قضى " برستد " بكتابه " فجر التاريخ " على الخرافات والترهات التي كانت شـــائعة بـــين السواد الأعظم من علماء التاريخ القديم والحديث قضاء مبرماً ففريق منهم ظـــنَّ أن الصين والهند ثم بلاد اليونان كانت مهد الحضارة العالميَّة وعنها أخذ العالم الحديث، والواقع أن مصر هي التي أخذ عنها العالَم حضارته عن طريق فلسطين التي لـــيس لها فضل في ذلك سوى إنها كانت نقطة الاتصال بين الحضارة الأوربيَّة والحضارة المصريَّة . " (٢)

وقد حاول الباحث عبد الجليل مجاهد أن يربط بين قوائم مانيتون فـــي المرحلـــة الأولى التي أطلق عليها مرحلة الخلق والتكوين وبـــين آدم عليـــه الـــسلام وأولاده الأوائل فتوصَّل إلى : " أن الباحث المتعمِّق في هذه القائمة المانيتونيِّة والتي صـــدَّق العلم الحديث على صحَّة أزمان عصورها باستخدام طريقة الكربون المشع لابـــد أن يسأل نفسه من هم هؤلاء البشر الذين سجلَّتهم هذه القائمة الزمنيَّـــة لهـــذا المـــؤرِّخ العظيم الذي قال عنه كلُّ من عاصروه أو لحقوا به أنه أعلم أهـــل الأرض بتـــاريخ ولغة المصريين القدماء والتي نقل عنها جميـــع المـــؤرِّخين الإغريـــق والرومـــان واعتبرت مرجعا رئيسيّاً لعلماء جامعة الإسكندريَّة ومكتبتها الشهيرة ، ولقد اجتهـــدنا من جانبنا وقدَّمنا رؤية عن ماهيَّة تلك السلالة البشريَّة من الملوك والحكام وشعوبهم وحضارتهم السابقة ، وشرحنا لماذا انفردت مصر بهذه العصور دوناً عـــن الـــبلاد الأخرى والتي لم تحظ بهذه المكانة وذلك الشرف العظيم وبناء على ذلـــك صـــرَّحنا

(1) د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر" نهضة مصر للطباعة والنشر ص ١٠
(2) جمس هنري برستد " فجر التاريخ " ترجمة د. سليم حسن مكتبة مصر ص ٤

بعنوان هذه السلسلة القائمة على نظرية الهبوط أو المنشأ السيناوي لآدم أبو البــشر وأنه وذريته الأولى شكَّلوا العائلات المقدَّسة لبدء تاريخ الإنسان والخليفــة المكلَّــف على الأرض ، وأن أبناء وأحفاد وذريته جميعاً هم ملوك وحكام شعوب وقبائل هذه العصور المقدَّسة التي حدثنا عنها مؤرخنا العظيم مانيتون . " (١)

هل هبط آدم في مصر ؟

توصَّل عبد الجليل مجاهد إلى أن مصر هي مهبط آدم وأنه بما علَّمه الله تعــالى من معرفة الأسماء كلها وكنهها وكيفيَّة استخدامها بدأ آدم في بذر حبوب الحــضارة الأولى التي عرفها البشر في مصر ، ووضع قواعد بنائها الشامخ . هــذه الحبــوب التي ستُأْتِي أُكُلَهَا في عهد إدريس (تحتوت عند المصريين القدماء ، وهرمس عنــد اليونان) وتلك القواعد التي سيرفعها أبناؤه وأحفاده المصريون القدماء على أساسي العلم والإيمان اللذان جاء بهما أنبياء الله ورسله (الكهنة المبجَّلــين حــسب قائمــة مانيتون) .

وإخناتون وهو يناجي ربَّه ، القوة الخفيَّة خلف قرص الشمس (الله الواحد الأحد) يؤكد هذه الحقيقة حين يتحدَّث بنعمة الله الكبرى التي أتمَّها على شعبه بين يدي النيل فيقول مخاطباً ربَّه : " فجَّرت النيل لمصر من بــاطن الأرض ؛ تجريــه بالزيــادة والنقصان كيف تشاء . وأغثت العالَم من حول مصر بماء السماء . "

ثم يشير من بعد ذلك إلى مشيئة ربه في تفضيل أهل مصر علــى غيــرهم مــن سائر خلقه . وذلك حين يناجيه في شأن النيل فيقول : " لتحفظ الحيــاة علــى أهــل مصر ؛ لأنك اصطفيتهم لنفسك وأنت ربهم جميعاً " (٢)

يقول عبد الجليل مجاهد : " وإعمالاً لما هو ثابت تاريخيًّا وعلميًّا وأثريًّا نــستنتج أن أوَّل حضارة في الكون هي الحضارة المصريَّة القديمة ، ولم يختلف على ذلــك اثنان من الشرق والغرب أو من المسلمين أو غيرهم وبناءً علــى تقــويم المــؤرِّخ

---

(١) عبد الجليل مجاهد " هل كان آدم الفرعون الأول ؟! " دار تحوتي للبحوث والنشر ص ٣١
(٢) " في موكب الشمس " ج ٢ ص ٨٢١ .

المصري مانيتون يظهر على أفق وشاشة التاريخ مباشرة أن أرض مصر هي الأرض الصالحة والمرشّحة لأن تكون هي أرض آدم .. يقول هيرودوت الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد ، وسمع المصريين يقولون إنه في البدء كان عهد الخلق والتكوين (عصر آدم) ثم حكم مصر بعد ذلك الكهنة المبجّلين (عصر ظهور الابن شيث ومن بعده أنوش وقينان) ثم حكم ملوك الشمس مصر بعد ذلك (وهذا قد يعني الجيل الثالث والرابع والخامس من ذرية آدم وهم مهلئيل ويارد وأخنوخ – إدريس – طبقا لما هو وارد في العهد القديم (تكوين : ٥) واستمرَّ هيرودوت أبو التاريخ يقول : ولقد سيطر هذا الاعتقاد بحكم الآلهة المصريين حتى بعد انتهاء عصر الدولة القديمة وعصر بناء الأهرام حتى أن المصريين تمنّوا عودته من جديد كأمل وكحلم في نفوسهم أي عودة حكم الآلهة وأنصاف الآلهة لينعموا بعهدهم الزاهي وبحكومة الله (العدل والسلام في الأرض) وهذا الذي قاله المصريون القدماء قديما ليعبِّر أصدق تعبير عن انحراف بعض الحكام (في نهاية الدولة القديمة) عن منهج الله وهو العدل والحق والاستقامة (المرموز له بالرمز المقدس ماعت) .

وننتهي من ذلك إلى وجود عقيدة قديمة لدى الإنسان المصري الأول بسيادة حكم الآلهة وأنصاف الآلهة لمصر وأنهم في شوق وحنين إلى عودة هذا الحكم .. وهذا يعطينا إيحاء قويّاً بوجود عهد آدم وذريته الأولى حيث ثبت من قبل وجود حضارة، والحضارة كما نعرف لا يمكن أن تنشأ إلا في ظل وجود بشر وليس هناك من بشر معروف بالشكل أو الخلقة التي نعرفها حتى الآن أقدم من آدم وذريته كما يستحيل أن يؤرخ مانيتون عن آلهة نورانيين قد حكموا أرض مصر واستعمروها آلاف السنين قبل ظهور مينا – نعرمر ثم رحلوا من حيث أتوا وإذا لم يكن آدم وذريته التي أودرنا أسماءهم هم المعنيُّون بقائمة مانيتون فمن إذن تكون تلك الآلهة البشريَّة التي حكمت مصر؟ وأنهم ولا شك ليسوا سوى آدم وذريته الأولون . " (١)

(١) عبد الجليل مجاهد " هل كان آدم الفرعون الأول ؟! " دار تحوتي للبحوث والنشر ص ٨٦ ، ٨٧

وإذا لم نسلِّم بأن مصر ، أم الدنيا ، ليست مهبط آدم أبي البشر وأن آدم هو الذي وضع بذور المعرفة والتحضُّر في أرض مصر صاحبة أول حضارة في التاريخ الإنساني فإننا لا نستطيع أن ننكر أن إدريس النبي المصري حفيد آدم هو من علَّم المصريين كيف يرفعون قواعد المجد وحدهم .

آراء العلماء والمفكرين في تاريخ سكان مصر الجنسي

تقول د. نعمات أحمد فؤاد : " إن الذين هاجروا إلى مصر من شمال أو جنوب ومثلهم الذين أتوها من شرق أو غرب ، كل ما فعلوه أنهم أضافوا إلى ثروة مصر وسكانها في المميزات الجنسيَّة المتوارثة ولم يغيِّروا الطابع العام للسكان .

إن العرب ، فاتحين ومستوطنين ، لم يتلبَّثوا بمصر إلا في الفترة التي ساد فيها حكم العناصر العربيَّة .

على أن الهجرة العربيَّة إلى مصر ارتدَّ بعضها إلى موطنها الأصلي ، واتخذ البعض مصر معبراً إلى المغرب وبقي البعض على الأطراف أقرب إلى الصحراء (البادية) منهم إلى الوادي ثم انقطعت هذه الهجرة في العصر العباسي اللهم إلا هجرة طائفة من عرب الأندلس إلى الإسكندرية سنة ٢٠٠ هـ ثم أزاحتهم عنها سنة ٢١١ هـ . وإذ آل الحكم إلى الأيوبيين الأكراد ثم المماليك الأتراك والجراكسة ثم العثمانيين كان إيذاناً بانتهاء النفوذ العربي البحت بما يغري من هجرة أصحابه أو استيطانهم أو تغلغلهم . وتوقَّف التيار العربي تقريباً وجاءت فترة استطاعت مصر فيها أن تهضم العرب النازحين .

إن الغالبية الساحقة من المسلمين في مصرٍ لم يكونوا غزاة وإنما هم في الأصل أقباط تحوّلوا إلى الإسلام " تدريجيًا " ولم يؤثِّر دخلوهم في الإسلام في تكوينهم الجنسي .

إن الطابع الجنسي العام للمصريين قد وُجِدَ واتخذ صورته المميَّزة قبل أن يكون هناك أقباط أو مسلمون . (١)

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد " شخصية مصر " الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٥ ص ٢٥٠ .

يقول الأستاذ العقاد : " يَنْقُضُ التاريخ كلَّ ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنيَّة المصريَّة ، فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين سواء في تكوين السلالة القوميَّة ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد ، فإذا كان بين المسلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب أو الترك فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة ودانوا بمذهب الكنسية بمذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سلالة مصريَّة عريقة ترجع بآبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحي وقبل بعثة موسى عليه السلام ."

ونخلص من هذا إلى أن حضارة مصر إنما هي مصريَّة خالصة ولم تقم كغيرها من الحضارات على أكتاف الآخرين ، وهنا أيضاً يقول د. حزين : " إن أغلب أمم التاريخ الكبرى في العهود الوسيطة كالعرب والعهد الحديث كبريطانيا إنما استطاعت أن تحقق ما قامت به من دور خاص في التاريخ بفضل تنوع تكوينها الجنسي " .

إن النظريات التي تصرُّ على استيراد سكان مصر الأُوَل من مصدر خارجي ، أثبتت الأبحاث الحديثة ، كما يقول د. جمال حمدان ، جموحها وأنها بنيت على شبهات ثم نمت بالتأويلات حتى سقطت بالفعل علميّاً ، لتظلَّ الحقيقة وحدها قائمة وهي أن المصريين القدماء الأصليين يبدءون كما يقول مايرز وهم جنس متجانس أساساً في صفاته وتركيبة وأن أي أثر لاختلاط تضاءل منذ بداية عصر الأسرات حتى ليقول " كون " : " لابد أن تظل مصر القديمة أبرز مثال معروف في التاريخ حتى الآن لمنطقة معزولة طبيعيّاً أتيح فيها للأنواع الجنسية المحليَّة الأصليَّة أن تمضي في طريقها لعدة آلاف من السنين دون أن تتأثَّر إطلاقاً باتصالات أجنبية .."

ويقارن هذا بما حدث في أوربا فيجد : " إن التغييرات التي لحقت النمط الجنسي في أي جزء من أوربا خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة كانت أكبر منها في مصر خلال خمسة الآلاف " .

لقد تعرضت مصر لهجرات ممثَّلة في الهكسوس ، الإسرائيليون ، العرب .

وثلاثتها كما يقول د. جمال حمدان من الرعاة أصلاً .

والرعاة عنصر حركي غير زارع أي لصيق بالأرض ، وغير صديق للاستقرار . فمصر لهؤلاء ممر لا مقر . حتى العرب الذين يمثلون ثالثة الهجرات وأكبرها لم تغيِّر التجانس الأصلي للسكان على الرغم من تكلُّم مصر بالعربيَّة ، واعتناقها الإسلام (إذا كانت العرب قد عرَّبت مصر لغويّاً ودينيّاً فقد مصَّرتهم مصر حضاريّاً وماديّاً) إن كل غزو خارجي تقابله مصر بغزو داخلي يمس الجوهر والكيان حين لم يستطع غاز أن يغيِّر منها أكثر من شكل خارجي سطحي هو تكيُّف قشري هيهات أن ينفذ إلى الصميم أو يمس الأعماق .

لقد مصَّرت مصر المسيحيَّة وجعلتها فيها دون بقية البلاد المسيحيَّة .

وقد احتوت مصر العربيَّة وتجاوبت مع الإسلام بكل ما يعني التجاوب من تبادل الأخذ والعطاء . لم تكن يوماً عنصراً سلباً بل إيجاباً مؤثِّراً وأثيراً أما الغزوات فهي حركة (ذكرية) فقد تكفَّلت بها طبيعة وظيفتها الحربيَّة التي تعني الوفاة المبكِّرة للغالبيَّة في الميدان فمن تبقَّى ، تصارع وأفني بعضه بعضاً وصولاً إلى السلطة .

نأتي إلى العناصر الوافدة في العصر الإسلامي : اترك الدولة الطولونيَّة ، ومغاربة الدولة الفاطميَّة ، وأكراد الدولة الأيوبيَّة وما أشبه .

يضاف إليهم الرقيق الأبيض من الشراكسة : والرقيق الأسود من الحبشة وأفريقيا ويضاف إليهم طبيعة مصر الآسرة التي قلَّما غادرها وافد عن رغبة إلا أن يكون قسراً واضطراراً .

هؤلاء الوافدون ، من حاول منهم الاندماج صهرته البوتقة المصريَّة بقدرتها التقليديَّة على الصهر والتذويب والامتصاص ، ومن لم يحاول ، صهره الصراع ، وطالما أفنى بعضهم بعضاً لا سيما المماليك .

حتى المماليك منهم طائفة أطلق عليهم الجبرتي الأمراء المصرلية .

وتكون النتيجة كما يقول أرمان : " إن الشعب الذي سكن مصر القديمة يعيش الآن في السكان الحاليين " .

على أن مصر في عملية ارتفاعها الدائم والدائب على الأحداث ، أحالت النقمة إلى نعمة فكانت " تتجدد بمقدار بهذه الهجرات والعناصر الداخلة ، وتكتسب عروقها دماء جديدة مهما كانت كميتها ضئيلة محدودة ، وتلك ظاهرة صحيَّة ومفيدة ومنشِّطة للبنية البشريَّة للسكان " واستقطبتهم فكأن مصر احتوت الهجرات والغزوات والوفادات وامتصتهم لا سياسيًّا فحسب بل جنسيًّا أيضاً ، وراحوا جميعاً، وظلَّت هي الباقية . (١)

حقائق وأباطيل حول الشعب المصري

لا يوجد شعب أُشيدَ بتاريخه وعظمته وأمجاده كالشعب المصري كما لا يوجد شعب ألصقت به الأباطيل والأكاذيب والترَّهات كالشعب المصري كذلك .

فكما أن العالم قديماً وحديثاً يقرُّ بأن مصر هي أمُّ الدنيا وصاحبة أوَّل وأعظم حضارة وأوَّل ثورة فإنهم في الوقت نفسه يتَّهمون المصريين القدماء بالشرك وتعدُّد الآلهة والجبن والخنوع والتواكل ، ويتَّهمون حكامهم بالتأله والتجبر والطغيان ، ولم يسأل هؤلاء الناس أنفسهم كيف يجمع شعب مصر بين هذه الصفات المتناقضة التي لا تجتمع في شعب واحد !!

كيف يوصف شعب مصر بأنه أوَّل الشعوب وأكثرها تديناً وأحرصها على أقامة المعابد والشعائر ثم يوصف في الوقت نفسه بالشرك وتعدد الآلهة وعبادة الشمس والقمر والحيوان والحجر ؟!!

كيف يأتي شعب مصر بالمعجزات في العلوم والفنون والآثار وهو شعب مقهور مستذل ، كيف يبني المجد وحده وحكامه طغاة مستبدون ؟!!

كيف يكون خير أجناد الأرض وأصحاب أوَّل ثورة في التاريخ على الاستبداد والظلم وهازمي الهكسوس والتتار والصليبيين والثائرين ضد كل الطغاة ويوصفون في نفس الوقت بأنهم شعب جبان خانع سلبي متواكل ؟!!

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد " شخصية مصر " مرجع سابق ص ٢٥١- ٢٥٣ بتصرف .

إن الصفات السلبيَّة التي وصم الجاهلون بالشعب المصري ما هي إلا أباطيل وتُرَّهات لا أصل لها في الحقيقة ، فالشعب المصري ليس شعباً مشركاً معدِّداً إنما هو أوَّل الموحِّدين ، وأن معجزاته الخالدة كانت ثمرة إيمانه بالله وكتبه ورسله منذ فجر التاريخ ، وأن المصريين ما رضوا بحكم ملوكهم إلا أنهم أقاموا فيهم شرع الله وعدله ، ولمَّا خرجوا على شرع الله خرج الشعب عليهم .

لقد اشتهر المصري بالتدين ، والطيبة ، والتسامح ، وكراهية العنف ، وحب الاستقرار ، والرضا بالقليل .

وهذه الصفات النبيلة ، مع الأسف ، جعلت كثيراً من المؤرخين ، قدماء ومحدثين ، يتّهمون المصريين بالضعف ، وقبول الذل والهوان ، والخضوع للقوي، " وأنهم عبيد لمن غَلَب " ، و " أنهم يتسمون بأخلاق العبيد " .

والمتتبِّع لتاريخ مصر المديد يجد أن المصري طيب القلب ، هادئ الطبع ، لا يميل إلى العنف ولا الثورة بل يميل إلى الاستقرار والهدوء والالتزام بالشرعيَّة والقانون. ومع ذلك فالمصري لا يقبل أبداً أن تهان ديانته أو تنتهك كرامته أو تنهب ثروته .

هذه مقدسات ثلاثة لم يسكت الشعب المصري طوال تاريخه عن انتهاك إحداها.

نعم شعب مصر شعب مسالم يكره الحرب ويحب السلام لأنه شعب مؤمن يبغض سفك الدماء ، ويعشق الإصلاح والبناء ، لكن إذا كُتِبَ عليه القتال ، وهو كره له ، قاتل وانتصر . وإذا انتهكت كرامته ، أو اعتدي على قُوته ثار وانتقم .

وليست هذه شعارات جوفاء يتشدق بها المصريون في معرض الفخر والمباهاة إنما هي حقائق راسخة ، ومبادئ ثابتة . تشهد عليها حقائق التاريخ ، وواقع الدهور . (١)

وقبل أن نذكر سمات المصريين التي تميِّزهم عن غيرهم من الشعوب نردُّ أولاً على الأباطيل التي اتُّهم المصريون بها والتي من كثرة ما تكررت تقررت ،

---

(١) " متى يثور المصريون " للمؤلف دار زهور المعرفة والبركة ص ٥ .

وأصبحت من المسالمات التي لا تقبل النقاش ولا يختلف عليها اثنان ولا تتناطح عليها عنزتان كما يقول العرب !!

الشخصيّة المصريّة في عيون المغرضين والسطحيين

إن الشخصيَّة المصريَّة في عيون المغرضين الذين أكلت الغَيْرةُ من ريادة مصر وعظمتها أكبادَهم أو السطحيين الذين يقفون عند ظواهر الأشياء ولا يتعدونها إلى جوهرها ، يعلمون ظاهراً من الشخصيَّة المصريَّة وهم عن حقيقتها غافلون، الشخصيَّة المصريَّة في عيون هؤلاء وأولئك غير الشخصيَّة المصريَّة في عيون عاشقي مصر والمتعمّقين في تاريخها ودياناتها [1] .

فالمغرضون والسطحيون قد ألقوا بالتهم جزافاً على الشخصيَّة المصريَّة دون أن يتحقَّقوا أو يترووُّا ويدقِّقوا ، فاتَّهموا المصريين القدماء بالشرك والتعدد ، واتهموا حكَّام مصر بالتأله والتجبر ، واتهموا المصريين بالجبن والكسل والسلبيَّة والفهلوة .

أما العاشقون المتدبِّرون والباحثون المحقِّقون فلهم رؤية مغايرة تماماً ، هذه الرؤية تقوم على دراسة تاريخ مصر دراسة علميَّة في ضوء الديانات السماويَّة والكتب المقدَّسة لا كما درسها العلمانيون الغربيون ومن تبعهم من المصريين المتغرِّبين .

وسنبدأ أولاً في الرد على التهم التي وصم بها المغرضون والسطحيون مصر وشعبها ، ثم نثنِّي بذكر سمات الشخصيَّة المصرية عند عاشقي مصر المحقِّقين لتاريخها ودياناتها .

المصريون القدماء مشركون أم موحّدون ؟

جمهور علماء المصريات والمؤرخين يجمعون على أن أهمَّ ما تميَّزت به الديانة المصريَّة القديمة هو تعدد الآلهة ، وهؤلاء الذين يقرُّون بتعدُّد الآلهة المعبودة لدى المصريين القدماء يقرُّون في ذات الوقت معرفة المصريين القدماء التوحيد الخالص

---

(1) هناك فرق بين دينٍ وديانةٍ فدين الله تعالى واحد وهو الإسلام { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ } أما الديانة والشرائع فمختلفة { لكلٍ جَعَلْنا منكمْ شرْعَةً وَمنهَاجًا } وعلى ذلك فدينَ المصرينَ طوال تاريخهم واحد وهو الإسلام وإن عرفوا دَيانات وشرَائع كثيرة جاءَتهم بها الرسل الذين بعثوا فيهم .

فيقولون : " رغم أن هذه الآلهة تبعاً لبلادها كانت تختلف في الشكل والاسـم وفـي طريقة السلوك فمن المدهش أن نجد خارج هذه الاختلافـات فكـرة " الألوهيَّـة " المجردَّة التي لا تتكر ممثَّلة في شعار على هيئة لواء معلق في طرفه ساق خـشبية تغرس عند مداخل المعابد البدائيَّة .

وكلمة " نتر " أو " الألوهيَّة " هي الاسم الذي كان يصف أي واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه ؛ كما استعملت لتصف كل سمة ربانيَّة . ومن الطبيعي أن تـستعمل هذه الكلمة لتصف كل إله على حدة دون تكرار اسمه ، وسـرعان مـا أدَّى هـذا الاستخدام إلى فكرة وجود قوَّة إلهيَّة مستقلَّة اشترك فيها كل إله .

كان الاعتقاد في " قوَّة إلهيَّة " غير شخصيَّة ولا نهائيَّة موجودة في كل إله علـى حدة (ولكنها عامة ومنتشرة في حيز واسع وراء أشكالها المرئيَّة المختلفة) عنصراً أساسيا في الفكر الديني المصريِّ .

لهذا يمكن أن نقول إن التوحيد المصري موجود دائماً مع تعدد الآلهة الواضـح في العبادات الماديَّة .

كثيراً ما يُذْكر الإله في أدب الحكمة دون أي صفات : " ليست إرادة الإنسان هي التي تحقق بل تدبير الإله " (بتاح حوتب) الدولة القديمة .

" يَعْرف الإله من يعمل من أجله " (مير يكارع) الأسرة الحادية عشرة .

" كل من يفعل هكذا سيمجد الإله اسمه " (الحكيم آني) الأسرة الثامنة عشرة.

" الإنسان طين وقش وصانعه هو الإله " (أمينيموبي) نهاية الدولة الحديثة .

"سعيد من يسير في طريق الرب " (بيتوسيريس) القرن الرابع قبل الميلاد. (١)

كيف يستقيم أن يعبد المصريون القدماء آلهة متعدِّدة فـي نفـس الوقـت الـذي يعترفون فيه بوجود إله واحد أحد لا اسم له معروف ، ولا تمثـال لـه منحـوت ، ولا صورة له مرسومة ؛ لأنهم يعتقدون أن هذا الإله ليس كمثلـه شـيء ، وأنـه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ؟!!

---

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جـان دوريـس " معجم الحضارة المصرية القديمة " ترجمة أمين سلامة ، مراجعة د. سيد توفيق . الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية . ص ٥٣ ، ٥٤ .

هذا هو اللغز الذي دوَّخ العلماء والمؤرِّخين .

والحقيقة التي أكدتها البرديات القديمة أن المصريين موحِّدون ، نعم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد – الذي نؤمن به – وبكل العقائد الإلهيِّة التي جاءت بها الكتب المقدسة بعد ذلك .

سعياً وراء البحث عن أصول الديانة المصريَّة وأسسها وفلسفتها نجد عباس محمود العقاد يؤكِّد في دراسته لمفهوم الألوهيَّة في هذه الديانة أنه في هذه العهود السحيقة " وصل المصريون إلى التوحيد " وهو برأيه هذا ليس فريداً فيبدو أنه بذلك يسير على نفس درب بعض ذوي التخصص في الدراسات المصريَّة القديمة لأن "برستد " قد سبقه وأشار إلى نفس المعنى حيث بيَّن " .. وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ، ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن في أصل ديانتهم " ، وذهب معه " رودلف أنتس " إذ أكَّد أنه قد " .. عُرفت فكرة وجود الإله الأزلي منذ أوَّل بدء التاريخ المصري " وقد دعَّم هذا الرأي وعلا به أكثر د. أحمد بدوي بتأكيده : إن المصريين قد ".. عرفوا أن الله واحد لا شريك له" بل إنهم " قد نزَّهوا الخالق عن طبيعة الأشياء ". (١)

وليس فقط هؤلاء من أكدُّوا توحيد المصريين القدماء فهناك العديد من العلماء والباحثين الذين أكَّدوا هذه الحقيقة منهم العالم الفرنسي شمبليون مكتشف ومترجم نصوص حجر رشيد حيث يقول : " لقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحَّة ما رواه "جامبليك "وما ذكره غيره من المتأخرين من أن الأمَّة المصريَّة كانت أمَّة موحِّدة في عبادتها لله ، وأنهم لمَّا توغَّلوا في سبيل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبديَّة واعتقدوا بصحَّة الحساب والعقاب " .

وفي عام ١٨٣٩ بعد وفاة " شمبليون " نشر أخوه " فيجاك " نقلاً عنه خلاصة ما كان قد توصَّل إليه بعد طول بحث ودراسة : "إن الديانة المصريَّة توحيد خالص" .

ويذكر العالم البريطاني " والس بدج " : { إن أكثر المؤيِّدين لنظريَّة التوحيد في مصر القديمة هو " د. بروجش " الذي جمع عدداً هائلاً مدهشاً من الفقرات المصريَّة الأصليَّة ، ومن هذه الفقرات نختار ما يأتي :

---

(١) د. سيد القمني " عقيدة الخلود في مصر القديمة " المركز المصري لبحوث الحضارة ص ٩١

" الإله واحد لا ثانيَ له "

" الإله باطن خفي" (الذي لا تدركه الأبصار)

" وهو خالق يعرف تكوينه ولا أحد يمكنه أن يدرك كنهته وماهيته ،ولا شبيه له"

" هو خالق الكون وكل ما فيه ، خالق السموات والأرض والأعماق (ما تحـت الثرى) والمياه والجبال .. إلخ "

وهذا القول قال به العالم الفرنسي " دي روجيه " ، وعالم الآثار " دي لاروج " ، وعلماء الأثار : " ماربيت " ، و" بيريت " و " ماسبيرو " .

لقد نشر " والس بدج " كتاباً فيه تلخيص لخلاصة ما توصّل إليه هؤلاء العلمـاء وغيرهم جاء فيه " ومن الـصفات المنـسوبة إلـى الله " God " فـي النـصوص المصريَّة من كلِّ العصور انتهي بروجش ، ودي روجيـه ، وعلمـاء المـصريَّات الكبار الآخرون إلى فكرة أن سكَّان وادي النيل من أبكر وأقـدم العـصور عرفـوا وعبدوا إلهاً واحداً .. أزليّاً .. أبديّاً .. لا تدركه العقول ،ولا يمكن استكناه ماهيَّته" .

ونشر والس بدج كتاباً آخر أكد فيه ما سبق أن ذكره من تماثـل توحيـد قـدماء المصريين وتوحيد اليهود والمسلمين يقول فيه : " إنه لا توجد صعوبة في إظهـار أن فكرة التوحيد التي وجدت في مصر منذ العصور المبكرة لا تختلف في ملامحها عن تلك التي نمت بين العبرانيين (اليهود) والعرب (المسلمين) " (١)

ويقول د. سمير أديب : " كان المصريون القدامى هداة وعلماء ومرشدين ، يـوم أن كانت الدنيا طفلاً يحبو في جهالة القرون ، نقشوا على الحجر ، وكتبـوا علـى الورق، واهتدوا إلى معرفة الإله الواحد الأحد يوم كانت الشعوب الأخرى تضطرب جهلاً بين العديد من الآلهة ينسبون إليهم ما يعجزهم من مظاهر وأحداث ، عرفـوا العدل والحق والحرية وآمنوا بالقيم المثلى ، انتظمت في بلادهـم الإدارة ، ونمـت لديهم مقوِّمات الأمة يوم كانت الشعوب تعيش فرقاً متناثرة وقبائل متناحرة . " (٢)

(1) لمزيد من أقوال علماء المصريات حول توحيد القدماء المصريين راجع د. نـديم الـسيار " قـدماء المصريين أول الموحدين " الفصل الثاني " إشراق الحقيقة " .
(2) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " العربي للنشر والتوزيع ص ١٠ .

الخطأ في الترجمة وليس في الاعتقاد

الحقيقة أن المصريين القدماء لم يكونوا وثنيين بل كانوا موحدين ، والخطأ كان في ترجمة كلمة (نيثر) التي ترجمت دائماً بمعنى إله رغم أنها قد تعني : إله ، أو ملَك ، أو نبي ، أو كائن علوي ، فإذا أطلقت مثلاً على " رع " فإنها تعني اسماً من أسماء الله الحسنى مالك الملك أو إله الشمس ، وإذا أطلقت على (بتاح) فتعني اسماً آخر من أسماء الله الحسنى وهو خالق الإنسان بديع السموات والأرض ، أما إذا أطلقت على "تحوت " فإنها تعني الرسول الموكَّل بحمل رسالة السماء إلى أهل الأرض .. وهكذا ، وهذا موجود في كل لغات الدنيا ، فعلماء اللغة يقولون إن الكلمة لا معنى لها خارج السياق فمثلا كلمة (الرب) في اللغة العربيَّة تطلق على " الله تعالى ، والمَلِك ، والسيد ، و المُربي ، والمقيم ، والمُنعم ، والمدبِّر ، والمصلح " (١) . والسياق هو الذي يحدِّد المراد بكلمة رب .

.كذلك كلمة (دُوا) التي ترجمت عادة بمعنى العبادة رغم أنها قد تعني : العشق، أو الحمد ، أو الدعاء ، أو تعظيم ، أو عبادة . ومعناها يحدِّده السياق فإذا أضيفت لاسم من أسماء الله فهي تعني العبادة ، أما إذا أضيفت لتحوت ، امحوتب ، أو مينا، أو إخناتون فتعني التعظيم ، فإذا أضيفت إلى حيوان أو طائر فتعني الحب أو الامتنان ، ولا تعني العبادة . ومعاجم اللغة العربيَّة لا تقصر كلمة عبادة على الله تعالى وحده إلا إذا أضيفت إلى اسمه جل شأنه ، إنما في غير ذلك فتعني الطاعة " العَبْديَّةُ والعُبوديَّةُ والعُبودَةُ والعِبادَةُ : الطَّاعَةُ " (٢)

ولفظ " دُوا " في قواميس اللغة يعني (العشق .. العبادة) أي أن هذا اللفظ المصري – حسب ترجمته – يحتمل معنى (المحبة والعشق) للنيثر كما يحتمل أيضا معنى (العبادة) . " (٣)

وقد قام د. وسيم السيسي بعقد مقارنة بين شريعة المصريين القدماء والشرائع السماويَّة الأخرى في مقال له بعنوان " النبي إدريس المثلث بالعظمة " جاء فيه :

---

(1) مجمع اللغة العربية " المعجم الوسيط " مادة (رب) .
(2) القاموس المحيط مادة (عبد) .
(3) د . نديم السيار " ليسوا آلهة لكن كلائكة) ص ٢٥٥

" لم يترك الله أمَّة بلا رُسل: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل :٣٦]

وقد ذكر منهم القرآن الكريم نبي الله إدريس: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } [مريم : ٥٦] وكان من ألقابه هرمس (١) كما يذكر القفطى " إدريس النبي ﷺ ولد بمصر وسموه هرمس (٢) وكان المصريون يلقبونه «عا.. عا.. عـا.. ورَّ» أي مثلث العظمة (٣)

وقد عُثِرَ على بعض الكتابات الهرمسيَّة، تقول عنها دائرة معارف الدين إنها أثرت في العقائد اليهوديَّة، واللاهوت المسيحي ، كما تذكر لنا دائرة المعارف البريطانيَّة أنَّ هذه الكتابات الهرمسيَّة دُرست جيداً بواسطة العرب وأثَّرت فيهم . (٤)

عرف القدماء البعث بعد الموت، نجد كلمة موت مصريَّة، منيَّة.. مصريَّة، نشرو " النشور" مصريَّة، أخرت " آخرة " مصريَّة، قر " المستقر " مصريَّة في القرآن {وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر : ٣٩]

نجد في كتاب «الخروج إلى النهار» المسمى خطأ «كتاب الموتى» في فصل إنكار الخطايا، تدخل نفس المتوفى إلى قاعة الحساب «كلمة مصريَّة» يسوقها أحد الملائكة، وفى القرآن الكريم {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } [ق :٢١] ، ثم يقول المتوفى: لم أرتكب إثماً، وفى القرآن: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ } [الأعراف : ٣٣]

وفى برديَّة آنى يقول المتوفى: لم أرتكب الفحشاء (٥) ، وفى القرآن { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ } [الأعراف : ٣٣]

كما كان المصري القديم يقول: لم أقتلْ، لم أسرقْ، لم أسلبْ، لم أسرقْ بالإكراه، لم أرتكبْ الزنا، لم أشته زوجة قريب أو صديق، لم أرتكبْ الفاحشة في حرم الإلـه،

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٨٧٥ .
(٢) القفطي " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " ص١
(٣) والاس بادج " آلهة المصريين " ٤٧٨.
(٤) دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٨٧٥ .
(٥) والاس بدج " كتاب الموتى " ص ٢٠١.

وجاء في القرآن: { وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا } [البقرة : ١٨٧] ، وكان المصريُّ أو المصريَّة يقول في محاكمة الروح: لم أكن متنصتاً أو متجسساً، وفي القرآن الكريم: { وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } [الحجرات : ١٢] وكان يقول: لم أنطق بالأكاذيب، ولم أكن شاهد زور، ولم أغْتَبْ " الغيبة " أحداً ، ولم أكن نمَّاماً ، ولم أسخر من أحد، ولم أشتم، ولم أكن عالي الصوت، ولم أظلم.. بل عشت للعدل، وبالعدل عشت، والقرآن الكريم يقول :{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : ٩٠] كما كان المصري القديم يقول : لم ألحق أذى بمخلوق، والقرآن: { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا } [الأحزاب : ٥٨] إلى آخر هذا القانون الأخلاقي الرائع، والذي يقول عنه برستد " إنه أسمى بكثير من الوصايا العشر" (١)

فإذا ذهبنا لسفر الأمثال الذي كتبه سليمان الحكيم بعد إمنوبى الحكيم المصري بآلاف السنين نجد التطابق العجيب الذي يؤكد أن المصدر الإلهي واحد منذ آلاف السنين، هوذا إمنوبى يقول: أمل أذنيك لتسمع أقوالي، وأعكف قلبك على فهمها، وسليمان الحكيم بعد آلاف السنين يقول: أمل أذنيك واسمع كلام الحكماء، ووجه قلبك لمعرفتها !

ويقول أمنوبى: لا تتعب نفسك في طلب المزيد، مادمت حصلت على حاجتك، فالمال المسروق لا يمكث معك بل تصبح له أجنحة ويطير كأوزة إلى السماء، ويقول سليمان الحكيم: لا تتعب نفسك حتى تصير غنيّاً، فالمال يصنع لنفسه أجنحة كالنسر ويطير إلى السماء !

ويكتب لنا برستد عشرات الصفحات المقارنة بين أمنوبى وسفر الأمثال، وبين أناشيد أخناتون ومزامير داوود النبي .

لقد صبغت الحضارة المصريَّة القديمة كل ما ومن حولها ! إليك مثلاً تهامة مصرية معناها الأرض شديدة الحرارة، خيبر= خيَّالة من ألف جواد، يثرب= ملجأ

---

(١) برستد " فجر الضمير" ص ١٠.

الهاربين، هوازن= رافعو الأعلام، جبل حراء= جبل الأطلال، قريظـة= حـاملو الدروع، أقرأ هذا كله.. وهو قطرة في محيط، فأتذكر تنبؤات تحوت عن مـستقبل مصر: آه يا مصر.. لن تلقى تصديقاً حتى مـن أبنائـك، ستـصبحين مهجـورة.. موحشة، محتلة من الأجانب الذين سيتنكرون لتقاليدنا المقدَّسة (١) ، ولكـن الكـاهن نفرا بهو، ختم بردياته في وصف الثورة وعصر الاضمحلال، بظهور قائد منقذ من أبناء الصعيد، سيحرر البلاد ويعيد لها مجدها: سوف يعود الأمن للـبلاد، وجـيش مصر لمصر ويحمل سلاحه ضد أعداء الوطن الذين باعوه للأعداء " (٢)

إن المصريين القدماء عرفوا التوحيد الخالص منذ فجر التاريخ إن لم يكن علـى يد آدم عليه السلام فعلى الأقل على يد حفيده إدريس عليه السلام أو هـرمس كمـا يسميه اليونان وصحفه المقدسة المنزّلة من السماء .

يقول ديورانت في " قصة الحضارة : " كان من المألوف في الأزمان القديمة أن تُعْزى كتب القوانين إلى الوحي الإلهي ،وكانت قوانين مصر تعزى إلى تحوت " .

وتحوت هو نفسه هرمس عند اليونان .

يقول د. سليم حسن : " أطلق اليونان على تحوت اسم هرمس " (٣)

ويقول ول ديورانت " كان اليونان يعظمون تحوت ويـسمونه هـرمس المثلـث العظمة " (٤)

فتحوت هو هرمس ، وهرمس هو نبي الله إدريس .

يقول ابن تغر بردي : " إن هرمس الموصوف بالحكمة والذي تسميه العبرانيون خنوخ هو إدريس عليه السلام " (٥)

يقول النويري : "هرمس: نبي، وحكيم، وملك قيل: هو إدريس عليه السلام"(٦)

---

(١) عاطف عزت " دراسات وأبحاث في الحضارات القديمة " .
(٢) د. سيد كريم لغز الحضارة المصرية " ص ٣١٨ ، لمزيد من التفاصيل حول سيدنا إدريـس راجـع د. وسيم السيسي " النبي إدريس المثلث العظمة " موقع د. وسيم السيسي بتاريخ ٢/ ٤ / ٢٠١٣ .
(3) د. سليم حسن موسوعة " مصر القديمة " ج١ ص ١٨٦ مرجع سابق .
(4) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج١ص ٣٢٦ .
(5) ابن تغر بردي " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ص ٦٦ .
(6) النويري " نهاية الأرب في فنون الأدب " ص ٦٣٨ .

وتشير برديات هرمس إلى العلاقة بين ظهور عقيدة التوحيد وظهور جذور المعرفة في الحضارة المصريَّة القديمة والتي ارتبطت جميع عناصرها بالعقيدة ، تقول برديات هرمس " عندما آمن المخلوق برب السماء أنعم عليه بنعمة المعرفة التي حملها تحوت رسول الإله الذي ينقل رسالته إلى البشر "(١)

ويقول ول ديورانت " كان معظم علماء مصر من الكهنة، ذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصريَّة ،وهم يقولون في أساطيرهم إنَّ العلوم قد اخترعها من ٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصري في خلال حكمه على ظهر الأرض " (٢)

الإسلام يؤكد كلام المصريين القدماء

لقد جاء في حديث أبي ذر الغفاري الطويل عن عدد الأنبياء والرسل عليهم السلام ذكر الصحف الثلاثين التي أوحى الله تعالى بها إلى إدريس نبي المصريين .

قال أبو ذر الغفاري : {... قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك ؟ قال: "ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب". قلت: فمن كان أولهم ؟ قال: "آدم" قلت: أنبي مرسل ؟ قال: " نعم، خلقه الله " بيده، ونفخ فيه من روحه، سواه قبيلاً " .

ثم قال : "يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد" قال: قلت: يارسول الله، كم كتاب أنزله الله ؟ قال: "مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، ... } (٣)

وذكر القرطبي في تفسيره : " إدريس عليه السلام أوّل من خطَّ بالقلم وأوّل من خاط الثياب ولبس المَخِيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها.

(1) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٧٠
(2) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج١ص ٣٢٥ .
(3) ذكر الحديث ابن كثير في تفسيره ج ٢ ص ٤٧٢

وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صـحيفة كما في حديث أبي ذر . " (١)

هذا ما قاله المفسِّرون في حق إدريس ، فماذا قال علماء المصريات عن تحوت؟

الحقيقة أن الكلام يكاد يتطابق مما يؤكد أنهما شخص واحد .

يقول علماء المصريات : " تحوت إله العلم والحكمة والأدب ، وكاتـب الآلهـة ومخترع اللغة الهيروغليفيَّة وواضع القوانين ومخترع علم الحساب والفلك " (٢)

وإذا كانت دعوة التوحيد قد بدأت في مصر واعتنقها المصريون منذ عهد إدريس عليه السلام وربما قبله فإنها قد ظلَّت عقيدة راسخة نجد أصداءها تتردد بقوة علـى مر العصور والعقود على يد أنبياء الله تعالى ورسله والصالحين من المصريين .

ويعدد لنا المؤرخ " ابن إياس " من عرفتهم مصر من الأنبيـاء علـيهم السـلام فيحصيهم بثلاثين نبيّاً منهم :

إدريس ، وإبراهيم الخليل ، وإسماعيل – علـى أحـد الأقـوال – ويعقـوب ، ويوسف، واثنا عشر من أبناء يعقوب وهم الأسباط ، ولوط ، وقد ولد بها موسـى ، وهارون ، ويوشع بن نون ، ودخلها دانيال ، وأرميا ، وعيسى ابن مريم ، وسليمان بن داود ، وأيوب ، وشعيب عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .

كما دخلها أيضا من الصدِّيقين : لقمان الحكيم ، والخضر ، وذو القرنين . (٣)

وهؤلاء الصدِّيقون " لقمان ، والخضر ، وذو القرنين ذكر كثيـر مـن علمـاء المسلمين أنهم أنبياء أيضاً .

وليس هؤلاء فقط من بعثوا في مصر من الأنبياء والمرسلين بـل هنـاك رسـل آخرون بعثوا في مصر ذكرهم المصريون القدماء في بردياتهم ولم يقصـصهم الله تعالى علينا في القرآن الكريم { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْـلُ وَرُسُـلاً لَّـمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} (النساء : ١٦٤)

---

(1) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٤٧٢ .
(2) عبد القادر حمزة " على هامش التاريخ المصري القديم " مطابع الشعب ٤٧٧ .
(3) نقلاً عن د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٧ .

يقول الشيخ محمد بن عبد الرحمن العريفي : " أهل مصر فيكفيهم شرفٌ وفخرٌ أنَّ الله تعالى اختار منهم الأنبياء وجعل الله تعالى الأنبياء يسكنون بين ظهرانيهم، فهذا الخليل إبراهيم شيخ الموحدين، وجدُّ خاتم النبيين أتى مصر مع زوجه سارة وتزوج هاجر المصريَّة، وهذا يعقوب عليه السلام دخلها مع أبنائه الأنبياء فيها تُوُفُّوا ودُفنُوا فيها ، وهذا يوسف عليه السلام سكن مصر وحَكَم فيها وتُوُفِّي ودُفنَ فيها،وهذان موسى وهارون -عليهما السلام وُلِدَا في مصر وعاشا فيها، وهذا يُوشَع بن نون وُلِد في مصر وعاش فيها ، وهذا الخَضِر ، وهذا أيوب وأشعيا وأرميا – عليهم أفضل الصلاة والسلام – كلهم دخل مصراً ومنهم من مات فيها .

وقد ضرب الله تعالى أبطال مصر أمثلة في كتابه فمن المصريين مؤمن آل فرعون البطل الثابت على الحق الذي قال الله جلَّ وعلا عنه : { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .. } [غافر:٢٨] وهو مصري الرجل المؤمن الذي حذَّر موسى عليه السلام {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } [القصص:٢٠]

ومن المصريين السَّحَرَة الذين ذكر الله تعالى قصتهم لمَّا آمنوا وصدَّقوا وكانوا في أوَّل النَّهار سَحَرَة فَجَرَة، وصاروا في آخر النَّهار شُهَدَاء بَرَرَة .. إنها بلاد الأبطال .

ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ أمَّ موسى عليه السلام مصريَّة، وأنَّ آسيا امرأة فرعون مصريَّة، التي قال الله عنها : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم:١١]

ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ المرأة الصالحة التي كانت ماشطة لبنت فرعون كانت مصريَّة، وقد قال نبينا ﷺ : " لما كانت الليلةُ التي أسري بي فيها وجدتُ

رائحةً طيبةً فقلتُ : ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل ؟ قال : هذه رائحـــة ماشِــطَة بنت فرعون وأولادها " [رواه الحاكم وصححه] (١)

إن كثيراً من الوثائق المصريَّة القديمة ككتاب الموتى ، ونشيد الشمس لا تملــك أن تقول فيه إلا كما قال النجاشي عندما سمع القرآن " هذا والذي جاء بـــه عيـــسى ليخرج من مشكاة واحدة " .

يقول رع (٢) عن نفسه : " إني أنا الذي خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال . أنا الذي خلقت الساعات ومن ثَمَّ جاءت الأيام إلى الوجود .

أنا الذي خلقت نار الحياة . " (٣)

ويقول " رع " عن نفسه أيضاً إنه : " الإله المقدَّس الذي جاء إلى الوجود بنفـــسه .. الإله الأزلي الذي وُجد في البدء والذي رفع السماء وسوَّى الأرض .. الإله الذي لا ينازع سلطانه منازع ذو القول الفصل . " (٤)

و" رع " هو الاسم الأشهر الذي عُرف به الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الـــذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وهو ما يقابل عندنا لفظ الجلالة " الله ".

و" رع " عند المصريين القدماء ليس اســـم الله الأعظـــم ، فاســـم الله الأعظـــم لا يعرفه أحد . جاء في كتاب الموتى وهو أقدم كتاب مقـــدَّس عرفـــه المـــصريون القدماء في عصور ما قبل الأسرات : " لا يعرف الإنسان اسم الخالق " .

وفي متون الأهرام : " إن الخالق لا يمكن معرفة اسمه لأنه فوق مدارك العقول "(٥)

إنه من المستحيل أن يصل المصريون القدماء إلى هذا التوحيد بعقولهم المجـــردة مهما بلغوا من الذكاء والعبقريَّة .

---

(1) من خطبة ألقاها الشيخ محمد بن عبد الرحمن العريفي خطبة عدَّد فيها فضائل مصر في مسجد البوادي بالسعودية بتاريخ ١٤ ديسمبر ٢٠١٢ وقد اعتمد في هذه الخطبة على مقالات صـــديقه العزيـــز الباحـــث السعودي د. محمد موسى الشريف التي نشرها في مجلة المجتمع تحت عنوان " فضائل مصر ومزايا أهلها"

(2) اسم " رع " عند المصريين القدماء معناه رب الأرباب أو إله الشمس .

(3) نقلا عن إبكار السقاف " الدين في مصر القديمة ". العصور الجديدة ص ٤٥ .

(4) نفسه ص ٤٦ .

(5) د. نديم السيار " ليسوا آلهة ، ولكن ملائكة " ص ٣٢٠

إن تاريخ المصريين القدماء تاريخ التوحيد ابتداءً من إدريس عليه السلام إلى الألف الأولى قبل الميلاد على لسان حكيم – وقيل أنه نبي – من النوبة أقصى صعيد مصر أو سودان مصر ألا وهو حكيم الحكماء لقمان الذي سمَّا الله تعالى سورة من سور القرآن الكريم باسمه جاء فيها .

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : ١٢ ، ١٣]

جاء في تفسير القرطبي " لقمان بن عنقاء بن سرون كان نوبيّاً من أهل أيلة " (١) وقال سعيد ابن المسيب : " كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوَّة؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيّاً. وقال بنبوته عكرمة والشعبي؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوَّة. " (٢)

إذن لا شكَّ في أن المصريين القدماء كان لديهم كتب سماوية ، وأن الله سبحانه قد أنزلها وحياً على نبيهم إدريس في بداية الخليقة ، ووعظ بها لقمان الحكيم قبل الميلاد بألف عام .

كما نجد في الوثائق المصريَّة القديمة العديد من الشواهد على أن تلك الكتب المنزّلة كانت لها في نفوسهم قداسة هائلة ، وأنهم كانوا يلتزمون التزاماً كاملاً بكل ما جاء فيها ونجد هذا على سبيل المثال في نصائح ووصايا الحكيم " آني " إذ يقول: " إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزّلة ." (٣)

ويقول عالم المصريات الكبير د. سيد كريم " إن ما جاءت به الكتب المقدسة من عقيدة وشريعة وعبادة " وُجدَت مُفَصَّلة في " كتاب الموتى " الذي يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الأديان أوّل دين سماوي عرفته البشريَّة خاصة وأن أقدم آثاره ترجع إلى ما قبل فجر الحضارة نفسها أي قبل الأسرات سنة ٤١٠٠ ق. م " (٤)

---

(1) تفسير القرطبي لقوله تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ " [لقمان : ١٢]
(2) نفسه .
(3) د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " ص ١٩٧ مرجع سابق .
(4) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ٥٣ مرجع سابق .

إذن وبناءً على ما تقدم فإنَّ المصريين القدماء لم يكونوا مشركين يعبدون آلهـة متعدِّدة كما هو مشهور بل كانوا أوَّل شعوب الأرض يـؤمن بـالله الواحـد الأحـد وبشريعته وعلومه المقدسَّة وذلك التوحيد هو الذي بنوا به حضارة مصر وفي كـل مرة حاولوا إقامة الدولة كانت الفكرة الأساسيَّة فيها توحيد العقيدة والإيمـان بالإلـه الواحد وهذا ما يحل لنا اللغز الذي حيَّر المؤرخين وعلماء الآثـار وهـو ظهـور الحضارة المصريَّة القديمة كاملة النمو بمعرفة متكاملة في مختلف العلوم الطبيعيَّـة والرياضيَّة والفلكيَّة والطب والفنون والآداب والعمارة ، والأعجب مـن ذلـك – أو ربما ما يُفسِّر ذلك – تكامل العقيدة " بتوحيد الإلـه " رع " رب الأربـاب وخـالق الكون ورمزوا لقدرته بقرص الشمس وعبَّروا عنه بالقوة الخفيَّة الكامنة التي تهـب الحياة وتسيِّر الكون . "[١]

لقد اختار الله تعالى مصر ليشرق على أرضـها مَوْلِـد نـور العلـم والهدايـة والحضارة، ويهدي شعبها العظيم شعوب الدنيا جميع العلوم والفنون والآداب ، ومع الأسف الشديد فإن تاريخ مصر العظيم قد شوَّهه كثير من علماء الغـرب والـشرق فبرغم اعترافهم بأن مصر مهد الحضارة الإنسانيَّة إلا أنهم اتهموا شـعبها بـالكفر والإلحاد وتعدد الآلهة ، واتهموا جميع حكامها بالكفر والطغيان والتأله وقـد أثبتنـا توحيد المصريين منذ فجر التاريخ والآن نكشف لغز نشأة الحضارة المصريَّة ونفنِّد الأكاذيب التي ألصقت بها ليس دفاعاً عن أجدادنا عصبيَّةً بل لإظهار الحقيقة التـي غابت عن الناس يوم أَفَلَت الحضارة المصريَّة القديمة ووقعـت فريـسة للاحـتلال الأجنبي .

سر نشأة الحضارة المصريَّة

إن العلمانيين من المؤرخين ينطلقون من عدة مُسَلَّمات يبنون عليها أفكارهم ومعتقداتهم ، وفحوى هذه المُسلَّمات هو أن الكفر وعبادة قوى الطبيعة أو عبادة الطوطم هو الأصل ، وأن البشريَّة لم تعرف التوحيد الخالص إلا على يد موسى عند أحبار وكهنة اليهود ، وأن الحضارة المصريَّة التي ولدت كاملة النمو إنما هي

---

(1) نفسه ص ٦٦

من صنع الطبيعة ، أو من صنع الملوك السحرة ، أو من صنع كائنات من كواكب أخرى أرقى عقلاً وعبقريَّة ومعرفة وحضارة عند علماء المصريات !!

ولم يهتم الباحثون بربط الرسالات السماويَّة بالوثائق والآثار التي تؤكِّد أن أنبياء الله عليهم السلام هم الذين بنوا هذه الحضارة بواسطة **العلوم الإلهية التي أمدَّهم الله تعالى بها ، لكي يعبدوا الله تعالى بتعمير أرضه ، كما أمدَّهم بالعقيدة والشريعة ليعبدوه تعالى وحده ويقيموا شرعه .**

{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : ١١٥]

{ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } [القيامة : ٣٦]

فالله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سدى فكما علَّمه كيفيَّة عبادته علَّمه كيفيَّة تعمير كونه حتى يؤدي المهمتين اللتين خُلِقَ من أجلهما : عبادة الله وتعمير الكون .

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود : ٦١]

ويستنكر الكثيرون هذا القول ، ويتساءلون في دهشة :

هل أرسل الله تعالى إلى المصريين القدماء أنبياءً ورسلاً ؟! وهل لدى المصريين القدماء كتب سماوية منزَّلة من عند الله كالتوراة والإنجيل والقرآن ؟!!

والحقيقة أن المصريين القدماء قد أكَّدوا أن الله تعالى أرسل فيهم أنبياء ورسلاً وأرسل معهم كتباً وصحفاً كما يذكرون أن كلَّ العلوم التي أنشئوا بها حضارتهم قد جاءتهم وحياً من السماء في صحف مقدسة .

يذكر د. أحمد بدوي في كتابه " تاريخ التربية والتعليم في مصر " أن علْم قدماء المصريين – في اعتقادهم – مَرْجعه إلى السماء ، جاء به رُسُل من حكماء الماضي، وهو مُدَّخر في الصحف يتناقله الناس جيلاً بعد جيل " .

ويذكر د. عبد العزيز صالح : " رأى المتدينون – المصريون القدماء – في التّزوُّد من مناهل العلم والعمل بهَدْيها نوعاً من التعبد في الدنيا ؛ فكان الداعي إلى دراسة هذه العلوم يعتبر نفسه داعياً إلى أقوال الرب . " (١)

ونسب كتاب الموتى (برديات الكتاب المقدس للحكيم آني) بناء الهرم الأكبر الذين أطلق عليه اسم (بيت الأماكن الخفية) إلى الإله تحوت إله المعرفة وكاتم الأسرار الإلهية وحارس كلمات العدالة والحق . ناقل الكلمة والحرف وقياس الوقت والزمن ، ليكون معبداً وهيكلاً للخالق الأعظم وينقل منه رسالته إلى البشر ، وهو ما فسر للعلماء والباحثين " لغز الهرم الأكبر " فيما يختص بالغرض الذي بني من أجله ." (٢)

والإله " تحوت " ما هو إلا نبي الله " إدريس " عليه السلام أو " هرمس " عند اليونان كما بيّنا بالأدلة .

والسبب في خطأ كثير من علماء المصريات في تفسير نشأة الحضارة المصريَّة القديمة يرجع إلى الخطأ في الترجمة عن اللغة المصريَّة القديمة فلو ترجمت الوثائق ترجمة صحيحة عن الأصل الذي كتبت به لأكَّدت أن ما أتت به الحضارة المصريَّة وغيرها من الحضارات إنما هو من المعجزات التي أيَّد الله تعالى بها أنبياءه ورسله، ومما أوحى لهم به من علوم علَّموها الناس ليصلحوا بها دينهم الذي هو عصمة أمرهم ، ويصلحوا بها دنياهم التي فيها معاشهم ، ويصلحوا بها آخرتهم التي إليها معادهم .

فكما أرسل الله تعالى الأنبياء بشريعة تعلِّم الناس كيفية عبادة الله تعالى ، أرسل الأنبياء بالعلوم المقدَّسة التي تعلم الناس كيف يعمرون الأرض .

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } [البقرة : ٣١]

{ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق : ٤، ٥]

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أوّل الموحدين " الطبعة الثانية ص ١٩٥ ، ١٩٦

(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ١٩٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فالله تعالى مصدر كل علم نافع عَرّفَه البشر فعلّم آدم الأسماء كلها ، علّمه أسماء الذوات ، وأفعالها ، مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليـه ابـن عبـاس رضـي الله عنهما . " (١)

لقد علّم الله تعالى آدم أسماء عناصر الأرض وما بها من مخلوقات كما علّمه كُنْهَ الأشياء وخصائصها ، وكيف يستخدمها وينتفع بها ، كما علّم تعالى إدريس عليه السلام – نبي المصريين وأوّل الأنبياء والرسل بعد آدم – فوق كل ذلك الكتابة بالقلم، وحياكة الثياب ، وعلم النجوم ، والحساب وغيرها مما كان سبباً في النشأة الحضارة المصرية كاملة متطورة .

يقول الإمام القرطبي : " إدريس عليه السلام أوّل من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة " (٢)

إذن كانت نشأة الحضارة المصريَّة القديمة نشأة دينيَّة ، وأن أوّل علوم عرفها البشر علوم ربانيَّة ، وإنجازات المصريون القدماء الباهرة كانت ثمرة اتباعهم العلوم المقدَّسة التي جاء بها الأنبياء .

وهذا ما تؤكِّده الدراسة المتأنية لتاريخ هذه الحضارات ، وآثارها الخالدة ، ونصوص الدين الإسلامي المعجزة . (٣)

ومن التهم التي ألصقت بحكّام مصر القدماء أنهم فراعنة كفار مستبدون كحاكم مصر (فرعون) زمان موسى عليه السلام ، وأن الشعب المصري جبان خانع "عبد لمن غلب " !!

نظام الحكم عند المصريين القدماء

إن دين الله تعالى ليس مجموعة من الشعائر التي تؤدى في بيوت الله ولا علاقة لها بحياة الناس ومعاشهم ، هذه فكرة قاصرة لدين الله فدين الله الذي شـرع للنـاس شامل لكل مناحي الحياة ، فكل حياة المرء لابد أن تكون لله تعالى .

---

(1) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١ ص ٧٨

(2) تفسير القرطبي لقوله تعالى { واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيّاً }

(3) لمزيد من التفصيل حول الحضارة المصرية القديمة الرجوع لكتابنا " حضارات مصر ونهضاتها " دار زهور المعرفة والبركة .

{ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام : ١٦٢]

ونظام الحكم منصوص عليه في الشرائع السماوية ، وأمر الله تعالى النـــاس أن يحتكموا إليه .

يقول تعالى : { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون } [المائدة:٤٤]

فمن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده ، فأخفـاه وحكـم بغيره "فأولئك هم الكافرون " .

وقد كان نظام الحكم عند قدماء المصريين يسير وفق شرع الله ولا يخرج عنـه يقول د. سليم حسن : " لم تكن الحكومة المصرية في نظر الشعب المصري نظاماً اخترعه الإنسان أو أنه جاء نتيجة تطور سياسي – كما زعم المؤرخون العلمـانيون – بل كان هبة الله لشعبه أسس عند خلق الدنيا . " (1)

وكان الحكام في مصر القديمة ليس مطلق اليد بل هـو مقيَّـد بـشريعة الله ، لا يخرج عليها ، وإلا خرج الناس عليه .

ودونك دستور الحكم في مصر : { إن المصري القديم اعتقد أن أوَّل مـن حكـم على الأرض والعالم بأجمعه هو " رع " إله الشمس ، وقد وضع هذا الإلـه قانونـاً يسمى " ماعت " ومعناه الصدق والعدل والحق والعدالة الاجتماعية والحكم الصالح، ولما رفع " رع " نفسه إلى السماء حكم ابنه (2) علـى الأرض ولقبـه " بـابن رع " (خليفته) وهو الملك ، وقد كان على كل ملك يتبوأ عرش مصر العظيمة منذ الأسرة الرابعة (أسرة بناء الأهرام) أن يسير في حكمه تبعاً لقانون " ماعت " فإذا ما حـاد عنه قيد أنمله فلشعبه ألا يعتبره ابناً " لرع " ولا يحكم البلاد .

لذلك نرى أن البلاد سارت تحكم بقانون " ماعت " مدة طويلة وهي تنعم بالرخاء طوال عهد الدولة القديمة حتى إذا ما انتصف حكم الأسرة الـسادسة أخـذ الملـوك يحيدون عن الحكم بقانون " ماعت " حتى انهارت البلاد وهوت إلى مزالـق الذلـة

(1) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٨ مرجع سابق

(2) " ابنه " هنا ليس بالمعنى الحقيقي إنما معناها خليفته مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

ولذا قامت في مصر ثورة اجتماعية قلبت جميع الأوضاع ونادت بالإصلاح الشامل وتقويم فساد المجتمع من الانحطاط . (١)

لكن ما هو قانون " ماعت " هذا الذي أمر الله تعالى بـه الإنسان أن يطبّقه ، وعلى أساسه يوم القيامة سيحاسبه .

يقول د. سليم حسن عن قانون ماعت : " ذلك القانون الذي سنّه " رع " أول من حكم على الأرض وقوامه العدل والصدق والحق وتأدية الواجب على الوجه الأكمل دون تقصير أو تراخ وهو الذي سارت على سننه كل فراعنة مصر حتى أن من يحيد عن سبيله لا يكون جديراً بأن يدعى " ابن رع " وقد ارتضى المصريون هذا النظام عن طيب خاطر ، وقنعوا بالملكية نظام حكم لهم طوال مدّة تاريخهم ، اللهم إلا فترات انحرف فيها الملوك عن " ماعت " فانفضَّ الشعب من حولهم وهبَّت في وجوههم الثورات تطالب بعدالة " ماعت " التي كانت غذاء الآلهة وقوام حياتها (أي شريعة الله ونظامه الذي بنى عليه الحياة والأحياء) كما كانت طعام الشعب وعماد حياته ، ولا غرابة إذن في أن نرى الشعب المصري كان يخضع للفراعنة خضوعاً تاماً ، ويعتقد أن ما كانوا ينطقون به هو الصواب الذي لا مرية فيه ، لأنه من وحي " ماعت " التي سنّها " رع " أوّل من حكم العالم ثم ثار على نهجه الفراعنة من بعده. من أجل ذلك نرى في الصور الفرعونية أن أهم قربان وأثمن هدية يقدّمها الفرعون للآلهة هي صورة " ماعت " التي تمثّل في هيئة امرأة ترتدي على رأسها ريشة يرمز بها للعدالة " ماعت" كما أنه كان لزاماً على كل قاضٍ ممن يفصلون في قضايا الشعب أن يحلّي صدره بصورة " ماعت " وعند النطق بالحكم كان يقبض على هذه الصورة بيده ويتوجّه بها نحو من في جانبه الحق فكأنه يقول له " إن العدالة في جانبك " (٢)

وكانت فترة فرعون حاكم مصر في عهد سيدنا موسى من تلك الفترات التي خرج فيها حاكم مصر على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى

---

(1) محمد صابر " مصر تحت ظلال الفراعنة " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١١
(٢) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة ، عصر رعمسيس الثاني " ج ٦ صفحة ط ، ي .

هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرة لكل من تسوّل له نفسه الخروج عن توحيد الله تعالى وعن قانون "ماعت " .

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ }[الزخرف : ٥٤ – ٥٦]

فالمصريون إذن مؤمنون موحِّدون بنوا حضارتهم على العلوم المقدَّسة التي أرسل الله بها أنبياءه ورسله إليهم كما أن حكامهم كانوا صالحين مصلحين حكموهم بالعدل وأقاموا فيهم شرع الله ومن خرج على شرع الله خرجوا عليه كما سنبين .

عبيد لمن غلب أم ثائرون على من ظلم ؟

من الأباطيل التي ألصقت بالمصريين زوراً وبهتاناً كشرك المصريين وطغيان حكامهم أنهم شعب جبان ضعيف عبيد لمن غلب !!

يقول د. جمال حمدان " آفة مصر ابتداءً اثنتان : الطغاة في الداخل ، والاستعمار من الخارج . هاتان هما نقطتا الضعف الأساسيتان في شخصية مصر.. فنحن كشعب نخضع بانتظام لحكامنا الطغاة ، وحكامنا يركعون بسهولة للأجانب الغزاة ومن جانبنا كمواطنين فلقد درجنا تقليدياً على أن نبرئ ساحتنا كشعب من مسئولية هذا الوقر المزدوج القاصم لظهورنا بمقولة أننا ببساطة شعب مغلوب على أمره مفترى عليه وأن الفاعل هو الطغيان والمجرم الأكبر هو الاستعمار ومن جانبه فإن الطغيان الداخلي بدوره يزيح المسئولية عن كاهله مسارعاً بكل ترحيب بإلقائها على عاتق الاستعمار الآثم الزنيم . " (١)

وفي موضع آخر من كتابه " شخصية مصر " يقول جمال حمدان : " سلبية المواطن الفرد إزاء الحكم جعلت الحكومة هي كل شيء في مصر والمواطن نفسه لا شيء ، فكانت مصر دائماً هي حاكمها . وهذا أس وأصل الطغيان الفرعوني والاستبداد الشرقي المزمن حتى اليوم أكثر مما هو نتيجة له . فهو من فرط الاعتدال مواطن سلس ذلول ، بل رعية ومطية لينة ، لا يحسن إلا الرضوخ للحكم

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ / ص ٥٩٥ دار الهلال .

والحاكم ، ولا يجيد سوى نفاق السلطة والعبوديَّة للقوة ، وما أسهل حينئذ أن يتحوَّل من مواطن ذلول إلى عبد ذليل " .

وهناك من يقول بأن النيل (أو المجتمع النهري) هو أحد العوامل الكامنة خلف الطغيان في المجتمع المصري وليس كلها ، وقد قال في هذا المعنى بارتملى سانت هيلر : " منذ الفراعنة كتبت على سكان مصر العبوديَّة السياسيَّة ، وإني أبعد ما أكون عن القول بأن النيل هو السبب الوحيد لهذا الوضع المحزن ، وإني لمدرك أن ثمة كثيراً من الناس أكثر عبوديَّة وبؤساً دون أن يكون لديهم نيل . كل ما أود أن أقوله هو أن النظام الطبيعي لهذا النهر العظيم كان في مصر أحد أسباب الطغيان ، لقد وجد الطغيان فيه نوعاً من الضرورة ، وكذلك حجة وذريعة خاصة " .

يقول د. محمد المهدي تعليقاً على كلام سانت هيلر : " وهذا الموقف ترك لدى الشخصيَّة المصريَّة مجموعة من أخلاق العبيد مثل المداهنة والمسايرة والخضوع والتسليم للسيد أيا كان هذا السيد (رئيساً في العمل أو زوجاً أو حاكماً) . ويبدوا أن المصريين من كثرة ما تعرَّضوا للاستعمار والاستبداد تعوَّدوا أن يتعاملوا على أنهم رعايا لا مواطنين ، فهم يكتفون ويرضون بلقمة العيش والوظيفة – أيا كانت – ولا يطمحون لحقوق المواطنة والكرامة والسيادة إلا في المواقف التي يستفز فيها المستعمر الخارجي الكرامة الوطنيَّة إلى درجة جارحة ، هنا ينتفض المصريين لدفع هذا الاستعمار ثم ما يلبثوا أن يعودوا لسابق عهدهم الذي وصفناه . " (١)

وسوف نترك العقاد يرد على هذا الاتهام ردَّاً مجملاً ثم نعقبه برد مفصَّل .

يقول العقاد : " رأس الأكاذيب على الطبيعة المصريَّة أنها طبيعة أمَّة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبالي غارة الأجنبي عليها .. فلو أننا استعرضنا تواريخ انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا أو تواريخ الفرس والهند والصين وما بين أولئك من شعوب المشرق والمغرب التي استقرَّت فيها الدول وقامت فيها العروش لما استطعنا أن نعثر على شعب واحد خلا من سلطان الأجانب ، واستعصى حكمه على أسرة بعد أسرة من الواغلين (٢) الطارئين عليه في عنف المقتحم تارة وفي رفق المتودِّد

(1) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " مرجع سابق .
(2) الواغل : الدَّاخل على طعام القوم وشرابهم من غير دعوة .

تارة أخرى ، وربما كانت مَزِيَّة الأمة المصريَّة على أمم كثيرة في هـذه الخَلَّـة أن الحاكم الأجنبي كان يَنْتَحِلُ دينها ويتَّخذ عاداتها ومراسمها ويحفظ ماله في أرضـها ولا ينقله إلى عاصمة بعيدة منها . فإن جرى على هذه السنة في سياسـتها طالـت أيامه فيها وتمهَّدت حكومته بين أكنافها ، وإن خالف هذه السنَّة لم يـأمن انتقاضـها ولم يزل على خطر منها ، وحذر من جموحها وانقلابها . (١)

ثم يبيِّن لنا العقاد الأسباب الحقيقيَّة وراء ظهور وانتشار هذه الأكذوبة فيقول :

" وإنما شاع اتهام المصريين بالخضوع للسطوة الأجنبيَّة ولم يشع ذلك كثيراً عن الأمم الأخرى لأن المصريين أمَّة لها تاريخ قديم متصل بالعالم في شـرقه وغربـه وقديمه وحديثه ، والأخبار عنها متصلة وذاكرة الشعوب بأخبارها مـشغولة ، ولأن العالم القديم والعالم الحديث كليهما قد تلقيا تاريخ هذه الأمَّـة مـن أفـواه الأعـداء المغرضين ، ولم تحفل هذه الأمَّة بتصحيح ما يقال عنهـا لأن تـصحيح التـواريخ القومية بدعة جديدة ، ولم يعرف لها خطرها ومبلغ الحاجـة إليهـا قبـل عـصرنا الأخير .

ثم جاءت العصور الأخيرة والمصريون لا يسمعون عن أنفسهم إلا تشهير بهـم وسوء القالة عليهم وتفسير التاريخ على الوجه الذي يريده لهم أعداؤهم والطـامعون فيهم . فالأوربيون نظروا إلى الشرق نظر المستعمر الطامع إلى الغنيمة المطمـوع فيها ، فوصفوه في ماضيه وحاضره بالصِّفة التي يحبونها ويتمنون دوامهـا ، وهـم لا يحبونه مستقلاً ولا أهلاً للاستقلال ، ولا يحبُّون لأنفسهم أن يكون ظالمين مغتالين يقتلون روح الحريَّة ويحكمون بالذل على أناس يستحقُّون العزَّة والكرامـة ، فلـيس مما يشبع مطامعهم أو يريح ضمائرهم أن يتصف الشرق بصفات الـشعوب التـي تشبه الأوربيين في الفطرة وتساويهم أو تقترب منهم في نعمـة الحريـة والـسيادة، وإنما يشبع مطامعهم ويريح ضمائرهم معاً أن يتخيَّلـوا الـشرق مفطـوراً علـى الخضوع مطبوعاً على الاستسلام ، لا يغيِّـرون مـن أمـره شـيئاً إذا أخـضعوه وسيطروا عليه واستمتعوا بخيراته الضائعة وثمراته المهملة وأصقاعه الفسيحة .

---

(١) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ١٤ ، ١٥ بتصرف .

وهكذا دوّنوا لنا تاريخنا ولقّنوه لنا في المدارس والكتب حتى رأينا منّا من يصدقه ولا يتحرَّج من تلقينه على هذه الصورة لصغار الأبناء ، كأنه يحافظ على أمانة الدرس ويتحرج من التصرُّف في لوح العلم المحفوظ ." (١)

ثم يبيِّن لنا العقاد بعمق شديد سمة من أهم سمات الشعب المصري التي تميزه عن غيره من الأمم والشعوب فيقول : " ولعنا لا نُلخِّص الأمَّة المصريَّة في كلمة هي أوجز وأصدق وأجمع من وصفها بصفتها الجغرافيَّة التاريخيَّة المتفق عليها ، وهي أنها أمَّة طويلة التاريخ قديمة عهد بالمدنيَّة في أرض زراعيَّة .

فهذا الوصف الوجيز البيِّن يجمع من أوصافها كلَّ شيء ولا يندُّ عنه شيء وإذا توسَّعنا في تفصيله واستنباط دخائله كانٍ كفيلاً أن يفسِّر لنا أخلاقها وعاداتها ويوضِّح لنا غرائبها ونقائضها ويردُّ كلَّ خصلة من خصالها وكلَّ طور من أطوارها إلى النصاب المحكم والوضع الصحيح .

فالأمَّة المصريَّة ليست أمَّة بداوة تتوثَّب إلى الحرب لأنها باب الرزق وطريق السلامة من الجار المعتدي أو الجار المخيف ، ولكنها مستقرَّة ومعيشة منتظمة تلجأ إلى الحروب حين تلجأ إليها لأنها ضرورة لا محيص عنها ونكبة لا تستهين بها إلا اتقاء لنكبة أكبر منها ، وأصعب عاقبة من عاقبتها .

ولو أحصيت الثورات في تاريخ مصر القريب لما كانت في عددها دون ثورات الأمم التي اشتهرت بالتمرُّد ولم تشتهر بالاستسلام ، فقد ثار المصريون على الفرنسيين وثاروا على الترك والمتتركين ؛ وثاروا على الإنجليز في نحو قرن واحد، وكان للعقيدة والموروثات في معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القوميَّة أو الفرديَّة ." (٢)

ولو أحصينا الثورات في تاريخ مصر لما نافسها شعب آخر من الشعوب المعروفة بالتمرُّد ، ويكفيها فخراً أنها في العامين الأخيرين فقط قد قامت بثورتين وأسقطت رئيسين وهو ما لم يحدث مثله في شعوب العالم ، وتاريخ الأمم نعم قد تكون هناك اضطرابات في بعض الدول فتقوم بها انقلابات عسكريَّة كثيرة في

---

(1) نفسه ص ٢١
(2) نفسه ص ٢٧، ٢٨ .

أوقات وجيزة ، لكن أن تقوم ثورتان شعبيتان يشارك فيها عشرات الملايين في نحو عامين فهذا مما علّمته مصر للعالم كله .

المصريون والحكّام الطغاة

إن ثورة المصريين على بيبي الثاني عام ٢٢٨٠ ق. م هي أول ثورة يقوم بهـا شعب ضد حاكم مستبد من بني جلدتهم وليس من الغزاة المعتدين ، فـلا نعلـم أن شعباً قد سبق المصريين القدماء في الثورة على حاكمهم المستبد واستمرت ثـورتهم نحو مائة عام كاملة لأنه خرج على قانون ماعت شريعة الحق والـصدق والعـدل والعدالة الاجتماعيَّة .

وكما كان المصريون القدماء هم أوّل الموحِّدين لله وأوّل من أنـشئوا حـضارة وأوّل من أقاموا دولة مركزيَّة تحكم بشريعة الله فكذا كانوا أوّل ثائرين على الجَـوْر والظلم والاستبداد .

وثورتهم الرائدة على " بيبي الثاني " تؤكد أن المصريين نُـشِّئوا علـى الحريَّـة والكرامة والعزة والإباء ولا يرضون بالضيم ، ولا يقبلون الهوان .

لقد طال الحكم بالملك " بيبي الثاني" الذي استبدَّت به شيخوخته ثم بدأ يتبدّل حال الحكومة فدبَّ فيها الضعف ، وقلَّت هيبتها وفي نفس الوقـت زاد سـلطان حكـام الأقاليم وزادت ثروتهم ، وقلَّ ولاؤهم لصاحب العرش فزادت الأعباء على كاهـل الحكومة وتعطَّلت المصالح واشتدَّت المظالم مما أدَّى إلى قيام ثورة ، ثورة على كلِّ شيء ثورة على الظلم وعلى الحُكْم . " (١)

لم تكن ثورة المصريين على " بيبي الثاني " استثناءً في تاريخ مـصر القـديم ، ولكن الحقيقة أن المصريين القدماء ما استكانوا أبداً لحاكم ظالم استهزأ بعقيـدتهم ، أو استذَلّ كرامتهم ، أو تحكَّم في أرزاقهم .

ولقد ارتكب الهكسوس هذه الجرائم الثلاث في حق الـشعب المـصري فثـاروا عليهم حتى طهَّروا البلاد منهم وذهبوا غير مأسوف عليهم .

---

(1) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٤٣ .

فبعد أن نعمت البلاد بالوحدة والاستقرار في عهد منتحوتب الثاني ونهضت نهضة شاملة في عهد أمنمحات الأول والملوك السبعة الذين اقتفوا أثره وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران ، وخاصة في عهد سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث . حدث أن خلّف أمنمحات الثالث ملوكاً ضعافاً تلاشى على أيديهم العدل فكان ذلك نذيراً بانتهاء أيام تلك النهضة ودخول مصر مرة ثانية في عصر من عصور الفوضى والظلام ، وكثر تطلّع كبار الموظفين ، وقواد الجيش ، وكل ذي سطوة إلى العرش، ونتج عن ذلك أن تعدّدت المؤامرات واضطرب الأمن وتسرب الفساد إلى كل مرافق الحياة .

غزو الهكسوس مصر والعذاب الأدنى

كانت النتيجة الحتميَّة لاضطراب أحوال البلاد وضعف حكومتها أن سقطت فريسة حوالي ١٧٢٥ ق. م في يد عدو متربِّص بها إذ دهمها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطل عليها اسم " الهكسوس " واحتلوا معظم أرض مصر التي لم يبق منها إلا شريط ضيق من صعيد مصر يحكمه أمراء طيبة . (١)

كان احتلال الهكسوس مصر عقاباً من الله تعالى بسبب الصراع على الحكم وإهمال مصالح البلاد والعباد ، واندلاع الفتن ، وكثرة المظالم .

وطوال حكم الهكسوس الذي تجاوز القرن لم يستسلم لهم المصريون ، ولم يتعاونوا معهم ، بل ظلُّوا معادين لهم ينظرون إليهم نظرة الكره والاحتقار حتى هبَّ أمراء طيبة يكافحون في سبيل استرداد حريَّة بلادهم المسلوبة وقد كتب الله لهم النجاح وتمكَّن أحمس من الاستيلاء على عاصمتهم في الدلتا ثم تبعهم إلى فلسطين حيث هزمهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في التاريخ . فسجَّل لهم بذلك فصل الختام من ذلك العهد البغيض المشئوم ، عهد الاحتلال والتحكُّم الأجنبي في البلاد . (٢)

هذه هي مصر التي يصفها البعض بأنها تفتح ذراعيها لكلِّ غاز ، وهؤلاء هم المصريون الذي يصفهم من لا يعرف حقيقتهم بالخنوع والاستسلام والرضا بالهوان.

---

(1) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ٧ .
(2) نفسه ص ٧ .

ثورات مصر ضد الفرس

إن حياة الشعوب تشبه موج البحر لا استقرار لها فهي دائماً فـي مـدٍّ وجـزر فتظهر أسرة حاكمة تأخذ في أسباب الإصلاح فيعلو شأنها ويؤمَن جانبهـا وتبـسط نفوذها على الشعوب الضعيفة . ثم يَخلُف من بعدهم خَلْفٌ ضعاف يهملون الواجبات ويتبعون الشهوات فيبدِّدون ما صنعه آباؤهم ويصغرون في عين أعـدائهم فتـدور الدائرة عليهم وتدول دولتهم .

فبعد أن طرد أحمس الهكسوس وقضى على ثورات النوبيين واتجـه للإصـلاح الداخلي مما جعل المؤرخين يُعِدُّونه رأس عهد جديد من أزهى عصور التاريخ وهو عهد الدولة الحديثة .

لكن في العصر المتأخِّر من التاريخ المصري القديم تكالبت العلل علـى مـصر وبدأ عهد مظلم انتهى باحتلال الفرس لمصر ولم يخضع المصريون لهذا الاحتلال ، كما هي طبيعة المصريين مع الاحتلال الأجنبي فعندما غـزا " قمبيـز " الفارسـي مصر سنة ٥٢٥ ق.م وهزم بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، اضطهد المصريين فكرهوه ، وكان متعسفاً في معاملة الكهنة فنبذوه وتـدخَّل فـي معتقدات المصريين وانتهك حرمة الديانة المصريَّة .(١)

والمصري لا يقبل أبداً أن تهان ديانته أو تنتهك كرامته أو تنهـب ثرواتـه لـذا وبرغم حالة الضعف التي كانت تمرُّ بها مصر حينئذ فإن المصريين قاموا في سبيل حريتهم بالعديد من الثورات قُضي على أغلبها إلـى أن انتهـز "أميرتـي" الملـك المصري الذي كان جدُّه قد آمن بفكرة أن الموت في سبيل بلاده أفضل وأشرف من الحياة تحت الاحتلال فرصة انقلاب الفرس على بعضهم فخرج على رأس أتباعـه وأطلقوا نداء " حي على السلاح " في المصريين ، وهاجموا الفرس وتمكَّنـوا مـن دحرهم خارج الحدود حتى سوريا ، وأعلنوا الاستقلال إلى أن مات بعد ست سنوات فتمكَّن أحد أتباعه من الحكم وهو " نفوريت " مكوناً الأسـرة التاسـعة والعـشرين الوطنيَّة أيضاً ، والتي بلغت مدة حكمها حوالي عشرين عاماً مـن ٣٩٨ ق. م إلـى ٣٧٨ ق. م .

---

(1) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٦٥٨ .

ثم الأسرة الثلاثون وهي أسرة وطنيَّة حكمت من ٣٧٨ ق. م إلى ٣٤١ ق. م وعمل ملوكها بهمَّة من أجل صالح البلاد داخليّاً ، وكانوا في كفاح مستمرٍّ خارجيّاً ضد الفرس الذين كانوا يتحيَّنون أيَّة فرصة للعودة إلى مصر . وقد عادوا فعلاً بعد انتهاء هذه الأسرة ، ولكن حكمهم لم يدم إلا أقل من عشر سنوات من ٣٤١ ق. م إلى ٣٣٢ ق. م فقد استولى الإسكندر على مصر وطرد الفرس منها ، وضمها إلى إمبراطوريته الناشئة . " (١)

ترحيب المصريين بالإسكندر استسلام أم إسلام ؟

لم يكن ترحيب المصريين بالإسكندر الأكبر ضعفاً واستسلاماً كما يعتقد البعض، ولكنه كان عزة وإسلاماً فكما استنجد المصريون بالمسلمين العرب من ظلم الرومان وكفرهم حيث اعتقدوا أنهم دعاة هدى وعدل استنجد أجدادهم بالإسكندر الأكبر (ذي القرنين) فقد اعتقدوا بنبوّته ورسالته وأنه ابن آمون " رسول الله " ليهديهم إلى الرشاد ويخلصهم من ظلم الفرس .

والإسكندر الأكبر هو ذو القرنين على الراجح من أقوال المفسرين والمؤرِّخين .

فعن قتادة قال : الإسكندر هو ذو القرنين . (٢)

وذكر القرطبي أن ابن هشام قال عن ذي القرنين : " إنه الإسكندر الذي بنى مدينة الإسكندرية " (٣)

وعن سبب تسمية الإسكندر الأكبر بذي القرنين يقول أحمد حسين في موسوعته تاريخ مصر : " وقد حرص الإسكندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل اسم ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التي سكها بقرني المقدس آمون ، ولعل ذلك مصدر تسميته " بذي القرنين " (٤)

والسؤال الآن إذا كان المصريون قد تحالفوا مع البطالمة بل تآلفوا معهم إلى حد الاندماج الحضاري والديني فلماذا ثاروا عليهم في آخر عهدهم ؟

---

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٤٩ ، ٥٠ .
(2) الإمام السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " في تفسير قوله تعالى {يسألونك عن ذي القرنين}
(3) تفسير القرطبي لقوله تعالى { يسألونك عن ذي القرنين } .
(4) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ ص ١٧٨ دار الشعب .

ثورات المصريين ضد البطالمة

حكم البطالمة وهم السلالة التي انحدرت من بطليمـوس أحـد قـادة الإسـكندر المقربين مصر منذ ٣٣٣ حتى ٣٠ ق.م ، حيـث تـولّى حكـم مـصر ١٥ ملكـاً بطلمياً،ويمكن تقسيم تاريخ حكم البطالمة لمصر إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأول : وهي فترة حكم البطالمة الأوائل من ٣٢٣ إلى ٢٢٢ ق.م وهي فترة رخاء وثراء وقوة .

المرحلة الثانية / وهي من ٢٢٢ إلى ١١٧ ق.م تبدأ خلالها البلاد في التخلـف ، أو هي بداية الانهيار ، حيث انقسمت العائلة المالكة على نفسها بـسبب طموحـات بعضهم الزائدة ، مما أدى في النهاية إلى كثرة تدخل الرومان فـي أحـوال مـصر الداخلية .

المرحلة الثالثة : من ١١٧ إلى ٣٠ ق.م وهي التي وصلت البلاد في نهايتها إلى الانهيار الكامل ، وخلال هذه الفترة نجد أن بعض الحكام يلجئـون إلـى الرومـان للتدخل لإبقائهم على العرش . (١)

وبرغم أن المصريين كانوا يعتبرون البطالمة فاتحين حلفاء لا محتلين دخلاء إلا أن هذا لم يمنع المصريين من الثورة على البطالمة المستبدِّين الذين ظلموهم وجاروا عليهم .

وأخذت دولة البطالة تنهار سريعاً بعد أن وصلت ثورات المصريين عليهم إلـى ست ثورات قوضت دعائمها ، وأنهكت قواها الغزوات الخارجية المتلاحقة . فضلاً عن التدخل الروماني الذي أخذ يتزايد بصورة واضحة حتى غدا الملـوك البطالمـة مجرد أدوات في أيدي الساسة الرومان ومجلس الشيوخ الروماني .

وانتهى أمر البطالمة بتولّي العرش بطليموس الثاني عشر مـشتركاً مـع أختـه كليوباترا الشهيرة التي حاولت بكل السبل أن تعيد إلى دولة البطالمة سابق مجـدها

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٦٠ .

وعزها ، فباءت بالفشل ، واضطرت إلى الانتحار لتجنب نفسها مرارة الوقوع في أسر القائد الروماني . (١)

ثورات المصريين ضد الرومان

إن مصر قاومت الرومان الغزاة الذين خَلَفُوا اليونان في حكم مصر بكلٍ ما تيسَّر لها من أسلحة : قاومتهم بالعتاد الحربي ، واستماتت في الدفاع حتى إذا ما غُلبت على أمرها قاومتهم بالثورات التي جعلت من الوادي جحيماً لا يطاق ، فإذا ما أخمدت الثورة لجأت إلى حرب العصابات ، فإذا ما أعوزها السلاح لجأ فلاحوها إلى العصيان ، أو الإضراب أو الفرار من الأرض والاختفاء عن الأنظار في الأدغال أو مجاهل الصحراء .

فإذا ما أعيتها الحيل لجأتٍ إلى سلاح آخر بتَّار : لجأت إلى المقاومة السلبيَّة فبذرت بذور الكراهية للمحتلِّين عن طريق المنشورات السياسيَّة أو رفضت التعاون مع الغاصبين ، ولم تتأثر بثقافتهم أو تأخذ بأساليب معيشتهم أو تؤمن بآلهتهم بل اتخذت من تراثها الموغل في القديم ، وديانتها الأصيلة وكبريائها الوطني دروعاً تتقي بها شتى المؤامرات التي كانت كلها بالرغم من طول فترات الاحتلال كالزبد الطافي الذي يذهب هباءً . (٢)

لقد ظلَّت مصر ترزح تحت الاحتلال الروماني والبيزنطي أكثر من ستة قرون (٣٠ ق.م – ٦٤١م) حتى بدأت حركة الفتوح الإسلاميَّة التي حرَّرت الشام من أيدي البيزنطيين زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي عرف بسماحته وعدله حتى لقب بالفاروق ، وتطلَّع الأقباط إلى الخليفة عمر بن الخطاب لكي يبعث بمن يخلصهم من مخالب الروم (البيزنطيين) واضطهادهم وفساد موظفيهم وجباة ضرائبهم ، وبخاصة بعد أن سمعوا أن المسلمين لا يتدخلون في عقائد الآخرين {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون : ٦)

ومن هنا جاءت حملة القائد عمرو بن العاص لفتح مصر وكان النصر حليفه على البيزنطيين في عدة معارك أهمها حصن بابليون في ٩ أبريل ٦٤١م ، وفي

---

(1) د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٢٤ .
(2) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق . ص ٢٠٠

نوفمبر من نفس العام اضطر حاكم الإسكندرية البيزنطي إلى تـسليم المدينــة إلــى عمرو بن العاص ثم الإبحار هو ورجاله عنها في ١٧ سـبتمبر ٦٤٢ م ، وخــرج الرهبان من أديرتهم يحملون الدفوف يرحِّبون بقدوم عمرو بن العــاص ورجالــه ، ولا عجب فالعرب هم أبناء هاجر أم إسماعيل وهي أخت المصريين جميعاً . (١)

ليس بسبب صلة القرابة فحسب رحَّب أقباط مصر بالعرب الفاتحين وإنما أيضاً لأن ما أنزل على محمد ﷺ من دين ، والذي جاء به عيسى ﷺ الذي يؤمنون به يخرج من مشكاة واحدة كما قال النجاشي ملك الحبشة .

ثورات المصريين وحروبهم على الظالمين والمغيرين

لم تتوقَّف ثورات المصريين وحربهم على الحكام الظالمين والمعتدين المغيــرين طوال تاريخهم المديد ففي العصور الوسطى ثاروا لنحو مائة عام (١٠٧ – ٢١٦ هــ) على الحكام الأمويين والعباسيين الظالمين ، وفي عصر الأيوبيين هزموا الصليبيين وأجلوهم عن الإمارات العربيَّة ، وفي عصر المماليك استأصلوا شأفة التتار وقطعوا دابرهم ، وفي العصر الحديث حاربوا الفرنسيين وثاروا عليهم ثــورتين ، وفتكــوا بحملة فريزر الإنجليزيَّة ، وأيَّدوا الثورة العرابية ضد الخديو توفيق ، وحاربوا مــع عرابي الإنجليز ولولا الخيانة ما تمكَّن الإنجليز من دخول مصر واحتلالها واستمر سيل الثورات يتدفَّق ضدهم حتى أجلى المصريون جيشاً وشــعباً الإنجليــزي عــن أرضهم ، لقد قامت مصر في القرن الأخير فقط بــأربع ثــورات كبــرى ١٩١٩ ، ١٩٥٢ ، ٢٠١١ ، ٢٠١٣ (٢) وأربع حــروب كبــرى حــرب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ .

لقد علَّم المصريون العالم الثورة على الحكام الظالمين منذ أكثر من أربعــة آلاف وثلاثمائة عام ، ومازالوا يعلمونهم كيف تكون الثورات حتى اليوم .

ودونك بعض ما قيل عن ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ م

---

(1) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مرجع سابق . ص ٢٤٦ .

(2) لمزيد من التفاصيل حول هذه الثورات الرجوع لكتابنا " متى يثور المصريون " دار زهور المعرفــة والبركة .

الرئيس الأمريكي أوباما : " يجب أن نربي أبناءنا ليصبحوا كشباب مصر " .

برلسكوني رئيس وزراء إيطاليا: " لا جديد في مصر فقد صنع المصريون التاريخ كالعادة " .

ستولتنبرج رئيس وزراء النرويج : " اليوم كلنا مصريين"

هاينز فيشر رئيس النمسا : " شعب مصر أعظم شعوب الأرض ويستحق جائزة نوبل للسلام "

" فستر فيله " وزير الخارجية الألمانى: " أتطلع إلى زيارة مصر والحديث مع الذين قاموا بالثورة "

البريطانية " ليندسي جيرمن " الأمينة العامة لتحالف " أوقفوا الحرب ": " الجميع سعيد بانتصار الثورة في مصر.. والثورة المصرية دفعت الناس إلى النظر في أوضاع بلادهم تحت حكم الدكتاتورية، وجعلتهم يتساءلون: هل التغيير ممكن ؟ "

محمد صوالحة رئيس المبادرة الإسلامية في بريطانيا "جماهير مصر العظيمة تصنع اليوم التاريخ ليس فقط لشعب مصر بل للعالم العربي والإسلامي" .

وسائل إعلام عالمية : " نحن نشهد ثورة هي الأكبر في التاريخ العربي، وربما كانت الأعظم في التاريخ كله، حيث تجمع ثلاثة ملايين شخص في مكان واحد ودبروا أمورهم بنظام وسلام. إنها ثورة نظيفة منظمة سلمية " .

شبكة " CNN " الإخبارية : " لأول مرة نرى شعباً يقوم بثورة ثم ينظف الشوارع بعده ."

" ديلي تليجراف " البريطانية : " قوة الشعب تصنع التاريخ في المصر" .

" بولو كويلهو " الروائي البرازيلي الشهير: " العالم يتحوّل للأفضل لأن هناك شعوباً تخاطر بأرواحها لجعله أفضل .. شكراً يا مصريين" .

المصري كسول طبعاً أم متكاسل سخطاً ؟

صفة الكسل والتواكل وتعليق الفشل على مِشْجَب الآخر والظروف وسوء الحظ من أكثر التهم التي ألصقت بالمصري .

يقول د. محمد المهدي : " وهذه أحد السمات البارزة والمشكلة في الشخصيَّة المصريَّة حيث ترى في أغلب الأحوال أن ما حدث هو نتيجة للحظ أو الصدفة أو

القدر أو تأثير أو تقصير أشخاص آخرين ، وهذا الإسقاط يريح الشخص ويجعله يشعر أنه غير مسئول عن شيء ، ولكنه في ذات الوقت يعطل نضجه ونموه ويجعل مشاكله تتراكم لأنه لا يوجد شيء يفعله طالما هو غير مسئول ، ويجعل الأمور تسير على نحو غامض وضبابي فليست هناك علاقة واضحة – في وعي المصري – بين العمل والنجاح أو بين الاجتهاد والإنجاز ، لذلك حين يريد النجاح والإنجاز فهو يكتفي إما بالتوجُه إلى الله بالدعاء أو التوجُه إلى أشخاص ذوى نفوذ يتملقهم ويطلب رضاهم ، وإذا فشل في تحقيق أهدافه فالسبب في ذلك يأتي من هنا أو من هناك ولكنه ليس منه وبالتالي فليس لديه شيء يفعله ليغير النتيجة غير الانتظار حتى تتعدل الظروف أو تتحسن الأحوال . وهذا الموقف هو عكس الوجهة التي تكون لدى الشخصيات الناضجة والشعوب الناضجة التي ترى أنها مسئولة مسئولية مباشرة عن نجاحها أو فشلها وترى أن ما يحدث لها هو نتيجة لما تقوم به من أفعال ، وأنها تملك السيطرة على حياتها ، وأن هناك قوانين واضحة ومحددة للنجاح وبلإنجاز ، وأن تفكير وجهد الإنسان اليوم هو الذي يصنع الغد . " (١)

والحقيقة أن المصري عامة ليس كسولاً ولا متواكلاً ولا فاشلاً كما وصفه البعض لكن المصري يعمل بهمَّة ونشاط وينجح بتفوّق واقتدار إذا ضمن أن يجني ثمره عمله وحصيلة جهده ونتيجة تفوّقه ، أما إذا أحسَّ أنه مستغَل (بفتح العين) من غيره وأن خيره لغيره الأجنبي المحتل أو المحلي المستغِل (بكسر العين) أو إذا سوي في الأجر والمكانة بين المجد المُتْقِن والكسول المُهْمِل ، كما هو حال الوظائف الحكوميَّة ، فإنه يضن بجده ويتوانى في عمله سخطاً .

المصري إذا كان يعمل عملاً حرّاً ، أو عملاً يقدِّر ماديّاً وأدبيّاً الإخلاصَ والتفاني والإبداعَ ، كما هو الحال في الدول الأجنبيَّة ، فإن المصري يبزُّ غيره ويبدع ما لا يستطيع أحد أن يبدعه .

وهذا الأمر أوضح من أن يُضْرَب له الأمثلة أو تقام عليه الأدلة فيكفي أن تُقَارن بين عطاء موظَّف الحكومة المصري ، وبين عطاء المصري العامل في بلد أجنبيَّة أو قطاع خاص أو عمل حر حتى تعرف الفرق الشاسع بين هذا وذلك .

---

(١) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " موقع النفس المطمئنة .

ولقد وقف علماء الحملة الفرنسيَّة على هذه السِّمة في الطبيعة المصريَّة ورصدوا مظاهرها في سلوكهم .

يقول علماء الحملة الفرنسيَّة : " يبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا حتى لنظنهم في البداية بُلَهاء أو معتوهين ؛ فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل ؛ فأنت تراهم ممدَّدين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم حسب درجة ثرائهم حتى تظنَّ أن ليس ثمة في هذه الدنيا ما يشغلهم إلا أن يملئوا ويفرغوا على التوالي نارجيلتهم الطويلة (الجُوزَة أو الشيشَة) ، وتبدو مُخيِّلتهم وكأنها قد تخدَّرت مثل أجسامهم لحدٍّ تخال معه – وهم في حالة التنويم الروحي هذه – أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم ، وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبيَّة البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كلَّ حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدَّة كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلاً على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقِّدة ، إن ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة ... ولنا أن نتساءل لماذا يكلِّف الفلاح نفسه كبير عناء – في بلد كهذا ليست الملكيَّة فيه سوى ضرب من الأوهام – كي يحسِّن من زراعته إذا كانت جهوده تلك لن تؤدِّي بالضرورة إلا إلى إثراء مُستغليه وإلى انتزاع مغارم جديدة ؟ إن المصري يعرف حقيقة وضعه ، ويسيِّر نتيجة لذلك أموره . " (١)

والمصري عامل في حياته كما هو عملي في النظر إلى الحياة ، يخطئ كنهه من يقرنه بالكسل ويجهله كل الجهل من يعزو إليه الركود وبغض الحركة ، نعم هو يألف أرضه ويسكن إلى تربة وطنه ولا يخف إلى هجرتها كما يخف سكان البلاد التي لا صلة فيها بين المرء وتربة وطنه ومعاهد بلاده .

---

(١) علماء الحملة الفرنسيَّة " وصف مصر " ج ١ مرجع سابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

إلا أن عذره في ذلك هو عذر جميع الأمم التي تعيش على الزراعـة وتتـصل العلاقة بينها وبين أرضها ونباتها ، فأما أنه يعمل ويصبر على العمل فتلك خـصلة مشهودة يراها فيه رأي العين كل من شاهد الفلاح ينهض من الفجر للحرث والسقي والبذور والجني فلا يفرغ من عمله قبل الغروب ، إلا أن تكون غفوة القيلولـة فـي حمارَّة القيظ ، وهو يفعل هذا ويدمنه في مواقيته ولو كان مالك أرضه وزارعهـا ، بلا تكليف من سيد أو مستأجر . (١)

فالمصري حرٌّ كريم الأصل لا قبل أن يكون عبداً في بلاده يزرع ليأكـل غيـره الأجنبي المستغل لذا قد يهجر أرضه ، وهي أعز ما يملك ، أو يهمل زراعتها حتى لا تكون مصر سلَّةَ غلالٍ للرومان أو يكون هو عبداً لنظام الاحتكـار أو الجمعيَّـة التعاونيَّة . (٢) أو يجهد نفسه ليتنعم غيره أو يبني مجـده الشخـصي ، هنـا يكـون يتكاسل المصري ، ولكن عندما يجني ثمره جهده ، ويحصد نتيجة كدِّه فتـرى منـه العجب .

عقول مصر المهاجرة وطاقات مصر المهدرة

مصطفى مشرفة ، سميرة موسى ، أحمد زويل ، مصطفى السيد ، فاروق البـاز مجدي يعقوب ، ويحيي المشد، أسماء لعلماء مصريين أجبروا العالم علي احترامهم ولكنهم في النهاية عقول وطنية بصناعة غربيَّة فقد وصولوا إلى ما وصـولوا إليـه من مكانة عالميَّة بسبب دراستهم خارج مصر واهتمام البلاد التي تعلموا فيها بهـم وبرعوا في الخارج حيث هناك واقع أفضل للبحث العلمي .

الأمر لم يقتصر علي هؤلاء فقط ولكن هنـاك عـشرات الآلاف مـن العلمـاء والباحثين والخبرات المصرية هاجروا للخارج ؛ فحسب آخـر إحـصائيَّة للجهـاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء أكدَّت أن عدد المصريين المتميِّزين في الخـارج يبلغ ٨٢٤ ألفاً وهم من العلماء والخبرات والكفاءات ورجال الأعمال في الولايـات المتحدة الأمريكية وحدها ٤٧ مصرياً يحملون درجات أقلها الماجستير فـي طـب

---

(1) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٣٦

(2) راجع الحقب التي هجر الفلاح المصري أثناءها أرضه الفصل التاسع من كتابنا " حضارات مـصر ونهضاتها "دار زهور المعرفة والبركة .

الجراحة وجراحة القلب و٣ في الطب النووي و١٠ في مجال العلاج بالإشعاعات و١٩ في طب المناعة و٣٦ في علوم السموم .

أي ١١٥ في مجال الطب وهناك أيضاً ١٩٧ في مجتمع الهندسة منهم ٤٢ في مجال المؤثرات الميكانيكية و٣٠١ في تخطيط المدن والكباري و٥٢ في الهندسة الالكترونيَّة و٢٠ في الهندسة النوويَّة و٣٨ في أشعة الليزر و١٤ في تكنولوجيا الأسلحة، كما يوجد ٩٢ عالماً في مجتمع الفيزياء الذريَّة وكيمياء البوليمرات والفلك وعلوم الفضاء كما يوجد ٢٤ في مجال الزراعة و٨٦ في العلوم الإنسانيَّة إجمالي الكفاءات والعقول المتميزة المهاجرة أيضاً يوردها جهاز الإحصاء بـ ٣١٨ ألفاً في الولايات المتحدة و١٠ آلاف في كندا و٧٠ ألفاً في استراليا و٣٥ في بريطانيا و٣٦ ألفاً في فرنسا و٢٥ ألفاً في ألمانيا و١٤ ألفاً في سويسرا و٤٠ ألفاً في هولندا و١٤ ألفاً في النمسا و٩٠ ألفاً في ايطاليا و١٢ ألفاً في أسبانيا و٦٠ ألفاً في اليونان.

وطبقا لآخر دراسة أجرتها أكاديميَّة البحث العلمي عام ٢٠٠٦ فقد هاجر من مصر أكثر من مليون عالم بينهم٦٢٠ عالماً في علوم نادرة منهم ٩٤ عالماً متميز في الهندسة النووية و٢٦ في الفيزياء الذرية و٧٢ في استخدامات الليزر و٩٣ في الإليكترونيات والميكرو بروسيسور و٤٨ في كيمياء البوليمرات، إضافة إلي ٢٥ في علوم الفلك والفضاء و٢٢ في علوم الجيولوجيا وعلوم الأرض بخلاف ٢٤٠ عالما في تخصصات نادرة .

فالمناخ السيئ للبحث العلمي في مصر هو المسئول عن هروب آلاف العلماء للخارج وهذا ما أكَّدته دراسة حديثة صادرة عن جامعة الدول العربيَّة تشير إلي أن ٥٤% من الطلاب المصريين الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلي بلدهم وأن ٣٤% من الأطباء الأكفاء في بريطانيا من العرب منهم ١٠% مصريين كما أن هناك ٧٥% من الكفاءات العربيَّة موجودة في ثلاث دول هي أمريكا وبريطانيا وكندا ٣٥% بينهم مصريون.

واقع البحث العلمي المهمل والمتدني الميزانيَّة تؤكده الدراسة الصادرة عن مركز الخليج للدراسات الإستراتيجيَّة أن مستوي الإنفاق علي البحث العلمي ضعيف للغاية في كل الدول العربيَّة ومن بينها مصر، مقارنة بباقي دول العالم في حين يبلغ ذلك

في إسرائيل ما نسبته ٢,٦% من الموازنة السنويَّة وفي أمريكا تنفق ٣,٦% أما في مصر لا تتجاوز الميزانية ٠,٠٢% من الموازنة العامة.

هروب العلماء للخارج نتج عنه خسارة ماديَّة تصل إلي ٥٠ مليـــار دولار فـــي مصر وهذا ما أكَّده التقرير الصادر عن الجامعة العربيَّة في فبراير ٢٠٠٥ حيث إن العالم العربي خسر ٢٠٠ مليار دولار بسبب هجرة الكفاءات العلميَّـــة وأن نـــصيب مصر من تلك الخسارة تجاوز ٥٠ مليار دولار، وأشـــار التقريـــر أيـــضاً إلـــي أن اليونسكو نبَّهت في تقريرها العلمي أن الدول العربيَّة هـــي المـــستفيد الأكبـــر مـــن احتضان أكثر من ٥٤٠ ألف عربي وفي مقدمة الدول المستفيدة إسرائيل .

وعقد مقارنة بين ميزانية البحث العلمي في إسرائيل والتي تصل إلي ١٣ مليـــار دولار بينما في مصر ٣٠٠ مليون جنيه فقط .

وحسب رواية الدكتور محمد أبو الغار ــ الأستاذ بكلية الطب بجامعة القاهرة ــ فهناك أزمة واضحة في تمويل البحث العلمي في مصر حيث لا تتـــوفر ميزانيـــات كافية لإجراء البحوث العلمية المتطورة وكذلك ليس هناك مكافآت بالقـــدر الكـــافي للباحثين وأساتذة الجامعة وهذا المناخ للبحث العلمي أدي لهروب الكفاءات المصريَّة بأحلامهم وطموحاتهم للخارج.

وأضاف أبو الغار: إنني قمت بإعداد دراسة بعنوان البحث العلمي في مـــصر.. أين نقف الآن ؟ انتهيت فيها إلي أن ميزانية البحث العلمي في مـــصر ٠,٠٢% أي ٣٠٠ مليون جنيه وفي أمريكا ٢,٦% أي ١٢٢,٥ مليار دولار وفـــي دول أوروبـــا ١,٩٧% أي ٧٢,٨ مليار دولار وفـــي اليابـــان ٢.٧٨% أي ٤٤,٦ مليـــار دولار وأوضح أبو الغار أسباب انهيار الجامعة والمراكز البحثيَّة إلي العدوان علي استقلال الجامعة وإدارة بعض الجامعات والمراكز البحثيَّة بمسئولين ليـــسوا علـــي مـــستوي الكفاءة وأيضاً السيطرة الكاملة والمركزيَّة الشديدة التي تضع قدرات البحث العلمـــي في يد مدير سياسي همه في معظم الأحيان الصعود السياسي وليس رفع شأن العلم، هذا بالإضافة إلي انهيار القيم والجديَّة عند بعض أعضاء هيئة التدريس بسبب تدني مستوي المعيشة وانعدام المنافسة العلميَّة.

الدكتور عبد السلام نوير ــ أستاذ العلوم السياسيَّة ــ أكَّد أنه شارك مع بعض الأساتذة في مركز بحوث الدول الناميَّة في إعداد دراسة انتهت إلي أن الخسائر التي منيت بها مصر في عقد السبعينات وصلت إلي ٤ مليارات جنيه وأن الدول الغربيَّة هي الرابح الأكبر والخسائر الآن وصلت إلي ٥٠ مليار جنيه وأن في الحين الذي تخسر فيه مصر من هجرة العقول فإن إسرائيل تستفيد من هذه الظاهرة .

وأشار نوير إلي أن الطلاب المبعوثين الذين ترسلهم الجامعات والمراكز البحثية هم القنوات الرئيسية للهجرة، حيث يقدر عدد من تخلَّف منذ عام ١٩٧٥ وحتي التسعينات بحوالي ١٩٥٠ مبعوثاً بنسبة ٢٢% من مجموع المبعوثين وتركز معظمهم في أمريكا وكندا وفرنسا وبريطانيا وكانوا من المتخصصين في الهندسة والطب والأبحاث الزراعية وخلال تلك الفترة لم يعد إلي مصر ٧٠% من مبعوثيها.

إن الهجرة من مصر زادت بعد هزيمة ١٩٦٧ بشكل واضح وأن فتح أبواب الهجرة علي مصراعيها كان بمثابة اعتراف بفشل النظام الذي وعد الجميع بالوفاء والعدالة .

ويري الدكتور سعيد أحمد ــ أستاذ علم لاجتماع أن غياب الواسطة والمحسوبيَّة والمنافسة غير الشرعيَّة أحد العوامل الأساسيَّة والرئيسيَّة لنجاح المصريين في الغرب وهو بالتأكيد عكس ما هو موجود بمصر حيث يسطو الأساتذة الكبار علي أبحاث ودراسات صغار الباحثين هذا بالإضافة إلي حالة الفوضي في البحث العلمي هجرة العقول العلمية من مصر.. نزيف مستمر . (١)

أعرفت عزيزي القارئ لماذا يتكاسل الموظَّف المصري ؟ ويهمل العامل المصري ؟ ويهجر الفلاح المصري أرضه ؟ ويهجر العالم المصري وطنه ؟ إنه سوء الإدارة وفساد الحكم وتوسيد الأمر لغير أهله .

وعندما يجد كل هؤلاء التقدير والتشجيع المادي والأدبي فلا تكاسل ولا إهمال ولا هجر للأرض والأوطان .

---

(1) نقلا عن موقع أنا مسلم .

ونتيجة فساد الإدارة وفقدان الحافز وانعدام التشجيع ومساواة الـصالح بالطـالح والمحسن بالمسيء ظهرت الشخصيَّة الفهلويَّة.

المصري فهلوي أم عبقري ؟

من خصائص الشخصيَّة الفهلويَّة التي يعددها د. حامد عمار: البحـث المـستمر عن أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق هدف معين أو غاية معينة، مع تجنـب العنـاء والجد المطلوبين عادة في اجتياز العقبات للوصول إلى تلك الغاية، وتجنب استخدام الوسائل الطبيعيَّة لتحقيقها، لأن همَّ الفهلوي ليس إنجاز العمل على أكمل وجه، وإنما إنجازه وتحقيق هدفه حتى لا يقال عنه أنه عاجز عن ذلك إذ أن الأمر المهم بالنسبة إليه هو أن ينجز العمل بصورة تحفظ له "واجهة شخصيته" .

ومن سمات الشخصيَّة الفهلويَّة نزوعها إلى الحماس المفاجئ والإقـدام العنيـف والاستهانة بالصعاب في أوَّل الطريق ثم انطفاء وفتور الهمة عندما يتبيَّن للفهلـوي أن الأمر يستدعي المثابرة والجلد والعمل المنتظم الذي لا تظهر نتائجـه إلا بـبطء وعلى شكل تراكمي .

وتتسم شخصيَّة الفهلوي بالقدرة علي التكيُّف والتلوُّن السريع، واستغلال الفـرص المناسبة، وبدهاء في التصرف وميكانيزمات التفاعل والتوافق مع الاتجاهات العامة، وبصورة سطحيَّة تدعو إلي مالا يؤمن به، وفي انتهازية وتملُّق للوصول إلـي مـا ينشده.

ومن وسائله الفهلويَّة نكتة سريعة مواتية تفتح الطريق للوصول أو تتيح تعويضاً عما يعانيه من كبت سياسي واجتماعي. هذا إلي جانب العديد من السمات الأخـرى التي تبدو متناقضة كتأكيد الذات، وادعاء قدرات خياليَّة لا يتمتع بها غيره، فهو فـي جميع الأحوال (أبو زيد زمانه). وهو قادر علي اللجوء إلي أقصر الطـرق غيـر المشروعة، وعلي التظرُّف وخفة الدم، للوصول إلي أهدافه عـن طريـق حـلاوة اللسان أو الخداع أو المراوغة. ويتصف هذا السلوك الفهلوي عموماً بقدر كبير مـن النفاق والمسايرة مع التيارات السائدة دون التزام بمبادئ أو قيم أو كرامة ذاتيـة، أو مقاومة واجبة لتصحيح مساراتها. (١)

---

(1) حامد عمار "تشوهات في نمط الشخصيَّة المصريَّة" الأهرام اليومي بتاريخ ٢١ / ١٢ / ٢٠٠٩

والشخصيَّة الفهلويَّة لا تمثِّل كلَّ المصريين ولا غالبيتهم إنها تمثِّل فئة ضئيلة استغلَّت سوء الإدارة وعدم الرقابة وفساد المسئولين ومواهبها الخاصة في تحقيق أرباح لا يستحقونها ، ومراكز غير مؤهلين لها ، ولكن هذه الشخصيَّة مرفوضة من جموع المصريين إذ يرونها منافقة ومخادعة وتسلقيَّة وانتهازيَّة وفقاعات مائيَّة سوف تختفي تلقائيّاً عند إصلاح الحال وتغير الأوضاع .

وهذا يؤكد أن الفهلوة سمة دخيلة منبوذة مستهجنة مؤقتة ، لا كما يحاول البعض أن يصم بها جميع المصريين ويثبت أنها متأصلة فيهم .

سمات المنحدر في الشخصيَّة المصريَّة

هناك بعض السمات الإيجابيَّة في الشخصيَّة المصريَّة تتحوَّل عند بعض المصريين ، وليس عامتهم ، إلى سمات سلبيَّة خاصةً في وقت المحن والظروف الاستثنائيَّة حيث يبدأ المنحدر في أعلاه بصفة إيجابيَّة ثم يتدرَّج عند هؤلاء إلى أن يصل إلى صفة سلبيَّة ، وفيما يلي بعض الأمثلة :

١- **من التسامح إلى التساهل إلى التسيُّب** : الطبيعة الدينيَّة للمصريين والتي تدعو غالباً إلى التسامح ، كما أن الارتباطات الأسريَّة والاجتماعيَّة القويَّة تشجِّع دائماً على التسامح خاصة مع الأهل والأصدقاء والجيران وغيرهم . وفى ظروف معيَّنة نجد هذه الصفة الإيجابيَّة – وهى التسامح – تتحوَّل تدريجيّاً إلى حالة من التساهل مع الآخرين في ظروف العمل أو في الأخطاء التي يرتكبونها ، فهناك ميل دائماً للعفو والتساهل . (١)

وقد يسحب هؤلاء المتساهلون ، خطأً ، بعض الأمثال الشعبيَّة التي تدل على العفو والسماح على التسيُّب والانحراف مثل : " ربنا ما يجعلنا قطاعين أرزاق ، "معلش ده صاحب عيال" ، " المسامح كريم " ، " هي جت على ده " ، " هو إنحنا كده ما انجيش غير على الغلبان " وهذا الميل إلى ما يسمى تسامحاً ، وهو ليس

---

(1) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " موقع النفس المطمئنة .

كذلك ، يصل في النهاية إلى حالة من التسيُّب تترك آثاراً سـيئة علـى الانـضباط والالتزام المطلوب لنجاح أي عمل .

٢- من الكرم إلى الإسراف إلى البذخ إلى السفه:

رغم الفقر الذي يعيشه أغلب المصريين إلا أن المصري كريم ، وقـد يتحـوّل الكرم عند البعض إلى حالة من البذخ والسفه إذا وسَّع الله عليه في رزقه حتى ينفق كل ما عنده ويعود للفقر بعد الغنى ودليله في ذلك بعض الأمثال الشعبيَّة التي تـدل على الكرم والسخاء في وجوه البر فيسحبها على الإسراف والبذخ " إنفق مـا فـي الجيب يأتيك ما في الغيب " ، " الكريم عمره ما ينضام " ، " مال الكُنْزِي للنُزَهـي " فبرغِم الظروف الاقتصاديَّة الصعبة ينفق بعض الناس بسفه في الأفراح والحفلات ، ويكلفون أنفسهم ما لا يطيقون وربما يستدينون في سبيل الظهور بمظهر الأثريـاء ، وعامة المصريين لا يعجبهم هذا الإسراف ولا ذاك السفه ويطلقون على مـن يقـدم علي شيء من هذا أوصافاً تعبر عن استيائهم ونفورهم منـه مثـل : " العنطـزة "، "الفشخرة الكدابة" ، " أنزحه على الفاضـي " ويواجهـون الأمثـال التـي يرددهـا المسرفون بأمثال أخرى تدحضها مثل : " القرش الأبيض في اليـوم الأسـود " ، " اللي تخلفه الجدود تفنيه القرود " ، " المَرَة المفرِّطة عليها قطة مسلَّطة " ، " إيده زي الغربال " ، " خد من التل يختل " ، جبال الكُحل تفنيها المراود وكتر المـال تفنيـه السنين " ، " ما خلاَّش في القناني شراب " ، " ما له رايح وعرضه فايح " . (١)

٣- من المطاوعة إلى المسايرة إلى الخضوع :

المصري لا يميل إلى التصلُّب أو العناد بل هو أقـرب للمرونـة والمطاوعـة ، وربما يؤكد هذه الصفات انتشار كلمة " ماشى " على ألسنة المصريين ، وهى تعنى ميلهم الغالب للموافقة ، حتى ولو كانت لديهم بعض التحفُّظات فهم دائمـاً قـادرون على التجاوز والتساهل والتنازل .

وأحياناً يلغى الشخص خياراته لحساب الآخر خداعاً فيقول : " خـذه علـى قـد عقله" أو تكيُّفاً " اربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه" أو يأساً وضعفاً " هو احنا ها

---

(١) جمال طاهر وداليا جمال طاهر " موسوعة الأمثال الشعبيَّة " كتب عربيَّة ص ٩٥ ، ٩٦ .

نغيَّر الكون " ، " ما يقدر على القدرة إلا اللى خالقها " أو سعياً نحو الراحة السلبيَّة "كبّر دماغك" ، " نفَّض " ، " فوّت " " صهين " ، " طنِّش " ، " عدِّيها " (١)

والحقيقة أن هذه التعبيرات التي تجري على لسان بعض الشباب والمنافقين دخيلة على المجتمع المصري وتقابل بالاستهجان من عامة المصريين الحريصين على أداء أعمالهم على خير وجه ، ومواجهة الخطأ ، والتصدي للمفسدين في جرأة وشجاعة : " الراجل اللي بجد هو اللي يقول الحق ولو علي رقبته " ، " إمشي في طريقك عدل يحتار عدوك فيك " ، " الحق اللي وراه مطالب ما يموتش " ، "الساكت في الحق زي الناطق في الباطل " ،" الطلب الهيِّن يضيَّع الحق البيِّن " ، " حق الناس للناس " ، " صاحب الحق عينه قويَّة " ، " عاوز الحق ولا ابن عمه " ، "كلمة الحق تقف في الزور " ، " صحاب الحق له مقام وله مقال " . (٢)

والتحوّل عبر صفات المنحدر ليس حتميّاً لدى كلِّ المصريين فغالبية المصريين يقفون أعلى المنحدر ولا يسقطون فيه مهما كانت الظروف والضغوط فيحتفظون بالسمات الإيجابيَّة ولا ينحدرون إلى الدرجات السلبيَّة الناشئة عن تشويهها ، وقليل أولئك الذين يسقطون من أعلى المنحدر ويشوّهون الصفات الإيجابيَّة للشخصيَّة المصريَّة فينحدرون من التسامح إلى التسيُّب ، ومن الكرم والجود إلى الإسراف والسفه ، ومن المرونة والمطاوعة إلى الخضوع والاستسلام ، ومن الرضا إلى السلبيَّة ، ومن حب الاستقرار إلى الجمود ، ومن الصبر الجميل إلى الخضوع والاستسلام ، ومن المرح إلى الصخب والفوضى .

الشخصيَّة المصريَّة في عيون العاشقين والمحقِّقين

تحدَّث مفكرون وكتَّاب كثيراً عن الشخصيَّة المصريَّة وأهم السمات التي تتميَّز بها وقبل أن نعرض هذه السمات التي تُميِّز الشخصيَّة المصريَّة يجب أن ننوِّه أن هذه السمات بشكل عام لا تعني – بالضرورة – أن كلَّ المصريين يتَّصفون بها في حياتهم ومواقفهم طول الوقت " فالنمط المثالي كما هو معروف ليس حقيقة إمبريقية

---

(1) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " موقع النفس المطمئنة .
(2) جمال طاهر وداليا جمال طاهر " موسوعة الأمثال الشعبيَّة " كتب عربيَّة ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(تجريبية) أو قانونا علمياً ، وإنما هو أداة تحليليَّة تهدف إلى عزل بعـض جوانـب الواقع بهدف إبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح ، ومعرفة أثرها على الواقع " (١)

إن السمات الأصليَّة غير القابلة للتحريك التي تميِّز الشخـصيَّة المـصريَّة عنـد عاشقي مصر والمحققين لتاريخها : حب الله تعالى وأوليائه وكره الطاغوت وأولياء الشيطان ، التمسُّك بحسن الخلق والنفور من سوئه ، الارتبـاط الأسـري وبغـض الغربة عن الأهل والوطن ، الرضا بالقضاء والصبر على البلاء ، التمتُّع بالطيبـات وكره الخبائث ، عشق الجمال في كل شيء وكره القبح أينما وجد ، الذكاء والإبداع والابتكار ، السخرية والمرح والتفاؤل حتى في أحلك الظروف .

هذه أهم سمات جوهر الشخصيَّة المصريَّة المتجذِّرة فيهـا قـد تطـرأ بعـض التغيُّرات بفعل العوامل الخارجيَّة والظروف الاستثنائيَّة تكدِّر صفوها وتشوِّه سطحها لكن سرعان ما يظهر المعدن النفيس على حقيقته عندما تنكـشف الغمَّـة وتـزول المحنة .

فتجد في أوقات المحن والفاقة قد يصير حب الله عند بعض المـصريين تـشدداً وحب أوليائه تزيُّداً ، والتدين تظاهراً ، كما قد يحدث فتور في الارتبـاط الأسـري ورغبة في الهجرة عن الأهل الوطن ، والتبرُّم بضيق الحال والتهافت على الخبائث والإعراض عن الحلال ، والإعجاب بالقبيح والمتنافر والزهد في الجمال والتناسق ، كما قد يحدث تبلُّد في الهمَّة وتشاؤم في المزاج .

نعم قد يحدث هذا لبعض الناس لبعض الوقت ولكن تبقى الشخـصيَّة المـصريَّة الأصيلة في عمومها تتحدَّى المحن وتتأبَّى على التغيير .

فالشخصيَّة المصريَّة مثل جغرافية مصر الطبيعيَّة ومُناخها لم يطرأ عليهما تغير يذكر عبر التاريخ .

يقول جمال حمدان : " إن التطوُّرات في جغرافيَّة مصر الطبيعيَّة تمضي بطيئـة متثاقلة كما أن التغيُّرات التي طرأت على استغلال الأرض وعلى حياة الناس ربمـا لم تمس جوهر الأشياء . " (٢)

---

(١) محمد عاطف غيث " قاموس علم الاجتماع " .
(٢) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٥٦ .

ويقول حمدان عن المُناخ المصري : " وعلى الجملة يمكن القول بأن مُناخ مصر التاريخي أدخل في باب الاستمراريَّة منه في باب الانقطاع .

وفي كل الأحوال فقلَّما كان لهذه التغيرات الطفيفة المفترضة ، إن وجدت ، أثـــر محسوس على وادي النيل نفسه المستقل بنهره عن ضبط المُناخ المحلي أو الإقليمي المباشر ، ولقد ظل نظام الحياة في الوادي أقرب إلى الثبات والاستمرار دون تغيـــر ملموس أو انقطاع حاسم ، على الأقل منذ الفرعونيَّة حتى العصر الحديثة . (١)

ولمَّا كان المصري قد عرف منذ فجر التاريخ النموذج الأمثل للإيمـــان والعلـــم والحضارة فقد عدَّ ذلك هو الأصل الذي يسعى للإبقاء عليه واستمراره ويتمسَّك بـــه ويحافظ عليه ، ولقد ظنَّ الجاهلون بهذه الحقيقة هذا جموداً وتواكلاً وإنما هو تمسُّك بالحق وتوكل على الله .

أولويات الشخصيَّة المصريَّة و أولويات الشرائع السماويَّة

العجيب أن تجد أولويات الشخصيَّة المصريَّة أساسها توحيد الله تعالى ومـــدارها على حسن عبادته تعالى وهي نفسها أوليات الأديان السماويَّة .

لقد عرَّف ابن تيمية العبادة بأنها : " العبادة : هي اسم جامع لكلِّ مـــا يحبـــه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجـــار واليتـــيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والـــذكر والقـــراءة وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين لـــه والـــصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف مـــن عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله .

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلَق الخلق لها كما قال الله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ } [٥٦ : الذاريات]

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٦٤

وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [٥٩: الأعراف]

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } [٣٦ النحل]

وقال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [٢٥ الأنبياء] (١)

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود : ٦١]

عبادة الله تعالى إذن تشمل : العقائد ، العبادات ، المعاملات ، والأخلاق .. تشمل : الإيمان بالله وحده لا شريك له ، الإحسان إلى الوالدين ، صلة الأرحام ، تعمير الكون وإصلاحه ، الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي والصبر على المحن ، التفاؤل وعدم اليأس .

يقول تعالى في بيان أولويات المؤمن { وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا } [الإسراء : ٢٣]

وبعد أن أمر الله تعالى بعبادته وحده والإحسان إلى الوالدين ، أمر الله تعالى بإعطاء الأقارب حقوقهم من البر والإحسان وصلة الرحم ، كذا إكرام ابن السبيل .

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا } [الإسراء : ٢٦]

ثم ينهى الله تعالى عن الزنا وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق .

{ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا * وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } [الإسراء : ٣٢، ٣٣]

---

(١) ابن تيميَّة " العبوديَّة " المكتب الإسلامي – بيروت ص ٤٤ ، ٤٥ .

فالله تعالى يأمر أولاً بعبادته وحده وبالإحسان إلى الوالدين وصلة الأرحام وينهى عن الزنا وقتل النفس إلا بالحق ، ويتكرر هذا الترتيب في الأوامر والنواهي في مواضع كثيرة في القرآن الكريم فيقول تعالى :

{ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الأنعام : ١٥١]

وفي الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل يأتي نفس الترتيب : الإيمان بالله وحده والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين وسائر الناس ثم يأتي النهي عن قتل النفس إلا بالحق .

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } [البقرة : ٨٢ ، ٨٣]

ولما كان المصريُّ مؤمن بالله تعالى موحِّد له متمسِّك بشرعه وتعاليم أنبيائه فقد جاء ترتيب أولوياته حب الله تعالى وطاعته ، والإحسان إلى الوالدين ، وصلة الرحم ، وحسن معاملة الناس والنفور من إيذائهم فضلاً عن سفك دمائهم .

سمات التديُّن المصري

والمتدينون أنواع منهم المتنطِّع المنفِّر ، ومنهم المتساهل المتجرِّئ ، ومنهم السلبي المتواكل ، ومنهم الفلسفي الذهني ، ومنهم الوجداني الإيجابي .

والتدين المصري تدين وجداني إيجابي ، فالمصري يعبد الله تعالى حباً فيه لما منحه من نعمه وأغدق عليه من خيره ، ويحب رُسُلَ الله تعالى وأولياءه بحب الله تعالى لهم ، ويحب أهل بيت النبي ﷺ بحبه لرسول الله ﷺ.

يقول النبي ﷺ : " أَحِبُّوا الله لما يَغْذُوكُمْ به من نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِى بحب الله وَأَحِبُّوا أهل بيتى بحبى " (١)

---

(١) هذا الحديث رواه الترمذى ، الطبرانى ، البيهقى ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبى .

فالله تعالى قد حبا مصر وأهلها بالخير العميم وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة ، وآتاهم من كل ما سألوه فلما لا يحبون الله تعالى ورسله ويتّبعون شرعه ، هذا هـو التديُّن المصري تديُّن الفطرة السليمة والقلب المحمود .

قال رسول الله ﷺ : " خيرُ الناس ذو القلب المحموم، واللسان الصادق قيل: ومـا القلب المحموم ؟ قال هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد قيـل فمـن على أثره ؟ قال: الذي يشنأ الدنيا، ويحبُ الآخرة. قيل فمن على أثره ؟ قال مـؤمن في خلقٍ حسن " (حديث صحيح رواه الطبراني وأبو نعيم)

فتديُّن المصري التديُّن الوسطي المتسامح تديُّن الخلق الحسن لا إثـم ولا بغـي ولا حسد ولا حقد تديُّن حب الله الحب الإيجابي الـذي يتمـسّكُ صـاحبه بالعـدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ويمتنع عن الفحشاء والمنكر والبغي .

يقول العقاد : " والذهن المصري العريق ذهن عملـي واقعـي سـهل المنطـق واضحه في نظرته إلى الدنيا وحكمه على الأشياء والناس ، شأنه في ذلك شأن أبناء الأمم الزراعيَّة .

فالأرض والغلَّة والفيضان كلها من الوقائع المحسوسة المطرَّدة في قياس العقـل بغير توثب في خيال ولا جماح من خاطر ، وهي تتصل بعالم الغيب اتصالاً بـسيطاً لا يحوج صاحبه إلى التخيُّل والتغلغل ، وإنما يحوجه إلى التديُّن والإيمان والانتظار في شيء من التسليم .

ولهدوء العقيدة المصريَّة واستوائها وحضارة الأمَّة التي تعتقدها وعذوبة طبعهـا وإيناس عشرتها قد سلم التديُّن المصري من لوثة العصبيَّة العمياء ، وسلم تاريخ من كله من المذابح الطائفيَّة والضغائن الدينيَّة إلا أن يتسلل إليها من طائفـة غريبـة أو نحلَة دخيلة ، وقد سلم الدين المصري من لوثة الضحايا البشريَّة كما سلم من لوثـة التعصب والضغينة ، فلم تؤثر عن المصريين في أقدم عهودهم شـعائر التـضحية بالآدميين ومناسك التعطش للدماء . " [١]

---

[1] العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٣٦

إن علاقة المصريين بالله علاقة فيها رجاء أكثر من الخوف . وفيها ترغيب أكثر من الترهيب ، ولهذا نجد المناسبات والطقوس الدينيَّة تتحوَّل لدى المصريين إلى احتفاليات مبهجة ومبهرجة في غالب الأحيان ، فهم قد حوَّلوا رؤية هلال رمضان إلى احتفاليَّة عظيمة وكذلك ليالي رمضان كانت ومازالت لهم فيها طقوس احتفاليَّة كثيرة تفوق كثير من الشعوب الأخرى وكذلك يحتفلون بذكرى المولد النبويِّ وذكرى الإسراء والمعراج ، وذكرى النصف من شعبان وذكرى عاشوراء ، ولكل ذكرى من هذه الذكريات طقوس وطعوم خاصة تميزها .

قد يقول قائل بأن هذه الاحتفاليات إرث فاطمي جاء إلى مصر مع الفاطميين ، وهذا صحيح ولكن الطبيعة المصريَّة احتضنت هذا الإرث لأنه وافق تركيبتها النفسيَّة ، وأضافت عليه من قريحتها التي اشتهرت قبل الفاطميين بعصور طويلة بمحبتها للاحتفاليات الدينيَّة .

كما أن علاقة المصريين بالرموز الشخصيَّة الدينيَّة علاقة حميميَّة فهم يحبُّون الأنبياء حباً جارفاً لأشخاصهم إضافة إلى حبِّهم لهم كرسل يبلِّغون عن الله ،ويحبُّون من تفرَّع من نسلهم ويقيمون لهم الموالد والاحتفاليات بشكل مبالغ فيه أحياناً ، وهذا يأتِّي من علاقة المحبَّة للدين ورموزه من ناحية ، كما يأتِّي من الطبيعة العاطفيَّة للشخصيَّة المصريَّة من ناحية أخرى .

وهذا الحب المتجاوز للخوف من الإله ترك في الشخصيَّة المصريَّة علاقة ملتبسة بالغيب ، فالمصري لديه ثقة هائلة بالغيب وتوقعات إيجابيَّة منه ؛ فقد تعوَّد أن يأتي النيل بالخير دون جهد شاق ، وتعود على طبيعة هادئة ليس فيها برد قارس أو حر شديد أو زلازل أو براكين أو وحوش ، وتعوَّد على قدر هائل من التماسك والتكافل الاجتماعي المرتبط بالمجتمع الزراعي من ناحية والمرتبط من ناحية أخرى بالتعاليم الدينيَّة المتواترة والمستقرَّة في البيئة المصريَّة . وهذه الحالة تركت في الشخصيَّة المصريَّة حالة من الوداعة والطمأنينة العميقة والثقة في الغيب وفي الآخر ، وأحياناً تصل هذه الصفات إلى درجة السلبيَّة والاعتماديَّة وانتظار الفرج من الغيب والعون من الله ثم من الآخر ، كثيراً ما تسمع المصري يقول لشخص آخر : " أنا هاعتمد على الله ثم عليك " فلم يكن للمصري قصة صراع مع الدين أو

مع المسجد أو الكنيسة بل هي في الأغلب قصة حب جارف ملأ عليه قلبه وعقلـــه ، وأصبح شديد الارتباط به رغبة وودا ، وربما يفسِّر هذا كثرة المعابد والآثار الدينيَّة في مصر القديمة ، وكثرة الأديرة والكنائس من الحقبة القبطيَّة ، وكثــرة المــساجد والزوايا والكتاتيب من الحقبة الإسلاميَّة ، وكثرة المقامات والأضــرحة لآل البيــت وللصالحين وأحياناً لأشخاص مجهولين يظن بهم الصلاح .

وقد تميَّزت الحياة المصريَّة وإلى وقت قريب بقبول التعدديَّـــة الدينيَّـــة ، فكـــان اليهود والنصارى والمسلمون يعيشون جنباً إلى جنب ويكوّنـــون نـــسيجاً مجتمعيّـــاً متماسكاً ومتعايشاً ، وكان للحكم الإسلامي دور كبير في ترســـيخ هـــذه التعدديَّـــة فالإسلام بتعاليمه السمحة وصفة العالميَّة فيه ورفضه لكل أشكال القهر الاعتقادي أو التمييز العنصري على أساس الجنس أو اللون أو الدين ، قد رسَّـــخ لمبـــدأ حريـــة العقيدة والمساواة وحقوق المواطنة للجميع على اختلاف انتماءاتهم وتنوعاتهم فكـــان الولاة والخلفاء والأمراء في الدولة الإسلاميَّة يتَّخذون من اليهود والنصارى وزراء ومستشارين ، وكان اليهود إلى عهد قريب يملكون مشروعات اقتصاديَّة كانت هي الأضخم في مصر في ذلك الوقت مثل " عمر أفندي " و " صيدناوي " و " عـــدس " و "ريفولي " وغيرها من المحلات والمشروعات التجاريَّة الكبيرة ، وكانوا يملكون بل ويسيطرون على تجارة الأقمشة في حي الأزهر ذو السمت الإســـلامي ، وكـــان المسيحيون وما يزالون يملكون المشاريع الاقتصاديَّة الضخمة التـــي يعمـــل فيهـــا مسلمون ومسيحيون على السواء وبلا تمييز . (١)

هذا هو التدين المصري الوسطي المتسامح التعددي الوجداني الإيجـــابي الـــذي يكره التعصُّب والحقد والحسد وهذا الأمر قديم متجدِّد متواصل عبر القرون والعقود

يقول جمال حمدان : " إن الجغرافيا التاريخيَّة التفصيليَّة كثيراً ما تكشف لنا عـــن ثبات واستمرار محقَّق ، بل ونادر ومثير أحياناً ؛ فقد يتتابع على نفس الرقعـــة بـــلا تحرج معبد فرعوني فكنيسة قبطية فمسجد إسلامي ، ولعل أبرز مَثَل مـــسجد أبـــو الحجاج بالأقصر الذي يحتلُّ ركناً عالياً من معبد آمون بالكرنك . وخلف هـــذا كلـــه

---

(1) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " موقع النفس المطمئنة .

تظلُّ الحلة نفسها ، القرية، خليَّة متشابهة أساساً من البداية إلـى النهايـة ، خامـة وشكلاً وتركيباً ، حتى بأبراج الحمام الشاهقة المضفرة شديدة التميز . " (١)

وكانت نتيجة البحث عن أهم الصفات التي يفضِّلها المصري في الآخرين الـذين يتفاعل معهم ، وهي صفات مفترض أنها يجب أن تتـوفَّر فيـه أيـضاً اتـضح أن الأخلاق والتدين من أهم الصفات التي يفضلها المصري في الأشخاص القريبين منه فقد أشارت نسبة ٦٦,٢ % من العينة (٢) إلى الأخلاق وأشارت نسبة ١٨,١% إلـى الدين بينما لم تحظ صفات أخرى كالذكاء والمرح والتقارب في الـسن والمـستوى الاجتماعي إلا بنسبة ضئيلة للغاية . (٣)

لماذا صفة الأخلاق تأخذ نسبة أعلى كثيراً من صفة التدين ؟!

لأن العبادات – التي هي مظهر التدين – إن لم تثمر حسن خلق لا يقبلها الله من صاحبها ؛ فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدًا. كما صح عن ابن مسعود، فالصلاة الصحيحة لا بد أن تثمر حسن خلق وتنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر التي لم تثمر ثمرتها التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبوت:٤٥]

كما صحَّ عن النبي ﷺ قوله : " رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُـوعُ وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاَّ السَّهَرُ " (صححه الألباني)

والمصري من الحكمة والتديُّن بحيث يستطيع التفريق بين التديُّن الصحيح الـذي ثمرته حسن الخلق والتديُّن المظهري الزائف ، وهذا ما أكَّده تقرير المركز القـومي للبحوث الاجتماعيَّة والجنائيَّة حيث يقول : " عندما سـألنا مفـردات العينـة عـن المعايير التي يقيِّمون الأشخاص في ضوئها أجمع ٥٦ % تقريباً منهم على معيـار

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ بتصرف .
(٢) أجرى المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية هذه الدراسة عام ١٩٨١م على عينة مختارة بلغ حجمها ١٣٤٠ وقد راعى أن تكون ممثلة لجميع محافظات مصر ، ومختلف المستويات التعليمية .
(٣) د. أحمد زايد " المصري المعاصر ، مقارنة نظرية وإمبيريقية لـبعض أبعـاد الشخـصية القوميـة المصرية " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٦٢

"الأخلاق" وهي أعلى نسبة بل إن هذه النسبة ارتفعـت فـي بعـض المحافظـات كمحافظة الإسكندرية إلى ٧٢ % ؛ فالأخلاق بالنسبة للإنسان المصري قضيَّة مهمة يحقق من خلالها اتساقاً في تفاعله وفي تقييمه للآخرين ، ولكن بَعْد الأخلاق يظهـر الاختلاف بين معيار التفاعل ومعيار التقييم .

فلم يأت الدين في المرتبة الثانية وإنما جاء العمل فقد جاء الـدين فـي المرتبـة الثالثة بنسبة ٩,٨% من إجمالي العينة ، وجاء العمل في المرتبـة الثانيـة بنـسبة ١٣,٢% من إجمالي العينة ، ولعل السبب في ذلك أن الفرد عندما يسأل عن معيـار التفاعل يفكر في التديُّن كسلوك ، وليس الدين كمعتقد ، أما عندما يسأل عن التقيـيم فإنه يفكر في الدين كمعتقد وليس التديُّن كسلوك . هنا يظهر الإنسان المصري قدرة هائلة على التسامح الديني ؛ فهو يميل إلى أن يتفاعل مع الشخص المتديِّن بـصرف النظر عن ديانته ، وعندما يحكم على الأشخاص الآخرين أو يقيِّمهم فإنه لا يحكـم عليهم في ضوء ديانتهم ." (١)

وبعد صفة التدين الوجداني الإيجابي الذي يثمر حـسن خلـق يـأتي الارتبـاط الأسري وبر الوالدين في المرتبة الثانية .

المصري وآداب الأسرة

إن المصري لينسى كل شـيء إلا وشـائج الـرحم وآداب الأسـرة ، وإن الأمَّ المصريَّة تنعم بين أبنائها وأهلها بمنزلة يغبطها عليها الأمهات في بلـدان المغـرب والمشرق .

فالأسرة عظيمة الشأن في آداب المصريين من أقدم العـصور ، ولـن يتجـرَّد المصري من عواطف الأرحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابـة وآصـرة دانيـة أو قاصية ، وذلك هو قوام العرف الاجتماعي فـي أخلاقـه وعلاقـة ، وهـو قـوام "المحافظة المصريَّة" التي تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق .

الوصايا باتخاذ الأسرة معروفة في الأدب المـصري منـذ آلاف الـسنين ففـي وصايا " بتاح حوتب " التي كتبت قبل أكثر من ستة وربعين قرنـاً يقـول الـوزير

---

(١) د. أحمد زايد " المصري المعاصر " مرجع سابق ص ٦٤

لتلميذه : " إذا كنت رجلاً ذا منزلة فاتخذ لك منزلاً وأحبب قرينتك الحب الجميـل ، وأطعمها واكسها وطيِّب أوصالها ، وأدخل السرور على قلبها طول حياتها " .

وفي هذه الوصايا يقول الحكيم : " ضاعف لأمك خبزها واحملها كما حملتـك ، لقد أثقلتها وما نبذتك ، وظلّت تحملك حول عنقها بعد ميلادك ، وظلّ ثـديها ثـلاث سنوات في فمك ، ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسـلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة ، ووقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك ، واذكـر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عنـدها من وسيلة ، عسى أن لا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها إلى الله بالدعاء عليك ، ولا يستمع الله منها إلى شكاية . "

فهذه الرحمة البيتيَّة قديمة لم تتغيَّر في الزمن الحديث ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم إلى ثلاث سنوات كما يفهم من الوصية ، وأن الرأفة فـي تلك الأجيال السحيقة لغريبة ولو كانت رأفة الآباء بالبنين . [١]

هل آداب الأسرة التي تمسَّك بها المصري القديم كانت بدعة مصريَّة أما تعـاليم سماويَّة ؟

إن المصري كما قلنا محب لله تعالى متمسِّك بتعاليمه ووصاياه التي علَّمهـا لـه أنبياء الله ورسله منذ فجر التاريخ والتي جاء بتمامها سيدنا محمد ﷺ خير الأنبيـاء والمرسلين .

لذا لا عجب أن تأتي التوصية بالأم في سياق حديث لقمـان الحكـيم المـصري النوبي لأبنه وهي لا تختلف عن وصايا الحكماء المصريين الآخرين .

{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْـمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } [لقمان : ١٣– ١٥]

---

(١) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٣١ ، ٣٢ بتصرف .

لقد تميَّز المصري بتماسك الأسرة وتفاني الآباء والأمهات في تربية أبنائهم ورعايتهم ، وهذا سر بقاء الجنس المصري في حين انقرضت سائر الأجناس الأخرى التي استوطنت مصر أو ذابت في الدماء المصريَّة .

بقاء واستمرار الجنس المصري واختفاء الأجناس الأجنبيَّة

لقد وضع علماء الحملة الفرنسيَّة أيديهم على سر بقاء الجنس المصري واضمحلال وفناء الأجناس الأجنبيَّة الأخرى ، هذا السر يكمن في المرأة المصريَّة حاملة الجينات المصريَّة المجيدة والمحافظة على العادات والتقاليد المصريَّة الأصيلة هذه المرأة التي أوقفت حياتها على بقاء الجنس المصري واستمراره عن طريق ما وهبها الله تعالى من خصوبة عالية وأمومة متدفقة وجَلَدٍ وصَبْرٍ نادرين .

يقول علماء الحملة الفرنسيَّة : " ويمكن للزوجة المصريَّة أن تصبح أمّاً في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة وتظلُ في سنواتها المقبلة تقدِّم الأدلَّة على خصوبتها المذهلة ومن الممكن لها أن تصبح أمّاً كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول لكي نقدِّم نسبة دقيقة بأن كل مصريَّة تتزوج تنجب طفلاً كلٍ ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك التقدير نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن أو أولئك اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة أو اللاتي تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، بل إنه يعد بمثابة عار للمرأة ؛ لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكي تستطيع الإنجاب " (١)

ولقد استمرَّت الفلاحة المصريَّة على خصوبتها ورغبتها في كثرة الإنجاب حتى اليوم يقول عالم المصريات د. محرم كمال : " يحرص الفلاحون في القرى على الإكثار من الأولاد والنسل حتى تكون لهم أسرة كبيرة وذُرِّيَّة ، وهم يُبكِّرون في الزواج بدرجة يستغربها الكثيرون – فهذه عادة ورثناها عن المصريين القدماء قال الحكيم " آني " في وصيَّة إلى ابنه : " اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك

---

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " المصريون المحدثون " تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٧ .

ابناً تقوم على تربيته وأنت في شبابك وتعيش حتى تراه وقد اشتدَّ وأصبح رجلاً – إن السعيد من كثُرت ناسه وعياله فالكلُّ يوقّرونه من أجل أبنائه " .

أليست هذه العبارات بألفاظها ومعانيها هي التي نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار ؟ " (١)

ولا يتوقَّف دور المرأة المصريَّة في الحفاظ على الجنس المصري واستمراره على خصوبتها الشديدة وندرة عقمها وسعيها المحموم لعلاجه ، بل يتجلَّى في رعايتها لأطفالها من رضاعة وتربية وتنشئة تلك الرعاية التي تقوِّي عود الأبناء وتنمِّي صلابتهم وقدرتهم على تحمُّل المسئوليَّة تلك التربية التي تعلَّمتْها من جدَّاتها المصريات وحافظت عليها وعلَّمتها أولادها .

فالمرأة المصريَّة تحرص أشدَّ الحرص على إرضاع أبنائها من لبنها مدَّة لا تقلُّ عن عامين بحال وقد تصل إلى خمس سنوات ، ولا تسمح مطلقاً لواحدة غيرها أن تربِّي أبناءها (٢) ولا تتحمَّل أبداً بُعْد أبنائها عن حضنها مما يولد علاقة شديدة الحميميَّة بين الأبناء والوالدين خاصة الأمهات ، هذه العلاقة التي تجعل من الأبناء أغلى ما يعتزُّ به الوالدان ويضحُّون من أجله ، ويفاخرون به وتجعل من الوالدين أهم ما يحرص الأبناء على حبِّه وطاعته والتفاني في خدمته ورعايته .

هذا هو سر بقاء الجنس المصري فريداً ، خصوبة المصريات العالية ، ووقف المصريين : أمهات وآباء حياتهم على تربية أبنائهم ورعايتهم ، هؤلاء الأبناء الذين يعتبرهم الآباء أعظم إنجاز يحقّقونه في حياتهم وربما كانوا مصدر سعادتهم الوحيد – بسبب المحن الكثيرة التي مرَّت بها مصر طوال تاريخها – لدرجة أنَّهم يفنون أنفسهم في أبنائهم فلا تنادَى الأمُّ إلا باسم ابنها فيقال " أم فلان " وكذلك الأب " أبو فلان " لذا لا عجب أن يَبَرَّ الأبناءُ آباءَهم ويتخذونهم قدوة حسنة وتمسَّكون بعاداتهم وتقاليدهم ، ويربُّون أولادهم كما ربَّاهم آباؤهم .

---

(١) د. محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية " الهيئة العامة للكتاب ص ١٨ .

(٢) بخلاف ما هو معروفٍ في الأمم الأخرى من دفع الأمهات أطفالهن إلى مرضعات ومربيات أخريات، والسماح لهم بالتربية بعيداً عن أحضانهن . والأسف فإن هذه العادات الأجنبيَّة الدخيلة تسللت إلى كثير من الأسر المصرية خاصة الميسور منها مما نتج عنه تغيرا ملحوظاً في شخصيَّة المصري وإهدارا لكثير من قيم المجتمع المصري .

فإذا جئنا إلى الأجناس الأخرى التي عاشت في مصر فإنها لم تهتد إلى هذا السر سر البقاء والاستمرار فاندثروا .

ويفسِّر علماء الحملة الفرنسيَّة سر بقاء العنصر المصري واختفاء وذوبان العناصر الدخيلة عليه فيقولون : " كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلاً ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسراً أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظاً من ذلك ، وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل . ويبدو أن طبيعة الطقس تلفظ بعناد الأجناس الغربية . " (١)

الفلاح سر بقاء واستمرار الجنس المصري

عرفنا كيف حافظ المصري على سرِّ بقائه واستمراره وعاداته وتقاليده ، ويعتبر الفلاح المصري أكثر من غيره من فئات الشعب محافظة على أصالته وأقرب هذه الفئات إلى المصري القديم بل نستطيع أن نقول مطمئنين أنه أنقى المصريين جنساً وأكثر المصريين محافظة ليس على جينات المصريين القدماء فحسب بل على العادات والتقاليد المصريَّة القديمة أيضاً .

يقول محمد العزب موسى : " الفلاح المصري إذن من أكثر العناصر ثباتاً واستمراراً في قصة مصر ، ولم يعد هذا فرضاً نظريّاً وإنما حقيقة علميَّة أثبتتها الدراسات التاريخيَّة والأنثروبولوجيَّة والفلكلوريَّة ولقد بدأت قصة الفلاح المصري مع فجر الحضارة في وادي النيل منذ ستة أو سبعة آلاف سنة واستمرَّت حتى الآن دون أن تنقطع تحت وطأة التغيرات الكبرى التي طرأت على مصر خلال تاريخها الطويل وأهمها انهيار الحضارة المصريَّة القديمة وضياع استقلال مصر السياسي ودخولها في كنف الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة وأخيراً انفتاحها على حضارة العصر الحديث فكل هذه التغيرات الكبرى لم تؤثِّر كثيراً في التكوين الجنسي والنفسي للفلاحين المصريين ولم تؤثِّر إطلاقاً في استمراريَّة حياتهم ولا ينبغي بالتالي أن تحول دون محاولة تقييم دورهم الحضاري المتصل . (٢)

---

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " مرجع سابق ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ٩٨ .

ويقول العقاد : " نحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون المصري محافظاً شديداً في المحافظة تأثراً متأهباً للتمرُّد إلا إذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد ، فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبداً لصيانة موروثاته وتقاليده . وقد يبدو غيرٍ معقول في ثورته وهياجه لأن العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلِّدين ، ويزيدهم استغراباً لها أن لا يجدوا تفسيراً لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع . فيقولون مدهوشين : أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور هذه الثورة لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الإطلاق ؟ والواقع أن الذي يثور هذه الثورة غالباً هو المحافظ المغرق في المحافظة ، لأنه لفرط محافظته ينسى المصلحة في سبيل العادات .

ولطول الكبت أَثَرٌ في هذا الجنوح إلى التمرُّد كلما سنحت الفرصة التي تنطلق فيها الغرائز وتخرج فيها على القيود . فالمصري يستمتع بهذه الفرصة ويسترسل فيها إلى أمد بعيد ؛ لأن كبت العادات وكبت الخضوع الأعمى لها أمران لا يطاقان إلى زمن طويل ، فإذا سنحت المناسبة فقد يكون الكبت الذي تعانيه النفس من العادات الطويلة سبباً من أسباب التمرُّد والشذوذ ، وتلك نقيصة في النفس الإنسانيَّة تظهر أبداً مع كلِّ إفراط وكلِّ استغراق . (١)

فالمصري إذن قد يصبر على أي شيء إلا أن تمس عقائده وتقاليده الراسخة ولكن المحافظة على الموروث القديم والتمسك بالنموذج الأمثل قد جعل بعض الناس يتِّهمون المصريين بالجمود والتخلُّف وعدم التطوير والتقدم .

المصريون والمجتمع الأبوي

يقول د. محمد المهدي : " في المجتمع الأبوي يصبح الزمن الماضي هو أفضل الأزمنة وتسود فكرة الزمن الجميل ، ويقدِّس كلَّ قديم ويحقِّر كل حديث ، ويصبح التراث بما يحويه من ثمين وغث قانوناً يحكم الحياة المعاصرة ويسقط عامل الزمان وعامل المكان وعامل الظروف المتغيرة ، وتصبح كل الكتب القديمة مقدَّسة

(١) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٢٨، ٢٩ .

وتفسيراتها أيضاً مقدسة والممارسات القائمة عليها مقدَّسة ، والأشخاص المتـصلين بها مقدَّسون ، وهنا يجد العقل نفسه يتحرك وسط حقل ملغـم بالمقدَّسـات فيفـضل الوقوف بديلاً عن مخاطر الحركة المحاطة بآلاف المحاذير والخطوط الحمراء .

وقد تأخذ فكرة المجتمع الأبوي معنى الاحترام والتبجيل للكبار عمومـا وللآبـاء على وجه الخصوص (وهم بالفعل جديرين بالاحترام جزاء ما قدموه لأبنـائهم) ، ولكننا هنا نتكلم على مستوى يقوم على تقديس الكبير والقـديم وتحقيـر الـصغير والحديث ، وهذا يجعل الحياة تتجمَّد أو تتقهقر ، ويجعل الناس يهاجرون دوماً إلـى الماضي وينسون الحاضر والمستقبل ، ويجعل العبودية لغير الله ، ويرسخ لفكـرة الاستبداد والطغيان سواءً من الحكام أو من رجال الدين ، ويصم الحرية والاستقلال والمساواة ، وكلها أمراض استشرت في المجتمع المصري علـى مـدار التـاريخ وأفرزت الكثير من سلبياته وأفقدته مميزات أتاحها الله له من رزق وفيـر وطبيعـة حية معطاءة وجميلة وهادئة ، ونهر من أجمل وأروع أنهار الدنيا وسـماءً صـافية وعقولاً ذكية. (١)

والحقيقة أن التمسُّك بالموروث ليس عيباً في ذاته إذا كان هذا المـوروث قيمـاً دينيَّة سماويَّة وأخلاقاً وسلوكيات منبثقة منها ، فليس كلُّ جديد فـي القـيم جميـل ، وليس كل قديم فيها قبيح ربما يصحُّ هذا في العلوم الماديَّة والتكنولوجيا، والمصري إذ يتمسَّك بموروثاته القديمة إنما يتمسك بالقيم والأخلاق التي تعلَّمهـا مـن أنبيائـه ورسله وبنى على هديها حضاراته ونهضاته فالتديُّن الوجداني الإيجابي ، وتماسـك الأسرة ، وصلة الأرحام ، والطيبة ، والتسامح والـصبر علـى الـبلاء ... كلهـا أخلاقيات يحرص المصري عليها ، والكبار هم أشد الناس تمسكاً بها وهذا مما يميِّز الشعب المصري ولا يعيبه إنما العيب عيب من لا يتمسَّك بها ويحافظ عليها ، أمـا قهر الآباء للأبناء وإلزامهم بما يعتقدون فهذا غير حقيقي فالمثل المـصري الـشهير يقول : " إن كبر ابنك خاويه " والآباء حريصون على أن يعلموا أولادهـم أحـدث العلوم والتكنولوجيا ويبذلون في سبيل ذلك كلَّ مرتخص وغال ، كما هم حريـصون في الوقت نفسه على أن يعلموهم الدين والخلق القويم وينقلون إليهم منظومـة القـيم

(١) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " موقع النفس المطمئنة .

المصريَّة الأصيلة ، والأبناء يحرصون على طاعة الآباء في المعروف ويستفيدون من حكمة الكبار وخبراتهم ، ومن حُرِم من والديه يسعى للتعلُّم من غيرهما يقول المثل المصري : " اللي ما لوش كبير يشتري له كبير " و "أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة" هذا بالنسبة للقيم وعادات تقاليد المجتمع المصري أما بالنسبة للعلوم الحديثة فالوضع مختلف ، قال د. فاروق الباز العالم المصري الشهير في لقاء تليفزيوني أنه سافر إلى أمريكا للالتحاق بجامعة أمريكية معينة وعندما وصل إلى أمريكا رأى أن الجامعة التي سافر للالتحاق بها لا تناسبه فأرسل إلى أبيه رسالة يعرض عليه الانتقال إلى جامعة أمريكيَّة أخرى فردَّ عليه أبوه : يا بني غيِّر الجامعة كما تشاء فأنت أدرى بما يناسبك ولكن الذي أطلبه منك ألا تغيَّر المبادئ التي علمتُها لك وخرجت بها من مصر .

هذا هو منطق المجتمع الأبوي المصري ليس تسلطاً وقهراً إنما توجيه ونصح ، فالآباء يحرصون على تعليم أولادهم أفضل تعليم على ألا يتخلَّى عن مبادئ دينه وعادات قومه ، وأنا أكتب هذا الكلام ترامى إلى سمعي شكوى الخادمة الأميَّة لزوجتي من ضيق ذات اليد ، ومرضها الذي لا تجد ثمن علاجه في الوقت الذي تنفق على أولادها الثلاثة الصغار مبالغ كبيرة على الدروس الخصوصيَّة والمجموعات المدرسيَّة ، هؤلاء هم الآباء والأمهات في مصر يضحُّون بكلِّ شيء في سبيل تعليم أولادهم ورفعة شأنهم .

تمسك المصري بالعفاف وصيانة العرض

ومن الأخلاق التي يتمسَّك بها المصري تبشيع جريمة الزنا وانتهاك الأعراض ورمي المحصنات الغافلات ، وبذل الروح في صيانة العِرْض والشرف حباً في الأسرة وصيانةٍ لها من اختلاط الأنساب وغضب الجبار ، وكثيرة هي الأمثال الشعبيَّة التي تنفِّر من الزنا وتحقِّر من مرتكبيه مثل : "الشنق ولا شفاعة ابن الزنا"، " اللي تخون جوزها بفجورها ، يموت قلبها وشعورها " ، " الزاني ما يآمن على مراته " (١) " العار ما ينغسل بالدم " . (٢)

---

(1) جمال طاهر وداليا جمال طاهر " موسوعة الأمثال الشعبيَّة " كتب عربيَّة ص ١٨٣

(2) نفسه ص ١٩٨ .

يقول العقاد : " ومن الأخلاق التي تلازم حب الأسرة ومتانة الوشائج البيتيَّة غَيْرَة الزوجيَّة وصيانة العِرْض واستهجان التفريط فيه لبلوغ مأرب واتقاء سطوة ، فيروِّض المصري نفسه على الضنك والرهبة ولا يروض نفسه على بيع العِرْض وابتذال البيت ، وينبغي هنا التفريق بين عِرْض وعِرْض والتمييز بين غَيْرَة وغَيْرَة فإنَّ البدوي مثلاً ليأبى أن يبذل عِرْضه ويثور على من ينتهك حُرُمَه ، ولكنه يأبى ذلك كما يأبى أن يُدَاس عليه مرعى الإبل ومَوْرِد الماء ، ويغضب للزوجة وكأنه يغضب في منافرة أو مصاولة ؛ لأن اعتداء المُغير على زوجته هو عنده بمثابة هزيمة حرب أو نكوص في مجال صراع ، أما المصري فغَيْرَته على عِرْضه من نوع آخر ولعلة أخرى : إذ هو يغار على الزوجة اعتزازاً بصداقة متينة وأرحام أمينة ، وضناً بملاذ ألفة وسكينة ومأوى سعادة وطمأنينة ، وأنه ليغضب للزوجة وكأنه يغضب لقرابة تقطع أو محْراب يُهان ، وهذا هو الفرق بين الغَيْرَة التي منشؤها أدب الأسرة والغَيْرَة التي منشؤها أدب القتال . (١)

علاقة المصري بالحكومة

كانت علاقة المصري بحكَّامه في مصر القديمة علاقة حب واحترام وطاعة وامتثال لأن حكام مصر القديمة كانوا يطبِّقون فيه قانون ماعت المقدَّس قانون الحق والعدل والعدالة الاجتماعيَّة وفي العصور التي خرج الحاكم على قانون ماعت خرج المصريون عليه كما حدث في ثورتهم على بيبي الثاني والهكسوس والفرس وغيرهم ، وبعد انتهاء عصر الأسرات المصريَّة ودخول مصر في سلسلة طويلة من الاحتلال الأجنبي البغيض فسدت العلاقة بين المصري وبين الحكومات الأجنبيَّة وانعدم ولاؤه لها بل ظلَّ في حالة صراع معها تحاول أن تستغلَّه وتقهره ويتمسك هو بحقوقه ويأبى الضيم والهوان ، وفي المقابل ظلَّت علاقته بأسرته وذويه قويَّة متماسكة ؛ فهم أمانه من الحاجة ، وقوته عند الضعف ، وأنسه في الوحشة .

فالمصري اجتماعي من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضريَّة أو اجتماعيَّة من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمَّة والحياة القوميَّة وهو ارتباط

---

(1) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٣٣ .

أقوى في نفسه جداً من ارتباط النظام السياسي والمراسم الحكوميَّة . فلم تكن الحكومة في تلك الأزمان الطويلة لتمتزج بنفسه قط امتزاج الألفة والطواعية والمعاملة المشكورة . بل ربما كان صدوده عن الحكومة مما ضاعف اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الإنسانيَّة في علاقاته البيتيَّة ؛ لأنها ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم .

فعلاقة المصري بالحكومة على الأغلب الأعم هي علاقة عداوة مريبة أو مهادنة، ولم يبلغ أن تكون علاقة وُدٍّ يحرص عليه أو ضمان يحميه إلا في الندرة التي لا يقاس عليها . ومن ثم كان محافظاً وتحفزاً للتغيير في وقت واحد ، أو كان محافظاً في مسلكه الذي يدور على أصول الأسرة وعلاقات الرحم ، متمرِّداً في مسلكه من ناحية الشئون السياسيَّة والمسائل الحكوميَّة ، ومتى جد عليه جديد الإصلاح فلن يفلح عنده ولن يظفر منه بالترحيب والموافقة إلا ساعة يمتزج بنظام البيت والأسرة ويتسرَّب إلى حياته من باب عواطف الأرحام ومناظرات المنازل ، وإلا فلا أمل لإصلاح في توفيق . (١)

ولكن كره المصري للحكومة المركزيَّة ليس ككره البدوي لها فالمصري يكره الحكومة الظالمة المستبدَّة المستغلَّة ولا يكره الدولة المركزيَّة العادلة بل يحرص على الولاء لها والتفاني في خدمتها ما دامت حكومتها وطنيَّة مخلصة ، أما البدوي فيكره الانقياد لغير سيد قبيلته ولا يرضى بحكم غير حكمه حتى ولو كان من ملك عادل أو حكومة راشدة .

يقول عمرو بن كلثوم

وَأَيَّـامٍ لَنَـا غُـرٍّ طِـوَالٍ   عَصَيْنَا المَلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَـدْ تَوَّجُـوهُ   بِتَاجِ المُلْكِ يَحْمِي المُحْجَرِينَا
تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْـهِ   مُقَلَّـدَةً أَعِنَّـتَهَا صُفُونَـا

لذا فإن المصري يقلُّ عداؤه للحكومة ويقوى ولاؤه لها إذا كانت عادلة وهذا ما أكَّدته الدراسات الاجتماعيَّة فقد " أشارت بعض الدراسات السابقة إلى أن المصري

(١) العقاد " سعد زغلول " مرجع سابق ص ٣٤

يشك في الموظف الحكومي ولا يطمئن إليه وفي ضوء ما أتيح لنا من بيانات في الدراسة فإن هذا الافتراض لم يعد صادقاً على الإطلاق فقد جاء الموظفون في ذيل القائمة من حيث درجة الشك بنسبة منخفضة جداً ١,٩% من إجمالي استجابات العينة (١)ويدل هذا على أن العلاقة التفاعلية الرأسية بين المواطن العادي والحكومة لم تعد قائمة على الشك والحذر كما كان الحال منذ قرن أو نصف قرن من الزمان حيث كانت الحكومة تثقل كاهل الفلاحين بالضرائب ، لقد أدَّى انتشار التعليم إلى أن تصبح الوظيفة الحكوميَّة أمراً معتاداً ومألوفاً بعد أن كانت شيئاً عزيزاً بعيد المنال ولم يعد الموظف هو جامع الضرائب وحامل السوط وإنما أصبح الشخص العادي الذي يثقل بالهموم التي تثير الشفقة فلا مجال للشك إذن . " (٢)

ومن أشهر ما يميِّز الشخصيَّة المصرية حبه للدعابة وغرامة بالسخرية وقدرته على التنكيت .

الفكاهة والنكتة المصرية

بعض الناس يعتقد أن المصريَّ يستخدم النكتة ضد رئيسه المستبد وعدوِّه القوي بسبب عجزه وضعفه عن مقاومته فيلجأ إلى النكتة والسخرية منه ، في غيبته ، تنفسياً عن قهره وعجزه .

يقول د. محمد المهدي : " والمصري يستخدم النكتة والدعابة للتخفيف من معاناته فمن خلالها يستطيع أن يسخر من المستبدِّين به ويهينهم ويقلِّل من هيبتهم ، وهى وسيلة لتصريف العدوان والغضب حتى لا يتراكم لديه ويدفعه إلى الثورة ، وربما يفسر ذلك تأخُّر الثورة عند المصريين وقلَّة الغضب مقارنة بمشاعر أخرى مثل الحزن والفرح على الرغم من وجود أسباب كثيرة للغضب . والنكتة والمرح عموما دفاع ضد الحزن العميق الكامن في الشخصيَّة المصريَّة، ولهذا تجد المصريين يضحكون كثيراً رغم أنهم ليسوا سعداء ، وترى العكس في شعوب أخرى لا يضحكون على الرغم من أنهم سعداء. " (٣)

---

(١) أجريت هذه الدراسة عام ١٩٨١م
(٢) د. أحمد زايد " المصري المعاصر . مقارنة نظرية وإمبيريقية لبعض أبعاد الشخصية القومية المصرية " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٩٦
(3) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " موقع النفس المطمئنة

النكتة موجودة في كل بلاد العالم ولدى كل شعوب الدنيا ولم يوصف أي شعب منها بالجبن والقهر بسبب التنكيت كما يوصف الشعب المصري !!

فلسفة النكتة المصريَّة

والحقيقة أن النكتة عند المصريين ليست وسيلة للتعبير عن العجز والقهر لشعب جبان يرضى بالذل والهوان ويفضِّل التنكيت على المستبدِّين على الثورة عليهم ، إنما النكتة وسيلة للنقد الاجتماعي لبعض السلوكيات التي يرفضها المصريون ويحذرون منها فهم يسخرون من المغفَّلين والسذَّج والأغبياء الذين يسيئون التصرُّف لأنهم شعب ذكي لبق يستهجن تصرفات هؤلاء .

وهم عندما ينكِّتون على الحكام ليس لجبنهم وعجزهم إنما يتخذون من النكتة اللاذعة على المستبدِّين وسيلة للتعبير عن رأيهم فيهم وفضح لسوء تصرُّفهم وتأليب الناس عليهم وحشدهم ضدهم ؛ فالنكتة المصرية أسرع انتشار من النار في الهشيم ، فلا يكاد الحاكم يسيء التصرُّف في أمر من الأمر حتى تنطلق النكت عليه وتذيع في كل الأوساط فإذا تجاهل المستبدُّ هذه النكت التي تعد تعبيراً شعبيّاً عن سخط الناس عليه وإنذاراً شفوياً موجهاً ضده لجأ المصريون إلى وسيلة أخرى أكثر فاعلية كالمظاهرات والاحتجاجات التي تنتهي بالثورة .

حكام مصر المعاصرون والنكت

النكتة ليست عملاً سلبيّاً إنما وسيلة إيجابيّة لتقويم المستبد لذا كان حكام مصر ، على الأقل في التاريخ المعاصر ، يتابعون ويرصدون هذه النكت ويحاولون تغيير سياستهم التي جلبت عليهم سخرية الشعب وتنكيته .

فالرئيس جمال عبد الناصر كان يخشى النكتة لكنه يحرص على سماعها وكانت لديه وحدة في المخابرات، تُعنَى برصد النكات لمعرفة ما يفكر فيه المصريون ؛ والرئيس السادات كان لديه جهاز خاص لجمع النكات اليوميَّة التي يقولها الشارع المصري وذكر " حسن أبو باشا " وزير الداخليَّة في عهد الرئيس السادات : " إن السادات كان يهتم جداً بمعرفة النكات التي تطلق في عهده ". وكان مشهوداً بأنه يبدأ يومه بقراءة تقرير المخابرات عن النكت التي قيلت عليه وكان يسميها (نكات الصباح) .

فالنكتة كانت وسيلة من وسائل المجتمعات الحضاريَّة للترفيه والمرح غير أنها مع الزمن خرجت من براءتها لتكون سلاحاً آخر تستخدمه الشعوب وتشيعه المعارضة وتتولاه الألسن بخوف وخشية وسريَّة أحياناً وعلناً وبصرامة في أغلب الأحيان .

فالنكتة هي ملخص فكرة ، مكثَّفة إلى أقصى حدود التكثيف ، تطال الجميع بلا استثناء لاسيما الأنظمة الدكتاتوريَّة والمتسلطة ورموزها الحاكمة . ولم يسلم منها رجال السياسة ولا رجال الدين ولا رجال الفكر والثقافة .

والنكتة السياسيَّة تولد في المجتمعات كلما ضاقت مساحة التعبير وانتشرت السلطة البوليسيَّة وطوَّقت الحريات وضربت أطنابها في الحياة اليوميَّة للناس وقيَّدت حركة الرأي الآخر ، لذلك تُفرز النكتة بوصفها كاشفاً فورياً لضيق مساحة الحريَّة بطريقة الترميز والإيحاء إذا كانت السلطة السياسيَّة دكتاتوريَّة وقاسية تخاف من انتشار النكتة في الحاضنة الاجتماعيَّة والوسط الشعبي ، كما تنتشر النكتة الاجتماعيَّة نتيجة الحرمان وفقر الحال إذا كانت المجتمعات طبقيَّة فالأثرياء لا يسلمون منها عادة في ظلِّ الاحتقان الطبقي .

فليس النكتة عملاً سلبيّاً إنما نقد سياسي واجتماعي ووسيلة للتغير .

يقول " المنولوجست "حمادة سلطان : " من النكات التي ألقيتها في حفل أمام الرئيس السادات : مرة واحد بيلعب شطرنج.. العسكري رفض يتحرك إلا لما ياخد شلن . فضحك السادات وفوجئت بعد انتهاء فقرتي بالسيد ممدوح سالم (وزير الداخلية آنذاك) يطالبني بالتوجُّه فوراً للسيد الرئيس فتوجهت له وأنا مرعوب وتحدث معي ١٠ دقائق ثم وجدته يسألني عن خلفيَّة هذه النكتة التي قلتها فأجبته: "ياريس العساكر فقراء ولا يحصلون على رواتب كافية وأجورهم بسيطة " فنادى الرئيس على ممدوح سالم والمشير أحمد إسماعيل وقال لهما : " أبقوا زوِّدوا أجور العساكر " فقاموا بتغيير قانون الأجور في الجيش وبعدها بأيام ارتفعت أجور العساكر فأصبحتُ فخوراً أن نكتة قلتها تسببت في ذلك . (١)

يقول العقاد : " وقد اشتهرت " النكتة المصريَّة بين جيران مصر وعُرِفَ المصريون " بالتنكيت" في الزمن القديم كما عُرِفوا به في الزمن الحديث ، وليست

(١) وارد بدر سالم " فلسفة النكتة في ثقافات الشعوب " مجلة الشبكة العراقيَّة بتاريخ ١٤ /١١/ ٢٠١٣

اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال المستغربة في أمّة قديمة الحضارة عريقة الآداب منصرفة في أكثر الأحيان إلى السلم والمعيشة الوادعة ، وأخلق بهذه الخصال وحدها أن تكون ينبوعاً فيّاضاً للنكتة ولباقة التعبير في الجد والهزل على السواء ، فإذا أضيفت لها عبَر الأيام ونقائض التاريخ وأطوار الحوادث المتعاقبة ففي ذلك مدد الفكاهة لا ينضب ، وإغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها إلى التبسُّط والمزاح .

وتهكُّم المصريين كلُّه مصبوب على الجَلافة (غلظة الطبع) والغُفْل (السذاجة) فمثال الرجل الكامل عندهم هو اللَّبق اليقظ الذي يتجنَّب الخشونة ويفطن للخداع والمراوغة فلا يجوز عليه الحيلة . (١)

فالنكتة المصريَّة إذن تعبِّر عن سمات شعب مصر الحضاري تعبِّر عن اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة وخفة الظلّ لا تعبِّر عن جبن وضعف مذلَّة .

حتى عندما يطلق المصري النكتة في مواجهة حكام ظالم فإنها تعدُّ كما قلنا وسيلة إيجابيَّة تمهِّد للثورة لا تجهضها كما ظنَّ البعض ، والعقاد في لمحة ذكيَّة يقرن بين النكتة والتنسُّك المصريين فالأولى رسالة تحذيريَّة للمستبد والثانية عصيان مدني ضده .

يقول العقاد : " ويخيَّل إلينا أن النكتة المصريَّة والنُّسك المصري أخَوَان توأمان أو صنوان يتجاوران ، فالنفس المصريَّة التي أرهقتها الحضارة ودمثتها المؤانسة وصقلتها المعيشة المنتظمة التي تستغني عن ملاذ تسكن إليه كلما اشتدَّ عليها الجور وضاقت بها مفاسد الحياة العامة ، فإذا غلبت على المصري محبة المتعة والنعمة الرخيَّة فملاذه النكتة والفكاهة ، ويروِّح بها عن نفسه ويفرغ فيها جعبة ضميره . وإذا غلبت عليه الصرامة وقلَّة الصبر على الفساد جنح إلى النُّسك والزهادة وعمد إلى الرهبنة أو الدروشة كما فعل مرات كثيرات في عهود الديانتين المسيحيَّة والإسلاميَّة. وأما إذا سنحت فرصة التمرُّد والانتقاض فالثورة ملاذ لا يأباه صاحب متعة ولا صحاب صرامة . (٢)

---

(1) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٣٨، ٣٩ بتصرف .
(2) نفسه ص ٤١

المصري عاشق للجمال والفن الرفيع

المصري إنسان متحضِّر والحضارة لا بد أن تشبع جميع مكونات الإنسان وملكاته : روحيّاً وعقليّاً وقلبيّاً وإنسانيّاً وجسديّاً .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحيّاً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) وإنسانيّاً (مكارم في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسديّاً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابدَّ أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، محافظة على توازن الإنسان والكون ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة إلا في الحضارة المصريَّة القديمة والحضارة الإسلاميَّة الوسيطة . (١)

فكما أن الشعب المصري شعب مؤمن بالله عابد له مبدع للعلوم والمعارف كريم الأخلاق صحيح البدن فإنه عاشق للجمال في كل الفنون : إبداعاً وتذوقاً .

فالإنسان المصري يحب الزينة والمتعة والجمال .. يعيشه ويوفره لنفسه ما استطاع .. حتى " القلة " فيها نعناع أخضر .

حتى ماء الشرب فيه ورد .. فهو ماءُ ورد أو ماءٌ بالورد .

الإنسان المصري يحب الطرب والسماع .. من النعيم الطويل في الحضارة .

إنسان لطيف أنيس كالنبات .. خصيب كالوادي الأخضر .. إنسان ابن طبيعته ، والطبيعة المصريَّة لا تعرف الزلازل والبراكين والعواصف .. حتى الصحراء المصريَّة فيها وداعة تبدد الوحشة .

سرى لطف الطبيعة المصريَّة ورفقها إلى الإنسان المصري فكان عذباً ودوداً كريماً لأنه ابن خير يأتي المصريين غدَقاً ، وهم بما عندهم يُغدِقُون .

إن الحنو والتراحم في النفس المصريَّة يتبدى في الحديث رقَّة ، وفي الشعر المصري القديم دماثة وسلاسة ، وفي النمنمة المصريَّة الإسلاميَّة دقَّة ، وفي الأسطورة المصريَّة وفاء وعطاء ، فنجد فيها " القِرْبَة " التي يسقي منها صاحبها ولا تفرغ كما تحكي لنا جداتنا .

---

(١) " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف ص ٣٠٩ ، ٣١٠ مكتبة مدبولي .

وابن البلد هذا يسمى (الذوق) وأحياناً يسمونه (ابن الذوق) ، وقد عرّف قاسم أمين الذوق بأنه الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ، ويتجنب ما لا يناسبه ، والمصريون يعتقدون أن مصر أمُّ الدنيا وأم الذوق أيضاً . (١)

النور .. السماء .. الماء .. الحجر .

هذه الأربعة هي عناصر الحضارة المصريَّة وهي في الوقت نفسه عناصر الشخصيَّة المصريَّة والفلسفة المصريَّة مع ولع بالرائع ، وتعلّق بالأعلى ، واستمراء للعمل الجميل يمري عليها فترتفع الشوامخ من أعمالها معابد ومساجد وفنوناً وعلوماً وحكمة .

تعلّمت مصر من الحجر الصبر ، ومن النور البهجة ، ومن الماء الرّقة والعذوبة، ومن السماء الرحمة والسعة .

تقطع مصر الحجر فينتفي عنها الضعف ويتأكّد العزم ، وتولد القيمة .

وحين المولد ينبثق الحنان . وتحتضن مصر العمل الفني بالزينة والتحلية والتنمية في لمس يقارب الهمس وهو على رقّته توثيق وتحقيق .

وتترعه بالراح والراحة فيفيض الري على الحنايا والمنحنيات تبدو معه الأعمدة في البنيان كأنها سيقان حيَّة مملوءة بالعصارة النباتيَّة .

ويخضرُّ كل شيء في وادي النبات ، حتى الحجر وكأنه نوع جديد من الشجر.

وحين تشرع مصر في التقسيم يسري التنغيم فتغنّي القباب والإيوانات بالنقوش والنمنمة ، ويحلو الشدو على الترديد والتجويد .

ويتسع الصحن في المسجد كالبهو في المعبد في دعوة للنور الخارجي أن يغمر المكان ، ونداء للنور الداخلي أن يعمر النفس ، فيشف الحس وتتوهج الروح .

وتشتدُّ الألفة في مصر بين فنون العمارة والنحت والتصوير والحرف من نجارة وسبك وتزجيج كما تتواصل في الحضارة المصريَّة لعصور ، ويتوادّ في المجتمع المصري الجيران ويلتقي الأحباب .

([1]) د. نعمات أحمد فؤاد " شخصيَّة مصر " الهيئة المصريَّة العامة للكتاب [illegible]

وتقوم في مصر أقدم مَدَنيَّة في الدنيا (طيبة) لتجمع البساطة من ثـراء الـنفس المصريَّة .

وإلى بساطة الثرى السري ، زهد الغني ، وقوة الأنس بالحق ، وطمأنينة الـنفس على الطريق ، وثقة ليس من الغرور ولكن من الإيمان يثور النور .

في طيبة امتناع عن السهل من وثوق القدرة وعشق للصعب من قدرة اليقين .(١)

ولا يفوتنا أن نقول إن المصري إذا سرَّ فإنما يملك الـسرور حـسَّه ولا يغمـر نفسه، فهو لا يألف السرور الصامت القرير ولا يعـرف إلا التهليـل والابتهـاج أو السكون والخواء ، ولا تسرُّ نفسه وجسمه ساكن ولا يسكن جسمه وأمامـه محـرك للسرور أو مذكر به . (٢)

الخطوط العامة للشخصيَّة المصريَّة

عرضنا الخطوط العامة لخصائص " الشخصيَّة المصرية " كما تُرَى بعين الواقع لا كما تُرَى بعين الغَرَض والخُرافة ، وهي خصائص إنسانيَّة تقترن بالقوة فنعـد – نحن المصريين – من أقوم وأفضل ما عرفت البشريَّة من أخلاق الشعوب ، ويمكن إيجاز الملامح الرئيسيَّة للشخصيَّة المصريَّة في الآتي :

١- حب المصريين التديُّن الوسطي التعدُّدي المتسامح الوجداني الإيجابي ؛ نتيجـة لإيمانهم أن ما هم فيه من نعم ، وما حقَّقوه من منجزات إنما كان بـسبب اتبـاعهم تعاليم السماء ؛ فليس أقل أن يعبدوا الإله الذي منَّ عليهم بهذا البلد الأمين ، والمناخ المعتدل ، والنيل المبارك ، والأنبياء المقدَّسين ، وعلَّمهم ما لم يكون يعلمون وكـان فضله عليهم عظيماً .

٢- القدرة على استيعاب الثقافة الوافدة إليها نتيجة لقوَّة شخصيتها فإنهـا تهـضم كلَّ الوافد إليها وتصبغه بصبغتها المصريَّة ؛ فسرعان ما يتزي بزيها ويتدين بدينها ويمارس عاداتها وتقاليدها .

٣- الصبر والقدرة على التحمُّل والجَلَد إلا أن يهان دينه أو تمـس كرامتـه أو تنهب ثروته .

---

(1) د. نعمات أحمد فؤاد " شخصيَّة مصر " مرجع سابق ص ٤٥ – ٤٧ بتصرف .
(2) العقاد " سعد زغلول " دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٣٠

٤- الإبداع والابتكار ؛ فقد تميَّز المصري بقدرته الفريدة على الإبداع في كلِّ مجالات الحياة وفي شتى العلوم والفنون فهو أوّل من أقام حضارة وحكومة مركزية وقانون وكتب بالقلم على الحجر والبردي ورسم ولوّن ، ومارس الألعاب الرياضيَّة، وغنّى وعزف على الآلات الموسيقيَّة ، وأنشأ أصول كل العلوم التي عرفها البشر،وثار ضد الظلم ، كل هذا على غير مثال سابق .

المصري لا يبدع إلا إذا كان حراً غير مستعبد أو مقهور أو محتل لذا نجده عند وقوعه تحت احتلال يكسل ويخمل ويترك العمل ويتنسّك فلا يقبل أن يكون خيره لغيره ، ولا يكافئ المحتل بحسن العمل له بل يعاقب المحتل بترك عمله وهجران أرضه وتوفير جهده وهو العصيان المدني كما فعل مع الرومان وغيرهم .

٥- شخصية متفائلة مرحة ، تشيع حالة من البهجة والفرح في أي مكان تتواجد فيه وفي أي ظروف تمر بها ، فالمصري معروف بنكاته وسخريته وظُرفه ؛ وهذا مما يخفف عنه العناء والتعب والهم والحزن والنوازل والخطوب ويشعره بالرضا في كل حال .

هذه بعض سماتنا التي تميَّزنا عن غيرنا ، وتجعل المصري نسيج وحده ليس فرعونيّاً ولا عربيّاً ولا أورمتوسيطيّاً ولا أيَّة جنسيَّة أخرى غير جنسيَّة المصري القديم صانع أوّل وأعظم حضارة عرفها البشر وسجّلها التاريخ .

وهذه السمات قديمة متجددة حرص المصري على بقائها واستمرارها

ونحن إذ نعتز بالحضارة المصريَّة الأم وبالقيم المصريَّة الأصيلة لا يجب أن نظلَّ أسرى للحضارة المصريَّة الماديَّة ؛ فيجب أن نتعلَّم كلَّ جديد ونأخذ في أسباب العلم والتكنولوجيا حتى نعيد مجدنا التليد .

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- ميزان الحق (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) دار زهور المعرفة والبركة

٣- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٤- المدارس السلفية ، جدليَّة النقل والعقل والمصلحة . دار زهور المعرفة والبركة

سلسلة كتب دروس سياسية من التجربة الناصرية

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو "" "" "" "" ""

٣- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي "" "" "" "" "" ""

٤- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي "" "" "" "" "" "" ""

٥- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء "" "" "" "" "" ""

٦- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية "" "" "" "" ""

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الاستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) "" "" "" "" ""

٤- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن "" "" "" "" ""

٥- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة "" "" "" ""

٦-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية "" "" "" ""

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ

زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . "" "" "" ""

كتب عن الحضارة المصريّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا فراعنة ، فمن نكون ؟ زهور المعرفة والبركة

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قـصيرة) " "" "" ""

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) "" "" "" ""

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) "" "" "" ""

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " "

كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة في العالم

(١٦) كتاباً جامعة هارفارد رقم ١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١١) كتاباً جامعة استنافورد رقم ٣ في الترتيب العالمي للجامعات .

(٥) كتب جامعة كاليفورنيا رقم ٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٠) كتب جامعة كولومبيا رقم ٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٠) كتب جامعة برينستون رقم ٨ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة أكسفورد رقم ١٠ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١١) كتب جامعة ييل رقم ١١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة بنسلفانيا رقم ١٥ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٩) كتب جامعة واشنطن رقم ١٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة ميشيجان رقم ٢١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة كيوتو رقم ٢٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة تورنتو رقم ٢٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٢) كتابان جامعة إلينوي رقم ٢٥ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٩) كتاباً جامعة كورنيل رقم ٢٩ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١١) كتباً جامعة دوكي رقم ٣٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة تكساس رقم ٣٦ في الترتيب العالمي للجامعات.

هذا بخلاف كتب المؤلف العديدة الموجودة فـي مكتبـات الجامعـات الأجنبيـة الأخرى غير هذه الجامعات .

كتب للمؤلف في مكتبات الجامعات العربية

(١) كتاب المكتبة المركزية جامعة القاهرة . مصر

(٢) كتابان جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الملك فهد – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الإمام محمد بن سعود – المملكة العربية السعودية

(١) كتاب جامعة الحسين بن طلال– الأردن.

(١) كتاب جامعة اليرموك – الأردن .

(١) كتاب جامعة مؤتة – الأردن.

(١) كتاب الجامعة الأردنية للعلوم والتكنولوجيا.

(١) كتاب جامعة تكريت – العراق .

(١) كتاب جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان.

(١) كتاب جامعة الإمارات – الإمارات العربية المتحدة.

(٢) كتابان جامعة النجاح – فلسطين.

(١) كتاب جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية.

(١) كتاب كلية دار العلوم – جمهورية مصر العربية .

(٢) كتابان كلية التربية – جامعة المنصورة – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الآداب – جامعة بني سويف – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الزراعة – جامعة الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

(١) كتاب المكتبة المركزية - جامعة بنها - جمهورية مصر العربية

كتب للمؤلف في المكتبات العالمية والعربية

(١٢) كتاباً في مكتبة الكونجرس الأمريكية.

(٣) كتاب في مكتبة الإسكندرية.

(٣) كتب في مكتبات مبارك العامة.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الشباب الإماراتية.

(١) كتاب في مكتبة المجلس الوطني اليمني.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الخارجية أبو ظبي.

(٢) كتاب في مكتبة مسجد البيرة الفلسطيني.

-كتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية ، والأجنبية والمواقع الالكترونية.

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه " متى يثور لمصريون"

التليفون المحمول 01226406489 :

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الفصل الثاني : لسنا فراعنة ، فمن هو فرعون ؟

الموضـــــــــوع الصفحة

الفصل الثالث : لسنا محتلّين ، فماذا يكون الفتح العربي الإسلامي ؟

الفصل الرابع : لسنا أورمتوسطين ، فماذا تكون الأورمتوسطية ؟

الفصل الخامس : من نحـــــــن ؟

الموضـــــــوع الصفحة